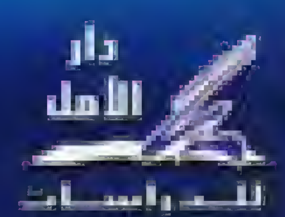
بوزياني الدراجي

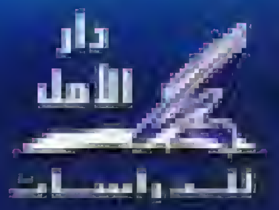
أدباء وشعراء من تلمسان

الجزء الأول

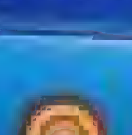














أدباء وشعراء من تلمسان

بوزياني الدراجي

الجزء الأول

(نسخة منقحة)





صـــدر هـــذا الكتـــاب بدعـــم مـــن وزارة الثقافـــة في إطـــار الصنـــدوق الوطـــني لترقيـــة الفنـــون والآداب

Cet ouvrage a été publié avec le soutien du Ministère de la Culture, dans le cadre du Fonds National pour la Promotion et le Développement des Arts et des Lettres.

دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع

شارع بلخوني يوسف السحاولة (16305) الجزائر

هاتف وفاكس: 0 21 35 78 29

الإيداع القانوني: 1193 – 2011

ردمك: 2 – 46 – 858 – 9961 – 978 ISBN



بسم الله الرّحمن الرّحيم

الإهــدا

أهــدي هــذا الكتــاب الــذي اشتمــل عــلى تراجــم نخبــة رائعــة مــن أدبــاء وشعــراء تلمســان، وضــمّ بيــن صفحاتــه نصوصــاً شعريــة ونثريــة في قمــة الجمــال.. أهديــه: إلى أبنــائي شبــاب الجزائــر المتطلــع باحتــرام إلى ماضيــه الذهــبي، والناهــض بمستقبلــه المشــرق في مثابــرة وإصــرار. ولعــل إهــدائي لهــم هــذا الكتــاب؛ يحفزهــم عــلى التقــرب مــن تــراث موطنهــم الغــني بالإبــداع الجميــل، والإنتــاج الأدبي الرفيــع؛ ذلــك الإنتــاج؛ الــذي انتشــر في ربــوع الأرض شرقــاً وغربــاً؛ فملاءهــا سحــراً وعطــراً وحبــوراً.

بوزيــاني الــدراجي

مقدمة

تحتل **تلمسان**؛ مكانة مرموقة بين مدن المغرب الأوسط كلها؛ إذ تعد أحد المراكز المشعة بالعلم والأدب والفنون؛ منذ عهود موغلة في القدم. أضف إلى ذلك؛ ما حباها الله به من جمال الطبيعة المشرقة، وعذوبة الماء الغزير، وطيب الغذاء الوفير، وصفاء الهواء العليل.

ونظراً للمكانة الحيوية النابضة لهذه المدينة، وموقعها الحصين، وثراء محيطها الجغرافي؛ فقد منحها الله شرف السيادة والسُّمُو؛ حيث غدت منذ أقدم العصور سدّة للحكم، وقلعة حصينة للأمراء والملوك. وبحكم هذا كله؛ أضحت **تلمسان** مركز إشعاع للعلوم والآداب والفنون؛ تشع بأنوارها على البلاد المغربية كلها.

وعليه؛ فقد نما وتألق ـ في هذه المدينة العريقة ـ جمع غفير من العلماء والفقهاء والفلاسفة والشعراء والمتصوفين؛ الذين نشروا معارفهم ومآثرهم في ربوع الأرض كافة؛ غرباً وشرقاً وشمالاً وجنوباً.

وبالمقابل؛ فقد جذبت **تلمسان** إليها واستقطبت نخبة جليلة من علماء المغرب كله والأندلس؛ أين وجدوا بيئة خصبة مستنيرة هيَّأت لهم الظروف المواتية لنشر علومهم، وبعث إبداعاتهم.

ومن هنا؛ رُوعِيَ ـ في إعداد هذا الكتاب ـ اتِّباع منهج؛ يلتزم بأن يشتمل على كل ما تم جمعه من عيِّنات تخص أدباء **تلمسان** وشعراءها؛ الذين أثمروا وأبدعوا ـ خلال القرون ما بين: السادس منها والعاشر الهجري ـ سواء كانوا من سكانها الأصليين المقيمين فيها، أو من أهلها المهاجرين عنها، أو من الوافدين إليها والمستقرين بها. كما يدخل في الاهتمام ـ هنا أيضاً ـ كل من أبدع وكتب في محيط وأحواز هذه المدينة الغراء؛ ولا يقتصر الأمر على حَيِّز ضيق يُحَدُّ بأسوار المدينة المذكورة.

اتُبِـعَ هـذا المسلـك؛ لأن تلـك العصـور الأولى؛ تختلـف عمـا يُعْـرَف الآن؛ مـن نظـرة ضيقـة للوطـن؛ ومـا يفهـم مـن أحـوال مستجـدة؛ كالجنسيـة القطريـة، والانتمـاء إلى الوطـن المحـدد بالحـدود الحاليـة. لـذا فقـد كـان أهـل ديـار الاسـلام كلهـم مـن جنسيـة واحـدة؛ جنسيـة المسلميـن.

وعليـه؛ فكـل الذيـن ينتقلـون مـن مسقـط الـرأس؛ إلى موضـع آخـر؛ يختارونـه كي يكـون سكنـاً لهـم، ومستقرهـم، وموضـع عيشهـم؛ يمكـن اعتبـاره موطنـاً ينتسبـون إليـه. وهـذا لا يمنـع انتسابهـم أيضـاً إلى البلـد الـذي ولـدوا فيـه. فذلـك يثـري عمليـة التنويـه بصاحـب الترجمـة والتذكيـر بـه في حـلات متعـددة. وهـو مـا يفسـر انتسـاب كثيـر مـن الأعـلام والعلمـاء إلى أكثـر مـن بلـد واحـد في المؤلفـات الحديثـة. وهـذا ليـس عيبـاً؛ بـل هـو فعـل محمـود.

هـذا؛ وقـد اتُبِـعَ ـ في هـذا المجـال ـ طريقـاً؛ يُحْـرَصُ مـن خلالـه عـلى ذكرهـم بالتـوالي؛ حسـب الترتيـب الزمـني العـام (القـرن الهجـري)؛ وتبعـاً لحـروف المعجـم؛ ضمـن كـل فتـرة زمنيـة (قـرن) عـلى حـدة. لهـذا؛ سيتـم تقسيـم أبـواب هـذا الكتـاب زمنيـاً؛

الأقدم فالأحدث؛ دون سرد الموضوع؛ طبقاً لتاريخ الوفاة أو الميلاد؛ أو بحروف المعجم بشكل شامل.

وقد خُصِّصَ الجزء الأول لدراسة تاريخية؛ تناولت تاريخ تلمسان والتعريف بها؛ منذ نشأتها على يد الرومان؛ ثم العصر الوندالي، والعصر البيزنطي؛ وانتهاء بالعصر الإسلامي؛ أين أضحت هذه المدينة مركز إشعاع سياسي وعلمي. وغدت بعدها عاصمة لدولة سادت على المغرب الأوسط كله.

أما الأجزاء الأخرى؛ فقد تضمنت تراجم أدباء ولشعراء تلمسان؛ بشكل موسع بعض الشيء؛ حباً في المزيد من الفائدة، ورغبة في تمكين القراء من معرفة أكبر قدر من المعلومات عنهم؛ مع الاستفادة من أبداعاتهم الأدبية والشعرية التي سَيُنْشَر كل ما عثر منها؛ مصحَّحَة ومحققة. وبذلك سيضحى هذا الكتاب ـ بحول الله ـ بمثابة الموسوعة التي ستشمل جلّ ما عرف عن أدباء وشعراء تلمسان عبر العصور المحددة له.

أما بقية العلماء؛ والمتصوفة ـ ممن تعذر علينا العثور على ما أبدعوه من شعر، أو نصوص أدبية ـ فقد تمت الإشارة إليهم في الجزء الأول؛

ضمن الفترات الزمنية؛ التي حكمت فيها أهم الدول والإمارات تلمسان. خاصة وأن جُلَّ علماء ومتصوفي تلمسان؛ كانوا في الأصل من الأدباء والشعراء. لذا فقد تحتم التعرض لهم، والإشارة إليهم دون التقيد بعرض نصوصٍ لإبداعاتهم الأدبية والشعرية؛ إذ تُرِكَ هذا الأمر للباحثين من الشباب؛ لعلهم يحظون بما وقفنا عنده. والله هو الموفق والمعين.

بوزياني الدراجي
الجزائر في 2011/11/2

***

نقد المصادر والمراجع

على الرغم من شح المعلومات وصعوبة الوصول إليها؛ فقد حظي مؤلف هذا الكتاب بما توفر لديه من مصادر ومراجع تاريخية وأدبية تعالج مواضيع تخص البلدان المغربية كلها والأندلس؛ فاتضح أن تلك المصادر والمراجع لا تخلوا من فوائد جليلة. ولهذا نذكرها تباعاً أهمها؛ مرتبة حسب مدى تناولها للموضوع المطلوب:

ـ **1)ـ كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد** لأبي زكرياء يحيى بن خلدون (ت: 780هـ/1378م). إذ يتميز هذا المصدر ـ عن غيره من المصادر بالدقة؛ خاصة الجزء الثاني منه؛ لأن مؤلفه كان كاتباً للسرّ؛ في بلاط السلطان **أبي حمو موسى الثاني**؛ فاعتبر ـ عندئذ ـ شاهد عيان، ومعايشاً لجلّ الأحداث التاريخية التي ورد ذكرها في هذا الجزء بالذات من الكتاب.

صنف **يحيى بن خلدون** كتابه في جزأين اثنين: عالج في أولهما أصول قبيل **بني عبد الواد** وأخبارهم ومواطنهم والكيفية التي وصل بها الملك إليهم؛ من خلال تدرجهم في الصعود من مرتبة رئاسة القبيلة إلى مرتبة أسمى؛ وهي سدة الملك والسلطان. وبعدها تولى صاحب هذا الكتاب الحديث – ضمن أبواب مختصرة – عن أخبار سلاطين الدولة؛ بدءاً بأول الملوك الزيانيين ومؤسس دولتهم **يَغمْرَاسَنْ بن زيان**؛ وانتهاء بالعهد الذي تولى فيه الأخوان: **أبي سعيد عثمان وأبي ثابت الزعيم؛ ابني عبد الرحمان بن يحيى بن يَغَمْرَاسَنْ بن زيان** شئون الدولة. إذ سقطت في وقتهما الدولة الزيانية للمرة الثانية؛ وبذلك انقطع بهما حكم الأسرة الثانية من بني زيان. حقق هذا الجزء – في بداية الأمر – المستشرق الفرنسي **ألفرد بل** Bel, A. O. (1873 – 1945م)؛ ونشره **بالجزائر** سنة 1321هـ/1903م. ثم أعاد **عبد الحميد حاجيات** تحقيق هذا الجزء **بالجزائر** سنة 1400هـ/19801م. وذلك برعاية المكتبة الوطنية الجزائرية. وقد اشتمل الجزء الأول من كتاب بغية الرواد على معلومات جليلة؛ خصصت **لتلمسان** ومحيطها الجغرافي وعلمائها وحكمائها والمتصوفين

بها. وبذلك يعتبر كتاب **يحيى بن خلدون** المصدر الأساس في هذا الموضوع؛ إذ نقل عليه كثيرون ممن اعتنوا بموضع **تلمسان** وعلمائها.

أما **الجزء الثاني** فهو خاص بالفترة التي حكمت فيها الأسرة الزيانية الثالثة؛ ممثلة بالسلطان **أبي حمو موسى (الثاني) ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان**. قام بتحقيق هذا الجزء ـ أيضاً في بداية الأمر ـ **ألفرد بل**؛ الذي طبع الجزأين بمطبعة **فونطانة بالجزائر**: أين أنجز الجزء الأول سنة 1321هـ/1903م. بينما تم طبع الجزء الثاني سنة 1328هـ/1910م بالمطبعة نفسها. وقد أعاد نشر الجزء الثاني ـ بعد التعليق عليه والتقديم له ـ **بوزياني الدراجي**؛ ضمن منشورات **دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع**؛ بالجزائر سنة 2007م؛ في إطار سنة **الجزائر** للثقافة العربية. وقد اشتمل الجزء الثاني من بغية الرواد ـ إلى جانب موضوع التاريخ السياسي والعسكري للفترة التي حكم فيها **أبو حمو موسى الثاني ابن يوسف** ـ على نصوص في غاية الأهمية لأدباء وشعراء عاصروا هذه الفترة. بالإضافة إلى ما أبدعه هذا السلطان الأديب والشاعر المجيد من شعر

ونشر. كما تضمن الكتاب أيضاً معلومات مفيدة تخص الحياة الثقافية في **تلمسان**: الفنية منها والعمرانية؛ ثم الأدبية والعلمية عموماً. لذا فقد وجب التنويه بما قدمه كتاب بغية الرواد من فائدة معتبرة.

ـ 2)ـ كتاب زهر البستان في دولة بني زيان، لمؤلف مجهول الهوية. وهو مخطوط تم تصويره على ((ميكرو فيلم))؛ نقلا عن إحدى المكتبات البريطانية **بمانشيستر**. **The John rylands University library of Manchester** (وهذه النسخة المخطوطة مسجلة في تلك المكتبة تحت رقم **MS 283، (796)**.

وقد كان لمؤلف هذا الكتاب شرف تحقيق **زهر البستان في دولة بني زيان**؛ في انتظار نشره عمّا قريب بحول الله. علماً بأن **زهر البستان** يتألف أساساً من ثلاثة أجزاء؛ تم العثور ـ حتى الآن ـ على الجزء الثاني فقط؛ بينما تعذر العثور على الجزأين: الأول والثالث. ويستدل على أنهما كانا موجودين فعلاً؛ بما ذكره صاحب الكتاب نفسه في الجزء الثاني المتوفر حالياً؛ حيث أشار في بداية الجزء الثاني إلى الجزء الأول منه؛ كما أشار كذلك في نهاية هذا الجزء إلى الجزء الثالث. ويبدو؛ أن

مؤلف **كتاب زهر البستان في دولة بني زيان** كان من معاصري السلطان **أبي حمو الثاني ابن يوسف**. وبذلك؛ يحتل هذا المصدر الأهمية نفسها التي اختص بها **كتاب بغية الرواد**. غير أن فقدان الجزء الأول والجزء الثالث يجرده من مزايا عديدة؛ إذ ينحصر موضوعه ضمن فترة زمنية محددة بخمس سنوات من عمر هذه الدولة (وبالتحديد خلال فترة قصيرة من عهد **أبي حمو الثاني**). وهو ما ثبت في ذلك الجزء؛ الذي تبدأ أحداثه بسنة 760هـ/1358م. وتنتهي بسنة 765هـ/1363م. على أن كتاب **زهر البستان** لا يخلو من فوائد جمة؛ على الرغم من صغر الفترة الزمنية التي تناول أحداثها؛ إذ شُحِن بتفاصيل هامة؛ تتعلق بالسلطان **أبي حمو موسى الثاني**، وبلاطه الزاخر بالنشاط والحيوية. من ذلك؛ ما تضمنه الكتاب من شواهد، ومواضيع أدبية، وأشعار للسلطان **أبي حمو**، وبعض الأدباء والشعراء المعاصرين له. وواضح أن مؤلف **زهر البستان** كان من بين الذين خدموا في بلاط السلطان **أبي حمو**؛ على غرار كُتّاب آخرين مثل: **يحيى بن خلدون** وغيره. ولكنه يبدو أمام هذا الأخير محدود الحصيلة، وشحيح الذخيرة؛ كما أن أسلوبه يميل إلى

أساليب الرواة في عرض الأحداث. المهم أن هذا الكتاب ـ وإن فقدت أجزاؤه الأخرى ـ قد احتوى على شواهد ونصوص أدبية وشعرية هامة؛ بل ثمة نصوص لم يذكرها صاحب بغية الرواد. بالإضافة إلى أنه اهتم بالتفصيل الصغيرة؛ التي تجاهلها يحيى ابن خلدون. ويستشف من خلال سرد صاحب **زهر البستان** للأحداث؛ أنه سبق **يحيى بن خلدون** في التواجد ببلاط **أبي حمو**؛ لأنه أورد في كتابه خبرَ قدوم **يحيى بن خلدون** إلى **تلمسان**؛ بصفته سفيراً لأمير **بجاية**. وقد حدث هذا ـ بالطبع ـ قبل أن يلتحق **يحيى** بالبلاط **الزياني**. أما ناسخ هذه النسخة من مخطوط زهر البستان؛ فيُدْعَى: **الحبيب بن يخلف بن جلول بن العيد الفرادي**؛ المولود في **غريس** بنواحي **معسكر** الحالية. قال إنه فرغ من نسخه صبيحة يوم الجمعة؛ الخامس عشر من شهر المحرم، في غرة عام 1235هـ؛ لصالح **مسلم بن عبد القادر خوجة**؛ ثم لمن شاء الله بعده؛ هبة أو شراء. وهكذا؛ فإن أجزاء كتاب **زهر البستان في دولة بني زيان** الأخرى ضاعت؛ كما ضاعت كتب

أخـــرى تعالـــج الموضـــوع نفســـه. ولعــل تتبــع آثــار الناســـخ المذكـــور، ومـــن نســـخ لـــه؛ يـــأتي بفائـــدة.

والجديــر بالذكــر هنــا؛ أن بعــض الكتـــاب والعلمـــاء سبـــق أن ألفـــوا كتبـــاً عـــن دولـــة **بـــني زيـــان**؛ منهـــم عـــلى سبيـــل المثـــال الفقيـــه القـــاضي **سعيـــد العقبـــاني**؛ في تاريخـــه عـــن هـــذه الدولـــة. ولكنـــه ضـــاع واندثـــر؛ وقـــد ذكـــره الرحالـــة والمـــؤرخ المغـــربي **أبـــو القاســـم الزيـــاني** في كتابـــه "الترجمـــة الكبـــرى في أخبـــار المعمـــور بـــراً وبحـــراً". إذ يقـــول أنـــه اطلـــع عـــلى كتـــاب **العقبـــاني** ـــ مـــع غيـــره مـــن الكتـــب ـــ حينمـــا زار ضريـــح الصـــوفي الشهيـــر **أبي مديـــن شعيـــب**.

ـــ 3)ـــ كتـــاب واسطـــة السلـــوك في سياســـة الملـــوك؛ للسلطـــان **أبي حمـــو مـــوسى (الثـــاني) ابـــن يوســـف** (723هـــ/1323م ـــ 791هـــ/1388م). وهـــو كتـــاب تربـــوي أدبي سيـــاسي؛ ألفـــه هـــذا السلطـــان؛ في شكـــل وصايـــا أخلاقيـــة، وسياسيـــة، وعسكريـــة؛ موجهـــة إلى ولي عهـــده. حيـــث اقتبـــس ـــ بتصـــرف ـــ بعـــض فقراتـــه مـــن كتـــاب ((**ســـراج الملـــوك**)) **للطرطـــوشي**، وكتـــاب ((**العقـــد الفريـــد**)) **لابـــن عبـــد ربـــه**، وكتـــاب ((**المنهـــج المسلـــوك في سياســـة الملـــوك**)) **لعبـــد الرحمـــن بـــن عبـــد اللـــه**، وكتـــاب ((**سلـــوان المطـــاع في عـــدوان الاتبـــاع**)) **لمحمـــد بـــن ظفـــر**

المالكي.[1] أما بقية فصول كتابه؛ فهي عبارة عن بعض الآراء السياسية، والنصائح العسكرية؛ التي تعبر عن أفكار السلطان الزياني الخاصة؛ ورؤيته لشئون الحكم والسياسة، ورأيه في الشئون العسكرية والتكتيك الحربي، بالإضافة إلى الشئون المالية، والإدارية للدولة. أضف إلى كل ذلك؛ أن هذا المصدر؛ قد اشتمل على عدد لا بأس به من القصائد التي نظمها هذا السلطان. ومن خلال ذلك كله؛ يتجلى الأسلوب الأدبي الجليل للسلطان **أبي حمو الثاني**، ومكانته العلمية الرفيعة. وعليه؛ فكتاب **واسطة السلوك**؛ له مكانة خاصة هنا؛ لأنه يقدم ــ بصدق ودقة ــ صورة واضحة للمكانة العلمية والأدبية التي يتحلى بها السلطان **أبو حمو موسى الثاني**.

وقد تم الاعتماد على نسختين من هذا المصدر: أحدهما مخطوطة، والأخرى مطبوعة. فالأولى هي النسخة المخطوطة التابعة للمكتبة الوطنية الجزائرية؛ المصنفة تحت رقم 1374، أما النسخة الثانية؛ فهي مطبوعة بمطبعة الدولة التونسية؛ بتونس

---

[1] **أنظر تفاصيل ذلك في مقالة ((النظرية السياسية للسلطان أبي حمو الزياني الثاني))؛ للدكتورة وداد القاضي، المنشورة بمجلة الأصالة؛ عدد: 27؛ من السنة الرابعة.**

سنة 1279هـ/1862م. والاعتماد هنا يتم أولاً على النسخة المخطوطة؛ لأنها أكمل وأوفى؛ بينما تستغل النسخة المطبوعة في المقارنة والتصحيح بقدر الإمكان.

ـ 4)ـ كتاب نظم الدّر والعقيان في بيان شرف بني زيان وذكر ملوكهم الأعيان؛ لأبي عبد الله محمد ابن عبد الله بن عبد الجليل التنسي (ت: 899 هـ/1493م). كان **التنسي** كاتباً لدى السلطان الزياني **محمد المتوكل بن محمد أبي زيان بن أبي ثابت بن أبي تاشفين بن أبي حمو موسى الثاني**؛ الذي تولى الحكم في تلمسان (من سنة 866هـ/1461م إلى سنة 873هـ/1468م). وهو من الكتاب الأدباء؛ ذوي الباع الطويل في صناعة الإنشاء والتأليف في المجال الأدبي. أكمل **محمد التنسي** ما وقف عنده الأخوان: **عبد الرحمن بن خلدون ويحيى بن خلدون.** لذا فقد عومل هذا المصدر بالمعاملة نفسها المخصصة لكتاب بغية الرواد. وقد صنف **التنسي** كتابه هذا ضمن خمسة أقسام؛ بُوِّب كل قسم منها إلى عدة أبواب. غير أن الذي له علاقة بالموضوع هنا؛ لا يتعدَّى الباب السابع من القسم الأول. وما تبقى فهو تأليف أدبي خارج عن نطاق الاهتمام في هذا المجال. وعلى هذا؛ فقد اقتصر العمل على الباب السابع

المذكور؛ وبالتحديد على نسخة منه مصورة في (ميكرو فيلم)؛ منقولة عن المخطوط المغربي المحفوظ بالخزانة العامة بالرباط؛ تحت رقم: 444[1]. وقد قام محمود بوعياد بتحقيق هذا الباب؛ ونشره فيما بعد برعاية المكتبة الوطنية الجزائرية؛ تحت عنوان: ((تاريخ **بني زيان** ملوك **تلمسان**))؛ وذلك سنة (1405هـ/1985م).

ومن مميزات هذا المصدر؛ أنه يضيف معلومات جديدة بالنسبة لما ورد في كتب: **العبر، وبغية الرواد، وزهر البستان، وواسطة السلوك**. إذ أنه يكمل ما انتهى عنده مؤلفو تلك المصادر. باشتماله على نصوص أدبية عديدة؛ منها قصائد شعرية لشعراء في البلاط الزياني؛ بالإضافة إلى قصائد نظمها بعض سلاطين الدولة.

---

[1] تفضل المرحوم السيد محمود بو عياد ـ مشكورا ـ عندما كان مديرا للمكتبة الوطنية الجزائرية بإعطائي نسخة من "الميكرو فيلم" المذكور.

ـ 5)ـ كتاب البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان؛ لأبي عبد الله محمد بن أحمد الشريف المليتني المديوني التلمساني؛ الملقب **بابن مريم**؛ (كان حياً سنة 1025هـ/1611م)؛ حقق هذا الكتاب **محمد بن أبي شنب**؛ وطبعه بالمطبعة الثعالبية **بالجزائر** سنة 1326هـ/1908م. وفي هذا الكتاب؛ جمع مؤلفه معلومات هامة عن علماء **تلمسان**، ورجال الفكر فيها. واستقى بعض أخبارهم من كتاب **بغية الرواد**. والفائدة المجناة منه؛ تتلخص في تقصي أخبار بعض الأدباء والشعراء التلمسانيين.

ـ 6)ـ كتاب الجواهر الحسان في نظم أولياء الزمان؛ لأبي مدين شعيب وآخرين؛ تحقيق عبد الحميد حاجيات، ونشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر، سنة 1974م. يشتمل هذا الكتاب على قصائد وأزجال نظمها مجموعة من المتصوفين؛ بما فيهم أبو مدين شعيب نفسه. لهذا فالكتاب المذكور قيم جداً ومفيد.

ـ 7)ـ كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر؛ لأبى زيد عبد الرحمن بن خلدون (732هـ/1331م ـ 808 هـ/1405م). والطبعة المعتمدة

هنا؛ هي التي نشرت بعناية دار الكتاب اللبناني؛ **ببيروت** 1967 ــ 1968 ــ 1977م. وينحصر ما تم استغلاله من هذا الكتاب الضخم؛ ضمن مجلدين هما: السادس والسابع. وأهم ما يستفاد من كتاب العبر في هذا الباب هو ما ورد في المجلدين: السادس والسابع من أخبار عن تلمسان، وعن الدول التي استولت عليها؛ بالإضافة إلى ما ورد فيه عن حياة **عبد الرحمن بن خلدون** ورحلاته؛ ثم حديثه عمن تعرف عليهم من علماء **تلمسان**؛ بالإضافة إلى القصيدة التي نظمها السلطان الزياني **أبو زيان محمد بن أبي حمو موسى الثاني**، وأرفقها مع هدية إلى السلطان **برقوق** بالقاهرة. وقد نقل **محمد بن تاويت الطنجي** هذا الباب الأخير كله؛ واجتثه عن سياقه في المجلد السابع؛ ثم نشره بعد تحقيقه تحت عنوان **((التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً))**. وجملة القول؛ فقد تمت الاستفادة هنا بالذات من المجلد السابع؛ ومما نشره **محمد بن تاويت**؛ خاصة وأن **عبد الرحمن بن خلدون** استكمل ما انقطع بعد ممات أخيه **يحيى**.

ـ 8)ـ كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً؛ لأبي زيد عبد الرحمن بن خلدون. حقق هذا الكتاب الأستاذ **محمد بن تاويت الطنجي**، ونشره بواسطة لجنة التأليف والترجمة والنشر **بالقاهرة** سنة 1370هـ/1951م. وهذا الكتاب ـ في حقيقة الأمر ـ مستخرج من المجلد السابع من كتاب **العبر**؛ وتتمثل فائدته ـ بالإضافة إلى ما فيه من معلومات عن أدباء وعلماء تلمسان ـ في التعاليق، والتحقيق الذي أعده الأستاذ **الطنجي**.

ـ 9)ـ كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة. للسان الدين أبي عبد الله محمد بن الخطيب. (713هـ/1313م ـ 776هـ/1374م). هذا الكتاب عبارة عن موسوعة أدبية اشتملت على معلومات تاريخية وجغرافية هامة تخص الأندلس؛ بالإضافة إلى ما تضمنته من معلومات ونصوص أدبية في غاية الأهمية؛ تخص علماء وشعراء من **تلمسان**. وأشهر طبعات كتاب الإحاطة هي الطبعة التي حققها **محمد عبد الله عنان**. تليها الطبعة التي حققها **يوسف علي طويل**. وأخيراً الطبعة التي راجعها وقدمها وعلق عليها **بوزياني الدراجي**؛ بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية في سنة 2009م.

وما يهم الباحث من كتاب الإحاطة في هذا المجال؛ هي المعلومات الخاصة بعلماء وأدباء وشعراء تلمسان؛ وهي موزعة على عدد من أقسام الكتاب؛ مثل القسم الأول؛ الذي يشتمل على ترجمتي: إبراهيم بن أبي بكر بن عبد الله الأنصاري التلمساني. وإدريس (المأمون) ابن يعقوب بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علي. ثم المجلد الثاني؛ الذي يحتوي على ترجمة: أبي عبد الله محمد بن محمد ابن أحمد بن علي بن داود المقري التلمساني (الجد). ثم المجلد الثالث؛ حيث تتواجد تراجم كل من: محمد بن عبد الله بن داود بن خطاب الغافقي، ومحمد بن خميس بن عمر بن محمد الحجري التلمساني، ومحمد بن أحمد بن محمد بن محمد ابن مرزوق العجيسي التلمساني، ومحمد بن أحمد ابن إبراهيم بن محمد الأنصاري التلمساني. ثم المجلد الرابع الذي يشتمل على تراجم كل من: السلطان أبي حمو موسى الثاني ابن يوسف، وعبد الله بن فارس بن زيان العبد الوادي التلمساني، والسلطان أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، والشاعر الزاهد عبد الرحمن بن يخلفتن.

ـ 10)ـ كتـاب نفـح طيـب في غصـن الأندلـس الرطيـب وذكـر وزيرهـا لسـان الديـن بـن الخطيـب؛ لأبي العبـاس أحمـد بـن محمـد المقـري التلمسـاني (ت: 1041هـ/1631م)؛ حققـه **إحسـان عبـاس**؛ ونشـر بواسطـة دار صـادر **ببيـروت**؛ سنـة 1388هـ/1968م. وهـذا المصـدر عبـارة عـن موسوعـة أدبيـة وتاريخيـة لبـلاد **الأندلـس والمغـرب**. وقـد أفـاد مؤلـف هـذا الكتـاب كثيـراً؛ خاصـة في التعـرف ببعـض أدبـاء وشعـراء وعلمـاء تلمسـان.

ـ 11)ـ كتـاب أزهـار الريـاض في أخبـار عيـاض؛ لأبي العبـاس أحمـد بـن محمـد المقـري التلمسـاني؛ تحقيـق مصطـفى السقـا وإبراهيـم الأبيـاري وعبـد الحفيـظ شلـبي. ونشـر بواسطـة مطبعـة لجنـة التأليـف والترجمـة والنشـر بالقاهـرة سنـة 1939م. يشبـه هـذا المصـدر كتـاب نفـح الطيـب؛ إذ يعتبـر بـدوره موسوعـة أدبيـة تتنـاول مـا أنتجـه المغاربـة والأندلسيـون مـن تـراث أدبي نثـري وشعـري. وفوائـده في هـذا المجـال كبيـرة جـداً.

ـ 12)ـ كتـاب فـوات الوفيـات؛ لمحمـد بـن شاكـر الكتـبي (ولـد في حـدود 686هـ/1287م. وكـان حيـا سنـة 764هـ/1362م). وضـع كتابـه هـذا كذيـل لكتـاب وفيـات الأعيـان؛ بعـد أن لاحـظ إغفـال ابـن خلكـان لتراجـم

بعض الخلفاء والأعيان. وكتاب محمد بن شاكر هذا؛ مخصص ـ في عمومه ـ إلى أعيان المشرق؛ حتى وإن اشتمل على تراجم بعض الأندلسيين. والفائدة المجناة من كتاب فوات الوفيات ـ في هذا المجال ـ يمكن حصرها ضمن ترجمتين اثنين: الأولى في المجلد الثاني؛ وتتعلق بعفيف الدين سليمان بن علي بن عبد الله الكومي التلمساني؛ المعروف بالعفيف التلمساني. أما الترجمة الثانية ففي المجلد الثالث؛ وتخص ولد سليمان المذكور؛ وهو شمس الدين محمد بن سليمان علي بن عبد الله الكومي التلمساني؛ المعروف بالشاب الظريف.

ـ **13)ـ كتاب المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين؛ لعبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الباجي المعروف بصاحب الصلاة** (توفي في حدود 594هـ/1198م). نشر هذا الكتاب بعد تحقيقه: عبد الهادي التازي؛ ونشره بواسطة دار الأندلس ببيروت سنة 1964م. ويشتمل هذا المصدر على عينات أدبية عديدة؛ لها فائدة معتبرة.

ـ 14)ـ كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب؛ لعبد الواحد المراكشي (كان حياً سنة 613هـ/1216م)؛ حقق الكتاب محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي؛ ونشرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة سنة 1949م في طبعته الأولى. تنحصر أهمية هذا الكتاب هنا فيما ورد من معلومات ونصوص أدبية وأشعار تخص عبد المؤمن بن علي وأولاده. وقد أفاد المؤلف.

ـ 15)ـ كتاب الغصون اليانعة في محاسن شعراء المائة السابعة؛ لإبن سعيد أبي الحسن علي بن موسى الأندلسي (610هـ/1213م ـ 685هـ/1286م)؛ تحقيق إبراهيم الإبياري، ونشر دار المعارف بمصر سنة 1945م. لهذا الكتاب أهمية خاصة؛ لأنه ترجم لبعض أدباء وشعراء تلمسان؛ وأورد من أشعارهم عينات في منتهى الأهمية؛ خاصة وأن ما ورد في هذا الكتاب مفقود في مصادر أخرى.

ـ 16)ـ كتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية: نسبه بعضهم إلى **لسان الدين بن الخطيب**؛ حسب النشرة **التونسية** سنة 1337هـ/1918م. غير أن ثمة بعض المحققين يشككون في نسبة هذا الكتاب إلى ابن الخطيب. وبالمقابل؛ فقد رجح محمد عبد الله عنان؛

أن يكون هذا الكتاب من تأليف **أبي العلاء بن سماك العاملي المالقي**؛ بحكم وجود نسخة مخطوطة في الخزانة الملكية تحت رقم 3674؛ تحمل هذا الاسم. غير **أن عبد القادر زمامة**؛ الذي حقق الكتاب ـ في **المغرب** مع أحد زملائه ـ نفيا هذا الأمر؛ وبذلك؛ بقي الموضوع في خانة "**المؤلف المجهول**". وقد تم نشر **كتاب الحلل الموشية في الأخبار المراكشية** ـ مؤخراً ـ في الجزائر؛ بواسطة دار الأمل للدراسات والنشر والتوزيع؛ بتحقيق **محمد شايب شريف**؛ وذلك بدعم من وزارة الثقافة الجزائرية. المهم أن هذا الكتاب يجري عليه هنا ما يجري على كتابي: المعجب، والمن بالإمامة؛ فهو أيضاً يشتمل على معلومات هامة؛ تخص عبد المؤمن بن علي الكومي، وبنيه.

ـ 17)ـ ديوان أبي مدين شعيب؛ لأبي مدين شعيب ابن الحسين الأنصاري؛ (ت: 594هـ/1197م). ويشتمل على 48 قصيدة. في حوزة المؤلف نسخة منها. وقد قورنت بنصوص أخرى؛ لمزيد من التحقق، ومراعاة للتصحيح.

ـ **18)ـ تعريـف الخلـف برجـال السلـف؛ لمحمـد الحفنـاوي الديـسي؛** (1269هـ/1852م ـ 1361هـ/1942م) قـدم لـه محمـد رؤوف القاسـمي؛ طبـع المؤسسـة الوطنيـة للفنـون المطبعيـة بالجزائـر سنـة1991م. سبـق نشـر هـذا الكتـاب في سنـة 1906م. وهـو يشتمـل عـلى عـدد كبيـر مـن التراجـم المغاربيـة عمومـا والجزائريـة بالخصـوص. وهـو مفيـد جـداً.

ـ **19)ـ ديـوان الشـاب الظريـف؛ لمحمـد بـن سليمـان التلمسـاني** (661هـ/1262م ـ 688هـ/1289م)؛ تقديـم محمـد قنانـش؛ ونشـر المؤسسـة الوطنيـة للفنـون المطبعيـة بالجزائـر سنـة 1991م. فائـدة هـذا الديـوان؛ انحصـرت في مراجعـة أشعـار الشـاب الطريـف ومقارنتهـا بمـا لـدى مؤلـف هـذا الكتـاب.

ـ **20)ـ كتـاب الوفيـات؛ لأبي العبـاس أحمـد بـن حسـن ابـن عـلي بـن الخطيـب؛ المعـروف بابـن قنفـذ القسنطيـني** (ت: 810هـ/1407م)؛ تحقيـق عـادل نويهـض. ونشـر دار الآفـاق الجديـدة ببيـروت سنـة 1983م. يشتمـل هـذا المصـدر عـلى تراجـم لأعيـان وأدبـاء مـن البلـدان المغربيـة كلهـا؛ بالإضافـة إلى الأندلـس والمشـرق. وفائدتـه هنـا؛ تنحصـر في مـا تناولـه بخصـوص بعـض علمـاء وأدبـاء **تلمسـان**.

ـ 21)ـ كتـاب المسنـد الصحيـح الحسـن في مآثـر ومحاسـن مولانـا أبي الحسـن، لأبى عبـد الله محمـد بـن مـرزوق الخطيـب التلمسـاني (ت: 781هـ/1379م). قـام بتحقيـق هـذا الكتـاب في البدايـة **ليـفي بروفنسـال** (E.Levè-provençal). فـي شكـل منتخبـات منـه. وصـدر مؤخـراً هـذا الكتـاب كامـلاً، وفي ثـوب جديـد؛ بعنايـة وتحقيـق **ماريـا خيسـوس بيخيـرا**؛ ونشـر بواسطـة الشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع **بالجزائـر** سنـة 1401هـ/1981م. ويشتمـل هـذا الكتـاب علـى بعـض المعلومـات ذات العلاقـة ببعـض العلمـاء والأدبـاء؛ كمـال تتجـلى أهميتـه بكـون صاحبـه ممـن يدخـل في اهتمامـات هـذا العمـل.

ـ 22)ـ جـذوة الاقتبـاس في ذكـر مـن حـل مـن الأعـلام مدينـة فـاس؛ لأحمـد بـن القـاضي المكنـاسي (ت: 960هـ/1025هـ). طبـع هـذا الكتـاب في سنـة 1309هـ/ طباعـة حجريـة بإشـراف محمـد الفاطـمي بـن الحسيـن الصقـلي؛ ثـم أعـادت طبعـه دار المنصـور للطباعـة والوراقـة بالربـاط سنـة 1973م. تنحصـر فائدتـه في تتبـع بعـض التراجـم الـتي يهتـم بهـا هـذا البحـث. وقـد أفـاد.

ـ 23)ـ كتاب نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان؛ لإسماعيل بن يوسف بن محمد بن الأحمر (ت: 807هـ/1404م)؛ تحقيق محمد رضوان الداية؛ ونشر دار الثقافة ببيروت سنة 1967م. وهو ـ كما يشير عنوانه ـ يحتوي على مختارات لأعلام الشعراء المغاربة والأندلسيين. وفائدته ـ هنا ـ تنحصر في ترجمة ابن **أبي حجلة التلمساني.**

ـ 24)ـ كتاب درة الحجال في أسماء الرجال؛ لأبي العباس أحمد بن محمد المكناسي؛ المعروف بابن القاضي (960هـ/1552م ـ 1025هـ/1616م)؛ حققه محمد الأحمدي أبو النور؛ ونشر في طبعته الأولى بعناية دار التراث بالقاهرة، والمكتبة العتيقة بتونس؛ وذلك بين سنتي: 1970م ـ 1971م. ويعتبر هذا المصدر ـ كما أشار صاحبه ـ بمثابة ذيل لكتاب وفيات الأعيان. يشتمل على تراجم كثيرة لأعلام من المغرب والأندلس والمشرق؛ غير أنها اتصفت بالاقتضاب والاختصار؛ الأمر الذي أفقده مزايا الكمال والوضوح. ومع ذلك فهو لا يخلو من فائدة.

ـ 25)ـ كتاب الذيل والتكملة لكتاب الموصول والصلة؛ لمحمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي (ت: 703هـ/1303م)؛ كان ضمن الحملة

المرينيـــة المحاصـــرة لتلمســـان؛ فمـــات في المنصـــورة؛ أثنـــاء الحصـــار. حقــق بعــض أجــزاء هــذا الكتــاب إحســان عبـــاس ومحمـــد بنشريفـــة، ونشـــر دار الثقافـــة بيـــروت لبنـــان سنـــة 1964م مـــا عـــرف مـــن أجـــزاء الذيـــل والتكملـــة؛ لا يتجـــاوز تسعـــة أجـــزاء؛ ولكنهـــا لـــم تنشـــر كلهـــا؛ وتـــم الاعتمـــاد هنـــا عـــلى جزأيـــن: الرابـــع والســـادس. والكتـــاب هـــام جـــدا؛ خاصـــة في تراجـــم أعيـــان بـــلاد المغـــرب والأندلـــس.

ــ 26)ــ **كتـــاب المغـــرب في ذكـــر بـــلاد إفريقيـــة والمغـــرب** (جـــزء مـــن أجـــزاء كتـــاب المسالـــك والممالـــك)؛ **لأبي عبـــد اللـــه بـــن عبـــد العزيـــز البكـــري** (ت: 487هـــ/1094م)؛ تحقيـــق مـــاك قوكيـــن دي ســـلان؛ نشـــر مكتبـــة أمريكـــا والشـــرق Adrien - Maisonneuve بباريـــز سنـــة 1965م. وهـــو كتـــاب جغـــرافي وصـــفي؛ ولكنـــه يشتمـــل عـــلى معلومـــات تاريخيـــة هامـــة؛ وفائدتـــه هنـــا تتمثـــل فيمـــا ورد ضمنـــه عـــن تلمســـان مـــن أخبـــار تاريخيـــة وأوصـــاف جغرافيـــة.

ــ 27)ــ **كتـــاب القـــارة الإفريقيـــة وجزيـــرة الأندلـــس** (مقتبـــس مـــن كتـــاب نزهـــة المشتـــاق)؛ **لأبي عبـــد اللـــه الشريـــف الإدريـــسي** (تـــوفي في حـــدود 560هـــ/1164م)؛ تحقيـــق إسماعيـــل العـــربي؛ ونشـــر ديـــوان المطبوعـــات

الجامعيـــة بالجزائـــر سنـــة 1983م. يتنـــاول هـــذا الكتـــاب قضايـــا جغرافيـــة ومعلومـــات اجتماعيـــة واقتصاديـــة هامـــة. وتتمثـــل فائدتـــه هنـــا؛ فيمـــا ورد ضمنـــه مـــن معلومـــات تخـــص تلمســـان ومحيطهـــا.

ـ 28)ـ كتـــاب وصـــف إفرقيـــا؛ للحســـن بـــن محمـــد الـــوزان المعـــروف بليـــون الإفريـــقي؛ ترجمـــة محمـــد حـــجي ومحمـــد الأخضـــر؛ ونشـــر دار الغـــرب الإســـلامي ببيـــروت سنـــة 1983م. وهـــو كتـــاب جغـــرافي يصـــف مناطـــق عديـــدة مـــن إفريقيـــا الشماليـــة. وفائدتـــه هنـــا تتمثـــل في الفصـــول المخصصـــة لمملكـــة تلمســـان.

ـ 29)ـ كتـــاب معيـــار الاختيـــار في ذكـــر المشاهـــد والدِّيـــار؛ للســـان الديـــن بـــن الخطيـــب؛ تحقيـــق عبـــد الرحمـــن دويـــب، ونشـــر دار الأمـــل للدراســـات والنشـــر والتوزيـــع بالجزائـــر سنـــة 2001م. يتنـــاول هـــذا الكتـــاب نصـــاً أدبيـــاً لابـــن الخطيـــب يصـــف فيـــه تلمســـان.

ـ 30)ـ نيـــل الابتهـــاج بتطريـــز الديبـــاج؛ لأحمـــد بابـــا التنبكـــتي (ت 963هـــ/1036م)؛ إشـــراف وتقديـــم عبـــد الحميـــد عبـــد اللـــه الهرامـــة؛ ونشـــر بواسطـــة كليـــة الدعـــوة الإسلاميـــة بطرابلـــس سنـــة 1989م. ويشتمـــل هـــذا الكتـــاب عـــلى تراجـــم كثيـــرة هامـــة؛ تمـــت الاستفـــادة منهـــا.

ـ 31)ـ كتـــاب التشـــوف إلى رجـــال التصـــوف وأخبـــار أبي العبـــاس السبـــتي؛ لأبي يعقـــوب يوســـف بـــن يحـــيى التـــادلي المعـــروف بابـــن الزيـــات (ت: 617هـ/1220م)؛ حققـــه أحمـــد توفيـــق؛ ونشـــره بواسطـــة كليـــة الآداب بالربـــاط. الطبعـــة الثانيـــة. لهـــذا الكتـــاب فائـــدة معتبـــرة؛ إذ استفيـــد منـــه في الترجمـــة لبعـــض المتصوفـــة منهـــم عـــلى سبيـــل المثـــال لا الحصـــر: ولي اللـــه أبـــو مديـــن شعيـــب.

ـ 32)ـ كتـــاب أنـــس الفقيـــر وعـــز الحقيـــر؛ لأحمـــد الخطيـــب المعـــروف بابـــن القنفـــذ (ت: 810هـ/1407م). تصحيـــح: محمـــد الفـــاسي، ووأدولـــف فـــور؛ ونشـــر المركـــز الجامـــعي للبحـــث العلـــمي بجامعـــة محمـــد الخامـــس بالمغـــرب الأقـــصى سنـــة 1965م. وأهـــم فائـــدة قدمـــت مـــن هـــذا الكتـــاب؛ هي أخبـــار أبي مديـــن شعيـــب؛ مـــع بعـــض أصحابـــه وتلاميـــذه.

ـ 33)ـ التكملـــة لكتـــاب الصلـــة؛ لمحمـــد بـــن عبـــد اللـــه البلنـــسي المعـــروف بابـــن الأبَّـــار (ت: 609هـ/1212م). نشـــر مكتبـــة الخانـــجي بمصـــر والمثـــنى ببغـــداد سنـــة 1956م. يشتمـــل هـــذا الكتـــاب عـــلى عـــدد مـــن التراجـــم المفيـــدة.

ـ **34)ـ خريـدة القصـر وجريـدة العصـر؛ للعمـاد الأصفهـاني** (1125/519م ـ 597هـ/1200م)؛ تحقيـق محمـد المـرزوق ومحمـد العـروسي المطـوي والجيـلاني ابـن الحـاج يحـيى؛ ونشـر الـدار التونسيـة للنشـر، والشركـة الوطنيـة للنشـر والتوزيـع بالجزائـر بيـن سنـوات: 1971 ـ 1973. يشتمـل هـذا الكتـاب عـلى تراجـم لشعـراء مـن البـلاد المغربيـة والأندلـس؛ وقـد أفـاد الباحـث.

ـ **35)ـ النجـوم الزاهـرة في ملـوك مصـر والقاهـرة؛ ليوسـف بـن تغـري بـدري الأتابـكي** (1410/813م ـ 874هـ/1469م)؛ نشـر بعنايـة وزارة الثقافـة والإرشـاد القـومي بمصـر. وهـو كتـاب تاريـخي؛ ولكنـه يتنـاول تراجـم الأعيـان حسـب تاريـخ وفاتهـم. وأهـم فائـدة جنيـت منـه في هـذا المجـال؛ هـي المعلومـات عـن عـدد مـن علمـاء وشعـراء تلمسـان المقيميـن بالمشـرق.

ـ **36)ـ كتـاب الرحلـة المغربيـة؛ لأبي عبـد اللـه العبـدري البلنـسي** (كـان حيـاً سنـة 688هـ/1289م). تحقيـق **أحمـد بـن جـدّو**؛ بكليـة الآداب **بالجزائـر**. زار المؤلـف الرحالـة **تلمسـان** في عهـد السلطـان **عثمـان بـن يَغَمْرَاسَـن** (سنـة 688هـ/1289م) بالتحديـد؛ وسجـل في كتابـه صـورة قاتمـة عـن **تلمسـان** ومـدن **المغـرب**

الأوسط؛ التي مرّ بها عموماً. وكتابه هذا اشتمل على بعض المعلومات الهامة؛ المتعلقة بالجانب الثقافي في المجتمع **التلمساني**، **والمغرب الأوسط** عموماً. ولكنه – مع ذلك – لم يقدم للقارئ معلومات ذات فائدة كبيرة تخص أدباء وعلماء تلمسان.

– 37)– كتاب المسالك والممالك والمفاوز والمهالك (صورة الأرض)؛ لأبي القاسم محمد بن علي الموصلي البغدادي الحوقلي الشهير **بابن حوقل** (ت: 367هـ/977م). نُشِر هذا الكتاب في **ليدن** مرتين: سمي في الأولى بـ "المسالك والممالك والمفاوز والمهالك" وفي الطبعة الثانية سمي بـ "**صورة الأرض**". ثم قامت دار مكتبة الحياة بنشره مرة أخرى سنة 1992م بهذا الاسم. وصاحب هذا المصدر رحالة وتاجر مشرقي بغدادي بدأ رحلته سنة 331هـ/943م وانتهى منها في سنة 362هـ/973م؛ أي اسغرقت رحلته مدة 30 سنة قضاها في الغربة. ولما انتهى به المطاف عند قرطبة؛ أقام بها طويلاً؛ في عصرها الذهبي؛ أيام حكم عبد الرحمن الناصر لدين الله (الثالث). وهناك كانت له فرصة التعرف على الإصطخري؛ فعرفه بكتابه المسالك والممالك؛ طالباً

منــه تصحيحــه واستكمــال مــا نقــص منــه. وأهميــة هــذا المصــدر تتجـلى في كونــه أول المصــادر الجغرافيــة الــتي أشــارت إلى **تلمســان** ــ حــتى وإن سماهــا **تنمســان**" بالنــون بعــد التــاء ــ لأن مسالــك الإسطخــري قبلــه لــم تذكرهــا بتاتــاً. ومــا جــاء مــن مصــادر بعــد "صــورة الأرض" اقتبســت منهــا.

ــ 38)ــ كتــاب معجــم البلــدان لشهــاب الديــن أبي عبــد اللــه ياقــوت بــن عبــد اللــه الحمــوي الــرومي البغــدادي (ت: 626هــ/1228م)؛ مــن مطبوعــات دار صــادر ببيــروت سنــة 1977م. عجــم ياقــوت حــروف تلمســان؛ فكتــب: ((**تِلِمْســان: بكسرتيــن، وسكــون الميــم، وسيــن مهملــة**))[1]. وأشــار أيضــاً إلى الاســم الــذي ذكــره ابــن حوقــل؛ وهــو " **تنمســان**" بالنــون عــوض الــلام. وبعــد فقــرات؛ وصــف فيهــا المدينــة؛ قــال: ((**ويكــون بتلمســان الخيــل الراشديــة؛ لهــا فضــل عــلى سائــر الخيــل؛ وتتخــذ النســاء بهــا مــن الصــوف أنواعــاً مــن الكنابيــش؛ لا توجــد في غيرهــا**))[2]. كمــا أشــار صاحــب هــذا المصــدر أيضــاً ــ عنــد حديثــه عــن **تلمســان** ــ إلى شاعــر مــن هــذه المدينــة؛ زار بغــداد سنــة 520هــ/1126م؛ اسمــه **أبــو الحسيــن خطَّــاب بــن**

---

[1] مـج: 2، ص: 44.
[2] نفسه، ص: 44.

أحمد بن خطّاب؛ وقال عنه ــ نقلا عمن سماه أبا سعيد ــ أنه ((**كان شاعراً جيد الشعر**))[1].

ــ 39)ــ كتاب تقويم البلدان؛ للسلطان المؤيد عماد الدين إسماعيل صاحب حماة؛ (ت: 732هــ/1331م)؛ بعناية: رينود، وماك قوكين ديسلان؛ وطبع بدار الطباعة السلطانية بباريس سنة 1840م. بوب هذا المصدر تبويبا جيدا؛ وجاءت معلوماته دقيقة؛ ولكنها مختصرة. والذي يفيد هنا هو تناول الكتاب لوصف تلمسان. كما قام صاحب المصدر بضبط وتعجيم حروف الاسم؛ فذكر ــ مثلا ــ: ((**تلمسان: بكسر المثناة من فوق وكسر اللام وسكون الميم وفتح السين المهملة وألف ونون**))[2].

ــ 40)ــ كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار؛ لمحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري (ت: 900هــ/1494م)؛ تحقيق إحسان عباس؛ ونشر مكتبة لبنان ببيروت سنة 1975م. تناول هذا المصدر موضوع تلمسان في جانبه التاريخي والجغرافي؛ وقد أفاد المؤلف.

---

[1] **مـج: 2، ص: 44.**
[2] **نفسه، ص: 136.**

ـ 41)ـ كتاب وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان؛ لأحمد بن محمد بن خلكان (608هـ/1211م ـ 681هـ/1282م)؛ حققه إحسان عباس. ونشره بواسطة دار الثقافة في بيروت؛ لبنان عبر السنوات من: 1968م إلى 1972م. وهو مخصص لتراجم عدد من الأعلام المشارقة؛ تتخللهم بعض التراجم المغربية. والفائدة منه هنا تنحصر في الترجمة لبعض ملوك المغرب.

بالإضافة إلى مصادر أخرى؛ لها فائدة متواضعة؛ سيأتي ذكرها في جول المصادر والمراجع.

***

أما المراجع الحديثة التي تعالج تاريخ تلمسان فهي قليلة جداً؛ خاصة تلك التي تهتم بالتراث الأدبي في هذه المدينة العريقة. ومع هذا فقد عثر على ما يسد الرمق بعض الشيء. ومن بين تلك المراجع المعتمدة هنا:

ـ 1)ـ كتاب تاريخ الجزائر العام؛ لعبد الرحمن بن محمد الجيلالي؛ نشر دار الثقافة ببيروت سنة 1980م. موضوع هذا الكتاب هو التاريخ العام للجزائر وبلدان المغرب. وهو قيم جداً؛ وقد اعتمد منه الجزء الثاني؛ لتناوله المواضيع الثقافية المطلوبة وتراجم لأعلام الجزائر وتلمسان؛ من: علماء وشعراء وكتاب.

ـ 2)ـ كتاب تاريخ الجزائر في القديم والحديث؛ لمبارك بن محمد الميلي؛ نشر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر سنة 1976م. وهذا الكتاب أيضاً خاص بالتاريخ العام للجزائر وبلدان مغربية أخرى. غير أنه يأتي في درجة ثانية بالنسبة لكتاب عبد الرحمن الجيلالي؛ من حيث الاهتمام بالمجال الثقافي، والعناية بأعلام الجزائر ومثقفيها. ومع هذا فقد أفاد المؤلف.

ـ 3)ـ كتـــاب معجـــم أعـــلام الجزائـــر مـــن صـــدر الإســـلام حـــتى العصـــر الحاضـــر؛ لعـــادل نوهـــض؛ نشـــر مؤسســـة نويهـــض الثقافيـــة ببيـــروت سنـــة 1980م. يشتمـــل هـــذا الكتـــاب ــ كمـــا ورد في عنوانـــه ــ عـــلى تراجـــم لمجموعـــة كبيـــرة مـــن أعـــلام الجزائـــر؛ غيـــر أن أسلوبـــه الختصـــر يستـــدعي الحاجـــة للبحـــث عـــن مراجـــع أخـــرى لاستكمـــال مـــا نقـــص منـــه.

ـ 4)ـ باقـــة السوســـان في التعريـــف بحاضـــرة تلمســـان عاصمـــة دولـــة بـــني زيـــان؛ لمحمـــد بـــن رمضـــان شـــاوش؛ ونشـــر ديـــوان المطبوعـــات الجزائريـــة، بالجزائـــر سنـــة1995م. وهـــذا المرجـــع في غايـــة الأهميـــة؛ لتنوعـــه وشمولـــه. فهـــو يعالـــج موضوعـــه مـــن زاوايـــا سياسيـــة وحضاريـــة وثقافيـــة واجتماعيـــة. وقـــد أفـــاد الباحـــث فائـــدة معتبـــرة.

ـ 5)ـ كتـــاب تلمســـان في العهـــد الزيـــاني؛ لعبـــد العزيـــز فيـــلالي؛ نشـــر المؤسســـة الوطنيـــة للفنـــون المطبعيـــة بالجزائـــر سنـــة 2002م. وهـــذا الكتـــاب قيـــم جـــداً؛ إذ يعالـــج الموضـــوع في جوانبـــه: الاجتماعيـــة والحضاريـــة والعمرانيـــة والثقافيـــة؛ بالإضافـــة إلى الأوضـــاع السياسيـــة لدولـــة بـــني زيـــان. وعليـــه؛ فقـــد أفـــاد المؤلـــف.

ـ 6)ـ كتــاب "أبــو حمــو مــوسى الزيــاني ـ حياتــه وآثــاره"؛ لعبــد الحميــد حاجيــات؛ نشــر الشركــة الوطنيــة للنشــر والتوزيــع بالجزائــر سنــة 1974م. وهــذا الكتــاب عبــارة عــن دراســة تخــص السلطــان الزيــاني أبي حمــو الثــاني. فاشتملــت عــلى عينــات ونصــوص نثريــة وشعريــة في غايــة الأهميــة؛ كــان قــد كتبهــا هــذا السلطــان الأديــب الشاعــر. وعليــه فالفائــدة المجنــاة منهــا عظيمــة.

ـ 7)ـ كتــاب العالــم الربــني أبــو مديــن شعيــب التلمســاني؛ لمحمــد الطاهــر عــلاوي. نشــر دار الأمــة للطباعــة والنشــر والتوزيــع؛ بالجزائــر سنــة 2011 م. وهــو كتــاب مفيــد للغايــة؛ إذ يتنــاول موضــوع ولي اللــه ونزيــل تلمســان أبي مديــن شعيــب. وقــد اشتمــل الكتــاب عــلى عينــات هامــة مــن شعــره ونثــره. وقــد أفــاد وأوفى.

ـ 8)ـ LE ROYAUME ABDELOUADIDE A L'EPOQUE D'ABOU HAMMOU MOUSSA 1 ET ABOU TACHFIN 1 **لعطــاء اللــه دهينــة؛** نشــر ديــوان المطبوعــات الجامعيــة بالجزائــر سنــة 1985م. أفــاد هــذا الكتــاب المؤلــف فيمــا يتعلــق بالوضــع التاريــخي والجغــرافي لمدينــة تلمســان.

9)– TLEMCEN ANCIENNE CAPITALE DU ROYAUME DE CE NOM, ؛ **لـــلأب بارجيـــس L'ABBE J.J. BARGES**؛ نشـــر **LIBRAIRIE COMMISSIONNNAIRE POUR L'ALGERIE ET LA France, 1859** ؛ وهـــذا الكتـــاب عبـــارة عـــن رحلـــة وصفيـــة لمدينـــة تلمســـان. أفـــادت مؤلـــف هـــذا الكتـــاب.

– 10)– كتـــاب تاريـــخ الجزائـــر الثقـــافي مـــن القـــرن العاشـــر إلى الرابـــع عشـــر الهجـــري؛ لأبي القاســـم سعـــد اللـــه؛ نشـــر الشركـــة الوطنيـــة للنشـــر والتوزيـــع بالجزائـــر سنـــة 1981م. يشتـــل هـــذا المرجـــع عـــلى معلومـــات هامـــة حـــول بعـــض العلمـــاء مـــن تلمســـان. وقـــد أفـــاد المؤلـــف.

– 11)– كتـــاب القبائـــل الأمازيغيـــة (أدوارهـــا – مواطنهـــا – أعيانهـــا)؛ لبوزيـــاني الـــدراجي، نشـــر دار الكتـــاب العـــربي بالجزائـــر سنـــة 1999م. يشتـــل هـــذا المرجـــع عـــلى تراجـــم عديـــدة لأعيـــان وعلمـــاء مـــن تلمســـان؛ وهـــو مفيـــد.

***

تلمســان عبــر التاريــخ

تلمسان في العصور القديمة

ـ الفترة ما قبل الرومان:

ثبت من خلال ما عثر عليه من بقايا أثرية؛ أن الإنسان تواجد ـ منذ أقدم العصور ـ في محيط **تلمسان** الحالية. وبمحاذات ما عرف في العصر الروماني باسم **بوماريا**.

ويبدو أن موقع **بوماريا**؛ لم يكن خالياً من السكان قبل وصول **الرومان** إلى تلك الجهات؛ لأنه ثبت أن هذا الموضع كان مأهولاً منذ الأزل؛ وقد يكون **الرومان** أنشأوا **بوماريا** بجوار تجمع سكاني يتكون من أهل البلاد الأصليين؛ لا يعرف له اسم حتى الآن[1]. غير أن بعض الآراء التي تحتاج إلى سند

[1] قال ألفرد بل: ((من الطبيعي أن يكون الانسان قد استقر في هذه البقعة ـ الملائمة لسُكْنَى البشر ـ منذ آلاف السنين. فقد عُثِر في كل جهة تقريبا على آثار إنسان ما قبل التاريخ. ومن المنتظر أن يُعْثَر على آثار أخرى كثيرة؛ إذ لم يُكْتشف ـ حتى الآن ـ إلاّ عن قليل من تلك الآثار؛ وخاصة وأنه لم يقم أحد ـ فيما نعلم ـ بالحفر المنظم في الكهوف الكثيرة المنتشرة في هذا الإقليم)). دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

تاريـــخي؛ تفيـــد أن الاســـم هـــو **أغاديـــر**. هـــذا الاســـم الـــذي يرجـــح أن لـــه روابـــط مـــا مـــع **الفينيقييـــن**[1].

وقـــد ثبـــت ــ مـــن خـــلال المخلفـــات الأثريـــة العائـــدة إلى فتـــرة مـــا قبـــل التاريـــخ ــ أن هـــذه الجهـــة كانـــت مأهولـــة. ويتجـــلى ذلـــك مـــن خـــلال الكهـــوف القديمـــة المتواجـــدة في منطقـــة **القلعـــة العليـــا وبودغـــن**؛ حيـــث تعلوهـــا هضبـــة **لالا ســـتي**. كمـــا أن اكتشافـــات **ج. بلايتشـــر** G. Bleicher سنـــة 1875م تؤكـــد هـــذا؛ حيـــن اكتشـــف في كهـــوف **بودغـــن** بقايـــا أدوات أزليـــة مصقولـــة؛ تعـــود إلى العصـــر الحجـــري؛ مـــن ضمنهـــا: معـــاول حجريـــة مصقولـــة.

هـــذا؛ وقـــد وصـــل تعـــداد تلـــك الكهـــوف إلى مائـــة كهـــف تقريبـــاً؛ عرفـــت **بقلعـــة المارجديـــة تامراديـــت** Tameradit. وقـــد اكتشـــف أيضـــاً الباحـــث **إيستونـــيي** M. Estaunié ــ في **بـــاب القرمديـــن بتلمســـان** سنـــة 1941م ــ عـــلى آلـــة حجريـــة تستخـــدم لصقـــل الأحجـــار[2]؛ صنعـــت في العصـــر الحجـــري؛ بالإضافـــة إلى مـــا تـــم اكتشافـــه في

---

[1] **أنظر التمهيد الذي استهل به الأب بارجيس كتابه Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111.** ودائـرة **المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.**

[2] **موجودة في متحف بمدينة تلمسان.**

كهوف بهضبة **لالا ستي** ـ بقرية **بني بوبلان** ـ من قطع أثرية وصل عددها زهاء 2000 قطعة؛ تتخللها عظام بشرية؛ انحدرت من العصر الحجري الأوسط.

ـ مدينة بوماريا Pomarium Pomaria:

معنى الكلمة باللاتينية هو: البساتين[1] أو المراعي؛ نظراً لما يحيط بها من سهول خصبة غنية، وما يحفُّ موقعها من غطاء مخضر بالنبات، وأشجار باسقات، وما يكتنفه من جمال الطبيعة النضرة الفيحاء، وخصوبة الأرض الثرية المعطاءة، وتوافر المياه العذبة الرقراقة؛ المتدفقة عبر الحقول والبساتين المثمرة الغنّاء، المحملة بما جادت به من الغلال الطيبة المذاق، وما عبقت به من روائح عطرة فواحة.

---

[1] **دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.**

عُرِفت **بوماريا** في خارطة شمال إفريقيا بعد أن شرعت جيوش **الرومان** في تشييد الخط الدفاعي الاستيطاني الثاني (الليمس)[1]؛ فَبُنِيَت هذه المدينة العسكرية الأزلية على مرتفع صخري؛ يعلو سطح البحر بـ 827 متر، ويستند إلى السلسلة الجبلية الجنوبية الشامخة بقمتها؛ التي ترتفع إلى مستوى 1842م فوق سطح البحر.

كما تشرف المدينة على سهول فيحاء، خصبة؛ من شمالها وشرقها وغربها. وقد شُرِع في بنائها منذ سنة 222 بعد الميلاد؛ وانْتُهِيَ من ذلك في سنة 235 ميلادية. في عهد **الامبراطور جورديان الأول Gordian I**[2]؛ حيث جُعِلت بمثابة المعسكر الأمامي؛ الذي يقوم بمراقبة السكان الأصليين، وقمع أي محاولة لتمردهم وعصيانهم، وحماية المستعمرين الرومان؛ وعليه فقد أسكنوا في **بوماريا** فرقة من المشاة (وفي قول من الفرسان)[3]؛ كقوة ردع وتأديب للسكان الأصليين.

---

[1] **تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 186 - 189. 238.**

[2] **عند الأب بارجيس: الإمراطور جورديان الأصغر؛ Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111.**

[3] **دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454. Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111.**

- **في العصر الروماني:**

وتقـول المصـادر أن هندسـة البنـاء في **بوماريـا** لا تختلـف كثيـراً عمـا كـان الرومـان يقيمونـه مـن معسكـرات؛ إذ يفتـرض أن يحيـط بهـا سـور حصيـن منيـع؛ لـه أبـواب أربعـة مستطيلـة الشكـل؛ يتجـه البـاب الأول نحـو الشـرق وهـو البـاب الإمبراطـوري، يعاكسـه في الجهـة المقابلـة البـاب الغـربي (الديكـومي)، ثـم يقـوم بـاب ثالـث في الجهـة الجنوبيـة، وأخـر في الجهـة الشماليـة. كمـا تشتمـل المدينـة أيضـاً عـلى مقـر للقيـادة وسـوق لشـراء وبيـع البضائـع المعروضـة، ومخـزن لخـزن الأسلحـة وحفـظ كـل ثميـن وذي قيمـة.

وجـاء في المصـادر كذلـك؛ أن **بوماريـا** الرومانيـة حظيـت بمكانـة دينيـة هامـة؛ حيـث اشتملـت عـلى أبرشيـة؛ أشـرف عليهـا أسقـف ذاع صيتـه؛ وهـو الأسقـف الكاثوليـكي **لوجيونيـس بوماريانسيـس** PAMARIENSIS أو POMARIENSIS.[1].

كانـت **بوماريـا** في العهـد الرومـاني تابعـة لمورطانيـا القيصريـة؛ وتحتـل موقعـاً حيويـاً هامـاً؛ إذ شيـدت عـلى الخـط الأمـامي لليمـس؛ وهـو خـط الدفـاع

---

[1] **Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 111**

الروماني؛ المشيد ضد هجمات البدو، والثائرين المقاومين للنفوذ الأجنبي. كما تشرف هذه المدينة أيضاً على طرق المواصلات الرئيسة[1]؛ مثل: الطريق الواصل بين **موريطانيا القيصرية وموريطانيا الطنجية**. ثم الطريق الرابط بين مدن عدة؛ مثل **ألبولاي** Albulae (عين تموشنت الحالية)، **وبورتوس ديفينيس** Portus Divini (المرسى الكبير بوهران)، **وسيقا** (المقر الغربي لحاضرة صيفاقس)؛ وكذلك **رشقون**؛ وهو الميناء البحري **لسيقا**؛ المتواجد على مصب وادي تافنا.

وقد حدد الباحثون الموقع الأصلي لمدينة **بوماريا**؛ فوجدوا أنها كانت مبنية في الجهة الشرقية من **تلمسان** الحالية؛ ضمن الحدائق والبساتين؛ أين بنيت – الآن – فوقها دور عديدة، وعمارات سكنية، ومحطة السكة الحديدية. فلم يبق منها سوى بعض الأحجار المنحوتة[2]؛ التي استخدمت من جديد في بعض المباني الخاصة والمنشآت العمومية؛ مثل

---

[1] ((ومدينة تلمسان قفل بلاد المغرب؛ وهي على رصيف للداخل والخارج منه؛ لا بد منها والاجتياز بها على كل حال)). القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من نزهة المشتاق)، ص: 151.

[2] دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

مئذنة مسجد **أغادير** العتيق؛ التي بناها **يغمراسن بن زيان**[1].

– في العصر الوندالي:

عرفت **بوماريا** – كغيرها من مدن شمال إفريقيا؛ بحكم تقلبات الأوضاع السياسية في البلدان المغربية كلها – عرفت تحولات عديدة؛ إذ غدت أرضها تابعة **لجنسريك** الملك الوندالي؛ الزاحف من **إسبانيا**؛ وذلك سنة 429م؛ حيث انحسر – حينها – النفوذ الروماني وغاب عن المنطقة كلها؛ زهاء القرن من الزمان تقريباً. وقد أشار **ألفرد بل** إلى غياب أي توثيق أو تسجيل يمكنه إجلاء حقيقة الأوضاع في **بوماريا** خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين العهدين: الروماني والإسلامي؛ حيث قال: **((ولا نعرف شيئاً عن تاريخ تلمسان فيما بين العهد الروماني والفتح الإسلامي؛ ولا نعرف كيف دخل الإسلام إلى هذا الإقليم في القرن السابع الميلادي؛**

---

[1] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان في بيان شرف بني زيان)، ص: 125.
Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, p: 127.

كما لا نعرف شيئاً عن إمارة بني صفرة[1] البربرية؛ التي كان يتزعمها أبو قرة في القرن الثامن الميلادي. وكل ما نعلمه أن أمير تلمسان كان يخرج في مناسبات عدة؛ على رأس أتباعه من خوارج زناتة للغزو ناحية الشرق؛ فوصل إلى الزاب وإفريقية))[2].

ونتيجة لغياب سلطان الدولة الكبرى، والنفوذ الواسع؛ المتمثل في الدولتين: **الرومانية والبيزنطية**؛ وحتى الدولة **الوندالية**؛ فقد أدى ذلك كله إلى موجات من الاضطراب وأزمات مدمّرة؛ تكون قد طالت **بوماريا** وغيرها من المدن في الجهات الغربية والشرقية؛ فدمّرت بعضها، وأنهكت أخرى؛ حيث ظهرت في هذه الأثناء إمارات أمازيغية عديدة: في **الأوراس والحضنة والوانشريس**؛ بالإضافة إلى إمارت **ألتافا Altava** (**أولاد ميمون** حاليا)؛ تلك المدينة التي تبعد عن **بوماريا** بـ 30 كلم تقريباً؛ وكان على رأسها ملك يدعى **مازونة Masuna**.. وهنا يتبيّن ما حدث **لبوماريا**؛ من انتقال مركز الحكم منها إلى

---

[1] يبدو أن المترجم خانته الحقيقة هنا؛ إذ لا توجد إمارة لقوم يسمون ببني صفرة؛ وكل ما قصده ألفرد بل هي الإمارة الصفرية بزعامة أبي قرة اليفرني.

[2] دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 454.

ألتفـا؛ حاضـرة الملـك في عهـد **مازونـة**[1]. حـدث ذلـك كلـه؛ حينمـا انتهـز السكـان الأصليـون في البلـدان المغربيـة الأحـداث المضطربـة والصـراع بيـن **الونـدال والرومـان**؛ فسعـوا إلى كسـب مواقـع؛ مكنتهـم مـن الاستفحـال والاستقـلال عـن مركـز الحكـم في **رومـا** أو **بيزنطـا** بعدهـا؛ حيـث ظهـرت تلـك الممالـك الأمازيغيـة في غـرب البـلاد ووسطهـا.

ـ في العصر البيزنطي:

وعـلى الرغـم مـن المسـاعي الحثيثـة لإمبراطـور **بيزنطـة**؛ في دعـم قادتـه وجيوشـه في الشمـال الإفريـقي؛ بغـرض بسـط نفـوذ روم الشـرق في تلـك الديـار؛ فإنـه لـم يحقـق كـل أهدافـه. فحـتى وإن كـان **إمبراطـور الـروم** قـد طـرد **الونـدال** نهائيـاً مـن إفريقيـا الشماليـة؛ فإنـه عجـز عـن إخضـاع زعمـاء الأمازيـغ؛ خاصـة في وسـط البـلاد وغربهـا؛ (المغـرب الأوسـط والمغـرب الأقـصى). وحـتى **مدينـة قيصريـة** نفسهـا (شرشـال) فقـد تعـذر عـلى البيزنطييـن الوصـول إليهـا إلاّ عـن طريـق

---

[1] تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص ص: 347 - 348. 369 - 370. 380 - 381 . مدنية المغرب العرب في التاريخ، ص ص: 383 - 392. الجزائر بين الماضي والحاضر، ص: 87. تاريخ الجزائر العام، ج: 1، ص: 104.

البحر. وبذلك يمكن القول: أن **البيزنطيين**؛ لم يستطيعوا استعادة السيطرة المطلقة على شمال إفريقيا؛ كما كان الحال أيام الطفرة **الرومانية** الأولى. حيث برزت إمارات أمازيغية عديدة؛ صمدت في وجه البيزنطيين؛ منها: **مملكة ألتافا، ومملكة جدّار، ومملكة الحضنة، ومملكة الأوراس.**

ومع ذلك؛ فإن تلك الإمارات؛ تأثرت **بالرومان والبيزنطيين**؛ إذ اقتبست منهم الصبغة الحضارية الخاصة بهما؛ حيث تشكلت ـ ضمن تلك الإمارات المحلية ـ كتل اجتماعية غير متجانسة وتفتقر للانسجام؛ تميزت بتعايشها ثقافياً ودينياً وتأثرها بحضارة بيزنطة؛ بالإضافة إلى وجود خليط من مظاهر دينية أخرى. فإلى جانب المسيحية؛ وُجِدت ديانات أخرى مثل: اليهودية، والوثنية..

ولا يعرف إن كانت مدينة **بوماريا** قد بقيت على حالها الأول؛ طوال الفترة **البيزنطية**؛ وخلال **العهد الوندالي** أو بعد انحساره عن الديار المغربية كلها؛ أو على الأقل في محيطها الخارجي؛ حتى وإن كانت قد تعرضت للدمار. وعلى هذا؛ فما عرف ـ حتى الآن ـ عن مدينة **بوماريا**؛ في تلك الفترة القديمة، وبعد تلك الحروب والصراعات؛ لا يفيد في

بحثٍ ولا يغني عن حاجة. وكل ما في الأمر؛ أن المصادر ذكرت أن النفوذ **البيزنطي** تلاشى في الجهات الوسطى والغربية؛ وبقي محصوراً في شرق الوطن **الجزائري وتونس**. وحتى الذي بقي من النفوذ **البيزنطي** في **شمال إفريقيا**؛ فإنه لم يدم طويلا على تلك الحال؛ إذ تقلص وسقط تماماً في هذه الديار؛ تحت سنابك خيل المسلمين؛ بدءاً **بإفريقية** ثم **المغرب الأوسط فالأقصى.**

وهنا؛ يمكن القول أن اسم **بوماريا** اختفى تماماً. ولا يُعْرف إن كان ذلك حدث جراء تدميرها في العصر **الوندالي**. أو أنها بقيت لمدة ما. غير أن ما هو واضح – حتى الآن – هو أن السكان الأصليين؛ اختاروا لهذه المدينة اسماً أخر؛ ربما يكون هو الاسم الأقدم لها؛ أو لموقعها؛ قبل وصول **الرومان**؛ وبناء معسكرهم (**بوماريا**) في تلك البقعة.

***

المهم؛ أن موقع **بوماريا** أضحى ـ بعد الفتح الإسلامي ـ ضمن الأملاك المشاعة بين أعضاء القبيلة الأمازيغية الكبرى؛ التي عرفت لدى المسلمين **بزناتة**؛ خاصة بين فرعها المسمى **ببني يفرن**. عندها؛ اختفى اسم **بوماريا** وحلّ محله اسم **أغادير (أڤادير** أو **أكادير)**؛ وربما ـ لفترة قصيرة أيضاً ـ اسم **مدينة الجِدَار**[1]. وقد يكون ذلك نعتاً لمدينة **تلمسان**؛ فضّله سكان المدينة؛ نظراُ لما شاهدوه من ضخامة وعلُوِّ أسوار المدينة[2]. واسم **الجدار** هنا؛ لا علاقة له بمملكة **الونشريس**؛ المسماة **بالجدّار** أو **(بني جدّار)** القائمة معالمها الأثرية في منطقة **تيارت**[3].

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.

[2] شاع هذا الاسم في العهد الاسلامي؛ وقد أشار إليه ابن خلدون؛ بقوله: ((وما يزعم بعض العوام من سكانها [سكان تلمسان]؛ أنها أزلية البناء؛ وأن الجدار الذي ذكر في القرآن ـ في قصة الخضر وموسى عليهما السلام ـ هو بناحية أكادير منها؛ فأمر بعيد عن التحصيل؛ لأن موسى عليه السلام؛ لم يفارق المشرق إلى المغرب؛ وبنو إسرائل؛ لم يتسع ملكهم لإفريقية؛ فضلاً عما وراءها؛ وإنما هي من مقالات التشيع المجبول عليه أهل العالم؛ في تفضيل ما ينسب إليهم، أو ينسبون إليه؛ من بلد أو أرض أو علم أو صناعة)). العبر، مج: 7، ص: 156.

[3] أنظر: تاريخ إفريقيا الشمالية، ج: 1، ص: 380. وكتاب L'Algerie dans l'Atiquité, p: 224. وكتاب الجزائر بين الماضي والحاضر،

ولكن سكان **تلمسان** وغيرهم من محبي الأساطير؛ أرجعوا كلمة "**الجِدار**" إلى قصة **النبيّ موسى** مع **الخضر** عليهما السلام. حين دخلا قرية فاستطعما أهلها؛ فأبوا إطعامهم؛ فوجدا جداراً؛ كاد أن يسقط؛ فأقامه سيدنا **الخضر**؛ فقال له النبي **موسى**: ((لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً))[1]. ثم فسّر سيدنا **الخضر** للنبي **موسى** عليهما السلام ما التبس لديه؛ فقال: إنّ هذا الجدار لغلامين؛ والدهما رجل صالح؛ ترك لهما تحت الجدار المذكور كنزاً؛ فأراد الله أن يُقام الجدارُ حتى يكبرا؛ فيكتشفا الكنز بنفسيهما.

وهي قصة موجودة في القرآن الكريم؛ وفي سورة الكهف بالتحديد. ويبدو أن فئة من المتصوفة استهوتهم القصة المذكورة؛ إذ هم أكثر الناس عناية بما جاء فيها؛ بسبب **الخضر** عليه السلام؛ ذلك الرجل الصالح الذي منحه الله علماً لم يحصل عليه **موسى** وهو النبي. **وتلمسان** ــ كما هو معروف ــ مليئة بالمتصوفين والصالحين.

ص: 86. وكتب L'AFRIQUE DU NORD DANS L'ANTIQUITE, p: 345 ،
وكتاب أضرحة الملوك النوميد والمور، ص ص: 51 - 54.
[1] **سورة الكهف؛ من الآية: 77.**

وعلى الجملة؛ فقد تلاشى اسم **بوماريا**؛ بعد أن أطلق المسلمون – من قبائل **زناتة** – على موقعها اسماً آخر؛ قد يكون **أغادير**، أو **تلمسان** أو غيره. وسيأتي لاحقاً ذكر الفترة الزمنية الأولى التي شاع فيها استعمال اسم **تلمسان**.

– اغادير[1] او اڤادير او اچادير[2] AGADIR:

معناها بالأمازيغية – في أحد الأقوال – القلعة. بينما جاء في قول آخر؛ أن هذا الاسم **فينيقي** الأصل[3]؛ اندرج في اللغة الأمازيغية؛ ومعناه الجرف أو الهضبة؛ ذات الانحدار الخفيف. وبالتأمل في اسم **أغادير**[4]، وأصوله **الفينيقية**؛ يفهم أنه هو الاسم القديم للمدينة؛ إذ ينحدر إلى العهد **الفينيقي**؛ وبذلك يكون هو الاسم الحقيقي للموقع الذي شيد **الرومان** عليه مدينتهم **بوماريا**؛ لذا فقد أصرّ **الأمازيغ** على استعادة الاسم الأصلي القديم؛ بعد زوال المعسكر **الروماني**.

---

[1] تكتب أيضاً ((أكادير)).
[2] بالجيم المصرية.
[3] دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452. Tlemcen ancienne capitale du royaume de ce nom, préface.
[4] ثمة أغادير أخرى في جنوب المغرب الأقصى.

ويؤيد هذا الرأي؛ مكانة هذا الموقع ومنزلته في القلوب؛ والحميمية الخاصة به؛ لدى السكان الأصليين. حيث أن **أغادير** (قسم من المدينة الحالية)؛ ربما كانت مركز تجمع للجيش الأمازيغي بقيادة **كسيلة**؛ ذلك الجيش الذي تصدى للمسلمين بقيادة **أبي المهاجر دينار**؛ المقيم آنذاك؛ في موضع يسمى **عيون أبي المهاجر**. فانتهت المعركة ـ سنة 55هـ/674م ـ بأسر **كسيلة** واعتناقه الإسلام على يد **أبي المهاجر**[1].

وهكذا؛ ظلت **أغادير** (**تلمسان** القديمة) في صدارة المدن الأمازيغية في العهدين **الأموي والعباسي**. حيث برزت كحاضرة لإمارة أمازيغية **زناتية**؛ تمثل قبيلة **بني يفرن**[2]. التي ربما تكون قد اعتنقت ـ في ذلك العهد ـ المذهب الخارجي الصفري[3]. كما شارك أعضاؤها في ثورات عديدة؛ تفجرت ضد **بني أمية** و**بني العباس**.

---

[1] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص: 28. العبر، مج: 6، ص: 297. مج: 7، ص: 156.

[2] قال ابن خلدون: ((كان من بني يفرن - بالمغرب الأوسط - بطون كثيرة بنواحي تلمسان إلى جبل بني راشد؛ المعروفة بهم لهذا العهد. وهم الذين اختطوا تلمسان - كما نذكره في أخبارهم - وكان رئيسهم لعهد انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس؛ أبو قرة. ولا نعرف من نسبه أكثر من أنه منهم)). العبر، مج: 7، ص: 24. أنظر أيضاً مج: 7، ص: 156.

[3] اختلف المؤرخون بخصوص مذهب بني يفرن. فمنهم من نسبهم إلى الصفرية، ومنهم من أنكر ذلك واعتبرهم من السنة. فهذا ابن حزم

ـ معنى كلمة تلمسان:

تلمسان أو **تلمسن**: فسّرها بعضهم بمعنى أنها مركبة من كلمتين أمازيغيتين: **تلم ـ سن**؛ معنى الأولى هو: **تجمع**؛ والكلمة الثانية معناها: **اثنان**. والمقصود في بعض التفسيرات: أنها تجمع بين التل والصحراء؛ بسبب وجود المدينة في التل؛ بينما هي محاذية للصحراء؛ التي لا تبعد عنها كثيراً. نقل هذا القول **يحيى بن خلدون** عن **أبي عبد الله محمد الآبلي**؛ الذي ـ كما قال ـ يعرف اللسان الأمازيغي.[1] وذكر ـ أيضاً ـ أن بعضهم يسميها: **تلشان**[2]؛ كلمة مركبة كذلك من كلمتين هما: **تل**[3]؛ بمعنى: لها، ثم **شان**؛ ومعناها **شأن**؛ بعد تخفيف الهمزة؛ أي: **لها شان**. غير أن تفسير **الآبلي** أقرب للمعقول. أما **عبد الرحمن بن خلدون**؛ فقال؛ نقلاً

يقول: ((وأما جمهور بني مغراوة وبني يفرن؛ فسنة)). جمهرة أنساب العرب؛ ص: 498. ويشير عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا أيضاً؛ فيقول: ((وكثير من الناس يقولون إن بني يفرن كانوا على مذهب أهل السنة؛ كما ذكره ابن حزم وغيره)). العبر؛ مج: 7- ص ص: 25 - 26. غير أن هذه الاختلافات لا تنفي مرافقتهم للخوارج في ثوراتهم. وربما اختاروا العودة للمذهب السني؛ أيام تواجد إدريس بن إدريس؛ داخل تلمسان مدة ثلاث سنين؛ بعد فتحها للمرة الثانية سنة 197هـ/812م. وسيأتي ذكر هذا لاحقاً.

[1] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 85.

[2] في نفح الطيب: "تلمشان"؛ بالميم بعد اللام. ج:7، ص: 134.

[3] نفسه: "تلم"؛ بالميم بعد اللام.

عن الرقيق القيرواني: ((**واسمها في لغة زناتة مركب من كلمتين: "تلم سين"**[1]**؛ ومعناها تجمع من اثنين؛ يعنون البر والبحر**))[2]. ومن جهة أخرى؛ قال **ألفرد بل**: ((**تلمسان: كلمة عربية مأخوذة من الكلمة البربرية "تلمس" (والجمع تلمسان وتلمسين)؛ ومعناها نبع أو بئر. ومن ثم كان معنى تلمسان: مدينة الينابيع**))[3]. بينما يعتقد **جورج مارسي** أن اسم هذه المدينة مركب من كلمتين أمازيغيتين: الأولى؛ **تلا**؛ ومعناها "**المنبعّ**؛ والثانية؛ "**مسان**"؛ أي "الجاف". وبهما يصبح اسمها: "**المنبع الجاف**". وثمة من يقول أيضاً أنها **تِلْمِسين** (بكسر المثناة الفوقية وسكون اللام وكسر الميم)؛ ومفردها: **تِلْماس**؛ بمعنى: جيب ماء، أو نبع. وبهذا تترجم إلى **مدينة الينابيع**. ثم تمادى آخرون في تفسيرهم؛ فقالوا: أن كلمة **تلمسان** عربية الأصل؛ وهي مركبة من كلمتين: الأولى؛ **تلم**؛ أي تجمع، والثانية **إنسان** (حذف منها الألف والنون وأدمجت الكلمتان: تلم سان)؛ أي **مجمع**

---

[1] كتب في بعض النسخ: ((تلم سان - تلم سن - تنم سين)). العبر، مج: 7، ص ص: 156 - 157.

[2] العبر، مج: 7، ص: 157.

[3] دائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 452.

النـــاس. وهـــذا طبعـــاً محـــض خيـــال. ولـــم يقتصـــر الحـــال علـــى مـــا ورد؛ بـــل ثمـــة مـــن يـــرى أن المقصـــود هـــو جمعهـــا لمدينتيـــن: الأولى هي **أغاديـــر (أقاديـــر)**، والثانيـــة **تكـــرارت (تـــقـــرارت)**. وهـــذا في حـــد ذاتـــه؛ لا يصـــح إلاّ في حـــال بـــدء ظهـــور اســـم **تلمســـان** ـــ فعليـــاً ـــ بعـــد بنـــاء **تكـــرارت**؛ أي في زمـــن **المرابطيـــن**. يحـــدث هـــذا ـــ طبعـــاً ـــ عنـــد الذيـــن يعتقـــدون أن اســـم **تلمســـان**؛ لـــم يصبـــح متـــداولاً بشكـــل واســـع بيـــن المؤرخيـــن إلاّ في عهـــد المرابطيـــن وبعـــده. بحكـــم معرفتهـــم أن أقـــدم كتابيـــن أرَّخـــا لهـــذه المدينـــة همـــا "**تاريـــخ تلمســـان**" **لأبي عثمـــان سعيـــد ابـــن عيـــسى بـــن أحمـــد بـــن لـــب الرعيـــني الأندلســـي** المعـــروف **بالأصفـــر**[1] (تـــوفي في حـــدود سنـــة 460هــ/1067م)، و"**تاريـــخ تلمســـان**" أيضـــاً لقـــاضي **تلمســـان ابـــن هديـــة القـــرشي** (المتـــوفى سنـــة 736هــ/1335م).

---

[1] لا يعرف علاقته بتلمسان؛ حتى أنه خصص لها تاريخاً. وهو من الذين استوطنوا طليطلة بالأندلس؛ وله عناية خاصة بعلم النحو؛ حيث قام بشرح كتاب الجمل للزجاجي. وله أيضاً مشاركة في علم المنطق واللغة والأشعار والأخبار. أنظر ترجمته في صلة بن بشكوال، ج: 1، ص: 223 رقم الترجمة: 509. وكتاب إنباه الرواة في أنباه النحاة ج: 2، ص: 47، رقم الترجمة: 274. وكتاب روضة الجنان، ج: 3، ص: 272.

فكـل مـا ورد أعـلاه عبـارة عـن تعاريـف عديـدة؛ لمعـنى **تلمسـان**؛ وكلهـا تفيـد أن الاسـم مركـب مـن كلمتيـن؛ اختلـف النـاس في معناهـا. المهـم أن هـذه المدينـة وصفـت بأسمـاء عديـدة؛ منهـا: لؤلـؤة المغـرب، وجوهـرة المغـرب، وعـروس المغـرب الأوسـط، وحاضـرة المغـرب الأوسـط، وقاعـدة المغـرب الأوسـط، وأم بـلاد زناتـة[1]، ومدينـة الفـن والتاريـخ، وغرناطـة إفريقيـا... إلـخ.

يعتـرف **عبـد الرحمـن بـن خلـدون** بأنـه لـم يصـل إلى معرفـة أخبـار **تلمسـان** قبـل وجـود **بـني يفـرن** بهـا[2]. كمـا يقـول أنـه لـم يعثـر عـلى ذكـر لهـا أقـدم مـن خبـر **الطبـري** (تـوفي سنـة 310هـ/923م)؛ حيـن أورد خبـر حصـار **أبي قـرة** وأصحابـه **لعمـر بـن حفـص في طبنـة**؛ إذ قـال: ((**"فأفرجـوا عنـه؛ وانصـرف أبـو قـرة إلى مواطنـه بنـواحي تلمسـان"**))[3]. ثـم أضـاف الخبـر الـذي أورده **الرقيـق القيـرواني** (تـوفي بعـد

---

[1] وصفهـا ابـن خلـدون فقـال: ((هـذه المدينـة قاعدة المغرب الأوسط؛ وأم بـلاد زناتـة؛ اختطهـا بنـو يفـرن؛ بمـا كانـت في مواطنهـم)). العبـر، مج: 7، ص: 156.

[2] ((ولـم نقـف علـى أخبارهـا فيمـا قبـل ذلـك)). نفسـه، ، ص: 156.

[3] نفسـه، ص: 156. وهـذه العبـارة غيـر موجـودة؛ هكـذا؛ في نسخـة (تاريـخ الأمـم والملـوك) المتوفـرة لـدى مؤلـف هـذا الكتـاب. ولعلهـا وجـدت في نسخـة أخـرى اطلـع عليهـا ابـن خلـدون؛ أو يكـون نقلهـا عـن كتـاب الرقيـق.

417هـ/1026م)؛ ومفاده أن **أبا المهاجر دينار** ((**توغل في ديار المغرب؛ ووصل إلى تلمسان؛ وبه سميت عيون المهاجر؛ قريبا منها**))[1]. كما أشار أن **الرقيق** ذكر **تلمسان** أيضاً؛ حين تكلم عن توغل **إبراهيم ابن الأغلب** في الجهات الغربية؛ حتى نزل **تلمسان**[2].

وعند الأخذ بالإعتبار؛ كل ما ذكره **ابن خلدون**؛ يمكن إضافة معلومة ــ تركها هذا الأخير، ولم يشر إليها ــ وقد وردت في كتاب فتوح مصر والمغرب؛ **لابن عبد الحكم** (الذي توفي سنة 257هـ/871م). مع استبعاد أن يكون **ابن خلدون** لم يطلع على هذا الكتاب. جاء في الكتاب المذكور أن **موسى بن نصير** كان مقيماً **بالقيروان**؛ بينما كان **طارق بن زياد** مقيماً في **تلمسان** (سماها **تلمسين**)؛

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 156. حتى كتاب الرقيق القيروان نفسه؛ الذي نشر ـ مبتوراً ـ حالياً؛ فلا وجود لاسم تلمسان فيه. وبذلك؛ يكون ابن خلدون؛ قد اطلع على نسخ أخرى. ومصداق هذا؛ أن ابن عذاري نقل نصين عن الطبري والرقيق وعريب؛ قال في الأول: ((وفي سنة 153 [هـ]؛ قُتِل عمرو ابن حفص؛ قتله أبو حاتم الإباضي، وأبو غادي، ومن كان معهما من البربر؛ وكانوا ـ فيما ذُكِر ـ ثلاثمائة ألف وخمسون ألفاً؛ ومعهم أبو قرة اليفرني أمير تلمسان في أربعين ألفاً)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 77. وجاء في النص الثاني: ((قال الرقيق وعريب: ((وفي 153 [هـ] زحف أبو قرة من تلمسان في جمع كبير من البربر إلى القيروان؛ فصالحه عمرو ابن حفص؛ وانصرف)). نفسه، ص ص: 77 - 78.**

[2] **العبر، مج: 7، ص: 156.**

فراسل يليان طارق بن زياد قائلاً: ((**إني مدخلك الأندلس؛ وطارق يومئذ بتلمسين وموسى بن نصير بالقيروان؛ فقال طارق: إني لا أطمئن إليك حتى تبعث إليّ برهينة؛ فبعث إليه بابنتيه؛ ولم يكن له غيرهما؛ فأقرهما طارق بتلمسين واستوثق منهما**))[1].

إذن؛ فاسم **تلمسان** (أو **تلمسين**) كان متداولاً أيام **ابن عبد الحكم** الذي ولد في سنة 187هـ/802م وتوفي سنة 257هـ/871م. ثم يتعزز هذا القول بالإشارة إلى **ابن حوقل** (المتوفي سنة 367هـ/977م؛ أي في عصر **الناصر لدين الله الأموي**)؛ هذا الرحالة الذي يكون قد انفرد ــ آنذاك بين كتّاب الرحلة والجغرافية القدماء ــ بالإشارة إلى **تلمسان**؛ حيث كتب: ((**ومنها** [أي قرية العلويين] **إلى تنمسان** [بالنون عوض اللام] **مرحلة طريفة؛ وهي مدينة أزلية؛ ولها أنهار جارية، وأرحية عليها، وفواكه؛ ولها سور من آجر حصين، منيع؛ وزرعها سقي؛ وغلاتها عظيمة، ومزارعها كثيرة**))[2].

وهكذا؛ **فابن حوقل** سماها **تنمسان**، ولم يشر إلى اسم **أغادير**. واسم **تنمسان** (بالنون) أشار إليه

---

[1] **فتوح مصر والمغرب، ص: 277.**
[2] **صورة الأرض، ص: 88.**

أيضـــاً ــ فيمـــا بعـــد ــ **ياقـــوت الـــرومي البغـــدادي** (تـــوفي سنـــة 626هـــ/1228م) في معجمـــه؛ حيـــن كتـــب: ((**وبعضهـــم يقـــول تنمســـان؛ بالنـــون عـــوض الـــلام**)). ولكنـــه اعتمـــد بالأســـاس علـــى اسـم **تلمســـان** (بالـــلام) حيـــن كتـــب: ((**تِلِمْســـان: بكسرتيـــن، وسكـــون الميـــم، وسيـــن مهملـــة**))[1]. وكـــان **البكـــري** (المتـــوفي قبلـــه في سنـــة 487هـــ/1094م) قـــد تكلـــم ــ في مسالكـــه ــ عـــن مدينـــة **تلمســـان** أيضـــاً؛ وسماهـــا بهـــذا الاســـم. وتبعـــه في ذلـــك **الشريـــف الإدريـــسي** (المتـــوفي سنـــة 560هـــ/1164م)؛ الـــذي سماهـــا باســـم **تلمســـان**. كمـــا سماهـــا **أبـــو بكـــر بـــن علـــي الصنهـــاجي** المعـــروف[2] **بالبـــذق**: "**تلمســـان**"؛ وذلـــك في مواضـــع عديـــدة مـــن كتابـــه: "أخبـــار **المهـــدي بـــن تومـــرت**". ومنذئـــذ أضحـــت المصـــادر جميعهـــا تستعمـــل كلمـــة **تلمســـان**. وكـــل هـــذا يفيـــد أن اسمهـــا (بالـــلام أو بالنـــون) ظهـــر ــ لأول مـــرة ــ في فتـــرة حكـــم **زناتـــة المغراوييـــن**؛ وربمـــا تعمـــدوا ذلـــك؛ قصـــد تجاهـــل اســـم **أغاديـــر**؛ الـــتي شيدهـــا **أبـــو قـــرة اليفـــرني** منافسهـــم.

***

[1] معجم البلدان، ص: 44.

[2] قدر بعضهم مولده في حدود 490هـ/1096م؛ وكان حيا في العهد الذي حكم فيه عبد المؤمن بن علي.

تلمسان.. تاج زناتة

– في عهد ابي قرة اليفرني:

يفهم من أقوال **عبد الرحمن بن خلدون**؛ أن **أبا قرة اليفرني الزناتي** هو مؤسس مدينة **تلمسان**؛ علماً بأنه لم يشر في حديثه – هنا – إلى اسم **أغادير** أو **بوماريا**.. هذه الأخيرة؛ التي يكون **أبو قرة**[1] قد شيّد مدينته **أغادير** فوق أنقاضها؛ فأضحت منذئذ تسمى بهذا الاسم؛ حتى برز اسم **تلمسان**؛ الذي أصبح متداولاً وشائعاً بين المؤرخين والجغرافيين المسلمين وغيرهم؛ وفي الوقت ذاته؛ نسي الناس اسم **بوماريا**؛ وكذلك **أغادير**[2]..

وكان **أبو قرة** هذا؛ (ونسبه بعضهم إلى قبيلة **مغيلة**)[3]؛ كان يرأس قبيلة **بني يفرن** آنذاك؛ حيث

---

[1] من مآثره بقايا سور كبير في تلمسان؛ به باب - موجود الآن - يسمى باب أبي قرة. (المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 76).

[2] ثمة من يعتقد أن أغادير نشأت قبل بوماريا؛ بل يرون أن بوماريا نفسها بنيت على أنقاض أغادير. ويبقى هذا الاحتمال قائماً بإلحاح؛ في انتظار ظهور دليل يؤكده أو ينفيه.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 58. اختلف المؤرخون حول نسبه؛ فمنهم من نسبه إلى بني يفرن؛ ومنهم من نسبه إلى قبيلة مغيلة. هذه القبيلة التي كانت تعيش أيضاً في محيط تلمسان، وثبت أنها تدين بالمذهب الصفري. وفي ذلك يقول ابن خلدون: ((وبعض المؤرخين ينسب أبا قرة

أبلى كل البلاء في ثورات الخوارج؛ إذ شارك معهم في معظم الحروب ضد **بني أمية وبني العباس**. كما كان على رأس أربعين ألفَ مقاتل؛ أثناء حصار الثوار الأمازيغ لوالي القيروان **عمر بن حفص** (هزارمرد) **بطبنة** سنة 150هـ/767م[1]. وتذكر المصادر أن **أبا قرة** نصب نفسه **بتلمسان** (أي **أغادير** قديماً) في مرتبة خليفة للمسلمين؛ ولقب بهذا اللقب سنة 148هـ/765م[2].

والثابت؛ أن بعض المصادر؛ أوردت خبر **أبي قرة** قبل هذا التاريخ (تاريخ حصار **طبنة**)؛ حيث وُجِد

هذا إلى مغيلة؛ ولم أظفر بصحيح في ذلك؛ والطرائق متساوية في الجانبين؛ فإن نواحي تلمسان ـ وإن كانت موطناً لبني يفرن ـ فهي أيضاً موطنَ مغيلة؛ والقبيلتان متجاورتان؛ لكن بني يفرن كانوا أشد قوة، وأكثر جمعاً؛ ومغيلة أيضاً كانوا أشهر بالخارجية من بني يفرن؛ لأنهم صفرية)). العبر، مج: 7، ص: 25.

[1] جاء في "الكامل في التاريخ" أن هذا الحصار حدث سنة 151هـ/768م. أنظر: ج: 5، ص ص: 31 - 32. أما الطبري فذكر قصة مقتل عمر بن حفص خلال سنة 153هـ/770م. أنظر، تاريخ الأمم والملوك؛ ج: 9، ص: 284.

[2] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص ص: 75. 77 - 78. العبر، مج: 7، ص ص: 24 - 25. وأورد ابن الأثير مقولة لأبي قرة؛ رد بها على رسول والي القيروان؛ الذي عرض عليه رشوة تقدر بستين ألف درهم؛ فقال: ((بعد أن سلم عليّ بالخلافة أربعين سنة؛ أبيع حربكم بعرض قليل من الدنيا)). الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 32. وهذا النص؛ يثبت أنه لقب بلقب خليفة مدة أربعين سنة. وبذلك يكون ما ورد في تاريخ الأمم والملوك للطبري فيه تحريف؛ حين كتب: ((وكان يسلم عليه ـ قبل ذلك ـ بالخلافة أربعين يوماً)). ج: 9، ص: 284. والصحيح هو ((عاماً)).

علـــى رأس قـــوة أمازيغيـــة؛ زحفـــت إلى **القيـــروان** في عهـــد **حنظلـــة بـــن صفـــوان**؛ حـــدث ذلـــك في سنـــة 124هـــ/741م بالتحديـــد[1]. كمـــا اعتـــرض **أبـــو قـــرة** أيضـــاً بجيشـــة **الأغلـــب بـــن سالـــم** سنـــة 148هـــ/765م؛ ولكنـــه انسحـــب دون حـــرب[2].

***

[1] **البيـان المغرب، ج: 1، ص: 58.**
[2] **الكامل في التاريخ، ج: 5، ص: 26.**

إمـارة الحسنيين في تلمسان

المهم؛ أن أخبار **أبي قرة** تلاشت فيما بعد؛ ولا يعرف مصيره بين قومه. وكل ما ثبت من أخبار؛ أن **تلمسان**؛ أضحت تحت سيادة فرع آخر من فروع **زناتة**؛ تمثله قبيلة **مغراوة**[1]؛ المجاورة **لتلمسان** من جهة الشرق؛ لأن مجالات **مغراوة** الأولى هي ما بين **تلمسان وشلف** إلى **جبل مديونة** وما يليه[2]. ويؤكد هذا؛ وجودهم في هذه المدينة سنة 174هـ/790م؛ حينما زحف **إدريس الأكبر ابن عبد الله بن حسن بن الحسن**[3] **بن علي بن أبي طالب**؛ نحو **تلمسان**؛ فخرج إليه المتغلب على المدينة؛ أمير **مغراوة ــ محمد بن خزر** ــ طائعاً ومبايعاً؛ ثم فتح له أبواب المدينة؛ فدخلها متملكاً إيّاها.

---

[1] يبدو أن تلمسان؛ أضحت تحت إمرة خزر بن محمد بن خزر؛ وفي هذا يقول ابن الخطيب: ((إلى أن ولي منهم خزر بن محمد بن خزر؛ فملك جميع بلاد زناتة، وملك تلمسان، وتاهرت، وجميع بلاد القبلة)). إعمال الأعلام (قسم المغرب) ص: 153.

[2] العبر، مج: 7، ص: 50. وجبل مديونة يسمى أيضا جبل وجدة. أنظر القبائل الأمازيغية، ج: 1، ص: 109.

[3] ثمة من ينسبه إلى الحسينيين. وقد تم اعتماد ما ذكره ابن حزم في جمهرة أنساب العرب؛ وهو الصحيح. ص: 48.

ومن مآثره فيها؛ أنه شيّد مسجدها الجامع، ونصب منبرها سنة 174هـ/790م[1].

وفي هذا الزمن بالذات وصل إلى **تلمسان** **سليمان بن عبد الله**. قدم من المشرق؛ هارباً ولاجئاً إلى كنف أخيه **إدريس بن عبد الله**؛ فاستقر بهذه المدينة واستوطنها[2]؛ ومن ثمة عقد له أخوه **إدريس** على ولايتها.

ـ بنو سليمان في تلمسان:

ويبدو أن الوضع تغير في **تلمسان**، ولم يبق على حاله بعد موت **إدريس الأول**؛ لأن **ابن خلدون** ـ وغيره ـ ذكروا أن **إدريس الثاني ابن إدريس بن عبد الله** عاود ـ مرة ثانية ـ فتح **تلمسان** سنة

---

[1] ورد في الأنيس المطرب بروض القرطاس ما يلي: ((وكتب عليه [أي المنبر]: بسم الله الرحمن الرحيم؛ هذا ما أمر به الإمام إدريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين رضي الله عنهم؛ وذلك في شهر صفر سنة أربع وسبعين ومائة)). ص: 8. ويقول ابن خلدون: ((وبنى مسجدها [أي تلمسان]، وأمر بعمل منبره، وكتب اسمه فيه حسبما هو مخطوط في صفح (؟) المنبر لهذا العهد)). العبر، مج: 7، ص: 25. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 192. ودائرة المعارف الإسلامية، ج: 5، مادة: تلمسان، ص: 455.

[2] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 122. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص: 210. والعبر، مج: 4، ص: 24. ومج: 7، ص: 52. أنظر أيضاً دول الخوارج والعلويين في بلاد المغرب والأندلس، ص ص: 373 - 380.

197هـ/812م[1]؛ وأقام بها مدة ثلاث سنين؛ وأعاد بناء مسجدها[2]؛ ثم أسند – مرة أخرى – ولايتها لابن عمه **محمد بن سليمان بن عبد الله**[3]. وهذا يعني؛ أن هذ المدينة خرجت عن سلطة **بني سليمان** لفترة ما؛ غير معروفة أسبابها ولا كيفيتها.

غير أن عبارة أوردها **ابن خلدون**؛ تفيد أنه كان – خلال إقامته في **تلمسان** – منشغلاً بقاومة فرق الخوارج والصفرية في **تلمسان** وأحوازها؛ حتى استعاد نفوذ المذهب السني، ونشره بين الناس[4]. وبعد ذلك؛ أضحى سكان تلك الجهات على مذهب

---

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 27. والعبر، مج: 4، ص: 27. وإعمال الأعلام، (قسم المغرب)، ص: 201. أنظر أيضاً المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 123.

[2] جاء في الأنيس المطرب بروض القرطاس أنه صنع فيها منبراً لمسجدها. ومعنى هذا أنه غيّر منبر والده: ((ودخل مدينة تلمسان؛ فنظر في أحوالها، وصلح أسوارها، وجامعها، وصنع فيها منبراً. قال أبو مروان عبد الملك الوراق: "دخلت مسجد تلمسان في سنة خمس وخمسين وخمسمائة؛ فرأيت - في رأس منبرها - لوحاً من بقية منبر قديم؛ قد سمّر عليه هنالك؛ مكتوب: هذا ما أمر به الإمام إدريس بن إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسين (؟) بن علي رضي الله عنهم؛ في شهر محرم سنة تسع وتسعين ومائة" فأقام إدريس بمدينة تلمسان وأحوازها ثلاث سنين؛ ثم رجع إلى مدينة فاس)). ص: 27.

[3] العبر، مج: 7، ص: 52.

[4] قال ابن خلدون في هذا: ((وأقام بها [أي في تلمسان] ثلاث سنين؛ وانتضمت كلمة البرابرة وزناتة، ومحوا دعوة الخوارج منهم)). العبر، مج: 4، ص: 27. أنظر أيضاً مج: 7، ص: 157.

السنّة. وهذا ما ظهر – فيما بعد – بالنسبة **لبني يفرن** المقيمين بها؛ إذ كانوا من أتباع المذهب السني. ومنذئذ؛ أضحت هذه المدينة وأحوازها – وما يتبعها من مدن ساحلية – حصة وإمارة **لبني سليمان**[1]. بينما اكتفى **بنو يفرن ومغراوة** بامتلاك الضواحي والبراري؛ وصلح حالهم مع **الأدارسة وبني سليمان**؛ فكانوا معهم على وفاق ووئام.

وحتى بعد موت **إدريس بن إدريس**؛ وتقسيم مملكته بين أولاده؛ ظلت **تلمسان** وأحوازها؛ ضمن ممتلكات **بني سليمان**[2]. ولم يقف الحال عند هذا فحسب؛ بل غدت مدناً كثيرة في المغرب الأوسط ضمن ممتلكاتهم[3].

---

[1] قال ابن خلدون: ((فكانت ولاية تلمسان وأمصارها في عقبه [أي عقب سليمان]؛ واقتسموا ولاية ثغورها الساحلية؛ فكانت تلمسان لولد إدريس ابن محمد بن سليمان، وأرشكول لولد عيسى بن محمد، وتنس لولد إبراهيم بن محمد بن محمد، وسائر الضواحي من أعمال تلمسان لبني يفرن ومغراوة)). العبر، مج: 7، ص: 52.

[2] ((وبقيت تلمسان لولد سليمان بن عبد الله)). العبر، مج: 4، ص: 28. أنظر أيضاً، مج: 7، ص: 157.

[3] يقول ابن خلدون: ((ولحق بتلمسان [أي سليمان] فملكها، وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هنالك. وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه. ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط؛ فاقتسموا ممالكه ونواحيه؛ فكانت تلمسان - من بعده - لابنه محمد.... وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان، وكانت جراوة لإدريس بن محمد بن سليمان، ثم لابنه عيسى وكنيته أبو العيش.... وكانت تنس لإبراهيم بن محمد بن سليمان، ثم لابنه محمد من بعده.... وكان من ولد إبراهيم هذا

تلمسان بين الفاطميين والامويين

- بنو يفرن ومغراوة في تلمسان:

واستمر حال **بني سليمان** هكذا؛ حتى ظهرت في **إفريقية** الدولة **الفاطمية**؛ التي تطلعت إلى التوسع غرباً؛ فتصدت لها **زناتة**[1]؛ وعلى رأسها قبائل: **بني يفرن ومغراوة**؛ إذ بادرت تلك القبائل إلى محاربة **الفاطميين**، والوقوف ضد أطماعهم التوسعية؛ وذلك منذ سنة 298هـ/910م؛ حين هدّد **محمد بن خزر المغراوي** مدينة **تيهارت**؛ وطمع في الاستيلاء عليها، وإخراج عامل **الفاطميين دواس بن صولات** من تلك المدينة[2]؛ ولكن **المغراويين** عجزوا أمام هذه الدولة الفتية؛ التي ساندتها قبائل: **كتامة ومكناسة**، ثم **تلكاتة** الصنهاجية فيما بعد[3]. غير أن **المغراويين**

أحمد بن عيسى بن إبراهيم صاحب سوق إبراهيم، وسليمان بن محمد ابن إبراهيم من رؤساء المغرب الأوسط... قال ابن حزم: "وهم بالمغرب كثير جداً؛ وكان به لهم ممالك؛ وقد بطل جميعها"... وحمل بني حمزة هؤلاء؛ جوهر إلى القيروان؛ وبقيت منهم بقايا في الجبال والأطراف معروفة هناك عند البربر)). العبر، مج: 4، ص ص: 34 - 36.

[1] البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ج: 1، ص ص: 155. 162.

[2] نفسه ص: 155.

[3] إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 153.

تمكنوا ـ بالصبر والمطاولة ومداومة النضال ـ من إقلاق مضاجع الغزاة **الفاطميين** وأتباعهم، بل استطاعوا كسر شوكة جيشهم، وقتل قائدهم **مصالة ابن حبوس** في سنة 309هـ/921م[1].

وكان **الناصر لدين الله** الأموي **بالأندلس**؛ قد أدرك مدى حاجته إلى حلفاء ببلاد **المغرب**؛ خاصة بعد قيام الدولة **الفاطمية** واستفحالها، وتبنيها لشعار خلافة المسلمين؛ لذا فقد بادر بالاتصال بقبائل **زناتة**؛ تلك القبائل التي تصدت ـ من قبل ـ للمشاريع التوسعية التي يرمي إليها **الفاطميون**. وعليه؛ فبعد تعاظم الخطر **الفاطمي**؛ المهدد لدول المنطقة كلها؛ استشعر **الناصر لدين الله**[2] حجم الضّرر الزّاحف إليه من **إفريقية**؛ لذا فقد قرّر عقد حلف مع القبائل المغربية المعادية **للشيعة**؛ والسعي إلى التعاون معها ضد العدو المشترك.

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 53. ولكن ابن عذاري سجل خبراً مفاده أن مصالة وفد على المهدي في المهدية سنة 310هـ/922م؛ ثم صرفه إلى تيهارت. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص: 187.

[2] هو عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) ولد في سنة 277هـ/891م وتوفي في سنة 350هـ/961م. وهو أول من تسمى من المروانيين الأمويين بالأندلس بلقب أمير المؤمنين، ونودي بخليفة المسلمين؛ اختار هذا بعد ظهور الخلافة الفاطمية بالبلاد المغربية.

وبالفعل؛ فقد تمّ له ما أراد سنة 316هـ/928م[1]؛ حين وقفت جلّ قبائل **زناتة**[2] في صفه ضد **الفاطميين**؛ وأعلنت الدعوة له على منابر المغرب التابعة إليها.

وهكذا؛ فإن كان الصراع المرير المزمن؛ قد ظل على حاله، ولم يحسم بين قبائل **زناتة** والدولة **الفاطمية**؛ فإنه ــ بالتوازي ــ سرعان ما انتهى بالقضاء على الدولة **الإدريسية** في **فاس بالمغرب الأقصى**، وإمارات **بني سليمان** في **تلمسان** ــ بأحوازها وسواحلها ــ الأمر الذي عجل بإلحاقهم ــ جميعاً ــ بممتلكات **الفاطميين**، أحياناً، وبالدولة الأموية أحياناً أخرى.

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 53.

[2] ((فبادر محمد بن خزر إلى إجابته؛ وطرد أولياء الشيعة من الزاب؛ وملك شلب وتنس من أيديهم؛ وملك وهران، وولى عليها ابنه الخير؛ وبث دعوة الأمويين في أعمال المغرب الأوسط؛ ما عدا تاهرت. وبدأ في القيام بدعوة الأموية إدريس بن إبراهيم بن عيسى بن محمد بن سليمان صاحب أرشكول. ثم فتح الناصر سبتة سنة سبع عشرة من يد الأدارسة؛ وأجار موسى بن العافية على طاعته؛ واتصلت يده بمحمد بن خزر؛ وتظاهروا على الشيعة. وخالف فلفول بن خزر أخاه محمد في طاعة الشيعة؛ وعقد له عبيد الله على مغراوة)). العبر، مج: 7، ص ص: 53 - 54.

ـ ظهور مكناسة واستفحالها:

ويعتبر أهم عامل ـ هنا ـ في الدمار والخراب الذي أصاب تلك الدول والإمارات؛ هو ظهور وتنامي عصبية قبيلة **مكناسة** (وهم فرع من **البتر** وإخوة **لزناتة**)؛ ومثولهم كقوة بطش وإفساد في ضواحي **المغرب** كله. الأمر الذي أنهك **الأدارسة وبني سليمان** معاً؛ لأنهما لم يحتملا الصراع المتواصل مع تلك القبيلة **البترية** المتماسكة؛ ذات العصبية الجياشة؛ والمدعومة بالدولة **الفاطمية**.. حدث ذلك كله؛ جراء أطماع هذه القبيلة؛ بقيادة زعيمها **موسى بن أبي العافة**[1]؛ الذي ـ كما يبدو ـ يُكِنُّ حقداً كبيراً، وضغينة حامية نحو **الأدارسة**. وعليه؛ فقد حارب أعداءه بالمطاولة والمداومة؛ دون كلل أو ملل. وتم هذا طبعاً؛ نتيجة لعنفوان العصبية **المكناسية**؛ التي ازدادت لحمتها متانة وحميتها اشتعالاً؛ بفضل الصلة الحاصلة بينها وبين القائد العسكري **للفاطميين مصالة بن حبوس المكناسي**[2]. وعلى هذا؛

---

[1] **((هو موسى بن أبي العافية بن أبي باسل بن الضحاك بن مجزول بن تمريس بن فراديس بن ونيف بن مكناس بن ورسطف)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51.**

[2] **الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص ص: 49. 50. 51. العبر، مج: 4، ص ص: 32 - 33. ومج: 6، ص ص:. 274 - 275.**

فقد تمكنت هذه القبيلة **البترية**؛ من الهيمنة على الجهات الغربية كلها؛ بما فيها **تلمسان**؛ التي تغلب عليها زعيم **مكناسة** سنة 319هـ/931م؛ بعد أن طرد أميرها **الحسن بن أبي العيش بن عيسى بن إدريس ابن محمد بن سليمان**، وأجبره على النزوح إلى مدينة **مليلة** الساحلية[1].

وهنا؛ وجب التذكير بالأحداث المأساوية التي مرّت بها ديار **المغرب** عبر قرون وقرون.. إذ لم تعرف هذه البلاد لحظة استقرار منذ القرون السالفة للدولة **الإدريسية**؛ وبالإضافة إلى ذلك؛ فقد التهبت هذه الأرض ــ أيضاً ــ في أواخر الدولة المذكورة وفسد حالها. والجدير بالذكر هنا؛ أن هذه الأحداث المشتعلة؛ كانت تجري ــ في تلك الديار ــ بينما حافظ الوضع في مدينة **تلمسان** على ضبابيته؛ إذ انشغلت المصادر التاريخية بأخبار **فاس** ومحيطها، ثم **تيهارت** وما جاورها، **وسجلماسة** وأحوالها. أما **تلمسان**؛ فقد غابت عن مسرح الأحداث لبعض الوقت. ثم برزت ــ فجأة ــ عندما زحف إليها **ابن**

البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص ص: 183.

[1] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51. والبيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ج: 1، ص51. والعبر، مج: 4، ص ص: 275 - 276.

أبي العافيـــة المكنـــاسي ــ كمـــا سبــق ذكــره ــ سنـــة 319هـــ/931م[1]؛ فأسقــط دولـــة **الحســـن بـــن أبي العيـــش**، واستـــولى عـــلى المدينـــة[2]. ولكنـــه لـــم يـــدم في ملكـــه؛ بعـــد أن فســـد الحـــال بينـــه وبيـــن رُعاتـــه **الفاطمييـــن**[3]؛ الذيـــن طـــاردوه في كـــل مكـــان هـــرب إليـــه.

ويبـــدو أن دوافـــع العصبيـــة **المكناسيـــة** تلاشـــت؛ بعـــد مقتـــل **مصالـــة**. لـــذا فقـــد بـــادر **ابـــن أبي العافيـــة** ــ عنـــد استيلائـــه عـــلى **تلمســـان** و**فـــاس** ــ إلى نقـــل بيعتـــه إلى **عبـــد الرحمـــن الناصـــر** في **الأندلـــس**[4]؛ الأمـــر الـــذي أغضـــب **عبيـــد اللـــه المهـــدي**؛ فجـــرد جيشـــاً لقتالـــه بقيـــادة والي **تيهـــرت الفاطـــمي حميـــد بـــن يصلتـــن**[5] **المكنـــاسي**

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 275.

[2] نفسه، ص ص: 275 - 276.

[3] سبب الخلاف بين ابن أبي العافية والدولة الفاطمية؛ يرجع إلى نقل طاعته ودعوته إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله الأموي. عندها بعث إليه عبيد الله الشيعي جيشاً بقيادة حميد بن يصلتن المكناسي سنة 321هـ/933م؛ فهزمه وكبح جماحه، وأخرجه من أملاكه، ثم ألجأه إلى نواحي تسول. أنظر العبر ، مج: 6، ص: 276.

[4] ((فلما ملك ابن أبي العافية تلمسان وتكرور وفاس؛ بايع عبد الرحن الناصر لدين الله ـ ملك الأندلس ـ وقام بدعوته وخطب له على جميع منابر عمله)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 51. أنظر أيضاً العبر، مج: 6، 276.

[5] كُتِب في بعض المصادر أحيانا: (يصليتن، ويصل، ويصليصن). وحُرِّف في الأنيس المطرب؛ فكتب: حميد بن سبيل الكتامي. أنظر ص: 51. وكذا الحال عند يحيى بن خلدون؛ الذي سماه: ((حميد بن شبل الكتامي)).

(وهــو ابــن أخي **مصالــة**)[1]. فاستلحــم **المكناسييــن**، واستــولى عــلى ممتلكاتهــم، وطــارد قائدهــم **ابــن أبي العافيــة**؛ وأجبــره عــلى الهــروب إلى جهــات **تســول**؛ أيــن تحصــن في انتظــار إعــادة الكــرة. وبعــد استيــلاء **ابــن يصلتــن** عــلى مــدن **المغــرب**؛ انثــنى نحــو مدينــة **تلمســان** حيــث استــولى عليهــا في سنــة 321هــ/933م؛ ثــم أتبعهــا بمدينــة **فــاس**. وبعدهــا؛ عــاد إلى **إفريقيــة**[2].

ومــا يمكــن ملاحظتــه ــ هنــا ــ هــو صمــت المصــادر؛ عــن ذكــر اســم الــوالي الــذي نصبــه **حميــد ابــن يصلتــن** عــلى **تلمســان**؛ بعــد انتــزاع المدينــة مــن قبضــة **ابــن أبي العافيــة**. وربمــا يكــون قــد ولى عليهــا أميــراً مــن **بــني سليمــان**؛ (**كإدريــس بــن إبراهيــم** صاحــب **أرشكــول**، أو **أبي العيــش بــن عيــسى**، أو غيرهمــا). المهــم؛ أن المصــادر صمتــت عــن الإشــارة إلى ذلــك. ويفهــم مــن كــل هــذا؛ أن **تلمســان**؛ دخلــت في طاعــة **الفاطمييــن** ــ لبعــض الوقــت ــ منــذ سنــة 321هــ/933م. ولكــن طاعتهــا لــم تــدم ــ طويــلاً ــ إذ سرعــان مــا انتقضــت ــ مــع مــدن **المغــرب** الأخــرى ــ

بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 168. أما ابن الخطيب؛ فسماه: ((حميد بن تيسيل)). إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص ص: 215 - 216.

[1] العبر، مج": 6، ص: 276.

[2] الأنيس المطرب، ص ص: 51 - 52. والعبر، مج: 6، ص: 276.

على **الفاطميين**؛ بعد موت **عبيد الله المهدي**. وجراء هذا؛ تمكن **ابن أبي العافية** من التغلب على **تلمسان** – من جديد – بعد رجوع الجيش **الفاطمي** إلى **إفريقية**.

المهم؛ أن دوام الحال من المحال؛ إذ كسر الإمام الجديد **للفاطميين** – وخليفة **المهدي** (ولده **القاسم**) – حاجز الاستقرار والاطمئنان؛ بإرساله القائد **ميسور الفتى** سنة 322هـ/933م[1]؛ على رأس جيش عرمرم؛ مهمته اجتياح أرض **زناتة** في الناحية الغربية؛ واستلحام العصاة، وتدمير الديار؛ والتنكيل **بابن العافية** وقبيله. وبالفعل فقد حقق أهدافه كاملة وطارد **ابن أبي العافية**، وأخرجه من ديار **المغرب**؛ أين ألجأه إلى أعماق الصحراء[2]. ومما أنجزه **ميسور الفتى** في حملته هذه؛ أنه فتح **تلمسان** سنة 323هـ/934م؛ حيث أسند ولايتها **لأبي العيش بن عيسى (من بني سليمان)[3]**. فعادت بذلك – مرة

---

[1] **في الأنيس المطرب: سنة 323هـ.**

[2] **((وأجلى موسى بن أبي العافية عن أعمال المغرب؛ إلى نواحي: ملوية ووطاط وما وراءها من بلاد الصحراء؛ وقفل إلى القيروان)). العبر، مج: 6، ص: 277.**

[3] **لم يذكر صاحب الأنيس المطرب - هنا - تلمسان؛ ولكنه قال: ((وتملك الأدارسة أكثر ما كان بيد موسى بن أبي العافية؛ قائمين بدعوة أبي القاسم الشيعي)). ص: 52.**

أخرى – إمارة **بني سليمان** إلى **تلمسان** سنة 324هـ/935م؛ في ظل الدولة **الفاطمية**. ولكنها انطفأت وانهارت فجأة؛ بعد انسحاب جيش **الفاطميين** ورجوعه إلى **إفريقية** في السنة نفسها. حينها انتهز **موسى بن أبي العافية** هذه الفرصة؛ فعاد من منفاه بالصحراء؛ واستولى – من جديد – على المدينة في سنة 325هـ/936م؛ حيث ساعده في مسعاه **عبد الرحمن الناصر الأموي**؛ الذي أمدّه بأسطول بحري[1]. تمكن بعدها من فتح المدينة وإجبار **أبي العيش بن عيسى** على الفرار منها[2].

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 277.

[2] نفسه، ص: 277. لم يشر صاحب الأنيس المطرب إلى هذا؛ وكل ما قاله: ((فلم يزل ابن أبي العافية شريداً في أطراف البلاد التي بقيت بيده؛ وذلك من مدينة أجرسيف إلى مدينة تكرور؛ إلى أن قتل في بعض بلاد ملوية؛ وذلك في سنة إحدى وأربعين وثلاثمائة؛ وقيل: في سنة ثمان عشرين وثلاثمائة؛ قاله البرنوسي. فولي - بعده - إبراهيم؛ ولده إلى أن توفي في سنة خمسين وثلاثمائة؛ فولي ولده عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية؛ إلى أن توفي في سنة ستين وثلاثمائة. وذكر بعض المؤرخين لأيامهم: أنه لمّا توفي محمد بن عبد الله بن إبراهيم بن موسى بن أبي العافية؛ ولي بعده ولده القاسم بن محمد؛ المحارب للمتونة؛ فكانت بينه وبينهم حروب كثيرة؛ إلى أن غلب عليه يوسف بن تاشفين؛ فقتله، واستأصل بلاده؛ حتى قطع مسافة ذرية موسى بن أبي العافية من المغرب. وكانت أيامهم فيه؛ من سنة خمس وثلاثمائة إلى سنة خمس وأربعين وأربعمائة. وذلك مائة وأربعين سنة؛ من أول دولة عبد الرحمن الناصر لدين الله إلى قيام لمتونة)). ص ص: 52 - 53.

وبحلول السنة المذكورة أعلاه؛ انشغل **الفاطميون** بما أصابهم من فتن وانكسارات؛ جراء ثورة **أبي يزيد مخلد بن كيداد**[1]. فسمح هذا الأمر **للناصر لدين الله** بالتنفس من ضيقه، والتوسع في محيطه. عندها؛ صوّب وجهته ـ هو الآخر ـ نحو الضحية الأضعف في المنطقة؛ وهي الدولة **الإدريسية**؛ قصد إخضاعها لسلطانه، والسيطرة على ممالك **المغرب**. وعليه؛ فقد سمح ببقاء **تلمسان** ـ إلى جانب مدن **المغرب** ـ في قبضة **ابن أبي العافية**؛ على أن تكون ضمن إطار الدولة **الأموية**؛ كما حرص **الناصر** على تقسيم النفوذ ـ في ديار المغرب ـ بين القبيلتين المتنافستين: **مغراوة ومكناسة**؛ وعمل على اشتراكهما في دعوة **الأمويين**. ومع هذا فقد اشتعلت الفتن بين القبيلتين. فبادر **الناصر لدين الله** إلى إطفاء نارها؛ بإرسال قاضيه **منذر بن سعيد**؛ فأصلح بينهما[2]؛ وألزمهما بالسلم والمهادنة. وبعد أن شعر **الناصر** بالإطمئنان إلى سلامة نفوذه ببلاد **المغرب**؛ ـ نتيجة لتراجع دور **الفاطميين**؛ وانكماشهم في **إفريقية**؛ جراء الضربات الموجعة التي سدّدها إليهم **أبي يزيد** ـ

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 54.**
[2] **نفسه، مج: 6، ص: 278.**

تقمص دور الحاكم الفعلي في تلك الديار؛ حيث شرع في توزيع المهام والمناصب على أنصاره وقادة القبائل. من ذلك تكليف **حميد بن يصل (يصلتن)**[1] بقيادة جيش الأمويين في **المغرب الأوسط**. بحيث مثّله في غزو **تيهرت** سنة 333هـ/944م؛ رفقة **يعلى بن محمد اليفرني ومحمد بن خزر المغراوي**؛ ثم ولاه أيضاً على **تلمسان** وأعمالها سنة 340هـ/951م[2].

والواضح؛ أن الفترة ما بين سنتي: 325هـ/936م (سنة تغلب **ابن أبي العافية** على **تلمسان**) و340هـ/951م؛ (سنة إسناد ولايتها إلى **حميد بن يصل** (يصلتن)؛ ساد فيها غموض قاتم؛ لا يعرف خلاله مصير **تلمسان**. وكل ما في الأمر؛ هو هيمنة أخبار **بني يفرن** على الأحداث في الديار المغربية كلها؛ خلال معظم هذه الفترة الزمنية؛ التي ثار فيها **أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني** على **الفاطميين** اعتباراً من سنة325هـ؛ حيث أنهك

---

[1] وحميد بن يصل (يصلتن) هذا؛ ترك خدمة الفاطميين والتحق ـ سنة 328هـ/939م ـ بالناصر لدين الله الأموي؛ بواسطة محمد بن خزر؛ زعيم مغراوة؛ حيث قال ابن خلدون: ((ثم انتقض حميد بن يصل سنة ثمانٍ وعشرين؛ وتحيز إلى محمد بن خزر؛ ثم أجاز إلى الناصر؛ وولاه على المغرب الأوسط)). العبر، مج: 7، ص: 54.

[2] نفسه، ص: 55.

دولتهم، وكاد أن يسقطها. وعلى هذا؛ فقد انصب اهتمام المؤرخين على صراعه مع **الشيعة**؛ ولم يشيروا – إلاّ في حالات نادرة وخاطفة – إلى ما يجري من أحداث في **تلمسان**؛ وذلك حين قال **ابن خلدون**: ((**وعقد الناصر لحميد بن يصل على تلمسان وأعمالها؛ وليعلى بن محمد على المغرب وأعماله**))[1]. وفي سنة 340هـ/951م كذلك؛ بدأت بوادر الخلاف تطفوا على السطح بين **الناصر لدين الله ومغراوة**؛ حدث هذا؛ بعد أن أسند السلطان **الأموي** ولاية **تلمسان** إلى **حميد بن يصل (يصلتن)**؛ ثم وضع **يعلى بن محمد**؛ زعيم **بني يفرن** على رأس ولاية **المغرب الأقصى**. وهنا انفرط العقد الواصل بين ملك **الأندلس**، وقبيلة **مغراوة**؛ حيث بادر زعيمها **محمد بن خزر** بمدّ يد التحالف والتعاون إلى **الفاطميين**[2]؛ أعداء **الأمويين وبني يفرن** معاً. والظاهر أن **يعلى بن محمد اليفرني**؛ كان أكثر قرباً إلى قلب **عبد الرحمن الناصر**؛ بسبب انتمائه **لبني يفرن**؛ أعداء **الفاطميين** الصرحاء؛ جراء ثورتهم مع **أبي يزيد**. كما أن تذبذب **محمد بن خزر المغراوي**،

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 55.**

[2]. **نفسه، ص: 55.**

وعلاقاته المشوبة بالريبة مع **الشيعة**[1]؛ حفز **الناصر** على الحذر منه. لذا فقد مالت ثقة **الناصر الأموي** إلى **يعلى بن محمد** أمير **بني يفرن**؛ بعد أن عقد **محمد بن خزر** صفقة مع الإمام الشيعي **إسماعيل** ضد **أبي يزيد الخارجي**.[2] ويرجع هذا التناغم مع **الناصر لدين الله**؛ إلى أيام والد **يعلى**؛ الذي قتل في زمن **أبي يزيد**؛ فخلفه في **بني يفرن** ولده **يعلى بن محمد**[3]. ووالد **يعلى اليفرني** هذا؛ هو **محمد بن صالح**[4] شيخ **بني يفرن**؛ في الجهات الغربية.

- بنو يفرن من جديد في تلمسان:

وبرز دور **محمد بن صالح اليفرني** بعد ظهور فشل **أبي يزيد مخلد بن كيداد** في ثورته ضد **الفاطميين**؛ وإثر القبض عليه سنة 335هـ/946م؛

---

[1] تجلى ذلك قبل سنة 333هـ/944م؛ حين اتصل محمد بن خزر بالعاهل الفاطمي إسماعيل؛ وقدم طاعته للدولة الشيعية. وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ولما خرج إسماعيل إلى حصار أبي يزيد؛ وزحف إلى المغرب في أتباعه؛ خشيه محمد بن خزر على نفسه؛ لِما سلف منه في نقض دعوتهم، وقتل أتباعهم؛ فبعث إليه بطاعة معروفة. وأوعز إليه إسماعيل بطلب أبي يزيد؛ ووعده - في ذلك - بعشرين حملاً من المال)). العبر، مج: 7، ص: 54.

[2] نفسه، ص ص: 33 - 34. 54.

[3] نفسه، ص: 36.

[4] قتله عبد الله بن بكار اليفرني المتحيز إلى مغراوة؛ خلال فتنة نشبت بين القبيلتين. نفسه، ص ص: 35 - 36.

حيث تلقت قبيلة **بني يفرن** ضربة قاصمة؛ فنُكِّل بأتباعها في **إفريقية**، وطوردوا في أصقاع الأرض. عندها؛ جمعوا فلولهم ونزحوا إلى موطنهم الأصلي؛ وفي مدينة **تلمسان** بالذات؛ المدينة التي شيدوها أيام **أبي قرة اليفرني**. وكان أمير **بني يفرن** هذه المرة هو **صالح بن محمد اليفرني** المذكور[1]. فاستقبل النازحين بأريحيّة وصدْر رحب؛ أملتها العصبية **اليفرنية**[2]. وواضح؛ أن **الأمويين** ــ في **الأندلس** ــ رجّحوا كفّة **بني يفرن**؛ بعد موت زعيمهم **محمد ابن صالح**؛ وقد تجلّى ذلك حينما أسند **الناصر لدين الله** سنة 341هـ/954م ولاية **المغرب** وأعماله **ليعلى بن محمد بن صالح اليفرني**، وولاية **تلمسان** وأعمالها إلى **حميد بن يصلتن (يصل المكناسي)**؛ فغدت ــ بذلك ــ هذه المدينة تابعة للخلافة الأموية بالأندلس مباشرة.

وبفعل الحَمِيَّة والعصبية القبلية؛ وسعياً وراء النفوذ الواسع، ونتيجة للتزاحم على امتلاك الأرض؛

---

[1] ثبت أن مذهب بني يفرن - بدءاً بعهد صالح بن محمد هذا - أضحوا يدينون بالمذهب السني.

[2] ((ولما انقرض أمر أبي يزيد، وأثخن المنصور فيمن كان بإفريقية - من بني يفرن - أقام هؤلاء الذين بنواحي تلمسان على وفودهم؛ وكان رئيسهم لعهد أبي يزيد محمد بن صالح)). العبر، مج: 7، ص: 35.

نشبت الفتن بين قبيلتي: **بني يفرن** بقيادة **يعلى بن محمد**، وأمير **مغراوة محمد بن خزر**؛ الأمر الذي أغرق **المغربين: الأوسط والأقصى** في جحيم من الفتن والحروب المفنية لكل أخضر ويابس. وكان **يعلى بن محمد** سباقاً إلى طاعة **عبد الرحمن الناصر**؛ فاستجاب له حين خاطب **زناتة** بطلبه[1]. ثم بادر من فوره سنة 343هـ/954م؛ فانتزع مدينة **وهران** من أيد **الفاطميين**؛ ثم زحف إلى **تيهرت** ــ مع **حميد بن يصل ومحمد بن خزر** ــ واستولوا عليها؛ وأسروا واليها **ميسور الفتى**: **((واستفحل سلطان يعلى في ناحية المغرب؛ وخطب على منابرها لعبد الرحمن الناصر؛ ما بين تاهرت إلى طنجة))**[2].

فغضب ــ بسبب ذلك ــ **محمد بن خزر**؛ واستاء للحظوة التي نالها ابن عمه ومنافسه **يعلى**

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 36.

[2] نفسه، ص: 36. يوجد اختلاف في أسماء الأشخاص بين ابن خلدون وصاحب الأنيس المطرب. إذ سمى هذا الأخير يعلى بن محمد اليفرني؛ باسم محمد بن الخير بن محمد اليفرني. ثم أضاف عبارة بدا ـ من خلالها ـ اضطرابه وخلطه؛ حيث قال: ((فولى [أي الناصر] عليها محمد ابن الخير بن محمد اليفرني ثم الزناتي؛ وكان من أبسط ملوك زناتة يداً، وأعظمهم شأناً، وأحسنهم ـ إلى ملوك بني أمية ـ انحياشاً، وأخلص لهم طرية. وذلك بولاية عثمان بن عفان رضي الله عنه بجدهم حرب بن حفص بن صولات بن ونزمار اليفرني)). ص: 54. وهذا القول ينطبق ـ في الحقيقة ـ على مغراوة؛ لا على بني يفرن.

ابـن محمـد **اليفـرني**؛ لـذا فقـد لجـأ إلى الخليفـة الفاطـمي **المعـز بـن إسماعيـل** سنـة 342هـ/955م؛ فاستقبلـه هـذا الأخيـر بالترحـاب والإكـرام[1]. وبـقي في **القيـروان** إلى أن زحـف رفقـة **جوهـر الصقـلي** إلى بـلاد المغـرب سنـة 958/347م (أو 348هـ)؛ وهي الحملـة الـتي قُتِـل فيهـا **يعـلى بـن محمـد اليفـرني**. وذكـر ابـن خلـدون أن **محمـد ابـن خـزر** مـات في القيـروان سنـة 350هـ/961م عـن عمـر يناهـز المائـة عـام. وبـقي **يعـلى بـن محمـد اليفـرني** عـلى حالـه ومرتبتـه إلى عـام 347 أو 348هـ/909م؛ أيـن زحفـت جيـوش **الفاطميـين** نحـوه بقيـادة **جوهـر الصقـلي**؛ المرفـوق **بزيـري بـن منـاد التلكـاتي الصنهـاجي، ومحمـد بـن خـزر المغـراوي**[2] المنافـس **ليعـلى**. فالتـقى هـذا الأخيـر بهـم؛ معلنـا طاعتـه؛ ولكـن **جوهـر الصقـلي** غـدر بـه، ودبـر مقتلـه. وبذلـك قـضي عـلى دولـة **بـني يفـرن** في **المغـرب**

---

[1] **((فراجع محمد بن خزر طاعة الشيعة؛ من أجل قريعه يعلى بن محمد. ووفد على المعزّ؛ بعد أن هلك أبيه إسماعيل سنة اثنين وأربعين. فأولاه تكرمة على طاعتهم؛ إلى أن حضر ـ مع جوهر ـ في غزاته إلى المغرب؛ بأعوام سبع أو ثمان وأربعين. ثم وفد على المعز؛ بعد ذلك سنة خمسين؛ وهلك بالقيروان؛ وقد نيَّف على المائة من السنين)). العبر، مج: 7، ص: 55.**

[2] **العبر، مج: 6، ص: 314. مج: 7، ص: 55.**

الأوسط؛ حيث بادر القائد **الفاطمي** إلى **تهديم** حاضرة **يعلى**؛ مدينة **إفكان**.

ـ تكاتف الصنهاجية وزناتة:

المهم؛ أن هذه الواقعة؛ كانت بداية ولوج **بني زيري الصنهاجيين** إلى الجهات الغربية؛ كما أعلنت عن بدء الصراع المرير بين **زناتة** من جهة **(مغراوة وبني يفرن) وصنهاجة** من جهة أخرى (ممثلين **ببني زيري بن مناد**). هذا الصراع الذي لم تنقطع أحداثه؛ منذ التاريخ المذكور وحتى سقوط دولتي **بني زيري**: في **إفريقية** وفي **المغرب الأوسط**.

ولم يُعرَف مصير **تلمسان** خلال حملة **جوهر الصقلي**؛ الذي اجتاح بلاد **المغرب** كلها بجيشه؛ ولا يعرف كذلك إن كان دخلها أم تجاوزها. ولكن **ابن عذاري** أشار إلى **حميد بن يصلتن** واليها؛ من قِبَل **الناصر لدين الله**؛ فذكر أنه متواجد في مدينة أخرى؛ سماها: **"تيكبيساس"**[1]. ربما تكون هي

---

[1] **((وكتب الناصر إلى حميد يصال [يصل أو يصلتن] صاحب تيكبيساس - وتلك الجهات كلها - أن يعين القائد المذكور [أي أحمد بن يعلى] على بني محمد؛ فتخلى بنو محمد عن بناء تطاوين؛ لما اجتمع العسكران عليهم)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 122.**

تيفيساس[1] الواقعة في أرض **غمارة**؛ بين **سبتة وطنجة**؛ وسماها **ابن خلدون: "تيكيساس"**[2]. ويفهم من هذا؛ أن **يصلتن**؛ والي **تلمسان**؛ انتقل منها بفعل ضغوط الحرب مع **جوهر الصقلي**. وذكر **ابن خلدون** أن أولياء **الأموية** انكفأوا وانقبضوا إلى أعمال **سبتة وطنجة**؛ بعد هلاك **الناصر لدين الله** سنة 350هـ/961م[3].

وهنا؛ يتضح أن وضع **تلمسان** تراجع وانكمش في هذه الفترة المحرجة. وربما حدث لها ما حدث لغيرها من مدن المغرب؛ بفعل الحرب والخراب؛ اللذين تعرضت لهما طوال الأحداث المدمرة السالفة. لذا فقد خلت **تلمسان** من حماتها؛ بعد انسحابهم نحو أقصى الشمال الغربي للبلاد. وهذا يفسر ما ذكره **ابن عذاري** بخصوص تواجد الوالي **الأموي حميد بن يصلتن** في **تيكيساس** أو **تيفيساس**.

وكانت الفترة التي تلت سنة 350هـ ـ بعد وفاة **الناصر لدين الله** ـ فترة صراع وكفاح مرير شنته قبائل **زناتة** ضد الغزاة **الفاطميين** وأتباعهم

---

[1] المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، ص: 108.
[2] العبر، مج: 6، ص ص: 436 . 447. 449.
[3] نفسه، مج: 7، ص: 55.

مـــن بـــني زيـــري. كمـــا أن **الأمويـيـــن**؛ ثبتـــوا عـــلى مواقفهـــم؛ ولـــم يتراجعـــوا عـــن أهدافهـــم في بـــلاد **المغـــرب**؛ إذ بـــادر **المستنصـــر باللـــه الحكـــم بـــن عبـــد الرحمـــن** بالإتصـــال بقبائـــل **زناتـــة**؛ مـــن أجـــل مواصلـــة التعـــاون المعمـــول بـــه سابقـــاً. وبالفعـــل؛ تحقـــق لـــه مـــا أراده؛ حيـــن لـــبَّى طلبـــه **محمـــد بـــن الخيـــر بـــن محـــد بـــن خـــزر**؛ زعيـــم **مغـــراوة**: ((**فأثخـــن في الشيعـــة، ودوخ بلادهـــم؛ ورمـــاه معـــدّ بقريعـــه زيـــري بـــن منـــاد؛ أمـيـــر صنهاجـــة؛ وسوغـــه مـــا غلـــب عليـــه مـــن أعمالهـــم**))[1]. وانكشفـــت حروبهـــم المدمـــرة هـــذه؛ عـــن مقتـــل **محمـــد بـــن الخيـــر** سنـــة 360هـــ/970م[2]؛ جـــراء انتحـــاره؛ خوفـــاً مـــن معـــرة الهزيمـــة والأســـر؛ ولحـــق بـــه ((**سبعـــة عشـــر أميـــراً؛ ســـوى الأتبـــاع**))[3]. مـــن **مغـــراوة**. كمـــا قتـــل زيـــري بـــن

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 55 - 56. أشار ابن الخطيب إلى محمد بن الخير؛ فقال: ((وكان محمد بن الخير من أكبر ملوك زناتة، وأكثرهم جمعاً، وأشجعهم جنداً، وأشدهم إخلاصاً ومحبة لبني أمية... ثم محمد بن الخير ابن خزر؛ فغلب على مدينة تاهرت وتلمسان والمسيلة وأعالي المغرب والصحاري وجميع بوادي زناتة وأكثر بلاد الزاب والقبلة. وخطب في جميع طاعته لبني أمية؛ ملوك الأندلس)). إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص ص: 153 - 155.**

[2] **في قول سنة 361هـ أنظر العبر، مج: 7، ص: 59.**

[3] **العبر، مج: 7، ص: 56. أنظر أيضاً مج: 6، ص ص: 314 - 315.**

منـــاد في معركـــة أخـــرى سنـــة 360هـــ/970م؛ احتُـــزَّ فيهـــا رأســـه، وأرســـل إلى **قرطبـــة**[1].

وبمـــوت **زيـــري**؛ استخلـــف **المعـــز لديـــن اللـــه الفاطـــمي** ابنـــه **بلكيـــن** مكانـــه؛ وسوغـــه مـــا ســـوغ لأبيـــه مـــن أعمـــال يفتكهـــا مـــن **زناتـــة**؛ ثـــم أمـــده بمـــا يلـــزم مـــن العساكـــر والأمـــوال؛ فخـــرج غازيـــاً في أرض **زناتـــة**؛ فأثخـــن في بنيهـــا وقتـــل أميرهـــا **الخيـــر بـــن محمـــد** عنـــد **سجلماســـة**؛ وتغلـــب عـــلى أوطانهـــا في المغـــرب الأوســـط؛ حيـــث وصـــل تمكنـــه وتغلبـــه إلى حـــدّ أنـــه: ((**ورفـــع الأمـــان عـــن كـــل مـــن ركـــب فرســـاً، أو أنتـــج خيـــلاً مـــن سائـــر البربـــر؛ ونـــذر دماءهـــم. فأقفـــر المغـــرب الأوســـط مـــن زناتـــة؛ وســـاروا إلى مـــا وراء ملويـــة؛ مـــن بـــلاد المغـــرب الأقـــصى؛ إلى أن كـــان مـــن رجـــوع بـــني يعـــلى ابـــن محمـــد إلى تلمســـان**))[2]. وأدت هـــذه الحـــروب الـــتي هلـــك فيهـــا **الخيـــر بـــن محمـــد** سنـــة 360 أو 361هـــ؛ إلى نـــزوح أحيـــاء **زناتـــة**؛ إلى الجهـــات الغربيـــة؛ خلـــف **ملويـــة**؛ فأصبـــح ـــ بذلـــك ـــ **المغـــرب الأوســـط** ملكـــاً خاصـــاً **لبـــني زيـــري** مـــن **صنهاجـــة**[3].

---

[1] **العبر، مج: مج: 6، ص ص: 315. 316. ومج: 7، ص: 56.**
[2] **العبر، مج: 7، ص: 57.**
[3] **نفسه، ص: 59.**

ولما انتقل **المعز لدين الله** إلى **القاهرة** سنة 362هـ/972م؛ انفرد **بلكين بن زيري** بحكم **إفريقية والمغرب**؛ نيابة عن الخليفة **الفاطمي**. فشنّها حرباً شعواء ضد قبائل **زناتة** المتمردة. وانتهى به المطاف إلى احتلال **تلمسان** سنة 367هـ/977م؛ مركز قيادة أعدائه؛ فلم يصمدوا أمامه وفرّوا إلى جهة أخرى[1]. عندها؛ لم يبق أمام **بلكين** سوى محاصرة **تلمسان**؛ فاضطر أهلها إلى الاستسلام؛ حيث نقلهم إلى مدينته **أشير**. ولم يستمر **بلكين** في مطاردة أعدائه؛ لأن **المعز** نهاه عن التوغل في بلاد **المغرب**؛ عندها عاد إلى حاضرة ملكه[2].

ومع هذا؛ فقد عاود **بلكين** زحفه نحو الجهات الغربية؛ فدوخ نواحيها، وسلك في عمق الأراضي المغربية؛ حتى شارف على سبتة؛ حيث استطلع الأوضاع العسكرية حولها؛ فاكتشف ما أفزعه من الجموع التي جهزها لحربه المنصور بن أبي عامر؛ فعاد أدراجه قائلاً: **((هذه أفعى فغرت إلينا فاها))**[3]. وتوجه بعدها إلى جهاد **برغواطة**؛ فاكتسح مواطنهم،

---

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 231. العبر مج: 6، ص: 318.**
[2] **العبر، مج: 6، ص: 318.**
[3] **نفسه، ص: 319.**

وقتل أميرهم **عيسى بن أبي الأنصار**. ولكنه توفي سنة 373هـ/983م[1]؛ أثناء عودته إلى **تلمسان** في موضع يسمى **بوراكسن**؛ يقع بين **سجلماسة وتلمسان**.

[1] تذبذب ابن خلدون في تحديد سنة وفاته؛ فمرة قال أنه توفي سنة 373هـ؛ ومرة قال أنه توفي في 372هـ. أنظر العبر، مج: 6، ص: 320. ومج: 7، ص: 60. وبالمقابل؛ ذكر ابن الخطيب أنه توفي سنة 372هـ. إعمال الأعلام (قسم المغرب).

ـ تلمسان.. حاضرة بني يعلى المغراويين:

وبوفاة **بلكين**، وانتصاب ولده **المنصور** على عرش **بني زيري**؛ كُبِح **الزيريون** عن المناطق الغربية؛ إثر فشل المحاولة التي قام بها هذا الأخير سنة 374هـ/984م؛ حيث هُزِم أمام الأمير **المغراوي زيري بن عطية**[1] الملقب **بالقرطاس**. وبهذه الهزيمة؛ تخلّى **المنصور بن بلكين** نهائياً عن فكرة غزو **زناتة** في جهاتها الغربية[2]. فاستفحلت ـ نتيجة لذلك ـ هذه القبائل في تلك الديار؛ وازدادت الاضطرابات بينها على اختلاف أشكالها؛ خاصة بين **مغراوة وبني يفرن**[3]. إذ غرقت البلاد في يَمٍّ من العيث والفساد المدمر. ومنذ 374هـ؛ السنة التي

---

[1] جدّه هو عبد الله بن خزر؛ أخو محمد بن خزر. لأن عدد أبناء خزر أربعة هم: محمد كبير مغراوة السابق الذكر في أيام الناصر لدين الله والهالك بالقيروان، ثم معدّ الذي اتبع أبا يزيد، وقتله الإمام الفاطمي إسماعيل، ثم فلفول الذي اتبع الشيعة منذ البداية، وأخيراً عبد الله المنسوب إلى أمه "تابدالت"؛ ويقول بعضهم أنهم ثلاثة؛ لأن عبد الله ليس أخوهم بل ابن أخيهم محمد بن خزر. العبر، مج: 7، ص: 59.

[2] نفسه، مج: 6، ص: 320.

[3] حدث الانقسام ـ في هذه الفترة ـ بين مغراوة وبني يفرن؛ بعد وصول الحسن بن قنون الإدريسي؛ طالباً ملك أجداده في المغرب. عندها؛ اختار يدوي بن يعلى؛ زعيم بني يفرن الالتحاق به؛ والوقوف معه ضد بني أمية. أما مقاتل وزيري ولدا عطية المغراويين؛ فقد انحاشا إلى المنصور ابن أبي عامر القائم على شئون بني أمية. وبهذا اصطدمت القبيلتان في ما بينهما؛ ضمن حرب قررها غيرهما.

هزم فيها **المنصور بن بلكين**؛ أضحت الجهات الغربية؛ من ديار **المغرب**؛ مرتعاً مستباحاً لعيث القبائل؛ التي لا ضابط لها. ودامت حروبهم المشتعلة: بين القبائل والدولة **الأموية** من جهة، وبين القبائل – فيما بينها – من جهة أخرى[1] حتى سنة 473هـ/1080م. السنة التي فتح فيها **يوسف بن تاشفين تلمسان**؛ وأسقط إمارة **مغراوة** نهائيا.

وكان **المنصور بن أبي عامر** قد أمر – سنة 376هـ/986م – واليه على **المغرب**؛ الوزير **حسن ابن أحمد عبد الودود**؛ وأصاه خيراً بأمراء **مغراوة**؛ وخصّ منهم: **مقاتل وزيري**؛ لصدق ولائهم، وحسن خدمتهم. ثم أغراه – من جهة أخرى – **بيدوي بن**

---

[1] استجابت القبائل لعاملي: التحريض والتفريق المتبعين من قبل المنصور ابن أبي عامر؛ فتقاتلت قبائل مغراوة وبني يفرن سنوات وسنوات؛ دون طائل، ودون حسم للصراع؛ فتضاعفت مصائبهم وازادت كوارثهم من تلك الحروب المستمرة؛ التي أكلت الأخضر واليابس: ((وهلك مقاتل بن عطية؛ واستقل برئاسة الظواعن - البدو من مغراوة - أخوه زيري بن عطية.... واستدعاه المنصور من محله بفاس سنة إحدى وثمانين [وثلاثمائة]؛ إشادة بتكريمه؛ وأغراه بيدوي بن يعلى [رئيس بني يفرن]؛ منافسه في الحظ وإيثار الطاعة؛ فبادر إلى إجابته...)). العبر، مج: 7، ص: 61. بل حاول ابن أبي عامر استمالة يدوي بن يعلى اليفرني؛ ولكنه فشل؛ حينما استدعاه إلى قرطبة؛ فرد عليه: ((متى عهد المنصور حمر الوحش تنقاد إلى البياطرة؛ وأخذ في إفساد السابلة، والإجلاب على الأحياء، والعيث في العمالة)). العبر، مج: 7، ص: 62.

يَعْلَى اليفرني؛ وحثّه على نبذ العهد معه؛ ودَعْم عدوه **زيري بن عطية**؛ لِمَا عرف عن **يدوي** من المراوغة، وسوء طاعته. وعلى هذا؛ فقد تحالفوا حميعاً ضدّه، وأجمعوا على مقاتلته؛ فالتقوا به سنة381هـ/991م؛ أين انتصر عليهم، وجرح **ابن عبد الودود** بجراح أنهت حياته[1]. وقد التحق بهذا الصراع الدامي ــ فجأة ــ **أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي**[2]؛ الذي نقض عهده مع أخيه **المنصور** ــ وسانده في أمره والي **تيهرت خلوف بن أبي بكر**[3] وأخوه **عطية** ــ فأسقطوا دعوة **الشيعة**، ورفعوا دعوة **الأمويين**؛ فخطبوا على منابر البلاد التي اقتطعوها ــ الممتدة من **بلاد الزاب إلى وهران**

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 63.**

[2] **((وخالف أبو البهار بن زيري بن مناد الصنهاجي على ابن أخيه المنصور بن بلقين؛ أمير إفريقية، وظهير الدولة العبيدية؛ وخلع دعوة العبيديين، ومال إلى دعوة المروانيين؛ وغلب على مدينة تلمسان، ومدينة تنس ومدينة وهران وشلف وشرشال، وجبال وانشريس ولمدية وكثير من بلاد الزاب؛ وخطب للمؤيد وحاجبه المنصور بن أبي عامر)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 64. أنظر أيضاً العبر، مج: 7، ص ص: 43. 63 - 64. وذكر ابن الخطيب أن هذا حدث في سنة 381هـ. أنظر أيضاً إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 155.**

[3] **لم يطل به الحال حتى انثنى في موقفه، وعاد إلى طاعة المنصور بن بلكين. أنظر العبر، مج: 7، ص: 64.**

ـ باسم **هشام المؤيد الأموي**[1]. وكان هذا الحضور؛ بمثابة نجدة وصلت إلى **زيري بن عطية المغراوي**؛ المنهك في حربه ضد **بني يفرن**. وبانضمام **أبي البهار** إلى الحلف ـ الذي يرعاه **ابن أبي عامر** ـ تحصل منه على أعمال هامة؛ حيث أشركه مع **زيري بن عطية** في أعمال المغرب مناصفة[2]. وواضح ـ من خلال النصوص المذكورة ـ أن **تلمسان** دخلت ـ في هذا الوقت ـ ضمن سهم **أبي البهار بن زيري الصنهاجي**[3].

والظاهر؛ أن هذا الدعم كله؛ الموجه **لزيري بن عطية** وحلفائه؛ لم يثن **يدوي بن يعلَى** عن مواصلة نشر الفتنة والفساد[4]. بل تسرب الفساد إلى

---

[1] ((وخاطب أبو البهار ـ من وراء البحار ـ المنصور بن أبي عامر؛ وأوفد عليه أبا بكر ابن أخيه حبوس بن زيري في طائفة من أهل بيته ووجوه قومه؛ فاستقبلوا بالجيش، ولقاه رحباً وتسهيلاً، وأعظم موصله، وأسنى جوائز وفده وصلاتهم)). العبر، مج: 7، ص: 64.

[2] ((ودعاه إلى مظاهرة زيري بن عطية على يدوي بن يعلى؛ وقسم بينهما عمل المغرب شق الأبْلُمة؛ حتى لقد اقتسما مدينة فاس عدوة بعدوة)). نفسه، ص: 64.

[3] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص:64. والعبر، مج: 7، ص ص: 65 - 66. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 155.

[4] ((فلم يَرُعْ ذلك يدوي، ولا وزعه عن شأنه من الفتنة والإجلاب على البدو والحاضرة، وشق عصا الجماعة)). العبر، مج: 7، ص: 64. أنظر أيضاً الأنيس المطرب، ص: 65. وإعمال الأعلام، ص ص: 157 - 158.

الحلف الذي جمع بين **زيري بن عطية وأبي البهار الصنهاجي**؛ بسبب تراخي هذا الأخير عن المشاركة في تأديب **خلوف بن أبي بكر** وأخيه؛ ناكثي العهد. وعليه فقد نشبت بينهما حرب؛ خسرها **أبو البهار**؛ ولجأ إلى **سبتة**؛ ثم انتقل إلى **جراوة**؛ أين راسل ابن أخيه **المنصور بن بلكين**؛ معتذراً؛ وطالباً العودة إلى عمله؛ فوصلته الموافقة؛ فعاد ادراجه إلى حضن الدولة **الصنهاجية**، مسلماً بطاعته للشيعة.

أما **تلمسان**؛ فقد سقطت في يد **زيري بن عطية المغراوي** ــ لبعض الوقت ــ سنة381هـ[1]. تمّ ذلك؛ بعد انكماش **الزيريين**، وانكفائهم داخل حدود مواطنهم؛ جراء الصراعات العائلية؛ التي نشبت بينهم، وانقسامهم، وتبعثر جهودهم. ومع هذا فقد بقيت أخبار **تلمسان** مغلفة بكتلة من الضباب؛ ولا يعرف مصيرها في ظل **مغراوة**؛ بعد عودة **أبي البهار** إلى أهله. وكل ما في الأمر؛ أن **زيري بن عطية المغراوي** يكون قد فقدها سنة 384هـ/994م؛

---

[1] **((ففرّ أبو البهار بنفسه أمامه، ولحق بابن أخيه منصور بن بلقين؛ وترك له البلاد؛ فملك زيري بن عطية مدينة تلمسان، وسائر أعمال أبي البهار؛ فانبسط سلطانه بالمغرب من السوس الأقصى إلى الزاب)). الأنيس المطرب، ص: 64. أنظر أيضاً العبر، مج: 7، ص ص: 65 - 66.**

ولا يعـرف كيـف حـدث ذلـك. ويستشـف هـذا الـرأي؛ مـن خـلال مـا قالـه **ابـن خلـدون**: **((واستفحـل أمـر زيـري** [ابـن عطيـة] **بالمغـرب، ودفـع بـني يفـرن عـن فـاس إلى نـواحي سـلا، واختـط مدينـة وجـدة سنـة أربـع وثمانيـن [وثلاثمائـة]؛ وأنزلهـا عساكـره وحشمـه؛ واستعمـل عليهـا ذويـه، ونقـل إليهـا ذخيرتـه، وأعدهـا معتصمـاً؛ فكانـت ثغـراً لعملـه بيـن المغـرب الأقـصى والأوسـط))**[1]. وبهـذا يفهـم أن **وجـدة** كانـت أقـصى حـدوده شرقـاً؛ تقابلهـا **تلمسـان** الـتي تعتبـر بمثابـة الثغـر الغـربي **للصناجييـن**.

أمـا بخصـوص **بـني يفـرن**؛ فإنهـم واصلـوا مقاومتهـم **للمغراوييـن**؛ ولـم تنقطـع الحـروب بيـن القبيلتيـن؛ حـتى دخـل **المرابطـون** إلى **المغـرب**؛ فقضـوا عـلى نفوذهمـا معـاً، وأسقطـوا إماراتهمـا المتناثـرة[2].

وكعـادة رؤسـاء القبائـل؛ وطبعهـم المتذبـذب، وعصبيتهـم المتقلبـة ــ حسـب حجـم الفائـدة ومصـادر الريـع السهلـة ــ فقـد انتابـت **زيـري بـن عطيـة** لوثـة مـن الزَّهُـوّ والغـرور؛ أصابتـه بعـد تغلبـه عـلى **بـني**

---

[1] العبر، مج: 7، ص ص: 65 - 66. أورد هذا القول - أيضاً - صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 65.

[2] إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 166.

يفـرن، **وأبي البهـار الصنهـاجي**؛ وبعـد انفـراده بالجهـات الغربيـة مـن بـلاد **المغـرب**. وعلـى هـذا؛ فقـد فسـدت أحوالـه مـع **ابـن أبي عامـر** سنـة 386هـ/996م؛ حيـن انتقـده؛ بخصـوص استبـداده وحجـره **لهشـام المؤيـد**[1]. وبالمقابـل؛ شعـر **ابـن أبي عامـر** بتعاظـم قـوة **مغـراوة** في **المغـرب**؛ بعـد انسحـاب **بـني يفـرن** مـن ساحـة الصـراع، وانكفـاء **الصنهاجييـن** داخـل حدودهـم؛ لـذا فقـد قـرر تقليـم أظافـر **زيـري بـن عطيـة**، وتحجيـم دور **مغـراوة**؛ لـذا فقـد بـادر إلى إرسـال جيـش للقيـام بهـذه المهمـة؛ ضـم جـلّ زعمـاء **الأمازيـغ**؛ مثـل: ((**محمـد ابـن الخيـر بـن محمـد بـن الخيـر، وزيـري بـن خـزر، وابـن عمهمـا بكسـاس بـن سيـد النـاس؛ ومـن بـني يفـرن: أبـو نوبخـت بـن عبـد اللـه بـن بكـار؛ ومـن مكناسـة: إسماعيـل بـن البـوري، ومحمـد بـن عبـد اللـه ابـن مديـن؛ ومـن ازداجـة: خـزرون بـن محمـد**))[2].

---

[1] ((وكشف زيري وجهه في عداوة ابن أبي عامر والإغراء به، والتشيع لهشام المؤيد، والامتعاض له من هضيمته وحجره؛ فسخط ابن أبي عامر، وقطع عنه رزق الوزارة، ومحا اسمه من ديوانها، ونادى بالبرابرة منه)). العبر، مج: 7، ص: 66. أنظر أيضاً الأنيس المطرب، ص: 65. إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 158.

[2] العبر، مج: 7، ص: 67.

وبهــذا العــدد مــن أمــراء **الأمازيــغ**؛ وجــه **ابــن أبي عامــر** رسالــة حازمــة **لزيــري بــن عطيــة**؛ قصــد بهــا إفهامــه أنــه ليــس في إمكانــه الانفــراد بمقــدرات **المغــرب**؛ وأن **ابــن أبي عامــر** في مقــدوره الاستغنــاء عنــه؛ بحكــم تواجــد هــذا العــدد الكبيــر مــن أمــراء **الأمازيــغ** بيــن يديــه. وإلى جانــب كــل هــذا قــرّر تأديبــه وتحجيــم قدراتــه بالقــوة؛ فعــزّز الجيــش الأمــوي؛ برفــع مرتبــة قيادتــه؛ حيــث كلــف ابنــه **المظفــر عبــد الملــك** بقيادتــه[1]. ولمــا اشتبــك الخصمــان؛ انتهــت المعركــة ــ سنــة 388هــ/998م ــ بهزيمــة **مغــراوة**، وإصابــة **زيــري بــن عطيــة** بجــراح خطيــرة؛ عالجهــا في منفــاه بالصحــراء[2]: **((ونجــا ــ وهــو مثخنــاً بالجــراح. وانبســط ملــك عبــد الملــك بــن أبي عامــر عــلى الغــرب ومــا ولاه إلى سجلماســة، وعــلى تلمســان وتيهــرت؛ وقفــل إلى الأندلــس سنــة 389))**[3]. ولــم ينتــه دور **زيــري بــن عطيــة**؛ جــراء مــا أصابــه مــن هزيمــة وجــراح محرجــة؛ بــل بالعكــس؛

---

[1] ولما سمع شيوخ القبائل الأمازيغية بعبور المظفر عبد الملك بن أبي عامر؛ تخلى عامة أصحاب زيري بن عطية - من الأمازيغ - عنه، والتحقوا بجيش ابن أبي عامر؛ حيث كوفئوا بالبر والإحسان، وأصناف الخير الجزيل؛ الذي لا مثيل له. أنظر، العبر، مج: 7، ص: 68.

[2] العبر، مج: 7، ص: 68. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 159. وفي الأنيس المطرب: سنة 387هـ أنظر ص ص: 66 - 67.

[3] البيان المغرب، ج: 1، ص: 252.

فإنــه واصــل نشاطــه مــن فــوره؛ بعــد أن التأمــت جراحــه وتعــافى مــن نكبتــه؛ ولكنــه اختــار ــ هــذه المــرة ــ وجهــة أخــرى؛ اتجــه فيهــا نحــو شــرق البــلاد؛ حيــث وطــن **بــني زيــري الصنهاجيــن** وأعمالاهــم. تــم ذلــك بعــد اطلاعــه عــلى الانشقــاق الحاصــل داخــل الأســرة **الزيريــة**؛ وخــروج بعضهــم عــلى ملكهــم **باديــس بــن المنصــور**؛ عندهــا؛ انتهــز **زيــري بــن عطيــة** فرصــة مــن ذهــب؛ فحاصــر **تيهــرت**؛ حيــث كــان بهــا **يطوفــت ابــن بلكيــن**؛ فاضطربــت أحــوال **باديــس**؛ جــراء الخلافــات المحيطــة بــه. ولكنــه أسنــد إلى **حمــاد ابــن بلكيــن** مهمــة التصــدي **لزيــري بــن عطيــة**؛ ولكنــه هُــزِم امامــه عنــد **وادي منــاس**[1] **(مينــا** القريــب مــن **تيهــارت** ومــن **غيليــزان** الحاليــة**)**. وتمكــن **زيــري بــن عطيــة** ــ بعــد هزيمــة جيــش **صنهاجــة** ــ مــن قتــل أعــداد منهــم؛ تقــول المصــادر؛ أنهــم بالألــوف؛ كمــا استــولى عــلى معسكرهــم؛ ثــم فتــح كــل مــن: **تنــس، وشلــف، وتيهــرت، والمسيلــة، وتلمســان** أيضــاً[2].

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 69.**

[2] **((وفتح مدينة تاهرت وتلمسان وشلف، وتنس والمسيلة. وأقام الدعوة فيها كلها للمؤيد هشام، لحاجبه المنصور من بعده)). العبر، مج: 7، ص: 70. أنظر هذا أيضاً في الأنيس المطرب، ص: 67. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 160.**

وهنا يفهم أن مدينة **تلمسان** كانت ـ طوال الفترة السابقة ـ تابعة **لبني زيري الصنهاجيين**[1]. وقد يكون هذا ـ في معظم الوقت ـ منذ احتلالها من قبل **بلكين** سنة 367هـ/977م؛ أين نقل أهلها إلى مدينة **أشير**. ومصداق ذلك ما سبق ذكر؛ بخصوص بناء **زيري بن عطية** لمدينة **وجدة**؛ واتخذها ثغراً له[2].

ولما فتح **زيري بن عطية** مدن **المغرب الأوسط** المذكورة؛ أقام فيها دعوة الخليفة **هشام المؤيد**؛ كما دعا ـ إلى جانبه ـ **لابن أبي عامر**؛ إرضاء له، وترضية خاطر؛ قصد بها الاعتذار ضمنياً؛ فقبل **المنصور** اعتذاره العملي. واعتل **زيري** ـ إثر ذلك ـ خلال حصاره لمدينة **أشير الصنهاجية**؛ حيث توفي عند عودته منها سنة 391هـ/1000م.[3] فبايعت **مغراوة** ابنه **المعز**؛ الذي

[1] يفهم من بعض النصوص؛ أن قبائل زناتة كانت تهيمن على بوادي المغرب الأوسط؛ ومنها بادية تلمسان؛ بينما يمتلك المدينة الصنهاجيون: ((ولم يزل حماد ـ أيام باديس هذا ـ أميراً على الزاب والمغرب الأوسط، ومتولياً حروب زناتة. وكان نزوله ببلد أشير والقلعة؛ متاخماً لملوك زناتة، واحيائهم البادية؛ بضواحي تلمسان وتيهرت)). العبر، مج: 6، ص: 350.

[2] العبر، مج: 7، ص: 66. والأنيس المطرب، ص: 65.

[3] الأنيس المطرب، ص: 67. والعبر، مج: 7، ص: 66. وإعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 160. أنظر أيضاً البيان المغرب، ج: 1، ص: 253.

بادر – من فوره – بالاتصال **بابن أبي عامر**؛ عارضاً خدماته، ومعرباً عن إخلاصه له: ((**واعتلق بالدعوة العامرية، وصلحت حاله عندهم**))[1]. ولما توفي **المنصور بن أبي عامر**؛ جدّد **المعز بن زيري**[2] عهده وطاعته لولده **المظفر عبد الملك**؛ بل قدم ابنه **معنصر** رهينة لديه في **قرطبة**؛ فقبل هذا العرض المغري؛ وكتب إليه سنة 396هـ/1005م كتاب عهد بأعمال أبيه في **المغرب**؛ فاستقر **بفاس**؛ ولكنه استثنى من ذلك **سجلماسة**؛ التي أسندها – لبعض الوقت – إلى **وانّدين بن خزرون بن فلفول ابن خزر**[3]. وقد أورد **ابن خلدون** نص كتاب العهد هذا[4]. ومنذ هذا التاريخ الذي نُصِّب فيه **المعز**

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 70. وذكر صاحب الأنيس المطرب أنه صالح المظفر؛ ولم يشر إلى أبيه ابن أبي عامر: ((وقام بملك أبيه. وصالح المظفر بن المنصور بن أبي عامر؛ فقلده أمر المغرب؛ فكانت مدة ملكه بالمغرب؛ نحو عشرين سنة)). ص: 67. وهذا ما ذكره أيضاً ابن الخطيب؛ الذي أضاف أن هذا حدث في سنة 397هـ/1006م. أنظر إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 160. أنظر كذلك البيان المغرب، ج: 1، ص: 253.

[2] توفي المعز بن زيري في سنة 416هـ/1025م. البيان المغرب، ج: 1، ص: 254.

[3] العبر، مج: 7، ص ص: 72. 77 - 80. وقال ابن عذاري: ((وكتب للمعز عهده بتجديد ولاية الغرب كله إلا مدينة سجلماسة؛ فإنه كان قد عقد ولايتها لواضح الفتى قبل ذلك؛ وولاها واضح واندين بن خزرون اليفرني [؟؟ بل المغراوي] وابن عمه زيري بن فلفل [فلفول])). البيان المغرب، ج: 1، ص: 254.

[4] العبر : مج: 7، ص ص: 71 - 72.

والياً على **المغرب**؛ وإلى سنة 462هـ/1069م (السنة التي احتل فيها **يوسف بن تاشفين فاس**، وأسقط الدولة **المغراوية** بها)؛ عرفت بلاد **المغرب** اضطرابات لا حدود لها، وفتناً مدمرة أسقطت الرؤوس والنفوس، وحروباً دامية؛ أفنت القريب والغريب[1].

أما **تلمسان**؛ فقد ذُكِر سابقاً أن **زيري بن عطية** افتكها من أيدي **صنهاجة** سنة 391هـ/1000م؛ مع مدن أخرى **بالمغرب الأوسط**. ولما توفي وخلفه ابنه **المعز** على بلاد **المغرب**؛ نزل **بتلمسان يعلى**[2] **ابن محمد بن الخير المغراوي**: ((**فكانت خالصة له، وبقي ملكها وسائر ضواحيها في عقبه**))[3]. لعل هذا؛

---

[1] أنظر إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص ص: 161 - 166.

[2] ويعلى هذا؛ هو أخو الخير بن محمد بن الخير؛ أمير مغراوة الذي انتحر سنة 360هـ في معركة بينه وبين زيري بن مناد الصنهاجي. اجتمع الأخوان على قتال زيري؛ حيث أخذا بثأر أبيهما؛ بقتله، وإرسال رأسه إلى قرطبة. ولما زحف إليهما بلكين للثأر بأبيه؛ قتِل - في تلك الحرب - الخير أخو يعلى؛ فانسحبت مغراوة نحو غرب البلاد؛ بسبب ضغوط بلكين. الأمر الذي اظطرهم إلى الإستنجاد بالحكم في قرطبة؛ فعبر إليه يعلى وابن أخيه محمد بن الخير؛ حيث مثلا أمامه مرات عديدة. وفي هذه الأثناء تحول ثقل مسئولية مغراوة إلى فرع آخر من أسرة بني خزر؛ حيث تغلب بنو عبد الله بن بن خزر (زيري ومقاتل) على أحياء مغراوة؛ بامتلاكهم لفاس؛ وإنشاء إمارة فيها سنة (أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 58 - 76. 92).

[3] العبر، مج: 7، ص: 93.

تم بأمر **المظفر بن أبي عامر**؛ الأمر الذي منع ابن عمه **المعز بن زيري** عن مضايقته. وربما اختار هو نفسه هذا؛ لتكون إمارة **تلمسان** بمثابة الحاجز الشرقي بينه وبين **الصنهاجيين**. وسلك بذلك المسلك نفسه الذي اختاره – من قبل – **إدريس بن عبد الله**؛ حين رضي بقيام إمارة **بني سليمان** كحاجز بينه وبين **بني الأغلب** أمراء **القيروان**. ويمكن القول – هنا – أن **يعلى بن محمد بن الخير المغراوي**؛ يعتبر المؤسس لإمارة **تلمسان**؛ التي ورثها بنوه من بعده[1]؛ سميت باسمهم؛ وظلت قائمة حتى أسقطها **يوسف بن تاشفين بفتحه هذه المدينة** سنة 473هـ/1080م[2]؛ حيث استلحم من بداخلها من **بني يعلى.** وبذلك انتهى الوجود **المغراوي** كإمارة في **تلمسان**.

والأمر الغريب؛ أن هذه الإمارة؛ نأت بنفسها عن الاضطرابات المدمرة؛ على الرغم من محيطها المشتعل بالحروب والقلاقل؛ التي تنشب بين **بني زيري بن عطية** في الجهات الغربية، **وبني حماد** في

---

[1] جاء في البيان المغرب: ((وأما تلمسان والزاب؛ فكان فيها يَعلَى الزناتي، ومات في هذا التاريخ [أي 460هـ] أو قريباً منه؛ وقام فيها بنوه)). ج: 1، ص: 255.

[2] هكذا في العبر، م: 7، ص: 94. بينما كتب سنة 474هـ في مج: 6، ص: 359.

المناطق الشرقية. وهاتان الدولتان – كما هو معروف – تتميزان بكثرة الرجال والأتباع، ووفرة المال والكراع، وسعة الملك والضِّياع. فلم تتضرر إمارة **بني يعلى** – مثلاً – بعمليات الغزو التي قام بها **بنو حماد** ضد **مغراوة** في **المغرب الأقصى**[1]؛ كما أن حروب **بني زيري بن عطية المغراويين** ضد **الحماديين** مرّت على **تلمسان** مرور الكرام. فهذا **باديس بن المنصور الصنهاجي**؛ دفع **حماداً** لشن حرب ضد **زناتة** سنة 395هـ/1004م؛ وسوغ له كل ما فتحه من بلاد؛ فوصل في غزواته إلى **جراوة** – القريبة من **تلمسان** – حيث نقل أهلها إلى **المسيلة**[2]؛ ومع هذا؛ لم تشر المصادر إلى تعرض **تلمسان** لأي مكروه في حملاته تلك؛ مع أنها كانت تابعة **لبني يعلى المغراويين**. وبالمقابل؛ تخطى **حمامة بن زيري**[3] **المغراوي** **تلمسان** سنة

---

[1] أنظر العبر، مج: 6، ص ص: 350. 353.

[2] العبر، مج: 6، ص: 350.

[3] نفى صاحب الأنيس المطرب أن يكون حمامة ابن الأمير المعز بن زيري؛ بل قال أنه ابن عمه: ((ولي ملك المغرب بعد وفاة ابن عمه المعز بن زيري بن عطية)). ص: 68. وأيد هذا الرأي ابن خلدون الذي قال: ((وولي من بعده ابن عمه حمامة بن المعز بن عطية؛ وليس ـ كما يزعم بعض المؤرخين ـ أنه ابنه؛ إنما هو اتفاق في الأسماء؛ أوجب هذا الخلط)). العبر، مج: 7، ص: 73. أما ابن عذاري؛ فيعتقد أنه ابنه. أنظر البيان المغرب، ج: 1، ص: 254.

430هـ/1038م؛ حين غزا بلاد **الحماديين** في **المغرب الأوسط**؛ دون التعرض **لتلمسان**[1]. ثم إن **بلكين بن محمد بن حماد الصنهاجي**؛ تجاوز بدوره **تلمسان**؛ ولم يتعرض لها بسوء؛ عندما زحف إلى ديار **المغرب الأقصى** سنة 454هـ/1062م[2]. وحتى **بنو يفرن** – في صراعهم مع **بني زيري المغراويين بفاس**؛ لم يهددوا **تلمسان**[3]. ويبدو أن حكم **بني يعلى** تعزّز أكثر فأكثر؛ بعد موت **حماد**: **((فاستوسق ملك بني يعلى خلال ذلك بتلمسان واختلفت أيامهم – مع آل حماد – سلماً وحرباً))**[4].

بالإضافة إلى كل ذلك؛ وضح أنه لم يؤثر في تماسك إمارة **بني يعلى** ومنعتها؛ كل ما حدث من الوقائع والأحداث؛ التي فرضت عليهم من قبل **بني حماد** وحلفائهم من **أعراب بني هلال**. إذ أن هؤلاء **الأعراب** انتقلوا – بعد تغلبهم على **بني زيري** في **إفريقية** – إلى **المغرب الأوسط**؛ حيث أنهكوا

---

[1] **العبر، مج: 6، ص: 352. وأشار أيضاً ابن الخطيب: أن حمامة؛ هرب إلى تلمسان؛ عندما تغلب عليه تميم بن يعلى اليفرني؛ أنظر إعمال الأعلام (قسم المغرب)، ص: 161. ولكن ابن خلدون وصاحب الأنيس المطرب؛ قالا أنه هرب إلى وجدة. العبر، مج: 7، ص: 73. والأنيس، ص: 69.**

[2] **العبر، مج: 7، ص: 75.**

[3] **الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 69.**

[4] **العبر، مج: 7، ص: 93.**

قـوى **الحماديين**، وأحجروهم في قلعتهم؛ ولكن هؤلاء استطاعوا ـ فيما بعد ـ ترويضهم، واستخدامهم في أغراضهم، ومهامهم الحربية: ((**فكانت بينهم وبين بني يعلى ـ أمراء تلمسان ـ حروب ووقائع. وكانت زِغْبَة أقرب إليهم بالمواطن؛ وكان الأمير بتلمسان ـ لعهدهم ـ بختي؛ من ولد يعلى)).**[1]

ومن العلامات البارزة التي ميزت إمارة **بني يعلى** في **تلمسان**؛ أنها تعتبر أول إمارة مستقلة بعد إمارة **بني سليمان** في المدينة ذاتها. ثم أنها أول إمارة ـ في الجهة الغربية ـ من **المغرب الأوسط** احتكت بقبائل **بني هلال**؛ حيث ثبت حظور قبيلتي: **زِغبة، والأثبج** في الوقت ذاته؛ الذي سجل خلاله وجود **بني عبد الواد** ـ أصحاب **تلمسان** لاحقاً ـ في تلك النواحي[2].

وتقول المصادر أن أمير **تلمسان** (من **بني يعلى**) ـ أيام ظهور القبيلة **الهلالية "زغبة"** في تلك الجهات الغربية ـ يسمى " **بختي**"؛ بينما يسمى وزيره وقائد جيشه "**أبو سعيد بن خليفة اليفرني**"[3].

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 93 - 94.**
[2] **نفسه، ص: 94.**
[3] **في بعض مواضع أخرى: "أبو سعد" و"أبو سعدى". مج: 7، ص: 94.**

وهنا يتضع التوافق والوئام الحاصل بين **مغراوة** **وبني يفرن** في **تلمسان** آنذاك. كما يبدو أن هذا التوافق امتدّ أثره إلى قبائل عديدة من **زناتة** في **المغرب الوسط**: ((**فكان كثيراً ما يخرج [**أي وزير بختي**] بالعساكر من تلمسان؛ لقتال عرب الأثبج وزغبة؛ ويحتشد من إليهم من زناتة؛ أهل المغرب الأوسط؛ مثل: مغراوة، وبني يلومي، وبني عبد الواد، وتجين، وبني مرين. وهلك في بعض تلك الملاحم هذا الوزير أبو سعدى [**أو سعيد**]؛ أعوام خمسين وأربعمائة))**[1]**.**

---

[1] **العبر مج: 7، ص: 94.**

ـ العمـران والثقافـة:

يبـدو أن حـظ دولـة **بـني يعـلى المغراويـة** في ميـدان العمـران والثقافـة لا يرتـقي إلى منزلـة التنويـه والإشـادة بـه. وكـل مـا يمكـن ذكـره في هـذا المجـال؛ هـو اسـم أحـد العلمـاء الكبـار مـن أئمـة المذهـب المالـكي؛ الـذي اختـار الإقامـة **بتلمسـان** في ظـل حكـم بـني **يعـلى المغراويـين**؛ وواضـح أنـه لـقي مـن حكـام تلمسـان ـ آنـذاك ـ كـل حفـاوة وتكريـم؛ ففضـل البقـاء في المدينـة إلى نهايـة عمـره. ثـم أثمـر وجـوده في هـذه المدينـة؛ فأعطاهـا علمـاء آخريـن؛ لازمـوه وتعلمـوا عـلى يديـه؛ سيـأتي ذكرهـم لاحقـاً. وهـذا العالـم الجليـل هـو:

1 ـ أبـو جعفـر الـدّوادي الأسـدي المالـكي[1] فقيـه، وأحـد أئمـة المذهـب المالـكي بالمغـرب. درس في صغـره وصبـاه **بطرابلـس الغـرب**؛ ثـم انتقـل إلى **تلمسـان**؛ أيـن استقـر بهـا، واختـار الإقامـة فيهـا. لـه حـظ وافـر في علـوم الحديـث واللغـة والكـلام. لـم يعـرف لـه شيخـاً أو معلمـاً؛ إذ قـال **ابـن فرحـون**: **((وكـان درسـه وحـده؛ لـم يتفقـه في أكثـر علمـه عـلى إمـام مشهـور؛ وإنمـا**

---

[1] **لـه ترجمـة في: الديبـاج المذهـب في معرفـة أعيـان علمـاء المذهـب لابـن فرحـون المالـكي، وبغيـة الـرواد في ذكـر الملـوك مـن بـني عبـد الـواد،**

وصـــل بمـــا أدركـــه))[1]. بينمـــا عـــرف التلاميـــذ الآخـــذون عنـــه؛ ومنهـــم: أبـــو عبـــد الملـــك مـــروان بـــن عـــلي الأســـدي القطَّـــان البـــوني (العنـــابي)، المتـــوفى سنـــة 440هـــ وأبـــو بكـــر أحمـــد بـــن أبي عُمـــر محمَّـــد بـــن أبي زيـــد المتـــوفى سنـــة 460هـــ، وأبـــو عـــلي ابـــن الوفـــاء السَّبـــتي. مـــن مؤلفـــات الـــدّاودي: "النـــامي في شـــرح الموطـــأ"، و"الـــوعي في الفقـــه"، و"النصيحـــة في شـــرح صحيـــح البخـــاري" – ويـــرى بعضهـــم أنـــه أول شـــرح لكتـــاب البخـــاري – ثـــم"الإيضـــاح في الـــرد عـــلى القدريـــة"، ولـــه أيضـــاً تفسيـــر القـــرآن؛ لا عنـــوان لـــه؛ وسمـــوه باسمـــه " تفسيـــر الـــدّاودي". تـــوفي **بتلمســـان** سنـــة 402هـــ/1011م، ودفـــن عنـــد بـــاب العقبـــة. أيـــن دفـــن بجـــواره فيمـــا بعـــد ابـــن غزلـــون.

2 – أبـــو عبـــد الملـــك مـــروان بـــن عـــلي الأســـدي القطَّـــان البـــوني (العنـــابي)؛ وهـــو مـــن أصـــول قرطبيـــة؛ درس في بلـــده عـــن: أبي محمـــد الأصيـــلي، والقـــاضي أبي المطـــرف عبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد بـــن فطيـــس، وآخريـــن. ثـــم رحـــل إلى بـــلاد المغـــرب والمشـــرق. أيـــن أخـــذ عـــن علمـــاء آخريـــن. قـــال ابـــن بشكـــوال: ((**أخـــذ عـــن أبي**

---

[1] **الديبـاج المذهب، ج: 1، ص: 166.**

الحسن القابسي، وأبي جعفر أحمد بن نصر الداودي، وصحبه خمسة أعوام، وأخذ معظم ما عنده؛ من رواياته، ووتواليفه))[1]. ولكن ابن بشكوال؛ لم يذكر أين أقام معه تلك المدة؛ أهي في تلمسان أم في غيرها من البلدان؟ وعليه فقد أثبتناه هنا لعموم الفائدة. ومن مؤلفات **مروان بن علي**: مختصر تفسير الموطأ. وتوفى في عنابة قبل سنة 440هـ/1048م.

***

[1] كتاب الصلة، ج: 2، ص: 616.

عهد المرابطين

ـ تكرارت[1].. تلمسان المرابطية:

ظلت الحال مضطربة والحروب مشتعلة في كامل الديار **المغربية**؛ إلى أن حلّ بها ـ سنة 445هـ/1053م ـ قوم جدد؛ يمتطون الهُجُن والمهاري؛ قدموا هذه المرة من جنوب البلاد؛ فمهدّوا بلاد **المغرب**، وكبحوا قبائل **زناتة**، ومحوا مفاسدهم، وأصلحوا الأوضاع: السياسية والدينية والاقتصادية، ورفعوا مرتبة الدولة وسلطانها عالياً، وشجعوا العلم والعلماء؛ ونشروا نهج السلف، ودعموا المذهب المالكي. هؤلاء القوم هم **صنهاجة الجنوب** من: **لمتونة ومسوفة**؛ بقيادة **يحيى بن عمر** أولاً[2]، ثم

---

[1] تكتب أيضاً "تقرارت" أو تاجرارت"؛ بالجيم المصرية.

[2] هو الأمير يحيى بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت (تورقيت) اللّمتوني. توفي يحيى بن عمر في سنة 447هـ/1055م. سماه صاحب الأنيس المطرب بروض القرطاس: يحيى بن عمر بن تلاكاكين الصنهاجي اللمتوني. ص: 80. وأجمع على هذا الاسم: ابن الخطيب، وابن خلدون. إعلام الأعلام (قسم المغرب)، ص: 228. والعبر، مج: 6، ص: 374. وقد خصص ابن عذاري فصلا عنونه بـ: ((ذكر نسب أمراء الدولة المرابطية)). البيان المغرب، ج: 1، ص: 17.

أخيه **أبي بكر بن عمر**[1]؛ ثم ـ من بعدهما ـ ابن عمهما **يوسف بن تاشفين**[2]؛ الذي فتح **تلمسان** سنة 468هـ/1075م[3]؛ أين قتل أميرها **العباس بن يحيى**[4] **المغراوي** في أحد الأقوال[5]؛ بينما يرى آخرون أنه صالحه بواسطة الأمير **مزدلي** وأنعم عليه: **((ورحل الأمير مزدلي إلى تلمسان؛ ودخلها ـ في مهلة، وحال هدنة ـ ثم ولى ابنه يحيى بن مزدلي، ورجع إلى مراكش؛ فكان وصوله إليها في نصف ربيع الآخر؛ من هذه السنة** [أي سنة 468هـ]**؛ ومعه العباس صاحب تلمسان؛ فأنعم عليه أمير المسلمين بكلّ**

---

[1] **هو الأمير أبو بكر بن عمر بن إبراهيم بن تورفيت (تورقيت أو توقوت) اللّمتوني. كان حياً بعد سنة 465هـ/1072م بثلاث سنين؛ حيث قتل خلال حرب بينه وبين السودانيين المجاورين له. الحلل الموشية، ص ص: 31. 34.**

[2] **سرد صاحب الحلل الموشية نسب يوسف بن تاشفين هكذا: ((هو يوسف بن تاشفين بن إبراهيم بن تورقيت (تورقوت) بن ورتاقطن بن منصور بن مصالة بن مانية بن ونمالي، الصنهاجي الحميري، وفي إبراهيم يجتمع مع ابني عمّه الأميرين اللّذين كانا قبله: أبي زكرياء وأبي بكر ابني عمر ابن إبراهيم بن تورقيت)). ص: 29.**

[3] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 29. والحلل الموشية، ص: 40. بينما يرى ابن أبي زرع، وابن خلدون أن يوسف بن تاشفين فتح تلمسان في سنة 474هـ. أنظر الأنيس المطرب، ص: 92. والعبر، مج: 6، ص ص: 359. 381.**

[4] **في العبر: "العباس بن بختي". أنظر مج: 6، ص: 381. وفي البيان المغرب: :العباس بن يحيى". ج: 1، ص: 29.**

[5] **العبر، مج: 6، ص: 381.**

خير، وأمر له بظهائر كريمة، وانصرف إلى وطنه))[1].

وبذلك غدت هذه المدينة ثغراً وحصناً للمرابطين؛ حيث حظيت بعناية خاصة من قبل **يوسف بن تاشفين**؛ الذي باشر ببناء مدينته الخاصة في الناحية الغربية؛ وملاصقة **لأغادير** (الاسم القديم **لتلمسان**)؛ وسمّى مدينته **"تاكرارت"**[2] (**تاقرارت** أو **تاجرارت** بالجيم المصرية) **TAGRART**؛ ومعناها ـ كما فسرها **ابن خلدون**: ((**وهو اسم المحلة بلسان البربر**))[3]. ويبدو أن ثمة **تـڤرارت** أخرى في **مكناسة بالمغرب الأقصى**؛ وهي التي أبقاها **عبد المؤمن** عند فتحه **لمكناسة** سنة 543هـ/1148م[4].

ومنذ خضعت **تلمسان للمرابطين**؛ أضحت بمثابة المنطلق؛ نحو فتح بقية مدن **المغرب** الأوسط؛ **كوهران وتنس والوانشريس ومدينة الجزائر**.

---

[1] **البيان المغرب، ج: 1، ص: 29.**

[2] **كتبها ياقوت الرومي محرفة هكذا: ((تافرزت)). معجم البلدان، مج: 2، ص: 44.**

[3] **العبر، مج: 6، ص: 381. لأن ابن تاشفين بناها في موضع محلته (معسكره) عند النزول لقتال تلمسان. وعليه فقد سماها تكرارت؛ باسم المعسكر.**

[4] **((وخربت [أي مكناسة]، وقتل أكثر رجالها، وخمست أموالهم؛ وبقيت تاجرارت المدينة إلى الآن)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 134.**

هذا؛ وقد أسند **يوسف بن تاشفين** ولاية **تلمسان** إلى **محمد بن تينعمر**[1] **المسوفي**؛ وخلفه بعد مماته أخوه **تاشفين بن تينعمر**[2]. وفي عهد هذا الأخير؛ هاجمت جيوش **الحماديين تلمسان** سنة 496هـ/1102[3] بقيادة **المنصور**[4]؛ فاحتلها وعاث جيشه فيها. ثم خرج منها عائداً إلى وطنه؛ بعد أن شفعت في أهل **تلمسان** زوجة أميرها **تاشفين**؛ المسماة **حوا**[5]. حدث ذلك؛ رداً على اكتساح والي **تلمسان محمد بن تينعمر المسوفي** لبلاد **صنهاجة** وممتلكاتها؛ عندما توغل شرقاً حتى نازل **الجزائر**. ثم سلك أخوه **تاشفين بن تينعمر** النهج نفسه؛ حين غزا

---

[1] وردت في العبر مرة ((يغمر المسوفي))، ومرة أخرى ((ينعمر))، ومرة ثالثة ((تينعمر)).

[2] كتبها ابن خلدون في بعض المرات: ((ينعمر)). العبر، مج: 6، ص: 386.

[3] هكذا في إعمال الأعلام (قسم المغرب) ص: 97. بينما حرف التاريخ في العبر، مج 6، ص: 360؛ إذ كتب: سنة ست وسبعين [وأربعمائة]. أما في ص: 386 بالمجلد نفسه فكتبت: 497هـ؛ وهذا أقرب إلى الصحة. كما حرف التاريخ أيضاً في مج: 7، ص: 115؛ حيث كتب: ((ثم نهض إلى تلمسان في العساكر؛ واحتشد العرب من: الأثبج، ورياح، وزغبة، ومن لحق به من زناتة؛ وكانت الغزاة المشهورة سنة ست وثمانين)).

[4] هو المنصور بن الناصر بن علناس. (481هـ/1081م - 498هـ/1104م).

[5] ((وعاثت عساكر المنصور في تلمسان؛ فخرجت إليه حوّا؛ زوجة تاشفين أميرهم؛ متذممة، راغبة في الإبقاء، متوسلة بوشائج الصنهاجية. فأكبر قصدها إليه، وأكرم موصلها؛ وأفرج عنهم صبيحة يومه. وانكفأ راجعا إلى حضرته بالقلعة)). العبر، مج: 6، ص: 361.

أشير، وخربها. الأمر الذي أغضب **المنصور بن الناصر الحمادي**؛ فبادر إلى حشد جيشه، وجمع أنصاره من **أعراب هلال (الأثبج، ورياح، وزغبة)**؛ بالإضافة إلى بعض الأحياء من **زناتة**؛ ثم زحف بهم جميعاً إلى **تلمسان**؛ أين استولى عليها عنوة، وأطلق العنان لجيشه كي ينهب ويفسد؛ ولكنه أمسك عن ذلك؛ بعد شفاعة زوجة **تاشفين**؛ كما ذُكِر سابقاً.

وبعد غزو **المنصور لتلمسان**؛ وعودته إلى بلاده؛ تدارك الأمر **يوسف بن تشفين**؛ الذي كان منشغلاً في تمهيد **الأندلس**؛ فلم يرد فتح جبهة أخرى ضد **بني حماد**؛ لذا فقد باشر بالصلح مع **الحماديين**؛ وعزل أمير **تلمسان تاشفين المسوفي**؛ وعين بدلاً منه **مزدلي**؛ الذي استقدمه من إمارة **بلنسية بالأندلس**.

وفي أواخر الدولة **المرابطية**؛ كان على ولاية **تلمسان**؛ **يحيى بن إسحاق** المعروف **بانكمار**. هو الذي التحق بصفوف **عبد المؤمن بن علي الكومي**[1]

---

[1] **سرد ابن أبي زرع نسب عبد المؤمن بن علي هكذا: ((هو أبو محمد عبد المؤمن بن علي بن يعلا بن مروان بن نصر بن علي بن عامر بن الأمني بن موسى بن عون الله بن يحيى بن وزجائع بن سطفون بن**

ـ مـع جماعـة مـن **مسوفـة** ـ سنـة 537هـ/1142م[1]؛ بعـد الفتنـة الـتي وقعـت بيـن **لمتونـة ومسوفـة**؛ حيـث أعلنـوا طاعتهـم **للموحديـن**. فـولى **تاشفيـن بـن عـلي ابـن يوسـف** ـ عـلى **تلمسـان** وأحوازهـا ـ **محمـد بـن يحـيى بـن فانـوا**؛ ولكنـه قتـل في معركـة بينـه وبيـن **الموحديـن**؛ فأسنـد **تاشفيـن بـن عـلي** ولايتهـا إلى **أبي بكـر بـن مـزدلي**؛ وهـو آخـر ولاة **المرابطيـن** في **تلمسـان**.

كمـا شهـدت هـذه المدينـة ومحيطهـا بـوادر نهايـة الدولـة **المرابطيـة**. لأن عاهـل الدولـة **تاشفيـن بـن عـلي** كـان في **تلمسـان**؛ حيـن زحـف إليـه **عبـد المؤمـن بـن عـلي** أميـر **الموحديـن**؛ حيـث نـزل في ظاهـر المدينـة؛ بيـن مـا يعـرف بالصخرتيـن؛ أي الجبليـن. وبالمقابـل نـزل الجيـش **المرابـطي** في أرض منخفضـة؛ ولمـا التحـم الجيشـان؛ تغلـب **الموحـدون**؛ بحكـم موقعهـم المرتفـع. فانصبـوا عـلى أعدائهـم؛ وكانـت هزيمـة **اللمتونييـن**، وفـرار **تاشفيـن بـن عـلي** إلى **وهـران**؛ حيـث هلـك

نفور بن مطاط بن هود بن مادغيس بن بربر بن قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن عدنان. هكذا أثبت نسبته جماعة المؤرخين لدولته؛ وأصله منقول من خط حفيده أبي محمد عبد الواحد على ما ذكروه؛ والله أعلم. فهو زناتي الأصل...)) الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 119.

[1] العبر، مج: 6، ص: 474.

هنـــاك؛ بسقوطـــه مـــن أعـــلى جبـــل في سنـــة 539هـ/1144م[1].

وثمـــة روايـــة أخـــرى؛ ذكرهـــا **ابـــن صاحـــب الصـــلاة**؛ ونقلهـــا عنـــه **ابـــن أبي زرع**[2] أيضـــاً؛ ومفادهـــا؛ أن **تاشفيـــن** طـــوى المراحـــل نحـــو **تلمســـان**؛ بهـــدف الوصـــول إليهـــا قبـــل **عبـــد المؤمـــن**؛ حيـــن علـــم برحيلـــه نحوهـــا. ولمـــا دخلهـــا **تاشفيـــن**؛ بـــادر إلى تحصينهـــا وضبـــط أحوالهـــا. أمـــا **عبـــد المؤمـــن** فقـــد اكتـــفى بمحاصـــرة المدينـــة؛ عنـــد نزولـــه بجيشـــه بيـــن الصخرتيـــن؛ كمـــا يقـــال. وجـــاء في هـــذا الخبـــر؛ أن جيشيهمـــا اشتبكـــا مـــراراً؛ ثـــم بـــادر **عبـــد المؤمـــن** بالرحيـــل نحـــو **وهـــران** لفتحهـــا؛ وتـــرك قـــوة مـــن الموحديـــن تحاصـــر **تلمســـان**. عندهـــا؛ خـــرج عـــلى إثـــره **تاشفيـــن** ــ لحمايـــة **وهـــران** ــ بعـــد أن استخلـــف في **تلمســـان** حاميـــة مـــن **المرابطيـــن**. وهنـــاك حـــدث لـــه مـــا حـــدث؛ مـــن هلاكـــه؛ بالسقـــوط مـــن المرتفـــع إلى البحـــر. عندئـــذ سهـــل عـــلى **عبـــد المؤمـــن**؛ فتـــح **وهـــران**

[1] الأنيس المطرب، ص ص: 107 - 108. 132. العبر، مج: 6، ص: 477. أنظر خبرا مفصلا عن هذه الواقائع كلها؛ في الحلل الموشية، ص ص: 159 - 164. وجاء في المعجب في تلخيص أخبار المغرب؛ أن مهلك تاشفين حدث في سنة 540هـ. أنظر ص: 203.

[2] الأنيس المطرب، ص ص: 131 - 132.

وتلمسان في السنة نفسها؛ أي 539هـ/1144م[1]. وواضح هنا أن هذه الرواية الأخيرة؛ يشوبها ضعف وعدم انسجام مع المنطق؛ لأن خروج **تاشفين** ــ بعد رحيل **عبد المؤمن** إلى **وهران** ــ غير معقول؛ خاصة وأن الجيش **الموحدي** بقي محاصراً للمدينة؛ وهذا الأمر يعرض **تاشفين** للخطر. كما أن خروجه بعد **عبد المؤمن**؛ لا يمكنه من الوصول قبله إلى **وهران**؛ خاصة وأن المسافة غير بعيدة؛ ولا تتجاوز ثلاث مراحل.

المهم؛ أن **تلمسان** ظلت في قبضة **المرابطين**؛ إثر هروب **تاشفين** إلى **وهران**، ومماته فيها؛ لأنه ترك فيها الأمير **محمد**؛ الشهير **بالشيور**. وبالمقابل ترك **عبد المؤمن** مفرزة من جيش **الموحدين** بقيادة

---

[1] أورد بن أبي زرع خبراً آخر عن فتح تلمسان؛ جاء فيه: ((ودخل عبد المؤمن وهران عنوة؛ وذلك في شهر محرم من سنة أربعين وخمسمائة؛ وفي شهر صفر دخل تلمسان؛ وملكها الموحدون؛ وفرّ عنها لمتونة؛ إلى أكادير؛ فحصروا بها إلى سنة أربع وأربعين؛ فدخلها عليهم الموحدون عنوة. وقال البرنوسي: فتح تلمسان سنة تسع وثلاثين)). الأنيس المطرب، ص: 133. وذكر عبد الواحد المراكشي أيضاً خبراً جاء فيه: ((وخرج تاشفين ـ بعد وفاة أبيه ـ قاصداً تلمسان؛ فلم يتفق له من أهلها ما يريد؛ فقصد مدينة وهران ـ وهي على ثلاث مراحل من تلمسان ـ فحاصره الموحدون بها. فلما اشتدّ عليه الحصار؛ خرج راكباً فرساً شهباء؛ فاقتحم البحر حتى هلك)).المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 202. وهكذا تعددت الروايات حول فتح الموحدين لتلمسان وهلاك أمير المسلمين تاشفين بن علي.

ابـن يحـيى بـن يومـر؛ بغـرض التضييـق عـلى **المدينـة** ومحاصرتهـا. ولكـن الحـال تغيـر بعـد وصـول خبـر هـلاك **تاشفيـن** إلى **تلمسـان**. عندهـا؛ سـارع كـل مـن فيهـا مـن **اللمتونييـن** إلى الهـروب. فدخـل عبـد المؤمـن المدينـة؛ أيـن قتـل وسـبى، ونهـب وأبـلى: **((ذكـر ابـن اليسـع أنّـه بلـغ عـدد القتـلى بهـا إلى مائـة ألـف أو أزيـد، ولمـا ملكهـا أقـام بهـا سبعـة أشهـر، ورحـل منهـا إلى جهـة المغـرب))**[1].

ـ العمـران والثقافـة:

أبـرز الإنجـازات العمرانيـة للمرابطيـن في **تلمسـان**؛ هي بناؤهـم لمدينـة جديـدة ــ غيـر **أغاديـر** القديمـة ــ أحاطوهـا بسـور حصيـن؛ وسموهـا **تكـرارت (تـڤرارت)**. كمـا بُـنِيَ في مركـز المدينـة المرابطيـة مسجـدٌ جامـع سنـة 473هـ/1080م؛ ويقـال أن أسُسَـه وضعـت حيـث نُصِبَـتْ خيمـة **يوسـف بـن تاشفيـن**؛ عندمـا فتـح **تلمسـان**.

---

[1] الحلل الموشية، ص: 166. وجاء في العبر أيضاً: ((وبلغ خبر مقتل تاشفين إلى تلمسان مع فل لمتونة؛ وفيهم: أبو بكر بن يحيى، وسير بن الحاج، وعلي بن فيلو ـ في آخرين من أعيانهم ـ ففر معهم من كان بها من لمتونة)). مج: 6، ص: 477.

وشيَّد **المرابطون** أيضاً ــ بجوار المسجد ــ قصراً لسكنى أمراء المدينة؛ عرف فيما بعد باسم القصر القديم. وفي أيام الأمير **علي بن يوسف بن تاشفين**؛ أضاف للعمارة في **تلمسان** رونقاً وجمالاً؛ حينما جلب إليها ــ سنة 530هـ/1135م ــ مهندسين وعملة وفنيين من **الأندلس**؛ قاموا بتجديد عمارة بعض المنشآت بالمدينة وتزيينها بالأشكال الفنية. من تلك المنشآت: المسجد الجامع؛ الذي أضفيت عليه مسحة رائعة من الأشكال الفنية الجميلة.

ويفهم مما ورد في جُلّ المصادر التاريخية؛ أن **تلمسان** ــ في عصر **المرابطين** ــ أخذت تشهد بوادر النهضة العلمية والأدبية؛ إذ تمتَّنَت الصلات ــ في تلك الفترة ــ بين العدوتين: **المغربية والأندلسية**؛ كما ازدادت الحركة العلمية ونمت بين الضفتين؛ فكان **لتلمسان** نصيب من تلك الحركة العلمية. إذ برز فيها بعض العلماء والفقهاء والأدباء الشعراء. غير أن العصر المرابطي غلب عليه ــ أيضاً ــ الاعتناء بالعلوم الدينية؛ ذات التوجه المالكي. كما أن تلمسان في هذا العصر؛ غلبت عليها ظاهرة التصوف والميل إلى الزهد بين كثير من العلماء.

وقد أوردت المصادر أسماء نخبة من أولئك العلماء والشعراء؛ بالإضافة إلى الأولياء الصالحين والدراويش. ممن عاشوا في العصرين: **المرابطي، والموحدي**. وحتى يسهل تصنيفهم؛ فقد أُخذ بالاعتبار الوقوف – في الفترة المرابطية – عند سنة 560هـ/1164م؛ لأن الدولة الموحدية قبل هذا التاريخ؛ لم يتسن لها تقديم شيء في المجال الثقافي بتلمسان؛ وكل ما وجد في هذه المدينة؛ فقد نما وترعرع في ظلّ المرابطين. وفيما يلي بعض الأسماء من علماء تلمسان وزهادها؛ على أن يترك المجال للأدباء والشعراء في أجزاء الكتاب اللاحقة:

1 – الولي الزاهد أبو زكرياء يحيى بن الصقيل، فقيه، ومحدث وحافظ للحديث؛ يميل إلى الزهد والورع؛ ومنغمس في العبادة، لا يكاد يفارق المساجد، ويكثر من زيارة القبور؛ ويفضل العزلة عن الناس. نسبت له الكرامات واطلاعات صوفية. دفن رحمه الله خارج باب العقبة، قال عنه يحيى بن خلدون: ((**وله الآن بتلمسان ولد على غير هدية، نجباء فيما ولوه من أمر السلطنة**))[1]. قال فيه ابن

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 116.**

الزبيـــر أنـــه ((**روى عـــن القـــاضي أبي عـــلي الصـــدفي**[1]**. ذكـــره أبـــو عبـــد اللـــه التلمســـاني**))[2]. بمـــا أن الصـــدفي تـــوفي في سنـــة 514هـــ/1120م. يكـــون **ابـــن الصقيـــل** هـــذا عـــاش في زمنـــه ــ وفي عصـــر المرابطيـــن بالتحديـــن ــ أمـــا وفاتـــه فـــلا تبعـــد كثيـــراً عنـــه؛ واللـــه أعلـــم.

2 ــ أبـــو الحســـن يحـــيى بـــن عيـــسى بـــن عـــلي بـــن محمـــد بـــن أحمـــد المـــرسي التلمســـاني (ابـــن الصقيـــل). قـــد يكـــون مـــن الأبنـــاء الذيـــن أشـــار إليهـــم يحـــيى بـــن خلـــدون؛ في الترجمـــة السابقـــة. وهـــو أحـــد رواة الحديـــث، ومـــن العـــدول الصالحيـــن. لا يعـــرف تاريـــخ وفاتـــه. فألحقـــت ترجمتـــه بسلفـــه.

3 ــ أبـــو جعفـــر أحمـــد بـــن عـــلي بـــن غزلـــون الأمـــوي؛ تـــوفي في عـــام 524هـــ/1129م. أندلـــسي مـــن أهـــل **تُطِيلـــة**. قـــال عنـــه ابـــن بشكـــوال: **((روى عـــن أبي الوليـــد سليمـــان بـــن خلـــف البـــاجي؛ وهـــو معـــدود في كبـــار أصحابـــه. وكـــان مـــن أهـــل الحفـــظ والمعرفـــة والذكـــاء؛ وقـــد أخـــذ عنـــه أصحابنـــا. وتـــوفي بالعـــدوة؛ في نحـــو عشريـــن وخمسمائـــة))**[3]. غيـــر أن تعليقـــا في هامـــش

---

[1] الشهير بلقب ابن سُكَّرة.
[2] صلة الصلة، رقم الترجمة: 356.
[3] الصلة، ج: 1:، ص: 77، رقم الترجمة: 169.

الصفحة كتب فيه: ((**قبره بتلمسان بأجادير؛ منها بباب العقبة؛ وكثيراً ما زرت قبره رحمه الله. ووفاته – بلا شك – سنة أربع وعشرين. "من هامش الأصل المعتمد عليه؛ وقد سقط هذا في نسخة أوروبا"**))[1]. وقبره بجوار قبر أحمد الداودي.

4 – يحيى بن يوغان "يوڤان" الصنهاجي؛ (أبو زكرياء). وهو أحد أمراء المرابطين؛ اختار خلوة الصوفيين؛ على مجالس الحكم والرئاسة. يقال أنه زار يوماً **أبا محمد عبد السلام التونسي**؛ وطلب منه أن يكون تلميذاً له؛ ((**فقال له: "إنّك لا تقدر على ذلك"؛ فقال له أبو زكرياء: "أقدر إن شاء الله: فقال له: "إن كنت كما تقول؛ فاذهب إلى الجبل، واحتطب حزمة، وادخل بها رحبة القصر وهي على ظهرك؛ حتى يذهب ما فيك من الكبر والنخوة والزعامة**))[2]. فنفذ الأمير **ابن يوغان** ما اشترطه عليه **أبو محمد عبد السلام**؛ فذهب إلى الجبل واحتطب حطباً؛ جمعه في حزمة؛ ثم حملها على ظهره، ودخل بها رحبة القصر من باب وخرج من باب آخر – وهي مركز إمارته في

---

[1] **الصلة، ج: 1، ص: 77.**
[2] **التشوف إلى رجال التصوف؛ ص: 123.**

تلمسان ــ فلما رآه بعض الرؤساء من **صنهاجة**؛ فرّوا من أمامه؛ حياء منه، وإشفاقاً من رؤيته على تلك الحال. ولكنه واصل طريقه إلى وسط البلدة؛ حيث وضع حزمة الحطب من على ظهره، وعرضها للبيع؛ فباعها بدرهم؛ ثم عاد إلى **التونسي**. ولما حكى حكايته عليه؛ قال له: "أما الآن؛ فأنا استوهب منك الدعاء". ثم إنه كان يحيل من يأتيه في طلب الدعاء إلى **ابن يوغان**؛ ويقول له: ((**اذهب إلى ابن يوغان، واستوهب منه الدعاء؛ فإنه ملك زهد في الدنيا؛ وأما أنا فكنت فقيراً وبقيت فقيراً؛ وما زدت شيئاً**))[1]. توفي بتلمسان في 537هـ/1142م.

5 ــ أبو عمر عثمان المعروف باسم ابن صاحب الصلاة: وهو قاضي **تلمسان**، وخطيب جامعها. من العلماء الأجلاء، والفقهاء المميزين. قام بشرح الأحكام الصغرى. تلقى عليه **عبد المؤمن بن على** العلم في صغره؛ ثم قتله بأمر **ابن تومرت**؛ الذي قال له: ((**اقتله؛ فإن صفير الصاد من قوله لي: "اشتغل بخويصة نفسك" في أذني حتى الآن**))[2]. وكان قد وَبَّخَ ابن تومرت على بعض تصرفاته؛ خلال

---

[1] **التشوف إلى رجال التصوف؛ ص: 123.**

[2] **بغية الرواد: ج: 1، ص: 116.**

مـروره **بتلمسـان** مـع عبـد المؤمـن بـن علـي؛ عائـداً إلى المغـرب الأقـصى. وتـم قتلـه إثـر فتـح عبد المؤمـن ابـن علـي تلمسـان؛ في سنـة 539هـ/1144م.

6 ـ عثمـان بـن علـي بـن الحسـن التلمسـاني؛ (أبـو عمـرو). شيـخ فاضـل؛ ملتـزم بدينـه، صالـح في أقوالـه وأفعالـه، مواضـب علـى تـلاوة القـرآن الكريـم؛ بحيـث كـان يختمـه كـل ليلـة. رحـل للحـج عبـر الصحـراء؛ ثـم عـاد. وقـال يحـيى بـن خلـدون: ((**فلمـا كـان علـى مسيـرة يـوم عـن تلمسـان، سمـع، هاتفـاً يقـول لـه أدرك أمّـك فقـد ماتـت، فأغـذ السيـر، وأدرك جنازتهـا علـى شفيـر القبـر**))[1]. تـوفي رحمـه الله في رمضـان مـن عـام 542هـ/1147م.

7 ـ علـي بـن أبي القاسـم عبـد الرحمـن التلمسـاني؛ المعـروف بابـن جنـون "قنّـون[2]**؛ (أبـو الحسـن).** تـوفي في عـام 557هـ/1161م. ولـد ونشـأ **بتلمسـان** وتعلـم بهـا؛ ثـم عبـر إلى **الأندلـس**؛ أيـن روى علـى بعـض علمائهـا. تـولى القضـاء **بتلمسـان ومراكـش**. مـن مؤلفاتـه: المقتضـب الأشـفى في اختصـار المستصـفى؛ في أصـول الفقـه.

---

[1] **بغيـة الرواد، ج: 1، ص: 108.**

[2] **سـمي في بعض النصوص ((ابـن عرجـون)).**

8 ـ يعقـوب بـن حمـود التلمسـاني؛ (أبـو يوسـف). تعـود أصولـه الأولى إلى أغمـات. أخـذ بمرسيـة عـن أبي علـي الصـدفي سنـة 511هـ/1117م. ثـم عـاد إلى **تلمسـان**؛ الـتي باشـر التعليـم بهـا؛ ومـن تلاميـذه أبـو يحـيى بـن عصفـور وآخـرون. ولا يعـرف تاريـخ وفاتـه. وإنمـا يدخـل في أعـلام العصـر المرابـطي؛ بحكـم أنـه أخـذ العلـم عـن الصـدفي المتـوفي سنـة 511هـ.

وهكـذا؛ تكـون **تلمسـان** ـ في ذلـك العهـد ـ قـد احتلـت مكانـة مرموقـة بيـن العلمـاء؛ إذ أضحـت مركـزاً هامـاً للفقـه المالـكي. وقـد انتقـل إليهـا **عبـد المؤمـن ابـن عـلي** ـ في صغـره؛ مـن بلدتـه **تاجـرا** القريبـة مـن **ندرومـة** ـ بغـرض استكمـال تعليمـه عـلى يـد العلمـاء فيهـا؛ مـن بينهـم: **ابـن صاحـب الصـلاة، وعبـد السـلام التونـسي**.

***

العصر الموحدي

في أشهر الأقوال؛ يكون **عبد المؤمن بن علي** قد دخل إلى **تلمسان** في سنة 539هـ/1144م؛ حيث تملكها عنوة؛ إثر عودته من فتح **وهران** مباشرة:[1]
((ولما وصل عبد المؤمن إلى تلمسان؛ استباح أهل تاكرارت؛ لما كانوا أكثرهم من الحشم؛ وعفا عن أهل تلمسان؛ ورحل عنها لسبعة أشهر من فتحها؛ بعد أن ولى عليها سليمان بن محمد بن واندين؛

---

[1] الحلل الموشية، ص: 165. أورد ابن خلدون خبراً آخر أيضاً؛ حيث قال: ((وفيما نقل بعض المؤرخين؛ أنه لم يزل محاصرا لتلمسان؛ والفتوح ترد عليه. وهناك وصلته بيعة سجلماسة. ثم اعتزم على الرحيل إلى المغرب؛ وترك إبراهيم بن جامع محاصرا لتلمسان؛ فقصد فاس سنة أربعين [وخمسمائة]؛ وقد تحصن بها يحيى الصحراوي. ولحق بها من فلِّ تاشفين من تلمسان؛ فنازلها عبد المؤمن، وبعث عسكراً لحصار مكناسة؛ ثم رحل في أتباعه؛ وترك عسكراً من الموحدين على فاس؛ وعليهم الشيخ أبو حفص، وأبو إبراهيم من أصحاب المهدي العشرة؛ فحاصروها سبعة أشهر.... وبلغ خبر فاس إلى عبد المؤمن - وهو بمكانه من حصار مكناسة - فرجع إليها، وولى عليها إبراهيم بن جامع.... وكان إبراهيم بن جامع لما افتتح تلمسان؛ ارتحل إلى عبد المؤمن وهو محاصر لفاس؛ فاعترضه المخضب بن عسكر؛ أمير بني مرين بأكرسيف؛ ونالوا منه ومن رفقته. فكتب عبد المؤمن إلى يوسف بن واندين (بن..؟) عامل تلمسان؛ أن يجهز إليهم العساكر؛ فبعثها صحبة عبد الحق ابن مَنْغْفاد شيخ بني عبد الواد؛ فأوقعوا ببني مرين، وقتل المخضب أميرهم)). العبر، مج: 6، ص ص: 478 - 479.

وقيل يوسف بن واندين))[1]. ثم أشار **ابن خلدون**؛ لتضارب الآراء في الرواية.

وذكر **ابن أبي زرع** أن **عبد المؤمن بن على** أمر – سنة 540هـ/1145م ((**ببناء سور تاجرارت** [تكرارت أو تقرارت] **من تلمسان وبناء جامعها، وتحصين المدينة، وإعلاء سورها**))[2].

وبعد فتح **إفريقية**؛ أسند **عبد المؤمن بن علي** سنة 547هـ/1152م ولاية **تلمسان** إلى ولده **السيد أبي حفص عمر**؛ ثم وضع معه **أبا محمد بن واندين** في مرتبة وزير، **وأبا الأصبغ بن عياش** ككاتب ومعلم ومؤدب له[3]. وواضح – هنا – أنه اتخذ هذا في إطار سياسة جديدة اتبعها؛ تمكنه من السيطرة والتحكم في أوضاع الدولة؛ إذ أنه أسند أيضاً ولاية **فاس** لابنه السيد **أبي الحسن**، وولاية **سبتة** للسيد **أبي سعيد**[4]، وولاية **بجاية** للسيد **أبي محمد عبد الله**. الأمر الذي أغضب أسرة **المهدي**؛ حيث عاد أخواه

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 478.
[2] الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 133.
[3] الحلل الموشية، ص: 186. والعبر، مج: 6، ص: 491.
[4] نفسه: ((غرناطة)). ص: 186.

إلى **مراكش**؛ قصد حبك مؤامرة ضد **عبد المؤمن** وبنيه؛ ولكنهما فشلا وقتلا[1].

وبعد أن استوزر **عبد المؤمن** ولده **السيد أبا حفص** سنة 555هـ/1160م؛ أسند ولاية **تلمسان للسيد أبي عمران بن عبد المؤمن**[2]. وذكر **عبد الواحد المراكشي**؛ أن **عبد المؤمن** أسند خطة القضاء **بتلمسان** لابنه **أبي يعقوب**[3]. وهذه الخطة أسندت ايضاً في **تلمسان** إلى **طلحة بن أبي يعقوب**. وتبين أن والي هذه المدينة سنة 581هـ/1185م هو **السيد أبو الحسن بن أبي حفص بن عبد المؤمن**[4]. أما في سنة 584هـ/1188م فكانت ولاية **تلمسان** من نصيب **أبي إسحاق بن عبد المؤمن**؛ ولكن ابن أخيه **يعقوب بن المنصور** عزله ونكبه في السنة نفسها؛ بعد عودته من إفريقية لأمر سمعه عنه؛ فأغضبه.[5]

وفي سنة 604هـ/1207م؛ كان والياً على **تلمسان** **أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن**؛ الذي

---

[1] العبر، مج: 6، ص ص: 491 - 492. أنظر خبر هذه المؤامرة في المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 233 - 234.
[2] العبر، مج: 6، ص: 500.
[3] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 246.
[4] العبر، مج: 6، ص: 507.
[5] نفسه ، ص: 510.

توفي بها في السنة نفسها[1]. حيث أسند **الناصر** هذه الولاية – سنة 605هـ/1208م – لأبي **عمران بن يوسف بن عبد المؤمن**. ((**أدال به من السيد الحسن. فوصل إلى تلمسان في عساكر الموحدين؛ وتطوف بأقطارها. وزحف إليه ابن غانية هنالك؛ فانفض الموحدون؛ وقتل السيد أبو عمران؛ وارتاع أهل تلمسان؛ وأسرع السيد أبو زكرياء من فاس إليها؛ فسكن نفوسهم. خلال ما عقد الناصر لأبي زيد بن يوجان على تلمسان؛ وسرحه في العساكر؛ فنزل بها؛ وفرّ ابن غانية**))[2].

وفي سنة 611هـ/1214م؛ عزل **المستنصر بن الناصر أبا زيد بن يوجان (يوغان أو يوڤان)** عن ولاية **تلمسان**؛ واسند ولايتها **لأبي سعيد بن المنصور**[3]. ولكن **ابن خلدون**؛ ذكر أن ولده **محمد ابن أبي زيد بن يوغان (يوڤان)**؛ بايع **للمأمون**[4]؛ بينما كان والياً على **تلمسان** سنة 626هـ/1228م[5].

---

[1] **العبر، مج: 6، ص: 520.**
[2] **نفسه، ص ص: 520 - 521.**
[3] **نفسه، ص: 524.**
[4] **هو أبو العلاء إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي. حكم من سنة 624هـ/1226م إلى سنة 630هـ/1232م.**
[5] **العبر، مج: 6، ص: 529.**

غيــر أنــه يذكــر ــ في موضــع آخــر ــ أن الــوالي عــلى **تلمســان** في سنــة 624هـ/1226م؛ هــو **أبــو سعيــد**[1]؛ وهــذا الأخيــر؛ هــو الــذي أجمعــت المصــادر عــلى أنــه كــان عــلى **تلمســان** في سنــة 624هـ؛ عنــد ظهــور **بــني عبــد الــواد**؛ الذيــن استبــدوا بهــذه المدينــة وأعمالهــا؛ وشيــدوا دولتهــم بعــد اقتطاعهــا نهائيــا عــن الدولــة **الموحديــة** في سنــة 633هـ/1235م.

وجملــة القــول؛ تعتبــر **تلمســان** مــن مراكــز الدولــة **الموحديــة** الهامــة؛ بحيــث اختــص بهــا القرابــة مــن **بــني عبــد المؤمــن**؛ وفي هــذا يقــول **عبــد الرحمــان بــن خلــدون**: **((وكانــت تلمســان ــ لذلــك العهــد ــ نــزلاً للحاميــة، ومناخــاً للسيــد مــن القرابــة؛ الــذي يضــم نثرهــا، ويــذب عــن أنحائهــا))**[2].

---

[1] ((وكـان المأمـون استعمـل علـى تلمسـان أخـاه السيـد أبـا سعيـد؛ وكـان غفـلاً؛ ضعيـف التدبيـر)). نفسـه، مج: 7، ص: 152.

[2] العبـر، مج: 7، ص ص: 151 - 152.

ـ العمـران والثقافـة:

شهـدت الفتـرة الزمنيـة ـ الـتي استظلـت فيهـا **تلمسـان** بحمايـة الدولـة الموحديـة ـ أهـم الإنجـازات العمرانيـة؛ حيـث رُفِعَـتْ بهـا الأسـوار إلى مستويـات شاهقـة، وحصنـت بمـواد البنـاء الصلبـة المتينـة، وحفـرت حولهـا الخنـادق والحواجـز المائيـة، وأقيمـت عـلى أطرافهـا التحصينـات المنيعـة. كمـا شجـع أمـراء الدولـة الموحديـة السكـان عـلى إضافـة المزيـد مـن العمـران، والتوسـع في بنـاء المساكـن والقصـور. وينسـب **ابـن خلـدون** معظـم المنجـزات العمرانيـة **بتلمسـان** ـ في العهـد الموحـدي ـ إلى أميرهـا السيـد **أبي عمـران مـوسى بـن يوسـف**؛ الـذي وُلِيَ المدينـة سنـة 556هـ/1160م: ((**واتصلـت أيـام ولايتـه فيهـا؛ فشيّـد بناءهـا، وأوسـع خطتهـا، وأدار سيـاج الأسـوار عليهـا**))[1]. كمـا اتبـع نهجـه ـ في البنـاء والعمـران ـ السيـد **أبـو الحسـن عـلي بـن أبي حفـص بـن عبـد المؤمـن**؛ الـذي وُلِيَ **تلمسـان** بعـده؛ إذ اضطرتـه الأوضـاع السياسيـة والعسكريـة، والاضطرابـات والفتـن الـتي أشعلهـا **ابـن غانيـة** سنـة 581هـ/1185م ـ إثـر احتلالـه **لبجايـة**

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 160.**

والجزائر ومليانة ــ إلى إضافة المزيد من الأسوار والتحصينات: ((**بإمعان النظر في تشييد أسوارها، والاستبلاغ في تحصينها، وسدّ فروجها، وإعماق الحفائر نطاقاً عليها؛ حتى صَيَّرها أمنع معاقل المغرب، وأحصن أمصاره. وتقبل ولاتها هذا المذهب من بعده في المعتصم بها**))[1]. ثم تنامى عمران **تلمسان** ــ مع الوقت ــ وتعاظم دورها السياسي والعسكري؛ فاعتبرت ــ بحكم أهميتها وموقعها وحصانتها ــ حاضرة **للمغرب الأوسط**؛ بعد تلاشي دور **تيهرت** والمدن الأخرى.

أما خبر الحركة العلمية والثقافية عموماً في مدينة **تلمسان**؛ فيتجلى بما شهدته من نموّ وتطور في العهد **الموحدي**؛ إذ فاقت ــ في مجملها ــ الأوضاع الثقافية أيام **المرابطين**. ويمكن استشفاف ذلك من خلال ما ظهر فيها من علماء وأدباء.

وثمة جزء معتبر مما هو مُثْبَت هنا؛ يمكن إدخاله ضمن الفترة المرابطية؛ ولكن المنهج ــ الذي ذكر سابقاً ــ يجعل كل من مات بعد سنة 560هـ/1164م من أعلام الدولة الموحدية؛ بينما يعود

[1] **العبر، مج: 7، ص: 160.**

السابقون من الرجال لهذا التاريخ إلى العصر المرابطي.

وفيما يلي أهم العلماء والمتصوفة في العهد الموحدي؛ باستثناء الذين لهم مشاركة في فنون الأدب ونظم الشعرا؛ إذ خصصت لهم الأجزاء المتبقية من الكتاب:

1 ـ سليمان بن عبد الرحمن بن المعز الصنهاجي، المعروف **بالتلمساني؛ (أبو الربيع).** من بين شيوخه: أبو بكر بن خلف المعروف بالمواق، وأبو العباس أحمد بن محمد المعروف بالحصار. وكان يميل إلى الزهد، ويتصف بالورع؛ سكن مدينة سلا؛ وانشغل بحرفة النسخ؛ ولم يكن يرضيه إلاّ قيمة العدل. وتوفي بسلا سنة 579هـ/1183.

2 ـ يوسف بن عبد المؤمن الكومي؛ (أبو يعقوب)؛ هو أحد سلاطين الدولة الموحدية العظماء في العلم والسياسة. إذ كان ـ إلى جانب منصبه السياسي ـ واسع الاطلاع على علوم شتى؛ منها: الشرعية، والأدبية، والفلسفية. وقد عرف عنه إلمامه بالحكمة، والفلسفة؛ وحبِّه للعلماء، وأهل الفكر؛ حيث جلب إلى بلاطه نخبة من علماء عصره آنذاك؛ مثل: ابن الطفيل، وابن رشد، وابن زهر وغيرهم. ووصفه

عبد الواحد المراكشي بقوله: ((كان أحسن الناس ألفاظاً بالقرآن، وأسرعهم نفوذ خاطر في غامض مسائل النحو، وأحفظهم للغة العربية... مع إيثار للعلم شديد، وتعطش إليه مفرط. صح عندي أنه كان يحفظ أحد الصحيحين – الشك مني: إما البخاري، أو مسلم؛ وأغلب ظني أنه البخاري – حفظه في حياة أبيه؛ بعد تعلم القرآن؛ هذا مع ذكر جمل من الفقه؛ وكان له مشاركة في علم الأدب، واتساع في حفظ اللغة، وتبحر في علم النحو حسبما تقدم؛ ثم طمح به شرف نفسه، وعلوٍّ همته إلى تعلم الفلسفة؛ فجمع كثيراً من أجزائها؛ وبدأ من ذلك بعلم الطب؛ فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكي أكثره؛ مما يتعلق بالعلم خاصة؛ دون العمل؛ ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة؛ وأمر بجمع كتبها؛ فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المنتصر بالله الأموي.))[1]. توفي رحمه الله في عام 580هـ/1184م.

3 – ميمون بن جبارة بن خلفون الكتامي؛ (أبو تميم). من العلماء الرؤساء؛ يتحلى بخلق حميد،

---

[1] المعجب، ص ص: 237 – 238.

وكــرم فيــاض أخــذ عــن عبــد الله بــن عبــد الحــق التلمســاني. ورحــل إلى الأندلــس؛ أيــن ولي قضــاء بلنسيــة؛ فكــان عــادلاً في أحكامــه، وحمــدت سيرتــه. باشــر إقــراء النــاس أصــول الديــن؛ ومــن الذيــن أخــذوا عنــه: أبــو الذهــبي، وأبــو الحجــاج بــن مــرضي. وبعــد عودتــه إلى ديــار المغــرب؛ ولي قضــاء بجايــة؛ ولكنــه أعــفي فيمــا بعــد. وتــوفي رحمــه اللــه بتلمســان سنــة 584هــ/1188م أثنــاء عبــوره بهــا قاصــداً مراكــش.

4 ــ عبــد الســلام التونــسي؛ (أبــو محمــد)[1]**.** مــن الفقهــاء والأوليــاء الصالحيــن. عاصــر **المرابطيــن والموحديــن** معــاً. هــو أحــد مشائــخ **عبــد المؤمــن بــن عــلي**؛ حينمــا انتقــل في صغــره إلى **تلمســان** لتحصيــل العلــم. وهــو الــذي اختــار **أبــو مديــن شعيــب** الاستقــرار بجــواره؛ فدفــن بقربــه، وفي روضتــه. مــن شيــوخ عبــد الســلام: عمُّــه عبــد العزيــز؛ درس عليــه بأغمــات؛ ثــم انتقــل إلى تلمســان فكــان راهبــاً، عالمــاً، زاهــداً؛ لا يحيــد عــن الحــق بأنملــة، ولا يصــغي فيــه للومــة لائــم. فضــل لبــس الصــوف وأكــل الشعيــر المستخــرج مــن حــرث يــده،

---

[1] لقد عاش فترة طويلة في العهد المرابطي. ويمكن اعتباره من أعلام ذلك العهد؛ ولكن المنهج المتبع هنا؛ يدخله بين أعلام العهد الموحدي.

واكتفى بأكل السلاحف البرية عند الحاجة. توفي **بالعباد** سنة 589هـ/1193م.

5 ـ يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الكومي؛ (أبو يوسف المنصور). كان من أعظم سلاطين الدولة الموحدية؛ له إلمام واسع بالعلوم الدينية والدنيوية، وله دراية بفنون الآداب. وقد ترك بصماته بارزة جلية في نظام الدولة الموحدية، ومؤسساتها الإدارية، والعسكرية، والثقافية، والدينية. فقد كان ـ إلى جانب حزمه، ودهائه، وحنكته السياسية، والعسكرية ـ يتمتع بمزايا علمية، وثقافية معتبرة؛ ولكن يعيبه تعصبه للمذهب المالكي؛ مذهب الدولة. كما عرف بقمع الأفكار المتجددة النيرة، واشتهر بكبحه وقمعه لكل المحاولات التي توحي بتجدد أو اجتهاد. وقد شهدت الدولة الموحدية في عهده تشنج مذهبي خطير؛ من ذلك: إحراق كتب الفروع، والتضييق على الفقهاء من المالكية وغيرهم؛ حيث ألزمهم يعقوب المنصور حدوداً سطرها بنفسه في الإفتاء؛ جاعلاً حدود الإفتاء لا تتجاوز القرآن الكريم أو ما ثبت في الصحاح من كتب الحديث. وقد تطرق عبد الواحد المراكشي ـ في كتابه المعجب ـ لتلك الأحداث بقوله: ((**وفي أيامه انقطع علم الفروع،**

وأمـر بإحـراق كتـب المذهـب؛ بعـد أن يجـرد مـا فيهـا مـن حديـث رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلـم، والقـرآن؛ ففعـل ذلـك، فأحـرق منهـا جملـة في سائـر البـلاد؛ كمدونـة سحنـون، وكتـاب ابـن يونـس، ونـوادر ابـن أبي زيـد، ومختصـره، وكتـاب التهذيـب للبـراذعي، وواضحـة ابـن حبيـب، وما جانـس هـذه الكتـب، ونحـا نحوهـا. لقـد شهـدت منهـا وأنـا يومئـذ بمدينـة فـاس؛ يـؤتى منهـا بالأحمـال؛ فتوضـع ويطلـق فيهـا النـار؛ وتقـدم إلى النـاس في تـرك الاشتغـال بعلـم الـرأي، والخـوض في شئ منـه؛ وتوعـد عـلى ذلـك بالعقوبـة الشديـدة؛ وأمـر جماعـة ممـن كـان عنـده مـن العلمـاء المحدثيـن بجمـع أحاديـث مـن المصنفـات العشـرة: (الصحيحيـن، والترميـذي، والموطـأ، وسنـن أبي دود، وسنـن النسـائي، وسنـن البـرار، ومسنـد ابـن أبي شيبـة، وسنـن الدارقطـني، وسنـن البيهـقي) في الصـلاة، ومـا يتعلـق بهـا؛ عـلى نحـو الأحاديـث الـتي جمعهـا محمـد ابـن تومـرت في الطهـارة؛ فأجابـوه إلى ذلـك؛ وجمعـوا مـا أمرهـم بجمعـه؛ فكـان يمليـه بنفسـه عـلى النـاس، ويأخذهـم بحفظـه؛ وانتشـر هـذا المجمـوع في جميـع المغـرب، وحفظـه النـاس مـن العـوام، والخاصـة؛ فكـان

يجعل لمن حفظه الجعل السني؛ من الكسا، والأموال؛ وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك، وإزالته من المغرب مرة واحدة؛ وحمل الناس على الظاهر من القرآن، والحديث؛ وهذا المقصد بعينه كان مقصد أبيه، وجده))[1].

ومن منجزات المنصور التنظيمية، والعمرانية: أنه أول من خط العلامة بيده من سلاطين الموحدين؛ وهي: ((**الحمد لله وحده**))، وسك الدنانير اليعقوبية، وشيد الجامع الأعظم بمراكش، وبنى عدداً كبيراً من المدارس، والمساجد، والصوامع، والقناطر، والمستشفيات بالأندلس، والأقطار المغربية كلها؛ كما حفر آبار المياه، وخصَّص للعلماء، وطلبة العلم مرتبات ثابتة، وهو الذي بنى مدينة رباط الفتح. توفي رحمه الله في سنة 595هـ/1198م.

6 ــ علي بن أحمد سعيد بن عبد الله الشنتمري الكومي المعروف **بقنون** أو **(جنون)؛ (أبو الحسن).** يعد من بين المحدثين الحفاظ؛ له عناية بعلم الحديث خاصة. ومن مؤلفاته: "البستان في علم القرآن"، و"فتح المنغلق وجمع المفترق"، و"الزلفة

---

[1] **المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص ص: 278 - 279.**

والإرشاد إلى ما قرب وعلا من الإسناد"، إلى آخره من كتب أخرى. وكانت وفاته في سنة 599هـ/1202م.

7 ـ **يوسف بن علي بن جعفر التلمساني**. روى **بإشبيلية** عن القاضي **أبي بكر بن العربي**، محدث جيد. لا يعرف تاريخ وفاته؛ غير أن خبر تلقيه العلم عن ابن العربي؛ يفيد أنه عاصره. وإذا عُرِفَ أن وفاة هذا الأخير حدثت في سنة 543هـ/1148م؛ فمعناه أن وفاة صاحب الترجمة حدثت في القرن السادس؛ والأرجح تكون في العصر الموحدي. والله أعلم.

8 ـ **محمد بن عبد الرحمن بن علي بن محمد ابن سليمان التيجيبي؛ (أبو عبد الله).** من المحدثين الأكفاء. من شيوخه: بشطوال، وأبو طاهر السلفي، وأخرون. أصله من إشبيلية، وعبر إلى المغرب؛ فدرس بفاس سنة 594هـ؛ ثم سبتة؛ وانتقل بعد ذلك إلى تلمسان؛ حيث استقر بها إلى أن وافاه الأجل في سنة 610هـ/1213م.

9 ـ **عمر بن العباس الصنهاجي** المعروف **بالحباك؛ (أبو علي).** من الزهاد الصالحين. حضر جنازة قطب الصالحين الغوث أبي مدين في العباد؛ فتأثر؛

وقـــرّر سلـــوك سبيـــل الفقـــراء، والالتـــزام بطريـــق الزهـــاد والصالحيـــن؛ فنـــزع ثيابـــه، وأعطاهـــا لأحـــد الفقـــراء، ولبـــس مرقعـــة. ثـــم عـــاد إلى منزلـــه؛ فلمـــا رأتـــه زوجتـــه؛ صرخـــت: "يـــا ويـــلاه". فقـــال لهـــا: "إن لـــم توافقيـــني عـــلى هـــذا؛ وإلاّ فعديـــني ميتـــاً"؛ وتخـــلى لهـــا عـــن كـــل مـــا يملـــك، وتـــرك لهـــا أمـــر أولاده؛ ثـــم ســـاح في أرض اللـــه؛ ولـــم يعـــد إلى تلمســـان؛ إلاّ بعـــد أربـــع سنـــوات؛ فالتـــقى بزوجتـــه في سويقـــة أجاديـــر؛ فتظاهـــر بالدروشـــة؛ فبكـــت عـــلى حالـــه. ثـــم رحـــل نحـــو الحجـــاز؛ فغـــرق في البحـــر في حـــدود سنـــة 613هـــ/1216م.

10 ــ إسماعيـــل بـــن إبراهيـــم التونـــسي؛ (أبـــو الطاهـــر).

أصلـــه مـــن **تونـــس**؛ ورحـــل عنهـــا إلى **مراكـــش**؛ ولكنـــه اختـــار الاستقـــرار **بتلمســـان** إلى آخـــر عمـــره؛ حيـــث اشتغـــل بتدريـــس العلـــم بهـــا. ثـــم ترهَّـــب وانعـــزل عـــن النـــاس. ويعتبـــر أبـــو طاهـــر مـــن العلمـــاء الحفـــاظ. أخـــذ عنـــه عبـــد الرحمـــن بـــن محمـــد. ومـــن الروايـــات المنقولـــة عنـــه؛ أنـــه قـــال؛ عندمـــا دخـــل عليـــه في أحـــد الأيـــام عمـــر بـــن العبـــاس الحبـــاك: ((**رأيتـــك البارحـــة في النـــوم تنشـــدني:**

أجيـــراني فـــإني قـــد وحلـــت

وفي نفـــيي وإثبـــاتي حصلـــت

أنـــزه خالـــقي عن ذا وعن ذا

وأعرفـــه وليس كمـــن جهلـــت

فمـــم أجيـــرك؟ فقـــال: "سيـــدي مـــا وصلـــت إليـــك إلاَّ في هـــذا"، فلمـــا فـــرغ المجلـــس؛ خـــلا بعمـــر، فتشـــاوروا في حديـــث بينهمـــا لـــم يعرفـــه أحـــد))[1]. لا يعـــرف تاريـــخ وفاتـــه؛ وإنمـــا يمكـــن تحديـــد الفتـــرة الـــتي عـــاش فيهـــا؛ إذا مـــا لوحـــظ أن زميلـــه المذكـــور أعـــلاه: عمـــر بـــن العبـــاس الحبـــاك تـــوفي غريقـــاً في سنـــة 613هـــ/1216م.

11 ــ أبـــو عمـــران مـــوسى بـــن عيـــسى بـــن عمـــران بـــن دافـــال الوردميـــشي (ابـــن عمـــران). مـــن العلمـــاء الأجـــلاء. تـــولى القضـــاء في عهـــدي: **الناصـــر والمستنصـــر**. وهـــو ابـــن عيـــسى بـــن عمـــران[2] قـــاضي الخلافـــة الموحديـــة في أيـــام أبي يعقـــوب يوســـف. وقـــد أشـــار ونـــوّه بـــه وبـــأولاده عبـــد الواحـــد المراكـــشي؛ وقـــال في بنيـــه: **((مـــا منهـــم إلاّ مـــن ولي القضـــاء؛ وهـــم عـــليّ. وكـــان عـــليٌ هـــذا رجـــلاً صالحـــاً؛ ولي في حيـــاة أبيـــه قضـــاء مدينـــة بجايـــة؛ ثـــم عـــزل عنهـــا، وولي مدينـــة تلمســـان؛ وهـــو عندنـــا مـــن المشهوريـــن بالتصميـــم والتبتـــل في دينـــه، وممـــن لا تأخـــذه**

---

[1] بغيـة الـرواد، ج: 1، ص: 130.

[2] توجـد ترجمتـه في الجزء الثـاني مـن هذا الكتـاب.

هوادة في الحق. ومن أولاده: طلحة؛ ولي قضاء تلمسان. ويوسف؛ تركته قاضياً بمدينة فاس؛ بلغتني وفاته؛ وأنا بمكة سنة 620هـ. وأبو عمران موسى؛ قاضي الجماعة في وقتنا هذا))[1]. وتوفي أبو عمران موسى **بمراكش** سنة 618هـ/1221م.

12 ـ محمد بن عبد الحق بن سليمان الكومي اليعفري التلمساني. من أهل **تلمسان**؛ ولد بها في سنة 536هـ/1141م؛ فقيه ومقرئ. ولي القضاء في بلده مرتين. عبر إلى **الأندلس**؛ فأكرم بها. هو من أئمة الفقة والحديث وعلم الكلام. من مؤلفاته: المختار في الجمع بين المنتقى والاستذكار؛ في عشرين سفراً. وكتاب في غريب الموطأ. والتسلي عن الرزية والتحلي برضى باري البرية. ونظم العقود ورقم الحلل والبرود. والاقناع في كيفية الاسماع. والفصل الجازم في فضيلة العلم والعالم. وفرقان الفرقان وميزان القرآن. توفي بتلمسان عام 625هـ/1227م.

13 ـ موفق الدين أبو الحسن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن إسماعيل الخزرجي الأنصاري التلمساني. توفي **بالقاهرة** سنة 633هـ/1236م. فقيه

---

[1] المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص: 246.

ومحدث؛ سلك نهج المتصوفة. سكن **القاهرة**، وسمع من علمائها **كالبصيري** وغيره. من مؤلفاته: مجاميع في التصوف.

14 ـ أبو زكرياء يحيى بن محمد بن موسى التجيبي التلمساني. توفي **بالإسكندرية** في عام 652هـ/1254م. أحد فقهاء **تلمسان** ووعاظها ومفسريها البارزين زار **مكة**، وحج وجاور؛ ثم انتقل إلى **الاسكندرية**. من مؤلفاته: تفسير القرآن الكريم، وكتاب في الرقائق.

15 ـ محمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الخزرجي التلمساني. ولد في **تلمسان** سنة 584هـ/1188م، ونشأ وتعلم بها. فقيه وعالم؛ انتقل إلى سبتة ثم **مصر** أين استقر **بالإسكندرية** وتوفي بها سنة 656هـ/1258م. من مؤلفاته شرح الجلاب.

***

بنـو عبـد الـواد

ـ التـدرج نحـو الملـك:

وبنـو زيـان[1] هـؤلاء؛ ينحـدرون عـن القبيلـة **الزناتيـة** الكبيـرة؛ المعروفـة **ببـني عبـد الـواد**[2]. هـذه القبيلـة الـتي كانـت مواطنهـا ــ في الأصـل ــ ضمـن أرض **الـزاب**، وسفـوح **الأوراس**؛ ثـم انتقلـت إلى غـرب البـلاد؛ انسياقـاً مـع تيـار الحـروب، وجريـاً وراء الكـلأ الوفيـر، وبحثـاً عـن الغنائـم الثمينـة؛ وتـم ذلـك؛ منـذ الفتـح الإسـلامي؛ حيـث تقـول بعـض الروايـات أنهـم

---

[1] ينتمي بنو زيان إلى قبيل بني عبد الواد؛ وهو أحد أحياء زناتة الأمازيغية. أنظر نسبهم في المصادر التالية: كتاب جمهرة أنساب العرب، ص ص: 495 - 498. وكتاب الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية العبد الحقية؛ ص ص: 9 - 13، وكتاب العبر، مج: 6، ص ص: 175 - 192. ومج: 7، ص ص: 4 - 12. وكتاب بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 898 - 94.

[2] ينتسبون إلى جدّهم المسمّى عابد الوادي ((رهبانية عرف بها جدهم)). (بغية الرواد، ج: 1، ص: 186). وقال يحيى بن خلدون أنهم يتفرعون إلى فخذين رئيسين**؛ يشتمل الأول على خمسة أحياء؛ وهم: بنو ياتكتن (أو يكنيمن)، وبنو وللو، ومصوجة، وبنو تومرت، وبنو ورسطف. أما الفخذ الثاني؛ فهم بنو القاسم؛ وينتسبون إلى إدريس بن إدريس. وينقسمون بدورهم إلى أحياء عديدة.**

رافقـوا **عقبـة بـن نافـع** إلى تلـك الديـار؛ الـتي ربمـا اكتشفوهـا لأول مـرة[1].

ومعـاش **بـني عبـد الـواد** ـ قبـل وصولهـم إلى مرتبـة الملـك ـ عبـارة عـن معـاش بـدوي بسيـط؛ يرتكـز عـلى الرحلـة خلـف أنعامهـم المنتجعـة عبـر الفيـافي والقفـار؛ بحثـاً عـن الكـلأ والمـاء. وكـان يشاركهـم في حياتهـم البدويـة تلـك؛ إخوانهـم مـن أحيـاء **سجيـح بـن واسيـن**[2]؛ حيـث انطلقـوا عبـر السفـوح المنحـدرة مـن **جبـل أوراس** الجنوبيـة، وبالتحديـد؛ في أرض **الـزّاب؛ وجبـل مصـاب؛** وعـلى امتـداد السهـوب القِبْلِيـة **للمغـرب الأوسـط؛** وحـتى **سجلماسـة وفقيـق** غربـاً[3]. وقـد خلفـوا بقايـا لهـم في مواطـن **زناتـة** الأولى؛ حيـث أشـار

---

[1] ((ومنهم بجبل أوراس بإفريقية طائفة من بني عبد الواد؛ موطنوه منذ العهد الأقدم لأول الفتح؛ معروفون بين ساكنيه. وقد ذكر بعض الأخباريين أن بني عبد الواد حضروا مع عقبة بن نافع في فتح المغرب؛ عند إيغاله في ديار المغرب، وانتهائه إلى البحر المحيط بالسوس؛ في ولايته الثانية ـ وهي الغزاة التي هلك في منصرفه منها ـ وأنهم أبلوا البلاء الحسن؛ فدعا لهم)). العبر، مج: 7، ص: 124. العبر، مج: 7، ص: 124. أنظر أيضاً: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 186.

[2] تندرج في هذا النمط من الحياة؛ قبائل زناتية أخرى؛ كـ: بني مرين، وتوجين، وبني راشد، ومغراوة... إلخ.

[3] العبر، مج: 7، ص ص: 120 - 121.

ابـن **خلـدون**؛ إلى فئـات منهـم فـي صحـراء **برقـة**، **وقصـور غدامـس**، وبـلاد **الحمـة**، وبـلاد **الـزاب**[1].

ولمـا تغلـب **الموحـدون** عـلى **المغـرب الأوسـط وإفريقيـة**؛ انضـم إليهـم **بنـو عبـد الـواد**، ووقفـوا في صـف **عبـد المؤمـن بـن عـلي**. بـل سارعـوا إلى تلبيـة طلبـه؛ حينمـا نهـب **بنـو مريـن** غنائمـه؛ فلحـق بهـم شيـخ **بـني عبـد الـواد**؛ **عبـد الحـق بـن مَنَغْفـاد**؛ واستـرد أمـوال الخليفـة **الموحـدي** بعـد أن أثخـن في **بـني مريـن**. فغـدوا منذئـذ ضمـن حمـاة الدولـة وأتباعهـا المخلصيـن؛ فأقطعـم **عبـد المؤمـن** أراضي التـل الخصبـة؛ الـتي كانـت مـن أمـلاك **بـن يلـومي وبـني وامانـوا**[2]: **((كـان بنـو عبـد الـواد ـ مـن ذلـك ـ فيمـا بيـن البطحـاء والملويـة؛ ساحلـه، وريفـه، وصحـراءه))**[3].

أمـا بخصـوص دولتهـم؛ فقـد أتفـق **عبـد الرحمـن ابـن خلـدون** وأخـوه **يحـيى**، **ومحمـد بـن عبـد اللـه التنـسي**؛ عـلى روايـة واحـدة [4] تقريبـاً؛ عرضـوا بهـا الكيفيـة الـتي أوصلـت قبيـل **بـني عبـد الـواد** إلى الملـك.

---

[1] العبر، مج: 7، ص ص: 122 - 123.

[2] نفسه، ص ص: 150 - 151.

[3] نفسه، ص:159. بغية الرواد، ج: 1، ص: 189.

[4] نفسه، ص ص: 151 - 154. بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 199 - 200. تاريخ ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص ص: 112 - 113.

وخلاصة روايتهم هكذا: كان على رأس ولاية **تلمسان** ـ سنة **624هـ/1226م** ـ **السيد أبو سعيد عثمان**؛ شقيق الخليفة **الموحدي**؛ **المأمون**[1]؛ فاعتقل بعض مشائخ **بني عبد الواد**. بسعاية ونميمة من قبل **الحسن بن حيون الكومي المعابدي**؛ عامل الدولة على **تلمسان** وأحوازها؛ الذي يُكِنّ حقداً دفيناً وضغينة ماكرة ضد **العبد الواديين**؛ بسبب تغلبهم على ضواحي **تلمسان**، وعدم خضوعهم لرغباته[2]. فسعى لفائدتهم **إبراهيم بن إسماعيل بن علان الصنهاجي اللمتوني**؛ متشفعاً لهم عند **السيد أبي سعيد الموحدي** والي **تلمسان**؛ ولكن هذا الأخير ردّ شفاعته، ولم يصغ إليه؛ فغضب **اللمتوني** لذلك، وأنف وتعصّب؛ ثم جمع أنصاره من **اللمتونيين**، وبادر ـ من حينه ـ فقتل عامل الدولة **الحسن بن حيون الكومي**؛ وسرَّح **بني عبد الواد** من الاعتقال؛ ووضع مكانهم في السجن؛ **السيد أبا سعيد**. حدث ذلك كله في سنة 624هـ/1226م. غير أنه تدارك

---

[1] **يصفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((وكان غفلاً، ضعيف التدبير)). العبر، مج: 7، ص: 152.**

[2] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 199. وقال عنه أيضاً عبد الرحمن بن خلدون: ((وكانت في نفسه من بني عبد الواد ضغائن؛ جرّها ما حدث لهم من التغلب على الضاحية وأهلها)). العبر، مج: 7، ص: 152.**

الأمر بعد فترة؛ إذ تطلع إلى أفق أبعد؛ حيث طمع في إعادة إحياء **الدولة اللمتونية**[1]؛ ولكنه علم أنه لا يمكنه ذلك إلاّ بإزاحة **بني عبد الواد** من الساحة؛ بحكم ولائهم للدولة **الموحدية**، ووفائهم لحكامها. وعندئذ؛ أخذ يتدبر في مكيدة يتخلص بها منهم؛ إذ أرسل إلى مشائخ ذلك القبيل؛ يدعوهم إلى وليمة داخل **تلمسان**؛ وكان غرضه؛ هو قتلهم بمجرد دخولهم البلد. ولكنه فشل في خطته؛ عندما سبقه **بنو عبد الواد** إلى الإجهاز عليه؛ بعد أن علموا بما دبره. فقبضوا عليه وعلى مرافقيه؛ حين خرج إليهم ليرافقهم إلى داخل المدينة.

وشيخ **بني عبد الواد** – في تلك الفترة – هو **جابر بن يوسف بن محمد بن زكدان** (أو **زيدان**)؛ الذي ينتمي إلى فرع من القبيل المذكور يعرف **ببني عطاء الله**. تولى **جابر** أمر **تلمسان**؛ بمجرد دخوله إليها؛ حيث رفع الدعوة على المنابر **للمأمون الموحدي**، وبعث إليه معلناً طاعته؛ فلم يجد **المأمون** بداً من إسناد عهده إليه بولاية

---

[1] ((وأجمع الانتقاض، والقيام بدعوة ابن غانية؛ مُجَدِّد ملك المرابطين من قومه بقاصية الشرق... فطيّر الخبر إلى ابن غانية؛ فأغذّ السّيْر إليه)). العبر، مج: 7، ص: 152.

تلمسان، وما يليها من بلاد **زناتة**. وحدث هذا في عام 627هـ/1229م. فاكتسب ــ بذلك ــ **بنو عبد الواد** شرعية مستمدة من دار الخلافة **الموحدية**. وبهذا؛ أصبح **بنو عبد الواد** سادة على **تلمسان** وضواحيها. وبقي **جابر بن يوسف** في منصبه إلى سنة 629هـ/1231م. وهي السنة التي قتل فيها؛ أثناء حصاره لمدينة **ندرومة**. وخلفه ــ بعد وفاته ــ ولده **الحسن بن جابر**؛ ولكنه تخلى عن الحكم ــ بعد ستة أشهر ــ لعمه **عثمان بن يوسف**[1]. فلم يبق هذا الأخير في ولايته سوى عامين تقريباً؛ إذ عزل في سنة 631هـ/1233م. وخلفه على **تلمسان**؛ ابن عمه **أبو عزة زكدان** (أو زيدان) **بن زيان بن ثابت بن محمد**. ولكنه قتل سنة 633هـ/1235م؛ جراء فتنة عشائرية؛ بين عشيرته من جهة، وبين **بني مطهر وبني علي، وبني راشد** من جهة أخرى[2].

***

[1] العبر، مج: 7، ص: 153.

[2] بنو راشد؛ أولاد عمومة لبني عبد الواد؛ وجدهم هو مطهر بن يمل بن يزكن بن القاسم بن عبد الواد. أنظر العبر، مج: 7، ص: 150.

قيام دولة بني زيان

وبمقتل **أبي عزة زكدان** (أو زيدان) **بن زيان**؛ تولى أمر **تلمسان** ـ سنة 633هـ/1235م؛ ـ أخوه **يَغَمْرَاسَن**[1] **بن زيان بن ثابت بن محمد**؛ فقهر المعارضين، وأثخن في العشائر المتمردة؛ الأمر الذي ساعد على إخماد نار الثورة والعصيان؛ وبعد ذلك؛ طيّب الخواطر، وهدأ النفوس، واسترضى الإخوة والأقارب من مختلف أحياء **بني عبد الواد**؛ فسكنت ثورة **بني مطهر، وبني راشد**، واجتمعت كلمتهم في ظلّ السلطة **العبد الوادية**[2]. ولم يطل **بيغمراسن** الحال؛ حتى قرّر الاستبداد والتّنصُّل ـ شيئاً فشيئاً ـ عن **الدولة الموحدية**؛ إذ قطف الثمرة المواتية عند نضوجها؛ وذلك بإعلان استقلال دولته؛ والاستبداد بالأمر؛ ولم يترك حينها **لبني عبد المؤمن** سوى

---

[1] ولد في سنة ثلاث أو خمس وستمائة هجرية؛ الموافق لعام 1206 أو 1208م. ومات في سن متقدمة؛ وصل بها إلى سن 76 سنة. وربما 96 سنة. أنظر: بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 129.

[2] ((فوقع التسليم والرضى به من سائر القبائل، ودان له بالطاعة جميع الأمصار، وكتب له الخليفة الرشيد بالعهد على عمله؛ وكان ذلك سُلَّماً إلى الملك؛ الذي أورثه بنيه؛ سائر الأيام)). العبر، مج: 7، ص: 154.

الدعـــاء عـــلى المنابـــر تأنيســـاً للكافـــة، ومرضـــاة للأكفـــاء؛ كمـــا قـــال **عبـــد الرحمـــن بـــن خلـــدون**[1].

ومنـــذ أن قـــرّر **يغمراســـن** الاستبـــداد والإستقـــلال عـــن **الموحديـــن**؛ ولـــدت دولـــة **بـــني عبـــد الـــواد الزيانيـــة**؛ متخـــدة **تلمســـان** حاضـــرة لهـــا؛ فجعلـــت منهـــا مركـــزاً إداريـــاً وسياسيـــاً؛ شمـــل **المغـــرب الأوســـط** كلـــه. وقـــد عـــزّز مكانـــة هـــذه الدولـــة؛ مـــا حظيـــت بـــه مـــن امتـــداد عمرهـــا، وبقائهـــا فتـــرة طويلـــة؛ بحيـــث امتـــدت حياتهـــا مـــن سنـــة 633هـــ/1235م إلى سنـــة 962هـــ/1554م؛ خـــلال العهـــد **العثمـــاني بالجزائـــر**. وبذلـــك؛ فقـــد تواجـــدت في الخارطـــة **المغربيـــة** عمومـــاً، **والجزائريـــة** خصوصـــاً زهـــاء قـــرون ثلاثـــة كاملـــة.

كمـــا حـــدّدت المصـــادر التاريخيـــة الفتـــرة الـــتي حكـــم خلالهـــا مؤســـس الدولـــة الأول؛ **يغمراســـن بـــن زيـــان**؛ بـــ

[1] ((واتخذ الآلـة، ورتـب الجنـود والمسالـح، واستلحـق العساكـر مـن الـروم والغز؛ رامحـة وناشبـة، وفـرض العطـاء، واتخـذ الـوزراء والكتـاب، وبعـث في الجهـات العمـال، ولبـس شـارة الملـك والسلطـان، واقتعـد الكـرسي؛ ومحـا مـن آثـار الدولـة المؤمنيـة وعطـل مـن الأمـر والنـهي دستهـا؛ ولـم يتـرك مـن رسـوم دولتهـم، وألقـاب ملكهـم إلاّ الدعـاء علـى منابـره للخليفـة بمراكـش؛ وتنـاول التقليـد والعهـد مـن يـده تأنيسـاً للكافـة، ومرضـاة للأكفـاء مـن قومـه)). العبـر، مج: 7، ص ص: 162 - 163.

48 سنـة وخمسـة أشهـر واثـني عشـر يومـاً[1]. (مـن 633 هـ/1236م إلى 681هـ/1283م). علمـاً بـأن هـذه السنـوات كلهـا؛ لـم تفـد الدولـة **العبـد الواديـة (الزيانيـة)** ــ في عهـد **يغمراسـن** ــ ولـم تضـف إليهـا أي شكـل مـن أشكـال الرفاهيـة الممكنـة، أو فتـرة مـن فتـرات الهنـاء الممتعـة، أو لحظـة استرخـاء وأمـان؛ بـل عانـت الدولـة ــ طـوال عهـده ــ مـن أهـوالٍ وحـروبٍ؛ ألهبـت الديـار **المغربيـة** كافـة بنـار الفتـن والدّمـار؛ حيـث زُجَّـت الدولـة المذكـورة في مواجهـات داميـة مـع خصـوم أقويـاء؛ كـ: **بـني مريـن، وبـني أبي حفـص، والموحديـن، وبـني توجيـن، ومغـراوة، وأعـراب بـني هـلال..** إلـخ.

وجملـة القـول؛ فدولـة **بـني عبـد الـواد** ــ كغيرهـا مـن دول المنطقـة في ذلـك العصـر ــ تكـاد تكـون دولـة قبليـة؛ تهيمـن عليهـا روح القبيلـة، وتتميـز بالطابـع القبـلي الواضـح. وعليـه فقـد أضحـت ساحـة للصـراع بيـن نظـام قبـلي متحجـر؛ رافـض لكـل جديـد يقـضي عـلى مصلحـة القبيلـة وأبنائهـا، ومانـع لأيّ نظـام يسـعى لتوحيـد القبائـل، وإخضاعهـا لسلطـان الدولـة الـتي تسهـر

---

[1] جعلها يحيى بن خلدون: 44 سنة؛ وسار على قوله التنسي؛ لأنه نقل عنه. وقد صحح ذلك الخطأ محمود بو عياد محقق الباب السابع من نظم الدر والعقيان. أنظر بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 129.

على المصلحة الجماعية للفئات المتواجدة بها؛ سواء كانوا قبائل أو أفرادا[1].

وبسبب ذلك؛ مرت الدولة **العبد الوادية (الزيانية)** بظروف قاسية، وشديدة الاضطراب؛ لم تمكنها من الاستقرار والازدهار؛ لأنها ربطت مصيرها بمصير نظام قبلي؛ لا يقبل التغيير والتجديد. وعلى هذا؛ فقد غدت جلّ القبائل المنتمية للدولة؛ تؤثر في مؤسساتها، وتتحكم في حركة نموها، ومقاس نجاعتها. ومن هنا؛ يمكن حصر أدوار حياة هذه الدولة؛ ضمن أربعة أدوار تاريخية كبرى هي:

***

[1] أنظر كتاب: دولة بن زيان (أوضاع سياسية ونظم).

الـدور الأول

وهـو دور النشـأة والعنفـوان. دام هـذا الـدور مائـة وأربـع سنـوات (633هـ/1235م ـ 737هـ/1336). بـدءاً بالتاريـخ الـذي أُعلـن فيـه قيـام الدولـة المعنيـة؛ وحـتى تاريـخ سقـوط **تلمسـان** في قبضـة **أبي الحسـن المريـني** سنـة 737هـ/1336م؛ ومقتـل السلطـان **العبـد الـوادى أبي تاشفيـن عبـد الرحمـن الأول ابـن أبي حمـو مـوسى الأول.**

وتـداول عـلى الحكـم في **تلمسـان** ـ خـلال هـذا الـدور التاريـخي ـ خمسـة ملـوك؛ هـم: **يغمراسـن بـن زيـان (**حكـم مـن 633هـ/1235م إلى 681هـ/1283م**)**، **وأبـو سعيـد عثمـان بـن يغمراسـن** (مـن 681هـ/1283م إلى 703هـ/1303م)، **وأبـو زيـان محمـد بـن عثمـان بـن يغمراسـن** (مـن 703هـ/1303م إلى 707هـ/1308م)، **وأبـو حمـو مـوسى بـن عثمـان بـن يغمراسـن** (مـن 707هـ/1308م إلى 718هـ/1318م)، **وأبـو تاشفيـن عبـد الرحمـن بـن مـوسى بـن عثمـان بـن يغمراسـن** (مـن 718هـ/1318م إلى 737هـ/1337م)**.**

كمـا يتميـز أن هـذا الـدور بـروح العصبيـة **العبـد الواديـة** الجياشـة؛ الـتي منحـت الدولـة قـوة وتماسكـاً عظيميـن؛ ظَهَـرَا في المقاومـة الشديـدة للأعـداء، وفي وحـدة الصّـف، والتفـاني في الدفـاع عـن سلامـة الدولـة، وفـرض وجودهـا، وإبـراز كيانهـا. لأن الدولـة ـ هنـا ـ في مقتبـل عمرهـا، وقمـة عزّهـا؛ إذ كانـت تتميـز بعصبيـة فياضـة؛ تمتـن اللُّحْمـة، وتثيـر النَّعـرة، وتشحـذ الهمـم. حيـث كـان **العبـد الواديـون** ـ في هـذا الـدور ـ غيـر بعيديـن عـن طبيعتهـم الأولى؛ المتشبعـة بـروح البـداوة الخشنـة؛ والقـدرة عـلى التكيُّـف مـع شدائـد الحيـاة، والصبـر في الخطـوب، والاكتفـاء بالضـروري مـن وسائـل العيـش ولـوازم الحيـاة.

***

دولة يغمراسن بن زيان

أما بخصوص أول ملوكهم؛ **(يغمراسن بن زيان)**؛ مؤسس هذه الدولة؛ فقد كان يتحلى بخلال وصفات عالية، ويحظى بخلق حميدة جلية، وبساطة مظهر بادية، وسذاجة في الحياة سائدة؛ وشجاعة صادقة، ورئاسة فاعلة، وحماسة جامحة، ومواهب قيادية سامية، ويد مبسوطة بالجود جارية، وفروسية بالعظائم سائرة، وبطولة غالبة، وبسالة فائقة.[1]

تولى **يغمراسن** الرئاسة؛ بعد مقتل أخيه **أبي عزة زكدان** أو **(زيدان) بن زيان**؛ جراء الفتن المتوالية المشتعلة بين بطون **بني عبد الواد**. فتمكن بفضل حزمه وبسالته من ضبط الأمور؛ والتغلب على الصّعاب والموبقات كلها؛ حيث أخضع ــ بالقوة حيناً، وباللين حيناً آخر ــ كل المتمردين والمنشقين عن القبيلة الأم. ولمّا حقق مبتغاه في جمع الشمل،

---

[1] وقد وصفه عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((كان يَغْمْرَاسَنْ بن زيان ابن ثابت بن محمد من أشد هذا الحي بأساً، وأعظمهم في النفوس مهابة وجلالة، وأعرفهم بمصالح قبيله، وأقواهم كاهلاً على حمل الملك واضطلاعاً بالتدبير والرئاسة؛ مهدت له بذلك آثار قبل الملك وبعده؛ وكان مرموقاً بعين التجلة، مؤملاً للأمر عند المشيخة، وتَعْظِمَة من أمره عند الخاصة، ويُفْزَع إليه في نوائب العامة)). العبر، مج: 7، ص: 162.

ونجح في استرضاء أحياء **بني عبد الواد** كلهم؛ تحول إلى بناء دولتهم الخاصة؛ حيث شرع في تعزيز أسسها، وبلورة شكلها. وبدأ بالخطوة الأولى؛ التي تجلت باستبداده نهائياً، وانفراده بالحكم دون الخليفة **الموحدي**؛ جاعلاً من **تلمسان** حاضرة للمملكة، ونقل مرتبتها من مجرد مقر عمالة أو ولاية إلى دولة سيّدة؛ لا تربطها مع **الموحدين** سوى خيوط رفيعة من الولاء؛ تتمثل في الخطبة على المنابر، وكتاب التقليد الشكلي؛ ((**مرضاة للأكفاء وتأنيساً للكافة**))[1]. ومع هذا فقد وجد تفهما ــ عن مضض ــ من قبل الخليفة **الموحدي الرشيد**؛ الذي اضطر إلى مسايرة التيار؛ والحفاظ على ما بقي من روابط بين دولته **وبني عبد الواد** في **تلمسان**. بل تطورت علاقته مع **يغمراسن** إلى مستوى المجاملة والتراسل وتبادل الهدايا. غير أن هذا السلوك أثار غضب السلطان الحفصي **أبا زكريا**؛

---

[1] وفي هذا يقول ابن خلدون: ((ومحا من آثار الدولة المؤمنية، وعطل من الأمر والنهي دستها؛ ولم يترك من رسوم دولتهم، وألقاب ملكهم إلاّ الدّعاء على منابره للخليفة بمراكش؛ وتناول التقليد والعهد من يده تأنيساً للكافة، ومرضاة للأكفاء من قومه)). العبر، مج: 7، ص ص: 162 - 163.

نضـــراً لطمعـــه وطوحـــه في امتــلاك **مراكـــش**، والانتصـــاب عــلى ســدّة الخلافــة الموحديــة.

ـ الغـزو الحفـصي لتلمسـان:

ومـــن هنـــا؛ انطلقــت بـــوادر الخصومـــة والاختــلاف بيـــن هـــذا الأخيـــر **ويغمراســـن**؛ الـــذي أصـــرّ عـــلى التمســـك بعهـــوده مـــع الخليفـــة **الرشيـــد**. فانجـــر عـــن ذلـــك كلـــه؛ نشـــوب حـــرب حاميـــة الوطيـــس بيـــن السلطـــان الحفـــصي وسلطـــان **بـــني عبـــد الـــواد**. انتهـــت باستيـــلاء **الحفصييـــن** عـــلى **تلمســـان**؛ ولكنهـــم عجـــزوا عـــن حمايتهـــا بصـــورة دائمـــة؛ فاضطـــر **أبـــو زكريـــاء** إلى عقـــد صلـــح مـــع **يغمراســـن**؛ في مقابـــل رفـــع الدعـــوة عـــلى منابـــر **تلمســـان** باسمـــه. كمـــا قـــدم **ليغمراســـن** أسهمـــا وإقطاعـــات **بإفريقيـــة**؛ تصـــل قيمـــة جبايتهـــا إلى مائـــة ألـــف دينـــار؛ ترضيَـــة لـــه، ورغبـــة منـــه في إبعـــاد **يغمراســـن** عـــن الخليفـــة **بمراكـــش**.

ـ مقتـل الخليفـة السعيـد:

وهكـــذا.. أدى هـــذا الاتفـــاق بيـــن **يغمراســـن وأبي زكريـــاء** إلى نشـــوب حـــرب أخـــرى بيـــن الخليفـــة الموحـــدي

الجديد **السعيد ويغمراسن بن زيان**؛ انتهت بمقتل الخليفة المذكور، وانتصار **العبد الواديين**.

ويبدو أن لعبة الحرب أضحت حيوية ومصيرية بالنسبة **ليغمراسن**؛ الذي أدمن الحرب؛ ولم يعد يشغله شيء عن ميادين القتال، وعويل الوغى؛ فانغمس في يمّها راضياً أم مرغماً؛ حيث توالت الوقائع بينه وبين خصومه ومنافسيه غرباً وشرقاً وجنوباً؛ ممثلين **ببني مرين وبني توجين، ومغراوة**، ثم أعراب **بني هلال** المجاورين **لتلمسان**.

وعلى الرغم من قلة عدد **بني عبد الواد**،[1] وضعف مواردهم الاقتصادية؛ فقد صمدوا بإصرار أمام أعدائهم الأقوياء؛ منهم بالخصوص: **الموحدون، والمرينيون**. إذ كبح **يغمراسن** جماح **الموحدين** بعد هزيمتهم أمامه، ومقتل خليفتهم **السعيد**؛ كما صدّ تحرشات وهجمات **المرينيين**، ومنعهم من الاستيلاء

---

[1] أشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا؛ حين قال: ((ثم اعْتُبر بعد ذلك حال الدولتين ـ لهذا العهد ـ لزناتة: بني مرين، وبني عبد الواد؛ لمّا كان عدد بني مرين ـ لأول ملكهم ـ أكثر من بني عبد الواد؛ كانت دولتهم أقوى منها؛ وكان لهم عليهم الغلب؛ مرة بعد أخرى. يقال أن عدد بني مرين ـ لأول ملكهم ـ كان ثلاثة آلاف؛ وإنّ بني عبد الواد كانوا ألفاً؛ إلاّ أن الدولة، وكثرة التابع؛ كثرت من أعدادهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 645.

علـى **تلمسـان** والتوسـع شرقـاً؛ فأفقدهـم روح الحسـم في القتـال؛ بإطالـة فتـرة الحـرب معهـم؛ فتأججـت العـداوة بيـن القبيلتيـن وتوالـت الوقائـع بينهـم؛ إلى أن تـوفي **يغمراسـن** سنـة 681هـ/1283م. أثنـاء خروجـه لاستقبـال عـروس ابنـه **أبي سعيـد عثمـان**.

ـ الإنجـازات العمرانيـة والثقافيـة:

ومـن جهـة أخـرى؛ لا بـد مـن الإشـارة إلى بعـض الإنجـازات المدنيـة ذات الطابـع الحضـاري والثقـافي؛ الـتي شـارك في تحقيقهـا السلطـان **يغمراسـن**؛ عـلى الرغـم مـن انهماكـه التـام في ترتيـب الشئـون العسكريـة لدولتـه، وانشغالـه المستمـر في حبـك الحـروب والانغمـاس في معامعهـا الصاخبـة. ومـن بيـن تلـك المنشـآت الـتي أنجزهـا هـذا السلطـان في **تلمسـان**: أسـوار بـاب كشـوط الشامخـة الـتي شيّدهـا في سنـة 665هـ/1265م، ثـم الصومعتـان الخاصتـان بالجامعيـن الأعظميـن بـ: **تكـرارت**، **وأغاديـر**[1].

---

[1] ((وقد استـؤذن في كتب اسمه بهما؛ فقال بالزناتية: "يسنت ربي"؛ أي عرفه الله؛ علوّ همة، وحسن ظن بالخالق، وإعراضاً عن التفاخر الدنيوي)). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 207.

كما عرف عنه تعظيمه للعلماء، وإجلاله للأولياء والصالحين؛ حتى قيل أنه يسافر إليهم حيث يعتكفون، ويستجدى دعاءهم، ويتمسح بعتباتهم؛ ويتبرك بهم[1]. وثبت أيضاً تنقله بنفسه إلى مجالس العلماء؛ تعظيماً لمرتبتهم وتقديراً لعلمهم. وهذا السلوك ورد في بعض المصادر. من ذلك؛ ركوبه للشيخ الفقيه **أبي إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي**؛ وجلوسه أمامه بين العلماء والطلبة؛ طالباً منه ــ بإلحاح ــ البقاء والإقامة في **تلمسان**؛ حيث أقطعه إقطاعات ثمينة؛ وقربه، وخصّه بسفارته[2].

---

[1] ((وكان كثيراً ما يجالس الصلحاء، ويكثر من زياراتهم؛ وارتحل لزيارة الولي الشهير أبي البيان واضح في موضعه بجبل آفرشان؛ متلمساً بركته، والدعاء له ولعقبه)). تاريخ بني زيان (نظم الدر)، ص: 126.

[2] ((وله في أهل العلم رغبة عالية؛ يبحث عليهم أين ما كانوا، ويستقدمهم إلى بلده، ويقابلهم بما هم أهله. ومن أعلم من كان في زمانه أبو إسحاق إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي؛ كانت الفتوى تأتيه من إفريقية وتلمسان إلى تنس؛ فكان أمير المسلمين يغمراسن يكاتبه كثيراً، ويرغبه في سكنى تلمسان؛ ويمتنع؛ إلى أن نشأت فتنة مغراوة؛ فورد مرة على تلمسان... فبلغ خبره أمير المسلمين؛ فركب بنفسه، وجاء إليه... فقال له أمير المسلمين: "نحن لا ندعك ترجع؛ ولكن نرسل إلى أهلك من ينقلهم إلينا"؛ فكان كذلك؛ وأقطعه أمير المسلمين إقطاعات من جملتها "تيرشت"؛ التي أقطعت ـ بعد انقراض عقبه ـ لابني الإمام. وكان عنده أثير المنزلة؛ لا يوجه في الرسائل غيره)). تاريخ بني زيان (نظم الدر)، ص ص: 126 - 127.

ونظـــراً لتقديــره لأهــل العلــم؛ فقــد ســعى إليــه بعضهــم، واختــاروا الاستقــرار **بتلمســان**. ومنذئــذ أضحــت هــذه المدينــة تستقطــب مشاهيــر العلمــاء والأدبــاء؛ كــ: **محمــد بــن عبــد اللــه بــن داود بــن خطــاب الغافــقي المــرسي**؛ الــذي ولاه **يغمراســن** خطــة الكتابــة لديــه، ورفــع منزلتــه؛ فاستأنــس بجــوار **يغمراســن**؛ حــتى أنــه رفــض عرضــاً مغريــاً؛ قدمــه إليــه **المستنصــر الحفــصي**[1]. وهــذه بعــض أسمــاء علمــاء الديــن والمتصوفــة في عصــر يغمراســن بــن زيــان:

1 ـ أبــو عبــد الله محمــد بــن عبــد اللــه الكتــامي الشهيــر **بالخضــار**. ولــد بتلمســان في عــام 609هــ/1212م. وسمــع بسبتــة عــلى الرئيــس أبي القاســم العــزفي كتابيــه: "سيــر رســول اللــه صــلى اللــه عليــه وسلــم"، "والــدر المنظــوم. رحــل إلى الأندلــس والمشــرق؛ أيــن أخــذ العلــم عــن بعــض الشيــوخ في تلــك الديــار. وتــوفي بسبتــة سنــة 667هــ/1268م.

---

[1] قال لسان الدين بن الخطيب في ذلك: ((زعموا أن المستنصر أبا عبد الله ابن الأمير أبي زكريا استقدمه ـ على عادته في استدعاء الكتاب المشاهير والعلماء ـ وبعث إليه ألف دينار من الذهب العين؛ فاعتذر، ورد عليه المال. وكانت أشق ما مرّ على المستنصر؛ وظهر له علوُّ شأنه، وبعد همته)). الإحاطة في أخبار غرناطة؛ القسم الثالث، ص: 90.

2 ـ أبو الحسن علي بن الخضار التلمساني: وهو أخٌ لأبي عبد الله السابق الذكر. قالت المصادر أنه إمام ومقرئ؛ وصفه بأنه حافظ، ويحكم القراءات. أخذ على عليّ بن عبد الكريم التلمساني؛ ثم انتقل إلى مدينة سبتة؛ أين تولى الإقراء بها. وتوفِّي بين أحضانها في سنة 677هـ/1278م.

3 ـ أبو اسحاق بن يخلف بن عبد السلام التنسي. وهو من أفاضل العلماء، والصالحين من الأولياء والزهاد؛ له منزلة جليلة، وقدر عظيم؛ في حياته ومماته، احتل مكانة سامية لدى الملوك والأمراء. له تآليف عديدة. رحل إلى الحج، ثم عاد إلى تلمسان؛ أين توفي في حدود سنة 680هـ/1281م؛ ودفن بالعباد.

4 ـ الفقيه القاضي الرئيس أبو محمد عبدون بن محمد الحباك الصنهاجي. فقيه وخطيب. ولاه يغمراسن ابن زيان خطة الحجابة في الدولة؛ فكان لدى أبي يحيى يغمرايسن بن زيان بمثابة رئيس للوزراء. فكان الرجل المناسب في المكان المناسب؛ إذ اتصف بالرأي السديد والحنكة السياسية. واعتبره يحيى بن خلدون المستشار الأنصح والحاجب الأقرب للسلطان **يغمراسن بن زيان**. وقال أيضاً: ((**وله بالبلد خلف**

نمط التجار أخيار، رحمة الله عليه وبرد ضريحه))[1].

لا يعرف تاريخ وفاته؛ كما لم تشر المصادر؛ أن **يغمراسن** استبدل حاجبه، وكل ما في الأمر أنه لم يتول هذا المنصب في عهد عثمان بن يغمراسن؛ مما يدل أنه توفي في عهد يغمراسن. أي قبل 681هـ/1282م.

5 ـ أبو عبد الله محمد بن عيسى. فقيه وصوفي من أهل الصلاح؛ نشأ في **أقادير بتلمسان**؛ وعاصر **يغمراسن بن زيان** في القرن السابع الهجري. ويقول يحيى بن خلدون أن يغمراسن كان يزوره في داره؛ تبركاً به، والتماساً لدعائه. رحل إلى الحج مرات عديدة؛ قدرت بخمس وعشرين حجة. لا يعرف يوم مماته بالضبط.

6 ـ أبو الحسن علي بن عبد الكريم التلمساني. هو من أهل تلمسان؛ مقرئ. أشاد به كل من عرفه. ونوهوا بقدراته في القراءات. وقالوا أنه أخذ القراءات عن فتح بن عبد الله المرادي صاحب ابن هذيل؛ كما قرأ عليه الحافظ أبو الحسن علي ابن محمَّد التلمساني المعروف بابن الخضار. ونظراً

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 125. أنظر أيضاً: ص: 205.**

لكـــون صاحـــب الترجمـــة قـــد قـــرأ عـــلى أبي الحســـن عـــلي ابـــن الخضـــار؛ الـــذي تـــوفي في عـــام 677هـــ/1278م؛ يكـــون قـــد عـــاش في زمنـــه أي في الفتـــرة الـــتي حكـــم فيهـــا يغمراســـن بـــن زيـــان.

7 ـ الشيـــخ الصالـــح أبـــو عبـــد الله محمـــد بـــن محمـــد ابـــن أبي بكـــر بـــن مـــرزوق بـــن الحـــاج التلمســـاني. ولـــد في حـــدود عـــام 629هـــ/1231م. استوطـــن جـــدّه ـــ المدعـــو مـــرزوق ـــ **تلمســـان** في عهـــد المرابطيـــن. فسكنهـــا، وخلـــف نسلـــه في ثراهـــا؛ فنشـــأوا بهـــا، وتعلمـــوا فيهـــا؛ كمـــا احترفـــوا الفلاحـــة في أراضيهـــا الخصبـــة. فكانـــوا جميعـــاً أهـــل صـــلاح ووجاهـــة، وتديـــن. وكـــان الفقيـــه أبـــو عبـــد الله ـــ صاحـــب هـــذه الترجمـــة ـــ مـــن الأوليـــاء وأهـــل الصـــلاح والفضـــل؛ وكـــان محدثـــاً وفقيهـــاً ومتصوّفـــاً، زاهـــداً، عابـــداً، مجـــاب الدعـــاء؛ ويقـــال أن لـــه كرامـــات ومكاشفـــات وآثـــار في الترهـــب والعلـــم شهيـــرات. وممـــن أخـــذ عنهـــم: أبـــو زكريـــاء يحـــيى بـــن محمـــد بـــن عصفـــور العبـــدري، وأبـــو إسحـــاق إبراهيـــم بـــن يخلـــف ابـــن عبـــد الســـلام التنـــسي، والشيـــخ الصالـــح أبـــو عبـــد الله الكفيـــف، وأبـــو عبـــد الله المالـــقي، والفقيـــه أبـــو عبـــد الله محمـــد بـــن اللجـــام، والفقيـــه أبـــو زيـــد اليزناســـني. وكـــل هـــؤلاء مـــن أبنـــاء تلمســـان؛ شُهِـــد لهـــم بالعلـــم والديـــن.

وتــوفي صاحــب الترجمــة في أوائــل رجــب الفــرد سنــة 681هــ/1282م؛ أي بعــد أشهــر مــن وفــاة يغمراســن بــن زيــان؛ فدفــن بجــواره في دار الراحــة مــن الجامــع الأعظــم؛ تطبقــاً لوصيــة هــذا السلطــان بذلــك؛ تبركــا بجــواره.

8 ـ الــولي الصالــح أبــو الحســن عــلي بــن النجاريــة. ذو الزهــادة في الدنيــا والإقبــال عــلى الآخــرة، قبــره إزاء قبــر أميــر المسلميــن أبي يحــيى يغمراســن بــن زيــان، قصــد التبــرك بجــواره. لا يعــرف تاريــخ وفاتــه بالضبــط. وربمــا تكــون حدثــت قبــل وفــاة ذلــك السلطــان الزيــاني.

9 ـ الشيــخ الخطيــب أبــو عثمــان سعيــد بــن بــن إبراهيــم بــن عــلي الخيــاط. عــرف **بابــن سبعيــن**. اختــار سبيــل التصــوف؛ فلبــس الخرقــة ضمــن طريقــة أبي العبــاس الرفــاعي، كمــا اختــار طريقــة أبي مديــن شعيــب في التصــوف. لا يعــرف تاريــخ وفاتــه.

10 ـ الصالــح أبــو العبــاس أحمــد بــن الخيــاط. وهــو أخ لصاحــب الترجمــة السابقــة (أبي عثمــان). ويعتبــر مــن بيــن الصلحــاء الاعــلام. عــرف بمداومــة تــلاوة كتــاب الله تعــالى؛ وكــان عالمــاً بــه. قــال يحــيى بــن خلــدون: **((ثقفــه السلطــان أبــو يعقــوب المريــني، فلمــا كُبِّــل تكســرت عنــه القيــود، وأُلْــفَى بالسجــن أزيــد مــن**

سبعمائة رجل؛ فأخذهم بالقراءة، والصلاة؛ فكان أمرهم في ذلك عجباً. وكان الناس يقصدونه بالسجن لتجويد القرآن))[1].

11 ـ الشيخ أبو اسحاق ابراهيم بن علي الخياط.

هو ولد صاحب الترجمة الأولى (أبي عثمان). كان رجلا صالحاً، يسترزق من مهنة الخياطة. ويحب عمل الخير، كما يشفق على أصحاب الحاجة. فكان يسعى لقضاء حاجاتهم لدى السلطان يغمراسن؛ فيقضيها له. فامتعض بعضهم منه؛ لأنه كما قال يحيى بن خلدون: **((كان يكثر الدخول على أمير المسلمين أبي يحيى يغمراسن بن زيان؛ لقضاء حوائج الناس ـ فربما دخل عليه في اليوم الواحد سبعين مرة ـ فقيل لأمير المسلمين في ذلك؛ فقال: دعوه؛ فهو رحمة للناس؛ وما قضى الله تعالى يقضيه؛ والله لا أبرمته. رحم الله السلطان، ونفع بالشيخ))**[2]. توفي **بتلمسان** في تاريخ غير معلوم. المهم أنه في عهد يغمراسن بن زيان.

12 ـ الفقيه الصالح العاكف أبو عبد الله ابن البلد.

ذكره يحيى بن خلدون؛ وصنفه بين كبار الأولياء

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 117 - 118.**
[2] **نفسه، ص: 118.**

المتقشفين، وقال أنه: ((**لم يعد لباس الصوف الخشن، وأكل الشعير من فضل صدقته بثمن ما ينتسخه بيده**))[1]. وقبره رحمه الله بمسجد صالح من العباد. تاريخ وفاته غير معروف.

***

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 119.**

دولة عثمان بن يغمراسن

أما السلطان **أبو سعيد عثمان بن يغمراسن**؛ فقد خلف والده بعد وفاته؛ سنة 681هـ/1282م؛ فحرص على ضبط أمور دولته، وتمهيد الجهات الشرقية؛ حتى أسوار **بجاية**. وفي سنة 684هـ/1285م – بادر إلى مخاطبة ملك **بني مرين يعقوب بن عبد الحق**؛ عارضاً عليه السلم والمصالحة؛ عملاً بوصية والده **يغمراسن** الذي حثّه على مسالمة سلاطين **بني مرين**، وتجنب الاحتكاك بهم والابتعاد عن مخاصمتهم؛ والاكتفاء بالتوسع نحو **الشرق**[1]. فاتخذها

---

[1] **قال ابن خلدون: ((حدثنا شيخنا العلامة أبو عبد الله الآبلي؛ قال: سمعت من السلطان أبي حمو موسى بن عثمان - وكان قهرماناً بداره - قال: أوصى دادا يغمراسن لدادا عثمان - ودادا حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم - فقال له: يا بني؛ إن بني مرين؛ بعد استفحال ملكهم، واستيلائهم على الأعمال الغربية، وعلى حضرة الخلافة بمراكش؛ لا طاقة لنا بلقائهم؛ إذا جمعوا لوفود مددهم. ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم؛ لمعرة النكوص عن القرن؛ التي أنت بعيد عنها. فإياك واعتماد لقائهم؛ وعليك باللياذ بالجدران؛ متى دلفوا إليك؛ وحاول ما استطعت في الاستيلاء على ما جاورك من عمالات الموحدين وممالكهم يستفحل به ملكك، وتكافئ حشد العدو بحشدك؛ ولعلك تصيِّر بعض الثغور الشرقية معقلاً لذخيرتك. فعلقت وصية الشيخ بقلبه، واعتقد عليها ضمائره،**

عثمـــان نهجـــاً واستراتيجيـــة التـــزم بـــه؛ ولكـــن النزعـــة التوسعيـــة **لبـــني مريـــن** أفســـدت مسعـــاه. إذ هادنـــوه في وقـــت احتاجـــوا هـــم فيـــه إلى المهادنـــة؛ أيـــام انشغالهـــم بالتوســـع في **بالأندلـــس**. ولمـــا زالـــت الحاجـــة إلى ذلـــك عـــاودوا التحـــرش **ببـــني زيـــان**؛ حيـــث قـــام **يوســـف بـــن يعقـــوب بـــن عبـــد الحـــق** بخمـــس غـــزوات ضـــد **تلمســـان**؛ انتهـــت كلهـــا بالفشـــل؛ وانجلـــت عـــن مهلكـــه بيـــد أحـــد عبيـــده أثنـــاء حصـــاره الطويـــل **لتلمســـان**[1].

ـ حصـار تلمسـان الأعظـم:

وبـــدأت حكايـــة حصـــار هـــذا السلطـــان المريـــني **لتلمســـان** باختـــلاق ذرائـــع ومسوغـــات. أهمهـــا أنـــه طلـــب مـــن السلطـــان الزيـــاني **عثمـــان بـــن يغمراســـن** تسليمـــه بعـــض اللاجئيـــن **المرينييـــن** إلى **تلمســـان**. فـــأبى السلطـــان الزيـــاني إخفـــار ذمتـــه؛ وقـــال: ((**واللـــه؛ لا أسلمـــه أبـــداً، ولا أبيـــع حرمـــتي، وأتـــرك مـــن استجـــارني حـــتى أمـــوت؛ فليصنـــع مـــا بـــدا لـــه**))[2].

وجنح إلى السلم مع بني مرين؛ ليفرغ عزمه لذلك)). العبر، مج: 7، ص ص: 189 - 190. أنظر أيضاً: ص ص: 443 - 444.

[1] العبر، مج: 7، ص ص: 196 - 201.

[2] الأنيس المطرب، ص: 393.

ويقول **عبد الرحمن بن خلدون**؛ أن رسول السلطان المريني أغلظ في القول إلى السلطان **عثمان**: **((فسطا به، واعتقله؛ فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة والتوترات المتواترة؛ واعتزم على غزو تلمسان))**[1]. وهذه الحادثة تثير الذاكرة، وتحيلها إلى قصة في عصر آخر؛ عرفت بقصة المروحة؛ بين داي **الجزائر** والقنصل **الفرنسي**؛ وتوكد أن من أراد الحرب، ونوى الغزو؛ لن يعدم حيلة أو ذريعة يعلن بها عن قراره.

وكانت هذه هي الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب من جديد بين الدولتين: **المرينية والزيانية**. ويبدو أن **يوسف بن يعقوب بن عبد الحق** كان ينتظر الفرصة المواتية لإعادة الكرة مع **بني عبد الواد**؛ لذا فقد اختطف هذه المناسبة الذهبية ــ ولو لم تتوفر؛ لحاول إيجاد ذريعة أخرى لتحقيق أهدافه ــ لأن نزعة التوسع شرقاً مسيطرة على السلاطين **المرينيين**؛ بل تتحكم في نواياهم وأهدافهم؛ فهي استراتيجيتهم التي يتطلع إلى تحقيقها سلاطينهم كافة؛ صغيرهم وكبيرهم. وعلى هذا؛ فقد كرّر الغزو نحو

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 442.**

تلمسان خمس مرات؛ بدأها بسنة 689هـ/1290م؛ حيث حاصر المدينة مدة أربعين يوماً دون جدوى؛ فصبّ جام نقمته على الزرع والعمار؛ فقطع الأشجار؛ وهدم الآثار، وخرب القرى في الأرياف؛ ثم عاد إلى حاضرة ملكه **بالمغرب الأقصى**. وكان قد استعان في عيثه بقبائل **مغراوة** الوافدين عليه. فلما عاد إلى بلاده؛ خرج **عثمان بن يغمراسن** إلى ديار **مغراوة**؛ فشن عليها حملة انتقام؛ أتت على الأخضر واليابس؛ وأجلاهم إلى **متيجة**؛ بعد أن ترك ابنه **أبا حمو موسى** في **شلف**؛ لمراقبتهم، وكبحهم.

ونظراً إلى رغبة **يوسف بن يعقوب المريني** الملحة إلى الاستيلاء على **تلمسان**؛ فقد تكررت غزواته نحوها؛ حيث توالت واحدة بعد أخرى دون جدوى، إذ فشل **هذا السلطان المريني** في تحقيق مراده خلال غزواته الخمس: أولاها سنة: 689هـ/1290م، والثانية سنة 695هـ/1295م، والثالثة سنة 696هـ/1296م، والرابعة سنة 697هـ/1297م، والخامسة سنة 698هـ/1298م. كلها خابت، ولم يتمكن بها من اختراق جدران **تلمسان** المحصنة بالأسوار العالية، والأبراج الشامخة المتينة.

غيــر أن الحملــة الأخيــرة؛ الــتي بــدأت في ســنة 698هــ/1298م؛ أضــرت **بتلمســان** كثيــراً؛ حيــث لحــق ببــني **عبــد الــواد** ضــرراً عظيمــاً؛ إذ دام الحصــار خلالهــا ثمــاني ســنــوات وثلاثــة أشهــر متواليــة وبــدون انقطــاع. فكــان هــذا الحصــار فريــداً في نوعــه؛ إذ اتصــف بطــول أمــده وضراوتــه. وبالمقابــل؛ تميــز بشــدة صبــر **العبــد الواديــين**، وصرامتهــم، وإبائهــم، وصــدق مقاومتهــم، وتفانيهــم في صــدّ عدوهــم. فضربــوا بذلــك رقمــاً قياسيــاً في شــدة الاحتمــال، وصــدق النضــال: **((واستمــر حصــاره [أي يوســف بــن يعقــوب المريــني] إياهــم إلى تمــام ثمــاني سنيــن وثلاثــة أشهــر مــن يــوم نزولــه. نالهــم فيهــا مــن الجهــد والجــوع مــا لــم ينــل أمــة مــن الأمــم))**[1].

أمــا شكــل الحصــار وخطتــه؛ فيمكــن تلخيصهــا هكــذا: قــام السلطــال المريــني بتطويــق مدينــة **تلمســان** مــن جميــع جهاتهــا؛ ثــم شــرع في بنــاء مدينــة محاذيــة لهــا سماهــا **المنصــورة؛** جعلهــا مستقــراً لــه ولجيشــه. والهــدف مــن ذلــك هــو التمكــن مــن مطاولــة المحاصريــن، وخنــق **تلمســان**؛ حــتى تستلــم مــع الزمــن.

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 197.**

ومع هذا؛ لم يبق مكتوف الأيدي أمام **تلمسان**؛ حتى تفتح أبوابها؛ بل قام – خلال إنجاز مدينة **المنصورة** – بتمهيد الجهات الشرقية، وإخضاع أتباع **بني عبد الواد** في تلك الديار؛ فلم يترك مدينة إلاّ واستسلمت له، وبلغ في زحفه إلى مشارف **بجاية**؛ حيث ضمن طاعة **بني توجين** كافة، **ومغراوة** كلها. وبذلك وسّع نطاق الحصار إلى أبعد مدى، وعزل مدينة **تلمسان** عن محيطها الحيوي؛ فشمل بذلك الاستقطاب والهيمنة: **ندرومة، وتامززدكت، وهنين، ووهران، والقصبات، ومزغران، ومستغانم، ومازونة، وتنس، وبرشك، وشرشال، والبطحاء، وونشريس، ومليانة، ولمدية، والجزائر، وتافركنيت**[1]**: ((وحذره الموحدون من ورائهم بإفريقية ملوك بجاية، وملوك تونس؛ فمدوا إليه يد المواصلة ولاطفوه بالمتاحفة، والمهاداة؛ وخاطب صاحب الديار المصرية – ملك الترك – وهاداه، وراجعه كما نذكره. ووفد عليه شرفاء مكة بنو أبي نمي كما نذكر. وهو في خلال ذلك مستجمع لمطاولة الحصار والتضييق))**[2].

---

[1] **الأنيس المطرب، ص: 367.**
[2] **العبر، مج: 7، ص: 458.**

ولكن الله شاء بغير ما حلم به **يوسف بن يعقوب المريني**؛ حيث قتله ـ في ليلة من الليالي ـ أحد خصيانه ـ اسمه **سعادة** ـ بواسطة خنجر؛ بعد أن تسلل إلى مخدعه؛ فهلك لوقته؛ وفي سنة 706هـ/1306م[1]. وبموته تفرق الجمع، وانفض الحصار؛ إذ سارع المتنافسون على العرش المريني للالتحاق **بفاس**؛ لترتيب شئون الحكم[2].

ومن غرائب الصدف؛ أن السلطان الزياني **عثمان بن يغمراسن** توفي هو الآخر أثناء هذا الحصار؛ وقبل السلطان المريني بسنوات ثلاث تقريباً. إذ ورد في المصادر أنه توفي في سنة 703هـ/1303م؛ عن عمر حدد بأربع وستين سنة.

أما موت السلطان الزياني **عثمان بن يغمراسن**؛ فقد اختلف المؤرخون في سببها المباشر. فبينما يعتقد بعضهم بأنه توفي جراء نزلة برد؛ بعد خروجه من الحمام؛ يقول آخرون أنه انتحر؛ والله أعلم. وإذا ما صح هذا السبب الأخير؛ فإن السلطان الزياني هذا؛ يكون قد سلك النهج نفسه الذي اختاره من قبل أسلافه من الملوك **الأمازيغ**.

---

[1] **الأنيس المطرب، ص: 368. العبر، مج: 7، ص ص: 484 - 485.**
[2] **العبر، مج: 7، ص ص: 485 - 489.**

الذين اختاروا وضع نهاية لحياتهم؛ منعاً للعار؛ الذي سيلحق بهم لو أسروا من قبل العدو. وبذلك يكون **عثمان بن يغمراسن** قد انسجم مع غيره من بني جنسه من الملوك في سالف الدهر؛ مثل:

ـ **يوبا الأول**؛ الذي أنهى حياته؛ بعد هزيمته أمام **القيصر سيزار** سنة 47 قبل الميلاد.

ـ **وفيرموس**؛ الذي قتل نفسه سنة 375 ميلادية؛ بعد هزيمته أمام القائد الروماني **تيودوز**، وخيانة أصحابه له.

ـ **وجيلدون** سنة 395 ميلادية؛ بعد أن تغلب عليه جيش **روما**؛ الذي قاده أخوه **مقزيل**؛ من أجل **روما**.

ـ وأمير **مغراوة محمد بن الخير بن محمد بن خزر** سنة 260هـ/873م؛ الذي ذبح نفسه؛ بعد هزيمته أمام **بلكين بن زيري بن مناد الصنهاجي**.

أما السلطان الزياني **عثمان بن يغمراسن**؛ فقد اتفق ـ بخصوصه ـ **يحيى بن خلدون، والتنسي** على رواية واحدة؛ مفادها أنه أصيب بنوبة برد؛ بعد خروجه من الحمام. بينما أورد **عبد الرحمن بن خلدون** رواية مغايرة؛ جاء فيها: أنه هلك بالسم؛

بعد خروجه من الديماس[1]. حدث ذلك في السنة الخامسة من سنوات الحصار؛ وبالتحديد؛ في يوم السبت؛ غرة ذي القعدة من عام 703هـ/1303م.

ـ العمران والثقافة:

وواضح أن السلطان **أبا سعيد عثمان** استفاد ممن كانوا في خدمة أبيه من العلماء والأدباء والكتاب؛ غير أنه اختص بشاعر المائة السابعة الفقيه الأديب **أبي عبد الله محمد بن عمر بن خميس**؛ الذي ولاّه كتابة الإنشاء. ومع هذا فقد وصف **أبو عبد الله محمد العبدري الحيحي** في رحلته الأوساط العلمية والأدبية في **تلمسان** ـ التي زارها في عصر **أبي سعيد عثمان** ـ بالضحالة والجدب؛ وهذه الصفة نعت بها مدن **المغرب الأوسط** كافة؛ وواضح أنه لم يكن منصفاً في

---

[1] الديماس هنا: هو الحمام. وقال عبد الرحمن بن خلدون: ((أخبرني شيخنا العلامة محمد بن إبراهيم الآبلي ـ وكان في صباه قهرمان دارهم ـ قال: هلك عثمان بن يغمراسن بالديماس. وكان قد أعد لشربه لبناً؛ فلما أخذ منه الديماس، وعطش؛ دعا بالقدح، وشرب اللبن، ونام؛ فلم يكن بأوشك أن فاضت نفسه. وكنا نرى معشر الصنائع أنه داف فيه السم؛ تفادياً من معرّة غلب عدوهم إياه)). العبر، مج: 7، ص ص: 196 - 197. أنظر أيضاً: بغية الرواد، ج: 1، ص: 201. وتاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 131.

أحكامه التعسفية. وفيما يلي عرض لأسماء بعض علماء الدين والمتصوفة؛ الذين عاشوا في عهد أبي سعيد عثمان بن يغمراسن وابنه أبي زيان محمد. على أن يترك أمر الشعراء والأدباء للأجزاء اللاحقة من الكتاب.

1 ــ إبراهيم الطيار الغوث؛ (أبو إسحاق). يُعد من كبار الأولياء، ومن العاملين بجد على تعليم كتاب الله عز وجل. قالوا أنه لم يضطجع أربعاً وعشرين سنة؛ اقتصر فيها على قيام الليل، وصوم النهار. وقال المقري نقلا عن محمد بن مرزوق عن أصحابٍ لصاحب الترجمة: (("**إن أبا إسحاق أقام خمساً وعشرين سنة لا ينام إلاّ قاعداً". فسألت ابن مرزوق: لم لقب بالطيار؟ فحدثني عن بعض أصحابه؛ أنه نَشَرَ ذات يوم ثوبه في الشمس على بعض السطوح؛ ثم قعد هنالك. فمر به رجل؛ فقال له: "طِرِ"؛ فقال: "أعن أمرك؟"؛ قال: "نعم"؛ فطار حتى وقع على الأرض وما به باس))**[1].
ومات قبل دخول سنة 700هـ؛ فدفن بالعباد.

---

[1] **نفح الطيب، ج: 5، ص: 260.**

2 ـ الفقيه أبو زكرياء يحيى بن عصفور. تولى القضاء في عهد عثمان بن يغمراسن. وهو من قضاة العدل والفضل؛ احتل مكانة مرموقة بين القضاة الرؤساء؛ من المتصفين بالفضل والدين. وهو غير الذين عرفوا باسم "ابن عصفور" كشيخ لسان الدين بن الخطيب المدعو باسم أبي زكرياء يحيى ابن عصفور؛ المحدث الساكن بتونس. أو أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر بن عصفور العبدري تلميذ أبي عبد الله بن عبد الحق، وشيخ أبي العباس الصدفي الشاطبي، وابن الأبار، وأبي عبد الله بن مرزوق.[1]

3 ـ الشيخ أبو الحسن التنسي. وهو أخو الشيخ أبي إسحاق؛ أثير يغمراسن بن زيان. ويعتبر من كبار العلماء العاملين. حظي لدى الملوك والعامة بمكانة جليلة. يتصف بالورع والتقى. كلف بالسفارة بين ملوك المغرب والمشرق؛ فلحقته أضرار من هذه المهمة؛ إذ اتهم أيام الحصار الأول لتلمسان (وقع في سنة 689هـ/1290م) بالميل إلى الأعداء؛ فخرج من المدينة، والتحق بالسلطان المريني أبي يعقوب يوسف؛

[1] أنظر تعليق محقق الجزء الأول من كتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ص: 153.

الـــذي أكرمـــه وبالـــغ في الاحتفـــاء بـــه. وبـــقي لديـــه إلى أن مـــات؛ فدفـــن بالعبـــاد.

***

دولة
أبي زيان محمد بن عثمان

وبعد وفاة السلطان **عثمان**؛ خلفه ولده **أبو زيان محمد**؛ الذي يتحلى بمزايا أبيه **عثمان بن يغمراسن** من حيث الصرامة، والحزم، والصبر على المكاره، والإصرار في المواقف. تولى الأمر بعد وفاة والده في مخدعه؛ أين بعثت محظيته بنت السلطان **الحفصي أبي إسحاق** إلى ولديه: **أبي زيان محمد، وأبي حمو موسى**؛ فأعلمتهما بوفاته؛ فبدارا إلى إحضار مشيخة **بني عبد الواد**؛ للنظر في الأمر؛ ولكنهما لم يصرحا في البداية بوفاته؛ وظهر عليهما الحرج؛ فارتاب الجمع في الأمر؛ فتساءل أحدهم نيابة عن بقية المشيخة؛ قائلاً: ((**السلطان معنا آنفاً؛ ولم يمتد الزمن لوقوع المرض؛ فإن يكن هلك فخبرونا؛ فقال له أبو حمو: وإذا هلك؛ فما أنت صانع؟ فقال: إنما نخشى من مخالفتك؛ وإلاّ فسلطاننا أخوك الأكبر أبو زيان. فقام أبو حمو من مكانه، وأكبّ على يد أخيه يقبلها، وأعطاه صفقة يمينه، واقتدى**

بــه **المشيخــة))**[1]. وهكــذا عقــدت بيعــة **أبي زيــان محمــد ابــن عثمــان بــن يغمراســن**؛ وفي يــوم الأحــد الثــاني مــن ذي القعــدة سنــة 703هــ/1303م؛ فواصــل جهــود المقاومــة، والتصــدي **لبــني مريــن**؛ دون أن يظهــر عليــه الجــزع، أو يبــدي أي تراجــع أو تــراخي؛ بحيــث لــم يشعــر أحــد مــن خصومــه أن شيئــاً مــا قــد تغيــر بعــد وفــاة **عثمــان**. **((وبلــغ الخبــر إلى يوســف بــن يعقــوب ــ بمكانــه مــن حصارهــم ــ فتفجــع لــه، وعجــب مــن صرامــة قومــه مــن بعــده))**[2]. وظــل الحصــار مستمــراً في عهــد **أبي زيــان محمــد**؛ وبــقي عــلى حالــه زهــاء ثــلاث سنــوات تقريبــاً؛ إلى أن قُتِــل السلطــان **المريــني** بيــد خصيــه[3]. عندهــا؛ اندلعــت بيــن إخــوة السلطــان المريــني وأبنائــه وأحفــاده منافســة ضاريــة عــلى السلطــة؛ فتسابقــوا إلى امتــلاك العــرش **بفــاس**؛ ومــن بينهــم **أبــو ثابــت**؛ حافــد السلطــان؛ الــذي بعــث رســولاً إلى السلطــان الزيــاني؛ يعــرض عليــه الصلــح؛ عــلى أن يــؤازره في مسعــاه،

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 197.

[2] نفسه، ص: 197.

[3] اتفق الأخوان: ابن خلدون على هذا؛ بينما خالفهما التنسي؛ حيث نقل عن صاحب كتاب (درر الغرر) قوله بأن أبا زيان مات أثناء الحصار؛ وأن يوسف بن يعقوب المريني هلك في عهد أبي حمو موسى الأول. أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسن (نظم الدر)، ص: 135.

ويقف معه ضد بقية أعضاء الأسرة المالكة **المرينية**[1]. فوافقه، وعقد معه معاهدة صلح ومساندة؛ أنهت الحصار، وأعادت الأمل، وفتحت أمام **بني زيان** ــ من جديد ــ أبواب الملك واسعة على مصراعيها؛ فأعادوا الكرة، واجتاحوا معظم البلاد الشرقية.

وقام السلطان **أبو زيان محمد** ــ في السنوات الأولى من ولايته، وبالتحديد في سنة 705هـ/1305م؛ وقبل رفع الحصار عن **تلمسان** ــ قام بإجراء أول قطيعة بين **البلاط الزياني، والدولة الحفصية**؛ حيث أسقط الدعاء لهذه الدولة من منابر **تلمسان**؛ بعد أن وصلته أخبار دعم سلطانها **أبي عصيدة**[2] **بن الواثق**

---

[1] قال ابن خلدون: ((وكان من خبر هذه الرسالة؛ أن يوسف بن يعقوب ـ لما هلك ـ تطاول للأمر الأعياص من إخوته وولده وحفدته؛ وتحيز أبو ثابت حافده إلى بني ورتاجن؛ لخؤلة كانت له فيهم؛ فاستجاش بهم؛ فاعصوصبوا عليه؛ وبعث إلى أولاد عثمان بن يغمراسن؛ أن يعطوه الآلة، ويكونوا مفزعاً له ومأمناً إن أخفق مسعاه؛ على أنه إن تم أمره قوض عنهم معسكر بني مرين. فعاقدوه عليها؛ ووفى لهم؛ لما تم أمره؛ ونزل لهم عن جميع الأعمال التي كان يوسف بن يعقوب استولى عليها من بلادهم، وجاء بجميع الكتائب التي أنزلها في ثغورهم؛ وقفلوا إلى أعمالهم بالمغرب الأقصى؛ واستمكن السلطان أبو زيان من ثغور المغرب الأوسط كلها)). العبر، مج: 7، ص: 201.

[2] هو أبو عبد الله محمد بن محمد الواثق؛ المعروف بأبي عصيدة، والملقب بالمستنصر بالله. حكم من سنة 694هـ/1294م إلى سنة سنة 709هـ/1309م.

للسلطان المريني **يوسف بن يعقوب بن عبد الحق**. وذلك بإرسال أسطول **حفصي** لمساعدته على تمهيد سواحل **المغرب الأوسط**[1]. وعندها اقتصر ملوك **بني زيان** على الدعاء لأنفسهم.

كانت أول خطوات السلطان **أبي زيان** ـ رفقة أخيه **أبي حمو**؛ بعد رفع الحصار؛ **وفي** آخر ذي الحجة من سنة 706هـ/1306م ـ هي الزحف نحو **مغراوة**[2]؛ فسلط عليهم سيف انتقامه؛ إذ عاقبهم على مساندتهم **لبني مرين**، ووقوفهم إلى جانبهم أثناء حصارهم **لتلمسان**. فدوخ أرضهم، ونسف عمارتهم، ثم عقد **لمسامح** (مولاه) على ديارهم؛ كما توجه إلى **سهل السرسو**؛ حيث تتواجد أعراب **سويد والديالم وبني يعقوب بن عامر**؛ فأوقع بهم وأخرجهم من تلك الجهات التي غلبوا عليها **زناتة** أيام الحصار. ثم تحول إلى بلاد **توجين**؛ أين ألزمهم الطاعة، وضبط فيهم أمر **الحشم**.

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 202 - 203. 463 - 467.**

[2] **يخالف التنسي هذا الرأي؛ حيث يرى أن أول ما قام به السلطان الزياني ـ وهو أبو حمو عنده وليس أبا زيان ـ أنه بدأ مباشرة بعد فك الحصار؛ بتخريبيب المنصورة التي شيدها يوسف بن يعقوب. بينما يقول صاحب الأنيس المطرب؛ أن أبا ثابت المتولي على بني مرين بعد جده يوسف ابن يعقوب اشترط على بني زيان أن يبقوا المنصورة على حالها، وألاّ يدخلوها، وأن يتعاهدوا مساجدها وقصورها بالإصلاح. أنظر هذا في ص: 369.**

ـ العمـران والثقافـة:

وبعــد تسعــة أشهــر مــن بــدء تمهيــد البــلاد الشرقيــة؛ عــاد السلطــان **أبــو زيــان محمــد** إلى **تلمســان**؛ حيــث انصــرف إلى إصــلاح حاضــرة ملكــه، وبنــاء مــا انثلــم مــن الأســوار، ومــا فســد مــن عمــار؛ كمــا انهمــك في ترميــم قصــوره ورياضــه؛ إلى أن تســرب إليــه المــرض، واشتــدت علتــه؛ ثــم مــات في آخــر شــوال مــن سنــة 707هــ/1307م؛ عــن عمــر يقــدر بثمــان وأربعيــن سنــة؛ ودام في الحكــم أربــع سنــوات إلاّ سبعــة أيــام[1].

***

---

[1] انفرد التنسي برأي آخر؛ خالف به الأخوين (ابن خلدون)، وابن أبي زرع؛ إذ يرى أن أبا زيان مات أثناء الحصار؛ ولكنه صمت عن ذكر التاريخ الذي هلك فيه؛ كما تجاهل التاريخ الذي انتصب فيه خليفته أبي حمو موسى الأول على سدة الحكم بعد موت أخيه. أنظر: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 131. العبر، مج: 7، ص: 197. وبغية الرواد، ج: 1، ص: 212. والأنيس المطرب، ص: 367.

دولة ابي حمو موسى الأول

وبعد وفاة **أبي زيان محمد**؛ خلفه أخوه **موسى ابن عثمان (أبو حمو الأول)**. الذي انتصب على سدة الحكم في **تلمسان** – في معظم الأقوال – يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر شوال سنة 707هـ/1307م. فنقل الدولة الزيانية من عهد السذاجة القبلية، والبساطة في الأحكام إلى الملك العضوض؛ ووصفه **عبد الرحمن بن خلدون**؛ بقوله: **((وكان صارماً، يقظاً، حازماً، داهية، قوي الشكيمة، صعب العريكة، شرس الأخلاق، مفرط الذكاء والحدّة. وهو أول ملوك زناتة. رتب مراسم الملك، وهذب قواعده، وأرهف لذلك لأهل ملكه حدّه، وقلب لهم مجن بأسه؛ حتى دلوا لعز الملك، وتأدبوا بآداب السلطان))**[1].

بادر **أبو حمو الأول** – منذ توليه – إلى تجديد معاهدة الصلح بينه وبين سلطان **بني مرين**؛ اتباعاً

---

[1] ثم أضاف: ((سمعت عريف بن يحيى (أمير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية لزناتة) يقول - ويعنيه - موسى بن عثمان هو معلم السياسة الموكية لزناتة؛ وإنما كانوا رؤساء بادية؛ حتى قام فيهم موسى ابن عثمان؛ فحدّ حدودها، وهذب مراسمها، ولقن عنه ذلك أقتاله، وأنظاره منهم؛ فتقبلوا مذهبه، واقتدوا بتعليمه)). العبر، مج: 7، ص: 204.

لنهج والده **عثمان**، وتطبيقاً لوصية جدّه **يغمراسن**؛ التي ورد ذكرها فيما سبق. وبعدها؛ انطلق إلى تمهيد البلاد الشرقية من مملكته[1]؛ حيث يكون قد واصل المجهود الذي بدأه أخوه **أبو زيان محمد**؛ فجرد حملات متتابعة ضدّ **بني توجين ومغراوة**؛ فأثخن فيهم، وسلبهم المال والأرواح؛ ثم انتقل إلى بقية القبائل المتواجدة في تلك الديار؛ حتى أخضعهم، واطمأن إلى استكانتهم، وطاعتهم؛ وبذلك تمكن من السيطرة – منذ توليه إلى سنة 714هـ/1314م – على المدن والمناطق التالية: **شلف، وجبل وانشريس، والسرسو، ومازونة، مليانة، ولمدية، والجزائر، وبرشك، وتنس، ومستغانم، ووهران.** هذا؛ ولم تشغله عملياته العسكرية ضد القبائل المتواجدة بين **تلمسان والجزائر** عن نقل عملياته الحربية إلى ديار **الحفصيين** في **إفريقية**؛ إذ شدّد ضغطه عليهم بعد

---

[1] **خالف التنسي بقية الروايات ـ على اعتبار أنه تولى الحكم أثناء الحصار كما سبقت الإشارة إليه ـ حيث ذكر أن أول عمل قام به أبو حمو الأول هو هدم مدينة المنصورة التي بناها السلطان المريني يوسف بن يعقوب؛ فقال: ((كان أول ما بدأ به الملك أبو حمو؛ هدم مدينة يوسف، وإصلاح ما تثلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر، وحفر الخنادق، وخزن فيها من الطعام والأدام والملح والفحم والحطب ما لا حد له ولا حصر؛ ثم اشتغل بتمهيد الملك)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 135 - 136.**

سقوط حجاب الثقة بينهم وبين **بني زيان**؛ جراء مساندتهم **لبني مرين** أثناء حصارهم **لتلمسان**. وقد استغل **أبو حمو موسى الأول** الظروف السيئة التي مرّت بها الدولة **الحفصية** في تلك الفترة؛ فاستفاد من الاضطرابات والفتن المشتعلة بين أمراء الأسرة المالكة في **تونس**؛ كما استثمر نتائج الأوضاع السياسية والاجتماعية المتدهورة؛ المتمثلة في تطاول **الأعراب** واستقوائهم على الدولة **الحفصية**، وتغلبهم على ضواحي **إفريقية** كلها. لذا فقد جرد مجموعة من الفرق المقاتلة لمحاصرة المراكز الرئيسة في **المغرب الأوسط وإفريقية**؛ التابعة لتلك الدولة؛ مثل: **بجاية، وقسنطينة، وبونة**. وهكذا؛ شرع السلطان **الزياني** في خطته بالتقدم نحو الشرق؛ والاقتراب من خطوطه الأمامية؛ حيث شيّد سنة 711هـ/1311م قصره المعروف باسمه في **وادي نهل**[1] بالقرب من **ماوزنة**؛ الذي اتخذه مركز قيادة أمامي له.

---

[1] **وادي نهل: أحد روافد واد الشلف؛ وهو قريب من مازونة. وفي هذا الموقع شيد السلطان أبو حمو موسى الأول قصره المسمى باسمه؛ وعرف الآن باسم عمي موسى.**

وبعد حملته الأولى سنة 710هـ/1310م ـ التي أخضع خلالها **بني توجين، ومغراوة**؛ ونصب **يوسف ابن حيون الهواري** على عمالة **وانشريس**، ثم أقام مولاه **مسامحاً** عاملاً على بلاد **مغراوة** ـ عاد إلى **تلمسان**. ولكنه ما فتئ أن عاود الكرة سنة 711هـ/1311م؛ أين ربض في قصره **بوادي نهل**؛ وبعث البعوث نحو شرق البلاد؛ فبدأها بحملة مولاه **مسامح**؛ الذي ضيق ـ بحصاره ـ على مدينة **الجزائر** حتى سلمها صاحبها **ابن علان** إلى جيش **أبي حمو** سنة 712هـ/1312م. وبذلك أضحت **متيجة** ضمن ممتلكات الدولة الزيانية.

وكالعادة؛ تململ **المرينيون**، وتضايقوا من التوسع **الزياني** على حساب **الحفصيين** شرقاً؛ فحالولوا كبح طموح **أبي حمو الأول**. وكما جرت العادة؛ لم يفتقروا إلى الوسائل والمسوغات اللازمة. وهكذا؛ ففي سنة 714هـ/1314م رجع **المرينيون** إلى عادتهم القديمة؛ في التحرش **بالزيانيين**، ومحاصرة **تلمسان**. والسبب ـ كالعادة ـ هو لجوء أفراد من العائلة المالكة **المرينية** إلى **تلمسان**؛ جراء خلافات وخصومات على الحكم. وتبعاً لإصرار الملك الزياني

على منح الحماية للاّجئين؛ تنشب الحرب بين الدولتين. وقد حدث هذا في عهود سبقت؛ فاتبع **أبو حمو الأول** نهج أسلافه في ذلك الأمر؛ بحجة أنه لن يكسر جواره أو يخفر ذمته. وكسابق العهد؛ أدى موقفه هذا إلى غضب السلطان **المريني أبي سعيد عثمان بن عبد الحق**؛ الذي سارع إلى غزو **تلمسن**، وحصارها؛ ولكنه فشل في مسعاه؛ بعد أن سرب **أبو حمو الأول** الأموال إلى وزرائه؛ وتبادل معهم الخطابات؛ ثم أعلم السلطان **المريني** بمؤمراتهم معهه. فخاف **أبو سعيد** العاقبة؛ وانسحب عائداً إلى **المغرب الأقصى**.

وبعد انسحاب **المرينيين** إلى بلادهم؛ نهض **أبو حمو** لتطويع البلاد المشرقية من جديد؛ واهتم ــ بالتحديد ــ بالخارجين عنه؛ من **مغراواة** في نواحي **شلف**؛ حيث باشر ــ بعد أن التحق بقصره **بوادي نهل** ــ بإخماد فتنة **راشد بن محمد بن ثابت بن منديل المغراوي**، وطارد أتباعه في جبال **شلف**. ثم شكَّل فرقاً عسكرية؛ أسند قيادتها إلى بعض أقاربه ومواليه. فأسند قيادة الفرقة المكلفة بحصار **بجاية** إلى ابن عمه **أبي سرحان مسعود بن أبي عامر برهوم**.

فضيق عليها، وشيّد بالقرب منها **حصن أزفون** (سماه بن خلدون **أصفون** بالصاد)؛ فاتخذه بمثابة المعسكر: **((فكان يسرح الجيوش لقتالها؛ فتجوّل في ساحتها ثم رجع إلى الحصن))**[1]. ثم وضع ابن عمه **محمد بن يوسف**، ومولاه **مسامحاً** على رأس فرقتين أخريين؛ وكلفهما بتدويخ ما وراء **بجاية**. وبعدها عقد **لموسى بن علي الكردي** على جيش ضخم بمشاركة فئة من **زغبة، وبني سباع** من **عرب الدواودة**؛ وبعثهم عبر طريق الصحراء؛ نحو **إفريقية**؛ بغرض كسر شوكة **الحفصيين**، وتهديد ممتلكاتهم، وترويع أمنهم. فوصلوا بزحفهم الكاسح إلى **بونة**؛ ثم تخطوها إلى **قسنطينة**؛ أين ضَيَّقوا عليها أياماً، كما استباحوا **جبل بني ثابت** المطل عليها؛ وأحرقوا الضواحي والمدن المجاورة. ولم يدم نجاحهم وظهورهم ــ بعد نجاحهم الأول في مسعاهم، وتوغلهم في ديار **الحفصيين** ــ حيث دبت رياح الخلاف بينهم: **((وحدثت بينهم المنافرة حسداً ومنافسة؛ فافترقوا، ولحقوا بالسلطان))**[2]. وكان الشنئان هذا؛ بمثابة الفتيل الذي أشعل نار الفتنة بين أفراد الأسرة المالكة **الزيانية**؛

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 213.
[2] نفسه، ص: 213.

بـل ظـل مشتعـلاً حـتى انفجـر في وجـه السلطـان **أبي حمـو الأول**؛ فقـضى عليـه.

ويبـدو أن الدولـة **الزيانيـة** ـ في عهـد **أبي حمـو الأول** ـ سلكـت طريـق الانحـدار والسقـوط؛ جـراء مـا أصابهـا مـن هـرم، وشيخوخـة، وفسـاد حالهـا مـن الداخـل. وقـد صـدق **ابـن خلـدون** في حكمـه عـن صاحـب الدولـة الـذي يضـع ثقتـه الكليـة في المـوالي والمصطنعيـن. وبالطبـع حـدث ذلـك في مرحلـة متأخـرة مـن عمـر الدولـة[1]. قـد تولـد عـن هـذه الفتـن المتواليـة؛ وهـذا الانقسـام في الأسـرة المالكـة؛ تضعضـع أركـان الدولـة **الزيانيـة**؛ حيـث تسـرب الوهـن القاتـل إلى بيـت **أبي حمـو** نفسـه. فـدب خـلاف مكتـوم بينـه وبيـن ابنـه **أبي تاشفيـن عبـد الرحمـن الأول**. استغـلّ هـذا الخـلاف بعـض المـوالي والمصطنعيـن في بـلاط الدولـة؛ فألهبـوا النـار الدفينـة في نفـس ولي العهـد ضـد أبيـه؛ بحجـة أنـه يفضـل عليـه ابـن عمـه **مسعـود بـن أبي عامـر برهـوم**[2]. وقـد تـولى إشعـال نـار الفتنـة أحـد المـوالي

---

[1] **أنظر المقدمة، ج: 2، ص ص: 656 - 657، فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كما للأشخاص.**

[2] **((وكان ـ رحمه الله ـ مؤْثِراً لابن عمه أبي سرحان مسعود بن أبي عامر ابن يغمراسن بن زيان عن ابنه السلطان أبي تاشفين؛ ومفضلاً إياه عليه في السر والجهر، والنهي والأمر. فكثيراً ما كان يعيره به ويوبخه في**

المسمى **هلال القطلاني**؛ الذي أوهم **أبا تاشفين** بأن أبيه سيحول ولاية العهد إلى ابن عمه **أبي سرحان مسعود.** وتطورت المؤامرة من مرحلة الشحن بالكلام إلى طور التنفيذ؛ حيث نفذوا مؤامرتهم بقتل السلطان **أبي حمو** الأول، **ومسعود** معاً في يوم الأربعاء 22 جمادى الأولى من عام 718هـ/1318م.

ــ العمران والثقافة:

وعلى الرغم من انشغال **أبي حمو الأول** بالحروب؛ وتصديه لعيث القبائل المختلفة في ربوع بلاده؛ فإنه لم يتجاهل المنجزات العمرانية وإنشاء المؤسسات الثقافية، ورفع مراتب العلماء في مملكته. فهو الذي أنشأ في **تلمسان** المدرسة الشهيرة بمدرسة ابني الإمام[1]: وهما العالمان الجليلان: **أبو زيد عبد الرحمن، وأبو موسى عيسى**؛ كما أسند خطة الكتابة في بلاطة للكاتب الشهير والأديب **ابن هدية**[2]؛

الملأ بسببه؛ وربما أسمعه هجر القول؛ غير مبال بعاقبته)). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 214.

[1] **هما: الأخوان: أبو زيد عبد الرحمن (المتوفي سنة 743هـ/) وأبو موسى عيسى (المتوفي سنة 749هـ/1348م)؛ والدهما هو محمد بن عبدالله التلمساني البرشنكي التنسي.**

[2] **هو محمد بن منصور بن علي بن هدية (توفي سنة 736هـ/1335م)**

بالإضافة إلى احتضان العلامة المتفنن **أبي عبد الله الآبلي**.[1] وبذلك يكون **أبو حمو موسى الأول** هو أول من اعتنى – من سلاطين بني زيان – بالعلم النافع النبيل؛ والأدب الرفيع ذي القيمة الفنية السليمة. إذ قرب إليه العلماء المتميزين بمختلف العلوم النقلية والعقلية؛ الذين ازدهرت بهم تلمسان في عصر هذا السلطان المجتهد. كما استعان في بلاطه بكفاءات عالية في الآداب والفنون الأخرى. ولذلك؛ لوحظ في عصر هذا السلطان ترجع تهافت الناس على المتصوفة والدراويش، وحلّ محلهم علماء العمل والتنوير. أما في ميدان البناء وتشييد المنشآت والقصور؛ فقد جلب من الأندلس مجموعة متنوعة من الفعلة والبنائين؛ بغرض بناء المنازل والقصور، وتخطيط البساتين وزراعتها[2]. وفي ما يلي بعض أسماء العلماء الذين عاصروا **أبا حمو موسى الأول**؛ بينما يستثنى منهم الذين تعاطوا نظم الشعر؛ لأن مكانهم في الأجزاء التالية من الكتاب.

---

[1] هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الآبلي؛ عالم واسع الاطلاع؛ يهتم بعلوم المنطق والرياضيات. ولد في تلمسان سنة 681هـ/1280م؛ ترجع أصوله إلى مدينة آبلة الأندلسية. وكان والده في خدمة السلطان يغمراسن، بينما كان ابنه محمد قهرمانا ببلاط الدولة الزيانية.

[2] العبر، مج: 7، ص: 297.

1 ـ الشيـخ أبـو زيـد عبـد الرحمـن ابـن الإمـام الخطيـب أبي عبـد اللـه محمـد بـن عبـد اللـه الإمـام.

2 ـ والشيـخ أبـو مـوسى عيـسى ابـن الإمـام الخطيـب أبي عبـد اللـه محمـد بـن عبـد اللـه الإمـام:

أصلهمـا مـن **برشـك**. وهمـا إمامـان مشهـوران بالعلـم والرئاسـة. ينتميـان إلى سلـف صالـح. قـال فيهمـا يحـيى بـن خلـدون: ((**أخبـرني مـن ثقاتـه؛ أن جدهمـا كـان مـن أوليـاء الله الأبـرار. وكانـت لـه أريضـة يعمرهـا بالخضـر لمعاشـه. فعمـد إليهـا ليلـة لصـان ليحتفـرا منهـا اللفـت؛ فأوثقتهمـا أرضهـا، وأصبحـا عبـرة، ونفـع الله بـه**))[1]. قـدم الإمامـان إلى تلمسـان في عهـد أبي حمـو مـوسى الأول؛ فاحتـفى بهمـا ورفـع منزلتهمـا؛ ثـم ابتـني لهمـا المدرسـة المسمـاة باسمهمـا؛ وموقعهـا داخـل بـاب كشوطـة. وكانـت لهمـا رئاسـة وحظـوة؛ ومقامـا محفوظـاً في مجالـس الملـوك. ولهمـا في تلمسـان خلـف صالـح؛ ينتحلـون العلـم؛ وقـد وصـل بعضهـم إلى مراتـب التدريـس والفتيـا في النـوازل. تـوفي

---

[1] بغية الرواد، ج: 1، ص: 130.

أبو زيد عبد الرحمن في سنة 743هـ/1342م؛ أما أبو موسى عيسى؛ فقد توفي في سنة 749هـ/1348م.

3 ـ العلامة الشيخ أبو عبد الله محمد بن ابراهيم الأبلي. يطلق عليه اسم المعلم الأصغر. وهو عالم منطقي ورياضي؛ ولد **بتلمسان** في سنة 681هـ/1280م. بينما يعود في أصوله الأولى إلى آبلة بالأندلس. وينتمي إلى بيت نباهة من الجند. إذ كان والده من بين مساعدي السلطان **يغمراسن بن زيان**. فكانت لابنه محمد حظوظ التعلم لدى الشيخين الإمامين: أبي زيد عبد الرحمن، وأبي موسى عيسى؛ في مدرسة تلمسان المسماة باسمهما. ثم أخذ العلم كذلك بمراكش عن أبي العباس أحمد بن البناء. وبعدها رحل إلى العراق؛ أين التقى بجمع من علماء المشرق؛ فأخذ عنهم. ولما عاد من المشرق؛ ولاه أبو حمو موسى الأول قيادة بني راشد. ولكنه كره العمل في الوظائف السلطانية؛ وفضل الانشغال بالعلم؛ ففرّ إلى جبال هسكورة بالأطلس؛ أين أقام عند علي بن محمد بن تروميت. واعتكف هناك على القراءة والتأمل. وكان اعتكافه هذا؛ سبباً في سمو فكره وتفوقه في مجالات العلوم العقلية؛ بحيث بَزَّ كل من عرف في زمانه في هذا الميدان. حتى

أنه أضحى شيخاً ومعلماً لمعظم العلماء في عصره؛ وإذا ما تصفحت تراجم ذلك العصر؛ ستتبين أن جلّ الفقهاء والعلماء ببلاد المغرب وإفريقية أخذوا عنه العلوم العقلية بالخصوص؛ ومنهم: عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيى وغيرهم كثيرون. ومما قاله عبد الرحمن بن خلدون في أستاذه الآبلي: **((أصله من تلمسان؛ وبها نشأ، وقرأ، وكتب التعاليم، وحذق فيها. وأظله الحصار الكبير بتلمسان؛ أعوام المائة السابعة؛ فخرج منها وحج؛ ولقي أعلام المشرق يومئذ؛ فلم يأخذ عنهم؛ لأنه كان مختلطاً بعارض عرض عقله. ثم رجع من المشرق؛ وأفاق، وقرأ المنطق، والأصلين على الشيخ أبي موسى عيسى ابن الإمام... ثم خرج من تلمسان؛ هارباً إلى المغرب؛ لأن سلطانها ـ يومئذ ـ أبو حمو؛ من ولد يغمراسن بن زيان؛ كان يكرهه على التصرف في أعماله، وضبط الجباية بحسبانه؛ ففرّ إلى المغرب، ولحق بمراكش، ولزم العالم الشهير أبا العباس بن البناء))**[1]. توفي العلامة أبو عبد الله الآبلي بفاس في ذي القعدة سنة 757هـ/1356م.

---

[1] **التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص: 21.**

4 ـ أبو زيد عبد الرحيم بن أبي العيش الخزرجي.
هو ولد محمد بن أبي زيد عبد الرحيم بن محمد ابن أبي العيش الخزرجي (يأتي ذكره مع الشعراء في الجزء الثاني). لصاحب الترجمة هذه دراية بالتوثيق والفرائض والحساب والهندسة؛ وله أيضاً خط جميل. تولى الخطابة والإمامة بالجامع الأعظم **بتلمسان**. وقال يحيى بن خلدون: أنه جدّ الفقيه **أبي زكرياء يحيى بن محمد بن عبد الرحيم**؛ صاحب الأشغال في بلاط **أبي حمو الثاني**. وعليه؛ يكون هذا الجد أبو زيد عبد الرحيم؛ عاش في زمن أبي حمو الأول أو ابنه أبي تاشفين الأول.

***

دولـة

أبي تاشفيـن عبـد الرحمـن الأول

ولما قتل **أبو حمو الأول** غدراً؛ بين جلسائه؛ انتقل الحكم إلى ولده **أبي تاشفين عبد الرحمن بن موسى**؛ الذي أسند وزارته إلى قاتل أبيه **هلال القطلاني**. وهنا أصبح للموالي والمصطنعين ـ لأول مرة ـ دوراً خطيراً في دولة **بني زيان**؛ على خلاف ما سبق. لأن **يغمراسن بن زيان** باشر شئون الدولة والجيش بنفسه؛ وكذلك الحال بالنسبة إلى ولده **عثمان**؛ الذي تولى بنفسه شئون الدولة كلها. أما في عهد ولده **محمد أبي زيان** فقد أسند ـ لأول مرة ـ القيادة في الجيش إلى أحد مواليه المسمى **مسامحاً**. ولما حكم **أبو حمو موسى الأول** توسع في الاعتماد على الموالي والمصطنعين؛ فكانت نهايته بيدهم؛ حيث اقتحموا القصر بمساعدة ابنه **أبي تاشفين** وقتلوا السلطان ومن معه من الوزراء والجلساء. حدث ذلك في يوم الأربعاء الثاني والعشرين لجمادى الأولى من سنة 718هـ/1318م.

سلك **أبو تاشفين** نهج أبيه في تجهيز البعوث العسكرية، والاعتماد على الموالي والمصطنعين في قيادة الجيوش. فأظفى على دولته هالة من القوة المصطنعة؛ لا تتناسب مع حقيقة حاله، ولا قدرة دولته. ومع هذا؛ فقد ضيقت جيوشه على **الحفصيين**؛ واستولت على مواقع هامة من أرضهم؛ بل تمكنت من إلحاق الهزيمة بالسلطان **الحفصي أبي يحيى**[1] نفسه، ودخول عاصمة الدولة **تونس** ـ سنة 730هـ/1329م ـ وتنصيب منافسه الأمير **محمد بن أبي بكر (ابن أبي عمران الحفصي)** على سدّة الحكم فيها؛ ثم أقاموا في **تونس** أربعين يوماً؛ وبعدها عادوا أدراجهم.

ويبدو أن ما أنجزه جيش **بني زيان** في **تونس**؛ أثار حساسية السلطان **المريني أبي الحسن**؛ الذي اعتبر دخول جيش **أبي تاشفين** إلى عاصمة الحفصيين؛ بمثابة إنذار بالخطر؛ لأنه ـ كغيره من ملوك **بني مرين** ـ لن يسمحوا بتعاظم قوة الدولة الزيانية؛ إلى الحد الذي يمكن أن تستعصى على الدولة المرينية. ولهذا فقد أخرج من الدرج الذرائع المطلوبة؛

---

[1] حكم الدولة الحفصية ـ من تونس وقسنطينة ـ من سنة 718هـ/1318م إلى سنة 746هـ/1345م.

ورفعها في وجه السلطان **أبي تاشفين**. وأول الذرائع؛ تتمثل في التظاهر بحميته وغيرته على صهره السلطان **الحفصي أبي يحيى**؛ وثاني الذرائع؛ سرعة استثمار ردّ الفعل الصادر عن السلطان **أبي تاشفين** بفعل استفزازه. وبالفعل؛ تم ما خطط له. وسيأتي لا حقاً شرح ذلك، وشرح الكيفية التي هجم خلالها **أبو الحسن** بجيوشه الجرارة على **تلمسان**، وتمكنه من احتلالها ـ لأول مرة في تاريخ المرينيين ـ وقتله للسلطان **أبي تاشفين** يوم الأربعاء 27 أو 28 رمضان من سنة 737هـ/1337م .

ـ العمران والثقافة:

تلك هي خلاصة للوضع السياسي والعسكري أيام السلطان **أبي تاشفين عبد الرحمن الأول**؛ أما إنجازات هذا السلطان في الجوانب العمرانية والحضارية؛ فهي عديدة ومتنوعة؛ واصل بها ما شرع فيه والده أبو حمو الأول. وقد ذكرت إنجازاته العمرانية في بعض المصادر التاريخية؛ مثل كتاب العبر الذي ورد فيه: ((**ونزل** [أبو العباس بن أبي سالم المريني] **على مرحلة من تلمسان؛ بعد أن أغراه ونزمار بن**

عريف – أمير سويد – بتخريب قصور الملك بتلمسان؛ وكانت لا يعبر عن حسنها؛ اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين؛ واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس؛ لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث إليهما السلطان أبو الوليد – صاحب الأندلس – بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس؛ فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين؛ بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله)).[1] ومن بين تلك القصور والمنشآت؛ على سبيل المثال: دار الملك، ودار السرور، و(أبي فهر)، والصهريج..[2]

كما اهتم أيضاً بنشر العلم ورعاية العلماء؛ حيث شيّد – بدوره – مدرسة جديدة[3] عرفت باسم **المدرسة التاشفينية**؛ خصَّصَها للفقيه الشيخ **أبي موسى**

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 297.**

[2] **قال يحيى بن خلدون: ((كان ـ رحمه الله ـ جانحاً للذات، ممتعاً بالنعيم العاجل، مغتبطاً بلهو الدنيا ولعبها؛ ولع ببناء الدور وتحبير القصور، وتشييد المصانع، واغتراس المنتهزهات؛ مستظهراً على ذلك بآلاف عديدة من فعلة أسرى الروم؛ بين: نجارين، وبنائين، وزليجين، وزواقين، وغيره؛ مع حذقه ـ رحمه الله ـ بالاختراع، وبصره في التشكيل والابتداع؛ فخلد آثاراً لم تكن قبله لملك، ولا عرف لها بمشارق الأرض ومغاربها نظير)). بغية الرواد، ج: 1، ص: 216.**

[3] **((وحسن ذلك كله ببنائه المدرسة الجليلة العديمة النظير؛ التي بناها بإزاء الجامع الأعظم)). أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 141.**

عمــران المشــدالي. وأورد **المقــري** أبياتــاً شعريــة؛ قــال أنــه رآهــا مكتوبــة عــلى مجــرى المــاء في تلــك المدرســة التاشفينيــة؛ الــتي وصفهــا قائــلاً: ((**وهي مــن بدائــع الدنيــا**))[1]. وجــاء في تلــك الأبيــات:

أنْظُــرْ بِعَيْنِــكَ بَهْجَــتِي وَسَنَــائي
وَبَدِيــعَ إتْقَــاني وَحُسْــنَ بِنَــائي
وبَديــعَ شَكْلِي وَاعْتَبِــرْ فِيمَا تَــرَى
مِنْ نَشْــأَتِي بَلْ مِنْ تَدَفُّــقِ مَــائِي
جِسْــمٌ لَطِيــفٌ ذَائِــبٌ سَيَلاَنُــهُ
صَافٍ كَــذَوْبِ الفِضَّــةِ البَيْضَــاءِ
قَدْ حَــفَّ بِي أزْهَــارُ وَشْيٍ نمِّقَــتْ
فَغَدَتْ كَمِثْلِ الرَّوْضِ غِــبَّ سَمَــاءِ

ومــن العلمــاء الوافديــن عــلى تلمســان؛ ووجــدوا كــل إكــرام وترحــاب مــن قبــل السلطــان أبي تاشفيــن: الشيــخ الفقيــه **أبي العبــاس أحمــد بــن عمــران البجــائي**.

كمــا نقــل صاحــب نفــح الطيــب عــن جــدّه؛ حديثــاً حــول مجالــس العلــم المنعقــدة في بــلاط **أبي تاشفيــن**. ممــا يفيــد أن هــذا السلطــان يعتــني بالعلــم والعلمــاء، ويعقــد

[1] **نفح الطيب، ج: 6، ص: 47.**

مجالس لهم في بلاطه؛ يحضرها بنفسه؛ حيث تدور في تلك المجالس حوارات ومناقشات علمية في مختلف الفنون[1].

ومن المبتكرات الجميلة، والحيل الهندسية – في ذلك العصر – امتلاك أبي تاشفين في بلاطه لشجرة من الفضة؛ ثُبِّتت على أغصانها عددٌ من الطيور الناطقة؛ وثُبِّت في أعلى الشجرة صقرٌ؛ ولهذه الشجرة منفاخ موجود في أصلها؛ فإذا نفخ فيه، ووصل الريح إلى موضع الطيور؛ صوتت بمختلف الأصوات؛ حسب صِنْفِها؛ أما إذا وصل الريح إلى موضع الصقر؛ فإنه يصوت بمنطقه؛ فتصمت أصوات الطيور كلها وتنقطع[2]. وفيما يلي أسماء بعض علماء الدين والمتصوفة الذين عاشوا في تلمسان أيام **أبي تاشفين**؛ على أن يترك الأدباء والشعراء؛ للأجزاء اللاحقة.

1 – الشيخ أبو العُلَى المديوني. يعدُّ من كبار الأولياء الصالحين. يهرع إليه الناس المرضى طلباً للرقية من أجل الشفاء. توفي رحمه الله في حدود 735هـ/1234م؛ ودفن بمسجد الرحمة في العباد.

---

[1] **أنظر خبر ذلك في نفح الطيب، ج: 5، ص ص: 218 - 219.**

[2] **أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 141.**

2 ـ الفقيه الحافظ أبو موسى عمران المشدالي. أحد أئمة الفقه المالكي، ومن العلماء الأخيار الصلحاء الأبرار. أصله من زواوة بجاية؛ وفد إلى تلمسان في عهد السلطان أبي تاشفين الأول؛ فرحب به، وأكرمه. كان قد أخذ ببجاية عن الشيخ أبي علي ناصر الدين، وغيره. وبالمقابل أخذ عنه الفقيه أبو العباس أحمد بن أحمد المشوش، والفقيه أبو البركات الباروني، والفقيه أبو عثمان العقباني وآخرون. قال فيه يحيى بن خلدون: ((**ولم يكن في معاصريه أحد مثله علماً بمذهب مالك، وحفظاً لأقوال أصحابه، وعرفاناً بنوازل الأحكام، وصواباً في الفتيا؛ ولقد بذّ جميع فقهاء المغرب في مسألة الركاب المموه بالذهب؛ غرابة نقل، واستدلال عقل**))[1]. أما وفاته؛ فقد وقعت في سنة 745هـ/1344م؛ أثناء عودته من مراكش.

3 ـ الشيخ الفقيه العلامة أبو عبد الله محمد بن عبد النور الصنهاجي. هو أصلاً من **ندرومة** التابعة لتلمسان؛ ويعتبر من أئمة الفقه المالكي المؤهلين للفتيا؛ ومن رجال الدين المتين. درس على

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 131.**

ابـني الإمــام في مدرستهمــا بتلمســان؛ ولمــا اشتــد ساعــده غــدا مــن أصحابهمــا. ولي قضــاء بلــده؛ فاتصــف بالسيــرة الحميــدة والعــدل، وحســن الخلــق. ولمــا استــولى أبــو الحســن المريــني عــلى **تلمســان**، وقَتَــل سلطانهــا أبــا تاشفيــن؛ ضَــمَّ إلى مجلســه جملــة مــن علمائهــا؛ مــن بينهــم محمــد عبــد النــور هــذا؛ بتوصيــة مــن ابــني الإمــام. ولمــا قــرَّرَ السلطــان المريــني الزَّحْــف إلى إفريقيــة؛ أصطحــب معــه مجموعــة مــن كبــار العلمــاء؛ مــن بينهــم صاحــب هــذه الترجمــة؛ الــذي عَيَّنَــه أبــو الحســن قاضيــاً للعسكــر في حملتــه تلــك. وكانــت وفاتــه بالطاعــون في تونــس سنــة 749هــ/1348م.

4 ـ الفقيــه أبــو الحســن عــلي بــن عبــد النــور الصنهــاجي. وهــو أخــو أبي الحســن. عــرف بعلمــه وفضلــه. واتصــف بالسماحــة والسخــاء والفضــل. كــان نائبــاً عــن أخيــه في ولايــة القضــاء؛ ثــم استقــل بتلــك المرتبــة بعــد مــوت أخيــه. كمــا تــولى القضــاء أيضــاً في بعــض حواضــر المغــرب. فكــان عــدلاً ومواضبــاً عــلى مجالــس الملــوك. قــال فيــه عبــد الرحمــن بــن خلــدون: ((**خلــف** [أبــو عبــد اللــه] **بتلمســان أخــاه عليــاً؛ رفيقــه في دروس ابــن الإمــام؛ إلاّ أنــه أقصــر باعــاً منــه في**

الفقــه))[1]. استخدمــة أبــو عنــان عــلى قضــاء مكناســة بعــد أن ضمَّــه إليــه حينمــا خــرج عــلى أبيــه. ولكنــه سُــرِّح مــن قبــل الوزيــر عمــر بــن عبــد اللــه المتغلــب عــلى الدولــة بعــد مــوت أبي عنــان. فقــرّر الرحيــل إلى الحــج؛ حيــث اصطحــب معــه أهلــه وأولاده. ولكنــه مــات لمــا أشــرف عــلى البيــت العتيــق. قــال يحــيى بــن خلــدون: ((**أخذتــه حالــة صوفيــة؛ فصعــق مغشيــاً عليــه؛ وطيــف بــه ــ عــلى تلــك الحــال ــ طــواف القــدوم؛ فقــضى نحبــه أثنــاءه))**[2]. فدفــن بمكــة المكرمــة. وقــال يحــيى بــن خلــدون: ((**ولــه الآن بمصــر ولــد مــن أعــلام فقهــاء المالكيــة هــو أبــو عبــد الله محمــد))**[3].

5 ــ الفقيــه أبــو الحســن عــلي بــن منصــور بــن عــلي ابــن هديــة. وهــو ابــن أبي عــلي منصــور وزيــر أبي حمــو الأول. تــولى هــو الآخــر الخطابــة بالجامــع الأعظــم أيــام أبي حمــو مــوسى الثــاني ابــن يوســف. فســار عــلى نهــج سلفــه الصالــح؛ فالتــزم بالديــن وتشبــث بالعلــم وتحــلى بالفضــل والنزاهــة ورفعــة الهمــة. فكــان صــدراً مــن صــدور الدرايــة والتدريــس والخلــق العظيــم.

---

[1] **كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً، ص: 46.**

[2] **أما عبد الرحمن بن خلدون؛ فقال: ((فلمّا قدم إلى مكة؛ وكان به بقية مرض؛ هلك في طواف القدوم)). التعريف بابن خلدون، ص: 47.**

[3] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 122.**

لايعــرف تاريــخ وفاتــه. ويبــدو أنــه تــوفي بعــد وفــاة يحــيى بــن خلــدون الــذي تــوفي في سنــة 781هــ.

6 ـ أبــو عبــد اللــه محمــد بــن عــلي بــن عبــد النــور الصنهــاجي: كــان رفقــة أبيــه وأهلــه في رحلــة الحــج الــتي هلــك فيهــا أثنــاء طــواف القــدوم. وقبــل مــوت أبيــه؛ أوصى أميــر الحــج أن يوصــل ابنــه محمــد إلى أميــر مصــر يلبغــا بــن عبــد اللــه الخاصــكي الناصــري. وفي هــذا يقــول عبــد الرحمــن بــن خلــدون: ((**فأحســن خلافتــه فيــه، وولاه مــن وظائــف الفقهــاء؛ مــا ســد بــه خَلَّتَــه، وصــان عــن ســؤال النــاس وجهــه. وكــان لــه ـ عفــا اللــه عنــه ـ كلــف بعمــل الكيميــاء؛ تابعــاً لمــن غلــط في ذلــك مــن أمثالــه؛ فلــم يــزل يعــاني مــن ذلــك مــا يورِّطــه مــع النــاس في دينــه وعرضــه؛ إلى أن دعتــه الضــرورة للترحــل عــن مصــر؛ ولحــق ببغــداد؛ ونالــه مثــل ذلــك؛ فلحــق بماردیــن؛ واستقــرَّ عنــد صاحبهــا، وأحســن جــواره؛ إلى أن بلغنــا ، بعــد التسعيــن ـ أنــه هلــك هنالــك حتــف أنفــه. والبقــاء للــه وحــده**))[1].

7 ـ أحمــد المشــدالي؛ وهــو أخــو أبي مــوسى عمــران السابــق الذكــر. ســار عــلى نهــج أخيــه؛ في العلــم،

---

[1] **التعريف بابن خلدون، ص: 47.**

والاستتـــارة، وحفــظ الروايـــة، والديانـــة، والفضــل. تــولى التدريـــس بتلمســـان بعــد وفـــاة أخيـــه؛ فنفــع وأفـــاد. لا يعــرف تاريـــخ وفاتـــه.

8 ـ الفقيـــه القـــاضي أبـــو محمـــد عبـــد الحـــق بـــن ياسيـــن ابـــن عـــلي المليـــتي المسنـــاوي. زول دراستـــه العلميـــة إلى أن تفقـــه في بـــلاد المشـــرق؛ فحـــج ثـــم رجـــع إلى بـــلاد المغـــرب؛ فقعـــد للتدريـــح أيـــن أخـــذ عنـــه أبـــو الحســـن الصغيـــر، والقـــاضي ابـــن أبي يحـــيى. ودخـــل إلى تلمســـان، وهـــو في كامـــل شهرتـــه بالعلـــم والديـــن والـــورع؛ فـــولي بهـــا خطـــة القضـــاء. وقـــال عنـــه يحـــيى بـــن خلـــدون: **((فلـــم يعـــرض لأخـــذ الجرايـــة عليـــه. وفي أيامـــه قُتِـــل رَجـــلٌ حَـــداً. وكـــان يخـــدم نفســـه بحمـــل خبـــزه إلى الفـــرن، وشـــراء نفقتـــه مـــن الســـوق، ومـــات في أيـــام السلطـــان أبي تاشفيـــن، فاحتفـــل النـــاس في حضـــور جنازتـــه، وحضرهـــا السلطـــان وقبـــره عنـــد بـــاب زيـــزي، مـــن داخـــل تلمســـان، حرسهـــا الله، رحمـــة الله عليـــه))**[1].

***

---

[1] **بغيـة الرواد، ج: 1، ص: 129.**

الدور الثاني

دولة الأخوين: أبي سعيد وأبي ثابت

تولي الحكم في هذا الدور: السلطان **أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن**؛ وشاركه في الحكم أخوه **أبو ثابت الزعيم**. كما أن هذا الدور لا يمثل إلاّ فترة قصيرة من حياة الدولة **العبد الوادية (الزيانية)**. وهذه الفترة؛ لا تتجاوز أربع سنوات (من 749هـ/1348م إلى 753هـ/1352م). ومع هذا؛ فهي جديرة بحملها اسم "الدور"؛ بسبب اختلافه عن الدور الأول؛ في كونه بدأ بعد فترة غياب دامت تسع سنين؛ انمحت خلالها دولة **بني عبد الواد** من الخارطة السياسية لبلاد **المغرب** الإسلامي تماماً.

ثم أن فرع الأسرة **العبد الوادية** ـ الذي تولى الحكم في هذا الدور ـ لا يتصل تسلسلياً بالسلطان **عثمان بن يغمراسن بن زيان**، كما هو الحال في أصحاب الدور السابق (من بني **عثمان بن يغمراسن**). بل ينتمي حكام الدور الثاني هذا إلى

يحيى بن يغمراسن ـ الأخ الأكبر **لعثمان** ـ وولي العهد قبل مماته.

كما يختلف هذا الدور الثاني أيضاً عن الدور الثالث الموالي؛ في أن دولة **بني عبد الواد**؛ قد انمحت كذلك من الخارطة السياسية **للمغرب الإسلامي** مدة سبع سنوات. بالإضافة إلى أن شكل النظام في الدور الثالث يختلف كثيراً عما كان عليه خلال الدور الثاني؛ إذ يتميز بالأبهة، ويتصف بالمراسيم السلطانية الواضحة؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى؛ يُلاحظ أن سلاطين الدور الثالث؛ لا يتتحدرون عن فرع **أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن** مباشرة؛ بل ينتمون إلى سلسلة أخيه **يوسف بن عبد الرحمن**.

تولى الحكم في هذا الدور الثاني؛ ملك واحد فقط؛ وهو السلطان **أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن**؛ الذي وصل إلى سدّة الملك سنة 749هـ/1348م؛ جراء هزيمة **أبي الحسن** في **القيروان**؛ حيث اجتمع مع **أبي سعيد** ـ المتواجد حينها ضمن الجيش المريني ـ جماعة من **بني عبد الواد**، وأحياء من **زناتة** كـ: **بني توجين ومغراوة وبني**

راشـــد. حينمـــا تحالفـــوا جميعـــاً مـــع **أعـــراب إفريقيـــة** عـــلى حـــرب **أبي الحســـن**، وكســـر شوكتـــه، وطـــرد جيشـــه مـــن **إفريقيـــة**. ولمـــا هزمـــوا السلطـــان المذكـــور؛ اتجهـــوا إلى **تونـــس**؛ أيـــن التـــأم جمـــع **بـــني عبـــد الـــواد**، ثـــم انضـــم إليهـــم مـــن ناصرهـــم مـــن **الأعـــراب**، وخرجـــوا إلى الضاحيـــة؛ فاتفقـــوا عـــلى تقديـــم الأميـــر **عثمـــان بـــن عبـــد الرحمـــن بـــن يحـــيى بـــن يغمراســـن**، ومبايعتـــه ملكـــاً عـــلى **بـــني عبـــد الـــواد**.[1] وإثـــر عقـــد البيعـــة؛ انطلقـــوا نحـــو **تلمســـان**؛ لاستعـــادة حاضـــرة ملكهـــم. وســـار معهـــم بقيـــة **زناتـــة**؛ فلمـــا وصلـــوا إلى **شلـــف**؛ اتجـــه كـــل فريـــق إلى موطنـــه؛ بينمـــا واصـــل **بنـــو عبـــد الـــواد** زحفهـــم نحـــو موطنهـــم **تلمســـان**. وكانـــت هـــذه المدينـــة ــ خـــلال تلـــك الأحـــداث ــ في قبضـــة **عثمـــان بـــن جـــرار بـــن يعـــلى بـــن تيدكســـن بـــن طاعـــة اللـــه**؛ وهـــو ينتـــمي إلى فـــرع مـــن فـــروع **بـــني عبـــد الـــواد**؛ لـــم يحـــظ أعضـــاؤه ــ في أول

---

[1] **((وخلص الملأ منهم نجياً في شأن أمرهم؛ ومن يقدمون عليهم؛ فأصفقوا ـ بعد الشورى ـ على عثمان بن عبدالرحمن، واجتمعوا عليه؛ لعهده بهم يومئذ؛ وقد خرجوا به إلى الصحراء، وأجلسوه ـ بباب مصلى العيد من تونس ـ على درقة. ثم ازدحموا عليه ـ بحيث توارى شخصه عن الناس ـ يسلمون عليه بالإمارة، ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة؛ حتى استكملوا جميعاً؛ ثم انطلقوا به إلى رجالهم)). العبر، مج: 7، ص ص: 239 ـ 240.**

أمرهم ـ بالاحترام المطلوب؛ من قبل إخوانهم من **بني زيان بن محمد بن زكدان**. وظلوا على حالهم؛ بعد قيام الدولة **العبد الوادية**. فكانوا يشعرون ـ نتيجة لذلك ـ بالتهميش والاقصاء. أما **عثمان بن جرار** هذا؛ فقد التحق بخدمة **بني مرين** في عهد **أبي سعيد عثمان**؛ والد **أبي الحسن**؛ إذ لجأ إليه هارباً من سجن **أبي تاشفين**؛ الذي سخط عليه بسبب اتهامه بالتطلع للرئاسة، والتطاول في طموحه. فأسند إليه السلطان المريني قيادة ركب الحج. وبقي على ذلك؛ إلى أن حلّ عهد **أبي الحسن**؛ وقرر غزو **إفريقية**؛ فرافقه في حملته**.** ولكنه طلب من السلطان العودة؛ حينما كان **بالقيروان**؛ فأذن له؛ فعاد إلى **تلمسان**؛ أين اتصل **بأبي عنان**؛ فأوهمه بقدراته التنجيمية، وعِلْمِه بالحدثان. وأخبره أيضاً بنكبة أبيه قبل أن يسمع بها. كما أنه هو الذي أغراه بالوثوب على العرش؛ قبل أن يسبقه غيره من الأسرة المالكة؛ ثم هوّن عليه شأن أبيه؛ وأوهمه بنهايته؛ بل بموته. لهذا؛ أراحت أقواله **أبا عنان**؛ فأودعه ثقته؛ وقرّر تنصيبه والياً على **تلمسان** من قبله. اسرتضاء لعصبية **بني عبد الواد** من جهة؛

ومحاولة لتقسيمها إلى شقين متنافسين؛ فتضعف عصبيتهم، ويزول خطرهم.

وبوصول **أبي عنان** إلى هذا القرار؛ نصب **ابن جرار** والياً على المدينة وأحوازها، وأسكنه في القصر الملكي القديم؛ ثم نهض إلى **فاس**؛ حاضرة **بني مرين**، ومقر ملكهم. ولكن **عثمان بن جرار** خيب ظنّه؛ إذ نقض اتفاقه معه بمجرد خروجه من **تلمسان** – في سنة 749هـ/1348م – إذ أعلن عن استبداده بالحكم، وجاهر بالدعوة لنفسه؛ وأعاد **لبني عبد الواد** دولتهم؛ ولكن في فرع أخر غير **بني زيان**[1]. إلاّ أنه لم ينعم طويلاً بذلك؛ حيث انقضت عليه صقور **بني زيان**؛ بعد أشهر قلائل؛ قادمين من **إفريقية**؛ مع أنصارهم وحلفائهم؛ إثر مشاركتهم في نكبة **أبي الحسن** وهزيمته. ولما سمع سكان مدينة **تلمسان** باقتراب **بني زيان** وأنصارهم نحوهم؛ ثاروا **بعثمان بن جرار**؛ الذي استأمن السلطان **الزياني عثمان بن عبد الرحمن**. فقبل توبته عن مضض؛

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما فصل [أبو عنان]؛ دعا عثمان لنفسه، وانتزى على كرسيّه، واتخذ الآلة، وأعاد من ملك بني عبد الواد رسما لم يكن لآل جرار؛ واستبد أشهراً قلائل؛ إلى أن خلص إليه من آل زيان؛ من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن؛ من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد إلى نصابه)). العبر، مج: 7، ص: 238.

ثـم اعتقلـه عنـد دخولـه **تلمسـان**، والجلـوس عـلى عـرش أجـداده في آخـر جمـادى الآخـرة مـن سنـة 749هـ/1348م. وزج بـه في المطبـق إلى أن مـات في شهـر رمضـان مـن السنـة نفسهـا.

وبدخـول **بـني زيـان** إلى المدينـة؛ انتصـب **أبـو سعيـد عثمـان** ملكـاً عليهـا؛ وشاركـه في الحكـم أخـوه **أبـو ثابـت الزعيـم**[1]؛ فبـادر ـ مـن فـوره ـ إلى تنظيـم شئـون الدولـة: ((**فاقتعـد الكـرسي، وأصـدر أوامـره، واستـوزر واستكتـب، وعقـد لأخيـه أبي ثابـت الزعيـم عـلى مـا وراء بابـه؛ مـن شئـون ملكهمـا، وعـلى القبيـل والحـروب، واقتصـر هـو عـلى ألقـاب الملـك وأسمائـه؛ ولـزم الدعـة**))[2]. وواضـح هنـا؛ أن **أبـا عنـان** غـض الطـرف عـن كـل مـا جـرى في **تلمسـان**؛ لأنـه انشغـل بمـا هـو أهـم؛ مـن ذلـك:

ـ مغالبـة المنافسيـن مـن الأبنـاء والأحفـاد عـلى عـرش **بـني مريـن**.

---

[1] **((واستشعر كل واحد منهما زي الملك، ودان له الناس بالبيعة؛ ومضت في الأحكام والجبايات أوامره؛ إلاّ أن السرير والمنبر والدينار للسلطان أبي سعيد، والجيوش والألوية والحروب للسلطان أبي ثابت؛ مع تعظيمه لأخيه وبروره به)). بغية الرواد ، ج: 1، ص: 241.**

[2] **العبر، مج: 7، ص ص: 243 -244.**

ـ المحافظة على بقاء الدولة **المرينية** وحمايتها من الأخطار التي تترصد بها.
ـ السعي لمنع والده **أبي الحسن** من العودة إلى سدّة الحكم بأي ثمن كان.

وعليه؛ فقد اضطر **أبو عنان** إلى عقد اتفاق مع السلطان **الزياني عثمان بن عبد الرحمن**؛ بغرض التصدي لوالده **أبي الحسن** ومنع رجوعه إلى **فاس**. وبالفعل؛ فقد بعث إلى السلطان الزياني إعانات مادية، ومدداً بشرياً؛ من **فاس** خلال فترات متتابعة؛ لمواجهة أبيه وأخيه **الناصر** ومن معهما. فتولى **أبو ثابت الزعيم** ـ صاحب الجيش والحرب بدولة **بني زيان** ـ قيادة الجميع؛ حيث اشتبك أولاً مع **الناصر بن أبي الحسن** وأنصاره؛ ونال منهم جميعاً. ولما قدم **أبو الحسن** مرفوقاً بأحياء من: **الثعالبة، ومليكش، وسويد**، وفئة من **توجين**؛ بالإضافة إلى **الناصر ابنه**؛ الذي التحق بأبيه مع جمع من أحياء **زناتة والأعراب**؛ وانتهت المعركة أيضاً بهزيمة **أبي الحسن** ومن معه، وقتل **ابنه الناصر**؛ إثر جراح ألمت به. كما قبض على بناته؛ فتولى **أبو ثابت الزعيم** بإرسالهن معززات

مكرمات إلى **أبي عنان بفاس**. أما السلطان **أبو الحسن**؛ فقد هرب به **ونزمار** شيخ **سويد** إلى **سجلماسة**؛ أين استؤنفت مآسيه، وفراره من مكان إلى آخر؛ حتى استقرت به الأحوال عند شيخ **هنتاتة عبد العزيز بن محمد بن علي**؛ أين بقي في ذلك الجبل إلى أن حلّ أجله بعد مرض عضال.

وبموت السلطان **أبي الحسن**؛ وفراغ الساحة من جميع المنافسين **أمام أبي عنان**؛ حينها؛ أحس أنه لم يعد عرضة للأخطار وتقلبات الأيام، وشعر برسوخ قدميه على الأرض التي يقف عليها، وأيقن بقوة فعالة تحمي ظهره.. قوة يمثلها حجم الجيوش التي تشد أزره. حينئذ؛ أدرك أنه لم يعد في حاجة إلى **بني زيان** في **تلمسان**، ولا لغيرهم ممن وقفوا حاجزاً لمنع والده من العودة إلى **فاس**. عندئذ شمّر على ساعديه، وهيأ نفسه للانقضاض عليهم في عقر دارهم[1]. ولكنه؛ بَحَثَ ـ كعادته ـ عن ذريعة تخول له إعلان الحرب على جيرانه في **تلمسان**؛ فلم يجد

[1] ((وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد، لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين [وسبعمائة]؛ نادى بالعطاء، وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر، وارتحل يريد تلمسان)). العبر، مج: 7، ص: 598.

أمامه سوى قضية **مغراوة**؛ القبيلة المتمردة ــ التابعة لسلطان الدولة الزيانية ــ كان **أبو ثابت** قد ضيق عليهم، واكتسح بلادهم؛ فشفع فيهم السلطان **أبو عنان** ــ في الوقت المناسب ــ بعد أن تغاضى عنهم طوال الفترة التي احتاج خلالها إلى **بني زيان**. ولما تراخى السلطان الزياني عن الاستجابة لمطلبه؛ وجدها حجة لغزو بلاده. وتحقق ما خطط له بالفعل. فأعلن عن التعبئة العامة، واستنفر جيوشه وقبائله التي لا تحصى؛ وبادر بالزحف حثيثاً نحو **تلمسان**.

ــ غزو ابي عنان لتلمسان:

وهكذا؛ لم يرتدع **أبو عنان** بمصير والده **أبي الحسن**؛ وما جرى له من هزيمة وانهيار لسلطانه، وتلاشي أحلامه؛ بل تحركت في داخله الجرثومة المتوارثة في أسرته؛ والتي تدفعهم دوماً للمزيد من التوسع على حساب جيرانهم. وعلى هذا؛ فبمجرد وصول الخبر بوفاة والده، والاطمئنان ــ حينما دفنه بنفسه ــ بادر من فوره سنة 753هـ/1352م إلى الزحف شرقاً؛ نحو **تلمسان** أولاً؛ ثم الانطلاق إلى

إفريقية. ويبدو أنه لم يجد صعوبة كبيرة؛ في إسقاط دولة **بني زيان**؛ نظراً لحداثة عهدها الجديد؛ ـ إذ مرّ على استرجاعها أربع سنوات فقط ـ فلم يستكمل أصحابها بناء مؤسساتها بالشكل المطلوب. لذا؛ فقد خسر سلطان **بني زيان** معاركه المتوالية مع **أبي عنان** سنة 753هـ/1352م؛ بل قتل هو وأخوه **أبو ثابت**؛ واحتل **بنو مرين** ـ من جديد ـ **تلمسان**؛ وعاد **بنو عبد الواد** إلى حياة التشرّد في الأقطار؛ غرباً وشرقاً. ولم يتوقف زحف **أبي عنان** عند حاضرة الدولة الزيانية؛ بل واصل توسعه نحو الشرق؛ حيث وصلت جيوشه إلى **بجاية**؛ التي فتحها صلحاً في السنة المذكورة[1]. وأكمل زحفه نحو **تونس**؛ ولكنه نكب كما نكب والده من قبل؛ وعاد؛ فانكمش ضمن حدود **تلمسان** التي ضاعت منه أيضاً؛ كما ضاعت من يد أبيه من قبل. وسيأتي لاحقاً شرح ذلك.

---

[1] **((وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط؛ وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية)). العبر، مج: 7، ص: 601.**

ــ العمـران والثقافـة:

لــم يتســن للأخويــن: **أبي سعيــد وأبي ثابــت** ــ في وقتهمــا ــ الإهتمــام بالقضايــا العمرانيــة أو الثقافيــة؛ إذ كــان وقتهمــا كلــه مشحونــاً بالحــروب والفتــن. كمــا أن فتــرة حكمهمــا كانــت قصيــرة جــداً؛ لــم تتســع للبنــاء، وتشجيــع العلمــاء عــلى الاستقــرار بتلمســان. ومــع هــذا؛ فلــم تخــل **تلمســان** في ذلــك الوقــت مــن وجــود علمــاء مــن أبنائهــا. وعليــه فهــذه أسمــاء بعضهــم؛ ممــن اهتــم بالعلــوم الدينيــة أو العقليــة. عــلى أن يتــرك الحديــث عــن الشعــراء والأدبــاء للأجــزاء المواليــة مــن هــذا الكتــاب.

1 ــ الفقيــه أبــو العبــاس أحمــد بــن محمــد مــرزوق.

هــو ابــن أبي عبــد اللــه محمــد بــن مــرزوق الــذي دفــن بقــرب يغمراســن بــن زيــان سنــة 681هـ. وقــد ولــد ابنــه أبــو العبــاس في 2 محــرم مــن سنــة وفــاة والــده؛ أي في عــام 681هـ. تعلــم في البدايــة ببلــده تلمســان؛ أيــن أخــذ العلــم عــن الفقيهيــن العالميــن الأخويــن: أبي زيــد عبــد الرحمــن وأبي مــوسى عيــسى ابــني الإمــام الخطيــب أبي عبــد الله محمــد بــن عبــد الله ابــن الشهيــر باســم الإمــام؛ وهمــا في ذلــك الوقــت قمــة العلــم في تلمســان. وبعدهمــا قــرأ أيضــاً عــلى الخطيــب أبي محمــد عبــد الله

ابن عبد الواحد المجاصي البكاء، والفقيه القاضي أبي عبد الله محمد بن أحمد بن علي بن أبي عمرو التميمي. أما في مدينة فاس فقد أخذ عن الشيخ الولي يوسف بن يعقوب بن علي الصنهاجي؛ وأخذ الفقه عن أبي الحسن الصغير، ثم الفقيه أبي محمد خلف الله، ثم أبي إسحاق إبراهيم القاري، ثم الفقيه أبي محمد عبد المهيمن بن محمد بن عبد المهيمن الحضرمي ثم الفقيه أبي عمران الزريهني، ثم الفقيه أبي عبد الله المليلي، ثم الفقيه أبي عبد الله بن عبد الرازق. وكان أبو العباس بن مرزوق هذا من أهل الصلاح والورع والزهد والتقى. رحل إلى الحج؛ حيث جاور رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة؛ فمات أثناء تأدية مناسك الحج بمكة في عام 741هـ/1340م؛ ودفن بمقبرة المعلى.

2 ـ **الفقيه أبو الحسن علي بن أحمد** المعروف **بالفحام.** من أهل تلمسان؛ له خبرة كبيرة بعلم الهندسة الذي يسمى آنذاك: علم الحيل". وقال عنه يحيى بن خلدون: ((**أعرف أهل زماننا بفنون التعاليم؛ سبط سلف صالح؛ ظهر على يديه من الأعمال الهندسية "المنجانة" المشهورة بالمغرب؛ فأثابه عنها ملوكه بألف من الذهب مقسطة على عمال**

بلادهم في كل سنة))[1]. ويبدو أن يحيى بن خلدون تجنب ذكر اسم الملك أو الملوك الذين منحوا **ابن الفحام** تلك الجائزة المالية الثمينة. والراجح – حسب بعض النصوص – أن ذلك الملك هو **أبو عنان المريني**. الذي اكتشف عبقرية **ابن الفحام**؛ أيام وجوده بتلمسان. حيث شجعه على استكمال اختراعاته. لذا فقد اخترع أول ساعة مائية مسماة بـ"**المنقانة**"؛ وذلك في يوم 14 جمادى الأولى سنة 758هـ/1357م. وفي هذه السنة كان **أبو عنان** هو سيد **تلمسان**؛ بعد أن انتزعها من بني زيان في عام 753هـ/1352م. ولم يستعدها **أبو حمو موسى الثاني** إلاّ في سنة 760هـ/1358م. ويبدو أن أبا حمو وجد ساعة المنجانة في بلاط تلمسان؛ بعد دخوله هذه المدينة عنوة، وهزيمة بني مرين. وسيأتي الحديث عن هذه الساعة في الأجزاء الخاصة بالشعر.

3 – الفقيه الصالح أبو الحسن علي بن محمد بن زاغو. وهو من كبار أولياء تلمسان المشهورين. ترك خلفا له في هذا البلد؛ وصفهم يحيى بن

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 119.**

خلــدون بقولــه: ((**أهــل عدالــة وثقــة؛ أخيــار، دينــاً وعلمــاً؛ بــارك الله فيهــم**))[1]. تاريــخ وفاتــه غيــر معــروف.

***

---

[1] **بغيـة الـرواد، ج: 1، ص: 121.**

الدور الثالث

دولة أبي حمو موسى الثاني

بدأ هذا الدور بعودة دولة **بني عبد الواد (الزيانية)**؛ وإعلان قيامها — من جديد في عاصمتها التقليدية **تلمسان** سنة 760هـ/1358م — على يد **السلطان أبي حمو موسى الثاني ابن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن:** وهذا الدور؛ هو دور الأبهة والسلطان المطلق. تولى الحكم فيه ملك واحد فقط؛ **هو أبو حمو موسى الثاني**، الذي حكم من عام 760هـ/1358م إلى سنة 791هـ/1389م (سنة وفاته). كما يعتبر هذا الدور؛ بمثابة الذروة من حيث النظم: السياسية، والاجتماعية، والدينية والثقافية..الخ؛ وكذا الحال بالنسبة للسيادة المطلقة؛ التي عرفتها الدولة في هذه الفترة.

ومن الواضح أن السلطان **أبا حمو الثاني**؛ بذل خلال حكمه طاقة جبارة كي يصل بدولته إلى مصاف الدول المحترمة؛ بل حاول أن يجعل منها مناراً للعلم والأدب والفن؛ يسطع — بشعاعه — على **المغرب**

الإسلامي كله. ولو لم تخنه الأيام والأصحاب؛ لوصل بدولته إلى مراتب في منتهى الرقي والازدهار؛ ولكن عدم استقرار الأوضاع السياسية، وتفاقم الأحوال الأمنية من سيئ إلى أسوأ؛ حالا دون تحقيق أهدافه النبيلة. ولو حظي هذا السلطان بشيء ــ ولو يسير ــ من السلم والأمان؛ لَتَمَّ له ما تمناه. لأنه يتمتع بكل الصفات المحققة للنجاح؛ نظراً لما يتحلى به من علم وأدب ومواهب قيادية، وما يتصف به من حزم ثابت، وخلق سليم، وطباع خيرة، وما لديه من طموح جامح، وحوافز نشطة تؤهله للنجاح في مهامه كلها. ولكن: ((**ما كل ما يتمنى المرء يدركه**)). إذ كانت أيام حكم هذا السلطان حافلة بالحروب والاضطرابات؛ التي فرضت عليه، وألزمته الدفاع عن عرشه ومصيره.

فهو من جهة؛ يحارب الدول المعادية له، ومن جهة أخرى يقاتل القبائل المتمردة عن سلطانه؛ كما يسعى لإخضاع العمالات الخارجة عن طوعة أيام المحنة، بالإضافة إلى أنه كان يتصدى للفتنة التي أشعلها **ابن** عمه **أبو زيان بن أبي سعيد**. وفي الأخير؛ عمل على معالجة عقوق ابنه وولي عهده **أبي تاشفين عبد الرحمن الثاني.** وكانت

نهاية **أبي حمو موسى الثاني** بواسطة بني مرين؛ خلال معركة دارت بينه وبينهم؛ ـ هم وحليفهم ابنه العاق **أبي تاشفين** ـ في موضع يسمى **الغيران** في **جبل بني ورنيد** المطلّ على **تلمسان**؛ وذلك في سنة 791هـ/1389م.

وقصة وصول **أبي حمو موسى الثاني** إلى سدة الحكم **بتلمسان**؛ يمكن تلخيصها كالتالي: ظهر هذا السلطان المنتظر ـ لأول مرة ـ في **تونس** بين جموع **بني عبد الواد** النازحين إلى تلك الدّيار؛ هرباً من بطش **أبي عنان**. وتقول بعض الروايات أنه كان ـ في عهد عمه السلطان **أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن** ـ مقيماً مع أبيه في **ندرومة**[1]؛ بعيداً عن بلاط الدولة، وزهداً في مراتبها، وتجاهلاً لشئون السياسة. ولمّا سقطت الدولة، وقتل عمّه السلطان **أبو سعيد**؛ ظهر فجأة مع عمه الثاني **أبي ثابت** في **الجزائر**؛ أين يكون قد اتجه معه نحو الشرق[2]؛

---

[1] **بينما يقول عبد الرحمن بن خلدون أنهما بتلمسان: ((كان يوسف بن عبد الرحمن هذا في إيالة أخيه السلطان أبي سعيد بتلمسان؛ هو وولده أبو حمو موسى؛ وكان متكاسلاً عن مراتب الظهور، متجافياً عن التهالك في طلب العز، جانحاً إلى السكون ومذاهب أهل الخير)). العبر، مج: 7، ص: 254.**

[2] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 246. ج: 2، ص ص: 49 - 50. وزهر البستان في دولة بني زيان، ورقة: 5 و. والعبر، مج: 7، ص: 254.**

حيث قبض على عمه في جهات **بجاية**. وهنا تتضارب الروايات حول دور **أبي حمو**[1].

المهم؛ أنه ظهر في **تونس** سنة 753هـ/1352؛[2] بين من لجأ إليها من **بني عبد الواد**. وهناك عمل جاهداً – طوال خمس سنين – على تهيئة الظروف لاستعادة ملك أجداده. وكان عليه – لتحقيق حلمه – أن يوفر عوامل عديدة؛ منها:

– إيجاد أنصار وأتباع للوقوف معه في حربه ضد بني مرين.

– ثم إقناع السلطان الحفصي بتقديم العون له من أجل الوصول إلى غرضه.

---

[1] انفرد يحيى بن خلدون بسرد حكاية افتداء أبي حمو لعمه بنفسه؛ مفادها أنهم قبضوا عليهم بالقرب من بجاية؛ فادعى أنه السلطان؛ خوفاً عليه من نقمة العدو؛ وتحمل عنه الخطر المحدق به. وهذه القصة يمكن الرجوع إليها في بغية الرواد، ج: 1، ص ص: 246 -247. بينما تجاهل أخوه عبد الرحمن هذه الحكاية؛ وقال: ((ولما تقبض على أبي ثابت بوطن بجاية؛ أغفل أمر أبي حمو من بينهم؛ ونبت عنه العيون؛ فنجا إلى تونس، ونزل بها على الحاجب أبي محمد بن تافراكين؛ فأكرم نزله، وأحله بمكان أعياص الملوك من مجلس سلطانه، ووفر جرايته، ونظم معه آخرين من فل قومه)). العبر، مج: 7، ص: 255.

[2] قال صاحب زهر البستان في دولة بني زيان: ((فكان المولى أبو حمو في جملة من خرج [من الجزائر]؛ وعاين المشقة والحرج؛ فدخل تونس في سادس شوال من عام ثلاثة وخمسين بعد سبعمائة؛ أقام بها خمسة أعوام...)). ورقة: 5 و.

وهكذا؛ فقد سمحت له السنوات الخمس ـ التي قضاها في إفريقية ـ بعقد بعض الصلات الإيجابية مع أعراب **الدواودة**؛ وضمن فرع **بني سباع** منهم بالذات؛ نظراً لقدم الصلات بينهم وبين **بني عبد الواد**؛ العائدة إلى عهد **يغمراسن بن زيان**؛ ثم **أبي حمو الأول** وولده **أبي تاشفين الأول**. وقد وجد تفهماً وعوناً كبيرين من قبل هذه القبيلة؛ ذات النفوذ الواسع في **إفريقية**. وقد عزّز موقفه مع أولئك الأعراب عاملان اثنان:

أولهما: كرههم لحكم السلطان **أبي عنان**؛ الذي أسقط عنهم منافع كثيرة؛ منها: ضريبة الخفارة؛ التي فرضوها على المارة، ثم أبطل وضع اليد على ما تغلبوا عليه من أملاك وإقطاعات.

وثانيهما: نشر بعض الإشاعات والحكايات؛ المستمدة من المنجمين وأهل الجفر والحدثان[1]؛ الغرض منها

---

[1] **الجفر: ضرب من التنجيم. ومعناه لغة: جلد الثور أو البعير أو ذكر المعزى ـ ذات الأربع أشهر ـ المدبوغ والمدفون تحت سطح الأرض. وينسب بعض الشيعة عمل الحفر إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه؛ زاعمين أنه وضع الحروف العربية كلها عن طريق البسط الأعظم داخل جلد جلد الجفر؛ بغرض استخراج ما في لوح القضاء والقدر. أما المعنى الاصطلاحي لكلمة الجفر؛ فيقصد به فرع من فروع ما يسمى بعلم الحروف، أو علم توليد الحروف حسب قواعد معينة، فيقوم صاحب هذا الفن باستخراج حرف مجهول بواسطة حرف معلوم. ويقولون: أن الجفر عبارة عن لوح القضاء الذي هو عقل الكل؛ بينما الجامعة لوح القدر؛**

بث الوهم في صفوف تلك القبائل؛ لتنساق مع أهداف **أبي حمو**[1].

ويراد به نفس الكل. أما الحدثان؛ فمفرده: حديث؛ والمقصود بها هنا؛ هي حوادث الدهر. وقد اصطلح على إطلاق هذا الاسم على كل عمل أو خبر له علاقة باستكشاف حوادث غيبية؛ تعود في أصلها إلى أعمال الزيارجية، وخط الرمل، والتنجيم وغيره. وللتوسع في فهم عمل الحدثان؛ يستحسن الاطلاع على ما كتبه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمته؛ ضمن (فصل في حدثان الدول والأمم وفيه كلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر). ج: 2، ص ص: 929 - 950.

[1] **فمما ورد في كتاب زهر البستان: ((قال الراوي: سمعت من يحدث بظهور مولانا السلطان، وما يكون له من الرفعة والشان. قال: اتفق أنَّ بتونس علماء بالحدثان، وآخرين يتحدثون بالجفران؛ أما أصحاب الجفرانات؛ فأجمعوا على رجوع الدولة لبني عبد الواد؛ وأما الحدثانيون؛ فيقولون في ذلك الزمن فرق الوقت أو كاد. فيروى أن المولى أبا حمو مرّ بالحدثاني المذكور؛ فجعل يتوسمه ومن معه من الجمهور. ثم سأل: من هؤلاء الفرسان. فأجيب: بنو عبد الواد الشجعان. وقال لمسؤله [أي لسائله]: هذا ملك هذه العصابة، وصاحب المغرب الأوسط.. فانتقل الحديث من الخاص إلى العام، وتفرع على ذلك كثير الكلام. ثم أن الحدثاني طلب على حقيقة علمه، وما يقع به من معرفة حكمه. فأتاه يوماً، وجالسه، وأخذ بالتلطف معه وآنسه، وتلطف له في السؤال عن اسمه؛ ليخبره بما ظهر له في علمه. وكان المولى أبو حمو - مع غربته - مهاباً؛ جعل الناموس ديداناً، والحزم صواباً. فقال له الحدثاني المذكور: ما اسمك. قال: موسى؛ فكبر ثلاثاً. وقال: ستكون ملكاً رئيساً. ثم قال: ما كنيتك. قال: أبو حمو. فقال: أنت الملك الذي بالمغرب يسمو. ثم سأله: هل له من ولد. قال: نعم؛ واحد من العدد اسمه عبد الرحمن. قال: يملك المغرب ويسود به بنو زيان. فاستغرب الحدثاني من شانه؛ وأشاع بكما يكون من سلطانه. فالتصل الخبر بالجفراني؛ فقصد لحينه الحدثاني؛ وقال له: سمعت عنك كيت وكيت. قال: نعم؛ هو أغرب ما رأيت. فقال الجفراني: إن توفرت شروطه المذكورة؛ فله تكون الخلافة المشهورة. ثم قال: حقق نظرك في أمره لعلك تقع على بعض سرّه. فقال الحدثاني: والله لهو عيناً واسماً؛ وقد قطعت بذلك حكماً وعلما. فقال الجفراني لمجالسيه من جماعته؛ حين اتضح له الأمر بنصاعته: "ومجرى الماء**

وبذلك؛ تمكن هذا الأخير من كسب ثقة أعراب **الدواودة** وودّهم؛ حيث انتقل للإقامة بينهم لفترة ما. وبالفعل تمكن من إقناعهم بضرورة مساندته، ووجوب دعم خططه؛ لاستعادة ملك أجداده. وكان له ما أراد؛ حينما تكفل شيوخ **الدواودة** بإقناع السلطان الحفصي أبي إسحاق[1] ووزيره **ابن تافراكين**[2] بتجهيز **أبي حمو** للعودة إلى ملك أجداده في **تلمسان**؛ حتى يكون بمثابة الحاجز الفاصل بين **إفريقة وبني مرين**؛ وبعد مشاورات ومداولات اقتنع السلطان الحفصي ووزيره بما اقترحه شيوخ **الدواودة**. وهكذا؛ تم **لأبي حمو** مبتغاه؛ بعد موافقة السلطان أبي إسحاق

في العيون، العالم بما تختلج به ضماير الظنون، إنه لحق مثل ما إنكم تنطقون". فشاع الخبر بقولهم عند أهل التوحيد [أي عند الموحدين]، واتصل الخبر بالقريب والبعيد. ثم اتفقا على واحدة بعد الأمارات؛ إن كانت فهي خاتمة العلامات؛ وهو أنّه يخرج من الزّاب في جماعته من الأعراب)). زهر البستان في دولة بني زيان، ورقات: 2 و- 2 ظ. وقال يحيى بن خلدون في هذا: ((فكم ألقي إليه من كتاب في الحدثان كريم، وكم بشرى همس له بها أولو قرعة أو تنجيم، وكم رؤيا سمعها المعبر؛ فقرأ: ((وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم)). بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 53 - 54.

[1] هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي يحيى بن أبي زكرياء بن أبي إسحاق ابن أبي زكرياء بن عبد الواحد بن أبي حفص. حكم الدولة الحفصية من سنة 750هـ/ 1350م إلى سنة 770هـ/1369م

[2] هو أبو محمد عبد الله بن أحمد بن تيفراجين (تفراكين أو تفراڤين) التينملي. أشهر وزراء بني أبي حفص على الإطلاق. توفي بتونس في سنة 766هـ/1364م.

الحفصي على مساعدته وتجهيزه بما يلزم من آلة وأسلحة ومال.

ويقول **يحيى بن خلدون**، أن أحاديث الناس عن **أبي حمو**، وتناقلهم أخباره، وما ذكره أصحاب الجفر والحدثان بخصوصه؛ وصلت كلها إلى **أبي عنان**؛ فحثّ والده **أبا يعقوب** ـ المتواجد آنذاك بفاس ـ على مراسلته، وإغرائه بالحضور إلى **فاس**؛ ولكنه أبى ذلك. ثم طلب من السلطان الحفصي إرساله إليه؛ ولكن هذا الأخير أغفل طلبه؛ بل اصطحبه معه في أواخر شعبان من سنة 758هـ/1356م إلى **بلاد الجريد**؛ حين استولى **أبو عنان** على **بلد العناب (عنابة)**، وهدّد أسطوله مدينة **تونس**[1].

ولما عاد **بنو حفص** إلى **تونس** ـ إثر انسحاب **بني مرين** إلى بلادهم ـ واصل **أبو حمو** مسعاه في تعبئة واستنفار **الأعراب**؛ كي يعينوه على امتلاك **تلمسان**. وعليه؛ فقد اختار التنقل مع **الدواودة** في حركاتهم المضادة **لبني مرين** في **شمال قسنطينة** سنة 758هـ/1356م. ولما قرّر **بنو سباع** ـ وهم فرع من **الدواودة** ـ التوجه إلى **الزاب**؛ رافقهم **أبو حمو**

---

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 53 - 55.**

إلى ديارهم. وهناك؛ واصل سعيه؛ أين قابل مجموعة من **أعراب بني عامر** ــ الحلفاء التقليديين **لبني عبد الواد** ــ أثناء مروره **ببريكة**. وكان **بنو عامر**؛ قد هجروا ديارهم بضواحي **تلمسان**، ونزحوا نحو الشرق؛ بسبب الضغط المسلط عليهم من قبل **بني مرين** وحلفائهم من **أعراب سويد**. فاتفق **أبو حمو** معهم على التكاتف، والتحالف من أجل استرجاع ملك أجداده من جهة، وعودتهم إلى أراضيهم ومراعيهم المغتصبة من قبل قبيلة **سويد** من جهة أخرى. فوافقوه، وقرَّروا الزحف معه إلى **تلمسان**؛ عبر الصحراء. وعند الانطلاق؛ فاضت مشاعره، وتحركت داخله أحاسيس الحنين إلى الأوطان والأحباب؛ فقال قصيدته؛ التي بعثها إلى والده **بفاس**؛ مبشراً إياه بعودته إلى **تلمسان**[1]. ومما جاء فيها[2]:

حان الفراق فكنت منه بمنزل

ودنا الرحيل فكنت فيه بأولِ

---

[1] **وردت هذه القصيدة في كتاب زهر البستان فقط. ورقات: 7 ظ - 8 و. وقد صححها عبد الحميد حاجيات؛ وأثبتها في كتابه "أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره" وهي من بحر الكامل.**

[2] **ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء المخصصة للشعراء.**

وتَحَكَّـمَ البيـن المشتـت والنّـوَى
فينـا بفتكـة سيفـه المتكلـلِ
وبَـدَا غراب البين في عرصاتهـا[1]
يـرثي عليهـا منـزلاً في منـزلِ
والوصـل ولّى راحـلاً في إثـره
قاضي الفـراق على كثيب محجـلِ[2]

وكانـت رحلـة العـودة طويلـة وشاقـة؛ إذ فصلـوا عـن أرض **الـزاب** إلى **وادي ريـغ** ثـم **ورقلـة فمـزاب**؛ **فـوادي زرقـون**؛ ثـم تسربـوا غربـاً إلى أن وقعـوا عـلى حي مـن أولاد **عريـف مـن سويـد** أنصـار **بـني مريـن**؛ كانـوا منتجعيـن في **وادي مـلال** (أو **ملـول**)؛ فاشتبكـوا معهـم، وفتكـوا بهـم، واستلحمـوا رجالهـم، وغنمـوا أموالهـم. فرفعـت هـذه الموقعـة معنوياتهـم وزادتهـم تصميمـاً عـلى تحقيـق هدفهـم بفتـح **تلمسـان**. ثـم قـرّر **أبـو حمـو** ــ هـو وأصحابـه ــ الإقامـة بعـض الوقـت في

[1] البين: هو الفراق. وعرف عن العرب الميل إلى التشاؤم عند سماعهم صوت الغراب ورؤيتهم شكله؛ إذ كانوا يعتقدون أن نعيق الغراب؛ يجلب الفراق للأحبة. فعبروا عن تشاؤمهم بعبارة: " غراب البين" أي غراب الفراق. أما العرصات: فهي الساحات الفاضية بين الدور.
[2] محجل هنا: مشهور.

ذلك الوادي الخصب؛ فأراحوا الظهر، واستعدوا لما هو أهم وأخطر. وحلت غرة محرم سنة 760هـ/1358م ــ أيام إقامتهم للراحة **بوادي ملال** ــ وفي تلك الأثناء وصل إليهم خبر وفاة **أبي عنان**؛ فانفجرت أفراحهم، وتعاظمت آمالهم، وازدادوا إصراراً وتصميماً على فتح **تلمسان**؛ وإقامة الدولة الزيانية من جديد.

ويبدو هنا؛ أن **أبا حمو** أبقى على خطته في الاعتماد على التأثيرات الغيبية التنجيمية ــ بغرض تشجيع أعراب **بني عامر** على مواصلة دعمه في حركته. فها هو قد اصطحب معه الشيخ المنجم وصاحب الحدثان المدعو **أبا زكرياء يحيى بن أبي بكر** (سبط **عبد المؤمن بن علي**)؛ الذي بشّره ــ عند مروره **بجبل عياض** ــ بفتح **تلمسان** والانتصار على **المرينيين** في حربه. لذا؛ فقد صرخ الحدثاني المذكور مهللاً ومكبراً؛ عند وصول خبر هلاك **أبي عنان**[1]؛ موحياً للناس بأنه صادق في حدثانه.

ولما اقتربوا من **تلمسان**؛ وعلى ضفاف **وادي الصفيصف** بالتحديد؛ قابلهم جيش **بني مرين** بقيادة

---

[1] **((فكبر الشيخ أبو زكرياء المذكور؛ لظهور كبرى آياته، وسر بوضح غرة حدثانه)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 66.**

يغمراسن بن عثمان الورسيفاني (مع الوصي على الأمير **محمد** ابن السلطان **أبي عنان**)؛ وانتهت الموقعة بهزيمة **المرينيين**، ومقتل فارسهم **علي بن مسعود الونجاسي**. عندئذ؛ اضطر المنهزمون إلى الاعتصام خلف أسوار المدينة؛ دفاعاً عليها؛ في انتظار المدد من **فاس**. ولكن سكان **تلمسان** خيبوا آمالهم؛ إذ خرج ــ في ليلة من ليالي شوال ــ من المدينة جماعة من أهلها؛ فاجتمعوا **بأبي حمو**؛ ودلّوه على عورات البلد؛ ونصحوه بأن يقتحمها من جهة **أغادير**؛ أين سيجد من يساعده على دخول البلد. وعلى ضوء ذلك؛ وضع **أبو حمو** خطته؛ التي تقتضي: أن يُشْغِل **بني مرين** بنفسه؛ حين يتنقل مع **الأعراب** إلى الناحية الغربية من المدينة؛ بينما يتوجه وزيره المنتظر **الحاج موسى بن علي ابن برغوث** ــ مع **بني عبد الواد**، وأحياء من **زناتة** ــ إلى الجهة الشرقية. وبهذه الخطة؛ قد يكون **أبو حمو** فضل تسبيق **بني عبد الواد** وزناتة بالدخول للمدينة؛ لكي لا تتعرض للنهب والفوضى. ولهذا اصطحب أعراب **بني عامر** معه إلى الجهة الأخرى. المهم؛ أن **ابن برغوث** ومن معه؛ دخلوا

المدينـــة مـــن **بـــاب العقبـــة**، نحـــو **أغاديـــر** بسلاســـة؛ في غـــرة ربيـــع الأول مـــن عـــام 760هـــ/1358م؛ فتفاجـــأ **بنـــو مريـــن**، وسقـــط في أيديهـــم، ولـــم تعـــد أمامهـــم مـــن وسيلـــة ســـوى الاستســـلام، ووضـــع الســـلاح؛ فاستسلمـــوا عـــن بكـــرة أبيهـــم. ويقـــول **عبـــد الرحمـــن بـــن خلـــدون**؛ أن الأميـــر الـــوصي استجـــار ـ رفقـــة الأميـــر المريـــني **محمـــد بـــن أبي عنـــان ـ بصغيـــر بـــن عامـــر** شيـــخ **بـــني عامـــر**؛ فأجارهمـــا، وساعدهمـــا عـــلى الرجـــوع إلى **فـــاس**[1]. بينمـــا يزعـــم **يحـــيى بـــن خلـــدون** وصاحـــب **زهـــر البستـــان** بغيـــر هـــذا[2].

وبذلـــك قامـــت دولـــة **بـــني زيـــان** في أزهى حللهـــا؛ بإمـــرة السلطـــان **أبي حمـــو مـــوسى الثـــاني**؛ الـــذي أبـــدع وتفنـــن في تطويـــر نُظمهـــا، وتأسيـــس مؤسساتهـــا. ولمّـــا استقـــرّ هـــذا السلطـــان عـــلى عـــرش أجـــداده؛ خفقـــت جوانحـــه، واهتـــزت مشاعـــره تحركـــت بـــذور الشعـــر في

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 256.**

[2] **((واعترضه [أي اعترض أبا حمو] محمد ولد السلطان أبي عنان، وكافله يغمراسن بن عثمان، وأخوه عمر، وأعلام القوم؛ فبايعوا له بالخلافة. ودخل داره الكريمة في أيمن المطالع...)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 76. واتفق معه على هذا الرأي؛ صاحب زهر البستان. أنظر ورقة: 14 و.**

داخلـــه؛ فانبثقــت عنهـــا قصيدتـــه الغـــراء[1]؛ الـــتي هي بمثابـــة الملحمـــة؛ إذ سجـــل فيهـــا رحلتـــه الطويلـــة؛ انطلاقـــاً مـــن بـــلاد **الـــزاب** إلى **تلمســـان**؛ حـــتى دخلهـــا عنـــوة، وطـــرد **بـــني مريـــن** منهـــا؛ كمـــا سجـــل فيهـــا مـــا وقـــع لـــه مـــن أحـــداث أثنـــاء زحفـــه؛ ونـــوه أيضـــاً بصـــدق أقـــوال أهـــل الجفـــر والحدثـــان[2]؛ ثـــم أشـــار إلى عامـــل تعبـــوي دعـــوي آخـــر؛ أعلنـــه قصـــد كســـب مزيـــد مـــن الأنصـــار؛ ألا وهـــو الانتســـاب إلى أهـــل البيـــت؛ عبـــر الانتمـــاء إلى بـــني القاســـم الأدارســـة[3]:

جـــرت أدمـــعي بيـــن الرســـوم الطواســـم[4]
لمـــا شحطتهـــا[5] مـــن هبـــوب الرواكـــم

[1] هذه القصيدة ـ حسب ما جاء في زهر البستان ـ نظمها أبو حمو قبل فتح تلمسان؛ وأثناء رحلته إليها. وليس بعد الفتح كما يستوحى من قول يحيى بن خلدون. بغية الرواد، ج: 2، ص: 76. وزهر البستان ورقة: و ظ.

[2] وهذه القصيدة من البحر الطويل؛ وردت ـ بالإضافة إلى بغية الرواد ـ في كتابي: زهر البستان وواسطة السلوك؛ ولكنها جاءت بشكل مخالف ـ في ترتيب أبياتها ـ على ما هي عليه في بغية الرواد. كما أن نسخة زهر البستان مليئة بالأخطاء وكتبت بخط رديء.

[3] ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء المخصصة للشعراء.

[4] الرسم جمع رسوم وأرسم: ما كان لاصقاً بالأرض من آثار الدار. وطسم طسماً الشيء: طمسه وأخفاه.

[5] الشَّحْط والشَّحَط: البعد.

وقفت بها مستفهما بخطابها[1]
وأي خطاب للصلاد الصلادم[2]
وسرت على جون أقب مضمر [3]
كلمعة برق أو كلمحة صارم

وبمجرد دخول **أبي حمو** إلى **تلمسان**؛ واستقراره في قصره؛ أمر بخروج من بقي من **بني مرين** في المدينة؛ فخرجوا في اليوم نفسه؛ ولم يبق منهم أحد[4]. ثم بادر من فوره إلى ضبط إدارته، وترتيب شئون الحكم، وإحصاء ما وجد من إمكانات ومتاع، وجمع كل ما تركه **المرينيون** في الخزائن والأهراء، وما احتوت عليه من ذخائر وسلع وزرع؛ كما استولى على الهديَّة التي جهزها **أبو عنان** كي يرسلها إلى ملك **قطلونة** بالشمال الشرقي من

---

[1] كتبت في زهر البستان وواسطة السلوك: ((لخطابها)). ويبدو أنه الأصح. أما كلمة ((مستفهماً)) فكتبت في زهر البستان: ((مستخبراً)). والراجح هي كلمة ((مستفهما)) كما جاء في بغية الرواد وواسطة السلوك.
[2] حَجَرٌ صَلْدٌ: صُلْب أملس. ويقولون: (جبينٌ صَلْدٌ)، (ورأس صلدٌ صُلادِمٌ): الذي لا ينبت فيه الشعر.
[3] في واسطة السلوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية): ((وسرت على جون أقب مشحب)). الجون: يقصد به الحصان الأسود اليحمومي، والأسود المشرب حمرة. والقبُّ والقَبَبُ: دقة الخصر وضمور البطن. والخيلُ القُبُّ: الضَّوامِرُ. قال هذا البيت في وصف حصانه.
[4] بغية الرواد، ج: 2، ص: 95. زهر البستان، ورقة: 14 و.

الأندلس[1]. واستفاد أيضاً من خراج عامين كاملين بقي مجمداً لدى العمال[2].

ولما اطمأن على أوضاع البلد؛ نظر في تشكيل حكومته، وتنصيب وزرائه. وخلال ذلك ـ وبالتحديد في الثالث والرابع من أيام ربيع الأول ـ بدأت الوفود تصل إلى **تلمسان** للتهنئة والمبايعة؛ من بينهم وفود: **ندرومة ووجدة وهنين**. ثم عقد مجلسه للتهنئة والبيعة؛ حرص فيه على مكافأة أنصاره؛ فبدأ **بأعراب بني عامر** الذين قدرهم **يحيى بن خلدون** بثمانية آلاف: ((**فكسا كلا منهم على قدره، ونفل خواصهم الخيل المسومة، والسروج المرفهة، والعدد المحلاة بالعسجد أو اللجين، ثم المال المتعدد**))[3]. وإثرها التفت إلى أهله وعصبته من **بني عبد الواد**؛ فجهز منهم ـ في يوم واحد ـ ألف

---

[1] ولكن صاحب زهر البستان قال أنها كانت موجهة إلى سلطان بني نصر. أنظر ورقة: 18 و. أحصى بعضها يحيى بن خلدون؛ فقال: ((من خيل عتيقة، وسوج مفرغة ركابها من ذوب اللجين، ولجم موشية، وأسباب مختارة)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 96.

[2] ((ومن العجايب أيضاً؛ أن خراج عامين عند الولاة؛ وجده عوناً على المعضلات؛ لا يخرج قائد إلا وجده بخراجه معه، ولا يعطي والٍ صفقة يده حتى يعطي ما جمعه؛ فاتسعت يده في الأموال، وظهرت امارة اليمن والإقبال؛ فاستعمل بأسباب الهدية المجال الوافرة، وركب بجيوش متظافرة؛ فأثل سلطانه للحين)). زهر البستان، ورقة: 18 و.

[3] بغية الرواد، ج: 2، ص: 99.

فـارس: ((**يكـسي الرجـل منهـم بقـدره، ويُدفـع إليـه فـرسٌ مسـرج ملجـم، ومهمـاز، وسيـف، ورمـح، وثلاثـة مـن الذهـب، وعشـرون برشالـة[1] مـن القمـح، وثلاثـون مـن الشعيـر. عـلى هـذا مضـت سنتـه فيهـم؛ إلى أن ركبـوا مـن عنـد آخرهـم**))[2].

ثـم حلـت ليلـة الميـلاد النبـوي ــ أثنـاء انهماكـه في ضبـط دولتـه، وتنظيـم إدارتـه، وعقـد سلـك جيشـه وأنصـاره ــ فجهـز نفسـه لاستقبـال تلـك المناسبـة الكريمـة بحفـاوة عظيمـة؛ لـم تشهدهـا **تلمسـان** قبـل عهـده. إذ جعـل كـل اهتمامـه في الاحتفـال بالمولـد النبـوي الشريـف؛ جاعـلاً مـن هـذا العيـد؛ سنـة ثابتـة وعـادة منتظمـة؛ رسخـت في وقتـه كعيـد ديـني بهيـج؛ توالـت واستمـرت ذكـراه في دولتـه؛ إذ أورث **أبـو حمـو** أولاده وأحفـاده مراسيـم هـذا العيـد عامـاً بعـد عـام إلى أن سقطـت الدولـة الزيانيـة نهائيـاً[3]. وكـان يحضـر الحفـل

---

[1] برشالة أو برجالة: وحدة قياس لكيل الحبوب. والبرشالة الواحدة تساوي ـ في تلمسان ـ 12 رطل ونصف.

[2] بغية الرواد، ج: 2، ص: 100.

[3] وصف يحيى بن خلدون أحد الأعياد بمناسبة المولد النبوي في بلاط أبي حمو؛ قال فيه: ((فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة، ومشامع كأنها الاسطوانات القائمة على مراكز الصفر المموهة؛ والخليفة أيده الله صدر مجلسها؛ ممتطياً سرير ملكه؛ يسر الناظرين رواؤه، ويثلج الصدر عزه، وتحار في كمالات خلاله النُهَى؛ حفافيه مـلأ التجلة من

بنفسه، ويفتح أبواب مشوره للاحتفالات، التي بجتمع فيها شعراء وأدباء **تلمسان**؛ إلى جانب أهل الطرب والسماع، إذ يشارك هذا السلطان أدباء المدينة في إحياء العيد، ويصوغ معهم أشعاراً تلحن وتغنى في هذه الليلة المباركة؛ فيخلد بتلك الأشعار هذه المناسبة الشريفة. ومِمَّا قاله في ليلة المولد الأولى:[1]

دمع ينهل من المقل

لقبيح كان من العملِ

وجوى في الصدر له حرق

فالقلب لذلك في شغلِ

قومه، وأعيان الطبقات ـ من أهل حضرة خلافته ـ على مقاعد عينها الاختصاص، ورتب بعضها فوق بعض المناصب؛ تخالهم قطع الرياض النضرات؛ قد أغضى الجلال من أبصرهم، وخفضت المهابة من أصواتهم؛ فلا تبصر إلاّ جمالاً، ولا تسمع إلاّ همساً؛ يطوف عليهم ولدان اشعروا أقبية الخز الملون، وبأيديهم مباخر ومرشات بغيم ـ دخان عنبر تلك المفغم للأناف ـ الجو؛ فتمطر هذا الحفل وابلاً من ماء الورد المنسوب إلى نصيبين؛ وخزانة المنقانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه...)). بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 101 - 102.

[1] وردت هذه القصيدة في زهر البستان وواسطة السلوك؛ ولم يذكرها صاحب بغية الرواد. وهي من بحر المتدارك (أو المحدث). نظمها أبو حمو بمناسبة إحياء أول عيد ميلاد نبوي في تلمسان أشرف عليه بنفسه. وهذا ما ذكره صاحب زهر البستان؛ أما يحيى بن خلدون؛ فأورد قصيدة أخرى نسبها إلى هذه المناسبة الأولى؛ وهي أيضاً من بحر المتدارك، ومطلعها هكذا:

نام الأحباب ولم تنم　　عيني بمصارعة الندم

والدمع تحدر كالديم　　جرح الخدين فوا ألم

بغية الرواد، ج: 2، ص: 104.

ونهيت النفس فما ازدجــرت[1]

وتــولى الصبــر فما حِيَــلي[2]

ناس ركبــوا التقــوى ولقــد

ركبت نفسي طــرق الزلــلِ[3]

وبعــد المولــد؛ وافتــه أيضــاً وفــود المبايعيــن والمهنئيــن؛ إذ مثلــت بيــن يديــه وفــود: **مستغانــم، وتمزغــران، والبطحــاء.** أمــا بقيــة المــدن والمقاطعــات؛ فقــد ظلــت في تلــك الأثنــاء خاضعــة **للمرينييــن**. وعليــه فقــد قــرّر استعــادة مــا ضــاع مــن أمــلاك الدولــة؛ بطَــرْدِ ولاة **بــني مريــن** منهــا؛ فبــدأ **بوهــران**؛ حيــث جهّــز وزيــره الحــاج **مــوسى بــن عــلي بــن برغــوث**؛ بمــا يلزمــه مــن عــدة ورجــال؛ قصــد التضييــق عــلى تلــك المدينــة الساحليــة؛ لأخــراج **المرينييــن** منهــا؛ ولكــن هــذا الوزيــر سقــط أسيــراً في يــد الأعــداء ــ في 8 ربيــع الثــاني مــن سنــة 760هــ ــ ونقــل عــن طريــق البحــر إلى **المغــرب الأقــصى.**

---

[1] **في واسطة السلوك: ((فما قبلت)).**

[2] **هكذا في واسطة السلوك؛ وهو الصحيح. أما زهر البستان فالشطر فيه: ((وثناء الصبر في حيل)). وهذا غير سليم.**

[3] **في واسطة السلوك (المخطوط): ((ركبت نفسي على طرق الزلل))؛ وهذا طبعاً يخل بالوزن؛ والصحيح ما ورد في زهر البستان وواسطة السلوك (المطبوع).**

وشجعت هذه الموقعة بقية **بني مرين**؛ حيث استجاب وزير الدولة المستبد – **الحسن بن عمر الفودودي** – لتحريض أعراب **أولاد عريف بن يحيى السويديين**؛ فأرسل معهم ابن عمه **مسعود بن رحو ابن ماساي الفودودي**؛ بغرض فتح **تلمسان**؛ غير أنهم هزموا إثر مناورة تعبوية قام بها **أبو حمو** بعد خروجه من **تلمسان**؛ التي عاد إليها مكللاً بالنصر في يوم الإثنين غرة جمادى الأخرى؛ أي بعد 28 ليلة من الغياب[1]. وبعودته غانماً؛ خافه والي **وهران المريني** المدعو **أحمد بن أجانا**؛ فأسلمها وفرّ هارباً بمال كان في ذمته؛ فضبط وأسر؛ ثم نُقل إلى **أبي حمو**؛ فعفا عنه، ومنحه المال الذي وجد في حوزته، وسمح له بالعودة إلى **المغرب**. وبهذا الشكل أيضاً عامل قائد **بني مرين** على **تنس**؛ الذي أسر كذلك بعد فتح المدينة؛ فعفا عنه ومنحه المال الذي ضبط عنده.

ويبدو أن **بني مرين** مالوا إلى الصلح مع **أبي حمو**؛ بعد فشلهم في كسر شوكته وعجزهم عن الاحتفاظ **بتلمسان**؛ خاصة وأنهم كانوا يعانون من

---

[1] أنظر تفاصيل هذه المناورة في بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 124 - 129. وزهر البستان، ورقات: 18 ط - 20 و. والعبر، مج: 7، ص ص: 256 - 258.

وهـن وانقسـام في صفوفهـم. لـذا فقـد أرسلـوا **أبـا زكريـاء يحـيى بـن مـوسى الجـمي (الـقمي)** ـ وهـو أحـد أعيـان الدولـة **العبـد الواديـة** السابقيـن ـ أرسلـوه إلى **أبي حمـو**: ((**بعقـد مشهـود إلتزمـوا فيـه الصلـح**))[1]. ونتيجـة لهـذا الصلـح؛ سمـح **المرينيـون** لوالـد **أبي حمـو أبي يعقـوب يوسـف**، وابنـة **عبـد الرحمـن** بالعـود إلى **تلمسـان**[2]. فاستقبـلا عنـد وصولهمـا بحفـاوة عظيمـة؛ وظـل الاحتفـال قائمـاً سبعـة عشـر يومـاً[3].

عندئـذ؛ انتهـز **أبـو حمـو** فرصـة وجـود والـده؛ فجهـزه بمحلـة كبيـرة؛ لتمهيـد البـلاد الشرقيـة؛ ثـم أطلـق يـده عـلى كـل مـا فُتِـح مـن تلـك البـلاد. فخـرج إليهـا يـوم الإثنيـن رابـع شعبـان مـن عـام 760هـ؛ فأخضـع العبـاد ومهـد البـلاد؛ ودخـل **لمديـة** واستعـد لوصلهـا ببقيـة المـدن الشرقيـة.

---

[1] بغيـة الرواد، ج: 2، ص: 128. وجاء في زهر البستان: ((وقد كان صلحهم على من بقي في البلاد الشرقية من أناسهم؛ وخوفاً من بني عبد الواد وبأسهم.)). ورقة 20 و.

[2] كان قد جلبهما أبو عنان من مستقرهما في ندرومه، ونقلهما إلى فاس؛ عندما احتل تلمسان في سنة 753هـ/1352م.

[3] خصص صاحب زهر البستان فصلاً؛ شرح فيه هذه المناسبة. ورقات: 23 ظ - 25 ظ.

وفي أواسط شوال[1] من العام المذكور؛ وصل إلى تلمسان القائد المحنك **أبو محمد عبد الله بن مسلم الزردالي**[2]؛ فاستقبله **أبو حمو** بحفاوة كبيرة؛

---

[1] يرى صاحب زهر البستان أن وصول عبد الله بن مسلم إلى تلمسان كان في أواسط شهر رمضان. ورقة: 29 و.

[2] قال صاحب زهر البستان: ((اعلم أن عبد الله بن مسلم هذا؛ سيد بني زردال [من بني عبد الواد]، وشهم حماتم الأبطال؛ استوطن المغرب؛ حين خرج بنو عبد الواد من تلمسان؛ وأقام بالمغرب إلى أن ولاّه القيادة أبو عنان. وذلك لما ظهر له من نجابته، وكفايته، وخدمته، وشهامته. ولاه وادي درعة وأنحائـه، وحكمه في ذلك الإقليم، واستحسن واستوطن؛ فمهدها له أتم تمهيد، وسكّن عفاتها، وأنس من التشريد، واستمال قبائل تلك الجهات بإحسانه، ولاطفهم حتى عادوا كإخوانه؛ فساد على غيره بذلك الوادي، وطاوعته أهل تلك البلاد؛ فكان بها كالأمير المطاع، والرئيس ذي الأتباع. فنمت بولايته الجبايا، وصلحت بقياده الرعايا؛ فخص عند أبى عنان؛ فأقره بذلك المكان، فلم يزل به إلى أن مات [أبو عنان]؛ فولي السعيد؛ وتمادت ولايته من بني مرين؛ كما يريد؛ إلى أن فتح الله على المولى أبى حمو البلاد، وبلغه في أعدائه مراده، واتصل علمه؛ أنه بحضرة تلمسان؛ وأنه تملك ما كان لأسلافه من الأوطان. كتب له ـ من تلك البلاد ـ يهنيه، ويعلمه أنه عبده وابن عبده؛ بما يأمره به يمضيه. فكتب له أبو حمو باستخدام أهل تلك البلاد؛ واستجلابهم لدعوة بني عبد الواد؛ وأن يجمع عليه قبيله، ويسير كثيره وقليله؛ وأن يضم لخدمته من يعتمد عليه، ويقرب من يصف للخدمة إليه، وأن يحض الأعراب على خدمة بني زيان، وأن يقوموا على دعوته في تلك الأوطان؛ وأنه إذا انقضى بالفتح بقية البلاد فيصرف وجهه لقبلة المغرب؛ بما تيسر من الأحشاد. فلم تزل المراسلات بينه وبين مولانا السلطان، والأوامر الزيانية تجري على يديه في تلك الأوطان؛ إلى أن استخدم كثيراً من أهل تلك الجهات، وطاعت له العرب، وركنت للموالاة. فطال أمره؛ إلى أن هم بالوثوب على سجلماسة. وذلك من الشهامات والرياسات. فبينما هو يحاول الوثوب عليها، ويتحايل في التوصل بمحاولة إليها؛ إذ أتاه آت؛ أخبره بقدوم أبى سالم؛ وأنه أطاع له المغرب، وخدمته جميع الأقاليم؛ فنظر؛ أن محاولته لذلك تقررت؛ لكن تلك المقدمات قد أثرت.

وأسند إليه وزارته، وأسكنه في قصر كبير وزراء **أبي تاشفين**، وخصه بقيادة جيشه. وكلفه بدعم والده **أبي يعقوب** في تمهيد النواحي الشرقية، إلى حدود **بجاية**؛ ثم أطلق يده، وفوضه فيما يراه صالحاً للدولة.

فخرج بدوره من **تلمسان** قَصْدَ تمهيد الجهات المشار إليها، وإخضاع المدن والقبائل التي كانت تابعة للدولة **الزيانية**. فبدأ **بشلف** ثم اتجه نحو **مليانة**؛ حيث تصدّى له القائد المريني المدعو **يحيى ابن علي**؛ فهزمه **عبد الله بن مسلم**، وطارده إلى **مليانة**؛ أين التقى ـ عند أطرافها ـ **أبا يعقوب**؛ فحاصراها معاً؛ ودخلاها عنوة في سابع ذي القعدة من عام 760هـ؛ حيث أسر من كان فيها من **بني مرين**؛ بالإضافة إلى **يحيى بن علي** المذكور؛

وسمع أن أبا سالم عزم على ملاقاة بني عبد الواد؛ فأخذته حمية الكرام الأنجاد؛ فأخذ في شأن القدوم على مولاه؛ وذلك ما نظره ورآه؛ وأنه لا عزة إلاّ في قومه الكرام، ولا ضرب إلاّ أمامه بالحسام. فجمع أمره على القدوم، وأبرمه وعقد عقده بالخلاص وأحكمه؛ فاستعمل هدية سنية كأنها لأبى سالم؛ وهو يريد بها المولى أبا حمو ذو(؟) المكارم؛ أخرق في عملها المعتاد، ومد يده فيما يستحسن وزاد؛ وولف الرزق والعدد، وأخذ من ذلك الوادي أحسن ما وجد. ثم جمع عليه قبيله، وحمل كثيره وقليله؛ وارتحل حاكماً نفسه ومن معه)). ورقات: 28 و - 28 ظ. أنظر أيضاً الفصل الذي خصصه عبد الرحمن بن خلدون لعبد الله بن مسلم في كتاب العبر، مج: 7، ص ص: 258 - 260.

ثم أضافوا إليهم أسرى **لمدية**؛ فأضحوا زهاء خمسمائة؛ أرسلوا بكاملهم إلى **تلمسان**؛ باستثناء **يحيى ابن علي** الذي قتل.

وبينما تجري هذه الأحداث **بتلمسان**؛ كانت **فاس** حبلى بالأحداث والتغيرات؛ إذ تغلب على الحكم فيها **أبو سالم إبراهيم بن أبي الحسن**؛ فجمع الشمل، وضبط الأمر. ولما انتهى من تمهيد الحكم في **المغرب الأقصى**؛ انثنى لِمَا يجري في **تلمسان**؛ إذ غضب لخروج **عبد الله بن مسلم** عن الدولة المرينية؛ وانحيازه **لأبي حمو**؛ حاملاً معه خراج الدولة، وساحباً خلفه بعض أحياء **المعقل**؛ أين التحقوا جميعاً **بتلمسان**؛ كما استاء أيضاً لسقوط مجموعة من **بني مرين** أسرى في أيدي السلطان الزياني. أضف إلى ذلك كله؛ الشكوى التي وصلته من **الجزائر**.[1] وعليه؛ فقد استفاد **أبو سالم** ــ كغيره من ملوك الدولة المرينية ــ من هذه الذرائع الجاهزة؛ فأرسل **لأبي حمو** يطلب منه إطلاق سراح الأسرى، وإرجاع أحياء **المعقل** إلى ديارهم. ولما

[1] هذا ما أشار إليه عبد الرحمن بن خلدون، وأخوه يحيي: العبر، مج: 7، ص: 260. وبغية الرواد، ج: 2، ص: 146. أما صاحب زهر البستان؛ فحصر السبب في الشكاوى المتتالية التي بعث بها المرينيون المقيمون بالجزائر. ورقة: 36 و.

رفض السلطان الزياني تلبية طلبه؛ أعلن التعبئة العامة؛ وجهز جيشه بالعدة والعدد؛ وانطلق نحو **تلمسان** في منتصف عام 761هـ/1359م.

ولما وصلت أخبار التعبئة التي قام بها **أبو سالم** للسطان **أبي حمو**؛ بعث لإحضار والده **أبي يعقوب** ووزيره **عبد الله بن مسلم** من شرق البلاد؛ حيث قرّر ــ بعد مشاورات ــ الخروج من **تلمسان**؛ والقيام بالمناورة المعتادة منذ **يغمراسن**؛ لإجبار **المرينيين** على العودة إلى ديارهم. وهكذا كان؛ فبمجرد دخول **أبي سالم** إلى **تلمسان**؛ بادر **أبو حمو** باكتساح مواطن **المرينيين**؛ إذ نازل **وطاط**، والبلاد المطلة على **ملوية**، **وكرسيف**؛ فخرب العمران، وأشعل النيران، وأفنى الزرع، وساق الضرع[1]. فذهل **أبو سالم**، وخاف من تعاظم الفساد، وخروج العباد؛ فسارع إلى تكليف الأمير

---

[1] ((وخيم إزاء أجرسيف [أقرسيف] من قرى ملوية، فأخذتها من الغد عنوة سيفه؛ واجتاح الناس ما كان بها من كراع، ومتاع، وزروع؛ ثم أحرقوها؛ فأمست رميماً؛ وأدلج نصره الله مع الوادي صعداً؛ ومرّ بقرى: أرجو ووطاط، وتامنصرت؛ فأغرى بها العفاء؛ وتركها حصيداً؛ كأن لم تغن بالأمس؛ وأمّ ثنية تاغروطت المفضية إلى مدينة فاس؛ مصمماً لحصارها؛ وتنادى أهل تلك القرى بالثبور حاشرين؛ وطاروا إلى ملكهم في تلمسان بالخبر؛ فلم يسعه إلاّ حماية دار ملكه)). بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 176 - 177.

محمد (القبي)[1] **بن عثمان بن أبي تاشفين** المكنى **أبا زيان**؛ بولاية **تلمسان**، وزوده بالآلة والمال، ودعمه بجماعة من **بني توجين، ومغراوة**؛ قدموا في جملته من **المغرب**؛ ثم أسكنه قصر أبيه. وعاد هو إلى **فاس**؛ بعد أن أقام في **تلمسان** خمسة أيام[2].

وكان **أبو زيان القبي** هذا مقيماً إجبارياً في **المغرب الأقصى**؛ بعد سقوط دولة جدّه **أبي تاشفين**. ولما عزم **أبو سالم** على غزو **تلمسان** اصطحبه معه. وأسند إليه ولاية بلده؛ نكاية في **أبي حمو**. ولكن جيش هذا الأخير؛ زحف نحو حاضرة الدولة؛ بعد عودة **أبي سالم** إلى **فاس**. فخافه **القبي**، وخرج مهزوماً ومتنقلاً بين: **البطحاء، ومليانة ووهران وونشريس** في حضن من بها من **بني مرين**، ومن انحاز إليهم من **مغراوة، وتوجين**. ولما خسر معاركه كلها مع جيش **أبي حمو**؛ عاد إلى **فاس**.

وإثر ذلك؛ وضعت الحرب أوزارها بين الطرفين؛ ومال **أبو سالم وأبو حمو** إلى السلم؛ فبعث هذا الأخير ولده **أبا تاشفين** إلى **فاس** سنة

---

[1] **أي عظيم الرأس.**
[2] **زهر البستان، ورقة: 38 و.**

762هـ/1360م لعقد معاهدة الصلح والاتفاق على السلم. ولكن إصرار السلطان المريني على الاحتفاظ **بوهران** أفسد النوايا، وأفشل المسعى[1]. وعاد الشنئان والخلاف بين الطرفين إلى سابق عهده؛ خاصة بعد موت **أبي سالم**. ((**ورجع السلطان أبو حمو إلى معاقل وطنه يستنقذها من ملكة بني مرين؛ فافتتح كثيرها، وغلب على مليانة والبطحاء، ثم نهض إلى وهران، ونازلها أياما واقتحمها غلاباَ، واستلحم بها من بني مرين عدداً؛ ثم تغلب على المدية والجزائر**))[2].

وفي هذه الأثناء؛ دخلت الدولة المرينية في دوامة من الصراعات والخلافات؛ حيث انتصب على عرشها عدد من السلاطين المغلوب على أمرهم. وقد أرسل السلطان **أبو حمو** دلوه هذه المرة في تلك المياه الساخنة؛ إذ استدعى الأمير **عبد الحليم ابن أبي علي بن أبي سعيد بن يوسف بن عبد الحق** من **غرناطة**؛ وواعده بمساعدته على انتزاع العرش المريني من أيدي منافسيه. وبالفعل؛ قدم الأمير المذكور؛ فاستقبله **أبو حمو** بحفاوة وإكبار في

---

[1] بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 197 - 198.
[2] العبر، مج: 7، ص: 261.

غرة ذي الحجة من عام 762هـ/1360م؛ وجهزه بما يلزم من آلة ومال وعتاد ورجال. غير أنه اشترط عليه القبض على ابن عمه **أبي زيان بن عثمان بن عبد الرحمن**، وإرساله إليه. فقبض عليه؛ ولكنه فرّ كما سيأتي ذكره. وخلال ذلك؛ وفد على باب **أبي حمو؛ محمد بن السبيع بن موسى ابن إبراهيم اليرنياني**؛ وهو من كبار أعيان الدولة المرينية؛ قدم لاجئاً إلى **تلمسان** هارباً من خصومه في **فاس** وكان شاعراً؛ فمدح السلطان الزياني بقصيدة طويلة؛ استهلها بقوله[1]:

تطاول ليلي فاستفز منامي
وطال سهادي فاستطال سقامي
وحرم سبعاً ليس للنفس بعدها
مقام فطيب العيش جد حرامي
منامي وعقلي والفؤاد وسلوتي
وصبري ولبي والتذاذ طعامي

[1] بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 200 - 201. وزهر البستان، ورقات: 56 ظ - 57 و.

فأجابه السلطان **أبو حمو** بقصيدة غراء قال فيها[1]:

تَذكَّرْتُ أطلالَ الرُّبُوعِ الطَّواسمِ
وما قد مَضَى من عَهْدها المُتقادمِ
وقفْتُ بها من بَعْدِ بُعْدِ أنيسها
بصبرٍ منافٍ[2] أو بشوقٍ مُلازمِ

وبعد انقضاء عيد الأضحى؛ وفد آخرون من **بني مرين** إلى **تلمسان**؛ لمبايعة الأمير **عبد الحليم**، والمسير في ركابه. فأحسن إليهم **أبو حمو** – وإلى الأمير المريني – بالمال والكسي الثمينة، والأسلحة الجليلة، والظهر الفاره المناسب، كما خصّ ضيفه **عبد الحليم** بشارة الملك؛ وأمر **المرينيين** الواصلين من **الجزائر** ببيعته؛ كما أُسْنِدَتْ وزارته إلى **محمد السبيع** المذكور؛ ثم خرج **أبو حمو** بنفسه لتوديعهم؛ في يوم السبت 22 من ذي الحجة سنة 762هـ؛ وأمر

[1] سيأتي تمام هذه القصيدة في الأجزاء الخاصة بالشعراء. وهذه القصيدة من البحر الطويل؛ وهي موجودة في بغية الرواد، ج: 2، وزهر البستان، وواسطة السلوك في سياسة الملوك (مخطوط المكتبة الوطنية الجزائرية). والإحاطة في أخبار غرناطة.

[2] أي بصبر زائد وطويل.

بـأن تصحبهـم مفـرزة مـن **بـني عبـد الـواد** إلى تخـوم بلادهـم؛ فانطلقـوا معهـم إلى وادي **ملويـة**؛ ثـم عـادوا.[1]

وقـد حـاول **أبـو حمـو** استغـلال فرصـة ضعـف **المرينيـين** وميلهـم إلى الهدنـة ورغبتهـم في وضـع السـلاح. فالتفـت إلى بنـاء دولتـه، وتنظيـم إدارتـه، وتعميـر **تلمسـان** بالمرافـق اللازمـة. كمـا حـرص عـلى تمهيـد الديـار الشرقيـة وتطويـع قبائلهـا المتمـردة. فبعـث وزيـره **عبـد اللـه بـن مسلـم** إلى تلـك الجهـات؛ فمهـد البـلاد، وأخضـع العبـاد: ((**فاستضـاف لإيالـة الخليفـة ــ نصـره اللـه ــ وطـني: حمـزة، وبـني حسـن، وجـاس خلالهـا الـوادي الكبيـر؛ ثـم عـرج ذات اليسـار؛ أخـذاً عـلى ثنيـة تاغـوزت، وبيطـار؛ فاستضـاف أيضـاً زواوة ومـا إليهـا**))[2].

وكـان والـد السلطـان **أبي حمـو** ــ **أبـو يعقـوب يوسـف** ــ مقيمـاً في مدينـة **الجزائـر** بعـد فتحهـا. فوافتـه المنيـة بتلـك المدينـة؛ في أوائـل شعبـان مـن سنـة 763هـ/1361م؛ فجُهِّـز، ونُقِـل إلى **تلمسـان** في جنـازة مهيبـة. ولمـا وصـل جثمانـه استقبلـه **أبـو حمـو** بحـزن وخشـوع؛ ثـم دفنـه في ريـاض موجـودة **ببـاب إيـلان**؛

---

[1] **بغيـة الـرواد، ج: 2، ص ص: 213 - 214.**

[2] **نفسـه، ص ص: 226 - 227.**

ونقل جثماني أخويه: **أبي سعيد وأبي ثابت** إلى جواره. وبعدها توافدت وفود العزاء من **المغرب** وربوع الدولة. وبعد الدفن؛ أمر ببناء مدرسة وزاوية على قبور والده وأعمامه؛ خصّصت لها الأوقاف اللازمة وعيَّنت لها الجرايات الكافية. وكان **أبو حمو** قد نظم قصيدة في رثاء والده جاء فيها:[1]

صب تذكر عهداً بالحمى سلفا
فظل يسكب دمعاً هاطلاً وكفَا
وبات من شدة الإشراف في قلق
وخامرت عقله الأفكار فانتلفا

وبعد انتهاء مراسم الجنازة؛ تفرغ **أبو حمو** لبناء دولته من جهة، ومن جهة أخرى انشغل في إطفاء نار الفتنة التي أشعلها ابن عمه **أبو زيان محمد بن أبي سعيد عثمان بن عبد الرحمن.**

---

[1] **ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء الخاصة بالشعراء. ولم ترد هذه القصيدة إلاّ في زهرالبستان؛ نظمها أبو حمو في بحر البسيط. ونقلها حاجيات إلى كتابه ((أبو حمو موسى الثاني حياته وآثاره)). أما يحيى بن خلدون؛ فقد انفرد بإثبات قصيدة أخرى؛ نسبها إلى هذ المناسبة؛ من بحر الكامل؛ ومطلعها هكذا:**

دنفٌ تذكَّرَ حسرة التوديع وهنِيٌّ وصل بالنوى مقطوع
ولِما عرا من فقد خير أحبتي ومرارة التوديع والتشييع
فبكيت من أسفٍ لذاك كما بكت حزناً عليه منازلي وربوعي

وهذا الأمير هو ابن السلطان **أبي سعيد عثمان**؛ الذي قتله **أبو عنان** في عام 753هـ/1352م؛ بعد معركة **أنكاد**. حينها كان هذا الأمير رفقة عمّه **أبي ثابت وأبي حمو** والوزير **يحيى بن داود بن علي بن مجن (مقن)**؛ في طريقهم إلى **إفريقية**؛ أين قُبِض عليهم في نواحي **بجاية**؛ بينما أفلت **أبو حمو** – كما قال يحيى بن خلدون – واستقر **بتونس**. ولما مثلوا أمام **أبي عنان**؛ قتل **أبا ثابت الزعيم**، والوزير **ابن داود**؛ وأبقى على حياة **أبي زيان**؛ واكتفى بسجنه.

ولما تولى **أبو سالم**؛ وتطلع إلى امتلاك **تلمسان**؛ اختار – في البداية – **أبا زيان بن عثمان ابن أبي تاشفين (القبي)**؛ ولمّا فشل في مواجهة **أبي حمو**؛ عوّضه **بأبي زيان** ابن السلطان **أبي سعيد**؛ الذي سبق أن أخرجه من السجن، وضمه إلى جلسائه؛ بين الأعيان وكبار القوم. غير أن خطة **أبي سالم** ماتت بموته؛ فَزُجَّ – من جديد – **بأبي زيان** في السجن؛ خلال الصراع على السلطة بين أمراء **بني مرين**؛ ولكنه انتهز غفلة المكلفين به؛ فهرب إلى **بني حسين** من **أعراب المعقل**؛ ومنها انتقل إلى

أحـد أحيـاء **بـني عامـر**؛ أيـن أوقعـه حسـن حظـه في حلـة الشيـخ **خالـد بـن عامـر**؛ الـذي كـان أيامهـا مغاضبـاً **لأبي حمـو**؛ بسبـب إيثـاره أخـاه **شعيبـاً** عليـه في رئاسـة قبيـل **بـني عامـر**[1]. وعـلى هـذا؛ فقـد لـبى طلـب **أبي زيـان**؛ وأجـاره، وواعـده بالحمايـة والمناصـرة ضـد ابـن عمـه السلطـان. وبالفعـل؛ حـاولا التقـدم مـع مؤيديهمـا نحـو **تلمسـان**؛ ولكـن خبرهـم وصـل إلى **أبي حمـو**؛ فبـادر بتسريـح عسكـر لتأديبهـم؛ فشتتـوا شملهـم، وأبعدوهـم عـن حاضـرة الدولـة. ثـم أن **أبـا حمـو**؛ استمـال شيـخ **بـني عامـر**، وأرضـاه ببعـض المـال؛ طالبـاً منـه إقصـاء **أبي زيـان** إلى بـلاد **ريـاح**؛ ففعـل؛ ونقلـه إلى ديـار **الـدواودة**. ومنئـذ؛ بـدأت مرحلـة مؤلمـة في حيـاة الدولـة الزيانيـة؛ إذ غـدت ـ خلالهـا ـ قبائـل المغـرب الأوسـط تتـاور في عصيانهـا ضـد الدولـة؛ متخـذة مـن **أبي زيـان** واجهـة وذريعـة للعصيـان، والخـروج عـن سلطـة **أبي حمـو**. وهكـذا؛ أضـحى السلطـان الزيـاني يحـارب في جبهـات متعـدِّدة:

ـ الأولى ضـد الأطمـاع التوسعيـة **لبـني مريـن**.

ـ والثانيـة ضـد خصمـه **أبي زيـان محمـد**.

---

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 243. وزهر البستان، ورقات: 77 و - 77 ظ. والعبر، مج: 7، ص ص: 262 - 263.**

ــ والثالثة ضد القبائل المختلفة؛ التي سلكت سبيل التمرد والعصيان.

وكان النصر حليف **أبي حمو** في السنوات الأولى؛ بفضل ما يتمتع به وزيره وقائد جيشه **عبد الله ابن مسلم الزردالي**؛ من دهاء، ومواهب قتالية، وحنكة سياسية. ولكن الحال تغير إثر موت هذا الوزير؛ في آخر ذي القعدة من عام 765هـ/1363م. حيث تعرض **أبو حمو** إلى بعض الهزائم المؤلمة؛ بسبب اعتماده الكلي على **الأعراب**؛ الذين يتصفون بالتقلب وعدم الثبات، وهشاشة المواقف، وسرعة الانفضاض، والجرأة في التخلي عن الحلفاء والتنصل عن كل ارتباط لا يعود بالفائدة المادية عليهم.

ونتيجة لحاجة الدولة، واعتمادها الكلي على قبائل **بني هلال** ــ في زمن **أبي حمو الثاني** ــ فقد سمت تلك القبائل إلى مشاركة القبائل **الزناتية** في الثروة والسلطان، واقتسمت معها الأراضي التلية؛ وزاحمتها في المراعي الخصبة، والمياه الجارية؛ فكثرت أموالهم، وتعاظمت قوتهم، واتسع نفوذهم. وازدادوا قوة واستفحالاً؛ جراء الصراعات الداخلية بين أعضاء الأسرة الحاكمة في دولة **بني زيان** وغيرها؛ إذ استغلوا تلك الصراعات في ابتزاز الأطراف

المتنازعة كلها؛ بحيث وضعوا قاعدة نفعية ثابتة؛ فمن يدفع أكثر، يحظى بودهم الأوفر، ودعمهم الأمتن.. لهذا؛ أصبحت ديار **المغرب الأوسط** عبارة عن ساحة واسعة للفتن والصراعات المتشعبة؛ ذات الألوان المختلفة؛ بحيث تنفجر معركة هنا بين قبيلتين شقيقتين؛ وفي الجهة الأخرى تلتهب نار الحرب بين قبيلتين متنافرتين ومتباعدتين؛ وفي الوقت ذاته تجتمع قبائل متنافرة على مقاتلة الدولة وأنصارها؛ حتى وإن كانوا أقرباء؛ لأن الفوائد المادية هي الحكم المحلل والمحرم.

ومع هذا؛ فقد استطاع **أبو حمو** ـ بفضل دهائه وإصراره وشجاعته ـ كسر شوكة أولئك **الأعراب**؛ بواسطة شن الحرب حيناً، وبواسطة الحيلة والإغراء حيناً آخر؛ ثم بواسطة النبش عن التناقضات والتضريب بينهم في كل مرة. فانتهى الأمر به سنة 770هـ/1368م إلى مسك زمام الأمر، وضرب أعدائه في مقتل، وألجأ غريمه **أبا زيان** إلى قمم الجبال المنيعه لدى قبيلة **حصين** في مرتفعات لمدية[1].

---

[1] **أنظر تفاصيل هذا في العبر، مج: 7، ص ص: 271 - 274.**

هــذا هــو مجمــل؛ مــا يخــص الصــراع بيــن **أبي حمــو** مــع القبائــل المتمــردة مــن جهــة، وابــن عمــه **أبي زيــان** مــن جهــة أخــرى. أمــا بخصــوص أعدائــه الأقويــاء **بــني مريــن؛** فقــد خفتــت نــار جذوتهــم بعــد مــوت **أبي سالــم؛** جــراء الخلافــات الداخليــة والصراعــات عــلى سريــر الحكــم. ولمــا تعافــت أحوالهــم، والتأمــت صفوفهــم؛ عــادوا إلى أطماعهــم السالفــة، ورغبتهــم في التوســع شرقــاً، وامتــلاك **تلمســان** درة **المغــرب الأوســط**.

وعــلى ذلــك؛ لــم يفتقــر السلطــان المريــني الجديــد ــ **أبــو فــارس عبــد العزيــز بــن أبي الحســن** ــ للذريعــة المناسبــة؛ إذ وجــد بيــن يديــه شكــوى؛ تقــدم بهــا ــ كالعــادة ــ حليفــه **أبــو بكــر شيــخ بــني عريــف السويدييــن**؛ ضــد **أبي حمــو**: **((ورغبــوه في ملــك تلمســان ومــا وراءهــا؛ فوافــق صاغيتــه إلى ذلــك؛ بمــا كــان في نفســه مــن الموجــدة عــلى السلطــان أبي حمــو؛ بقبولــه عــلى مــن ينــزع إليــه مــن عربــان المعقــل ــ أشيــاع الدولــة وبدوهــا ــ ومــا كــان بعــث إليــه في ذلــك، وصــرف عــن استماعــه. فاعتــزم عــلى الحركــة إلى تلمســان))[1].**

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 275 - 276.**

لـذا؛ فقـد بـادر مـن فـوره بالتعبئـة، والتجهيـز، وحشـد القبائـل والجيـوش؛ وجلبهـم مـن أقطـار المغـرب كلهـا؛ مـن السـوس الأقـصى ودرعـة إلى بحـر الزقـاق؛ حيـث تربـض **سبتـة** وغيرهـا مـن بلـدان الساحـل الشمـالي ثـم انطلـق مـن **فـاس** بعـد انقضـاء عيـد الأضـحى مـن سنـة 771هـ/1369م.[1] ووصـل خبـر الزّحـف **المريـني** إلى **أبي حمـو**؛ حينمـا كـان في **البطحـاء**؛ فعـاد أدراجـه مسرعـاً إلى **تلمسـان**؛ أيـن حـاول حشـد أنصـاره، والتحضيـر لملاقـاة الجيـش المريـني؛ ولكـن قبائـل **عبيـد اللـه والأحـلاف** مـن **المعقـل**؛ تهاونـوا، وتراخـوا عـن نصرتـه؛ بـل تمـادوا فالتحقـوا بعـدوه ملـك **المغـرب**. وكـان **أبـو حمـو** ــ كمـا ذكـر **عبـد الرحمـن بـن خلـدون**؛ الـذي كـان في **تلمسـان** آنئـذ ــ قـد استعـدّ لملاقـاة **المرينييـن**؛ فجمـع مـا تيسـر لـه مـن **بـني عامـر**، وبعـض الأحيـاء مـن **زناتـة**؛ فخـرج مـع تلـك الجمـوع ظاهـر **تلمسـان**؛ في غـرة محـرم مـن سنـة 772هـ/1370م؛ استعـداداً للمواجهـة. فضـرب معسكـره، واستعـرض جنـوده؛ تحضيـراً للزّحـف نحـو عـدوّه. ولكنـه تراجـع؛ حينمـا وصلتـه أخبـار انحيـاز

---

[1] **((ونهض ميمماً تلمسان بالجراد المنتشر أو البحر الطامي أو السحاب المسخر بين السماء والأرض)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 444.**

قبائل **عبيد الله والأحلاف** من **المعقل** إلى السلطان **عبد العزيز**؛ بمداخلة من **ونزمار** شيخ **سويد**[1]. فأدرك – عندها – استحالة التغلب على جمع كهذا؛ وتبين له عدم التكافؤ، واستحالة الصمود أمام هذا الحشد الهائل، والمال الواسع، والسلاح الوافر؛ إذ اختلت – في هذه الحال – موازين القوى؛ نظراً لتفوق **بني مرين** في العدة والعدد، والمال والمدد. فلم يجد **أبو حمو** – حينها – بُداً من ترك **تلمسان**، والتوجه شرقاً مع من معه من **بني عامر**؛ فانطلقوا بكاملهم نحو الشرق؛ وأبعدوا المسافة؛ حتى وصلوا إلى ديار **رياح** و**الدواودة**.

وكان السلطان **أبو فارس عبد العزيز** قد دخل **تلمسان** بسلاسة في عاشوراء من عام 772هـ؛ بعد فترة قصيرة من خروج **أبي حمو** منها. ولم يكتف السلطان المريني بدخول **تلمسان**؛ بل استجاب لنصيحة شيخ قبيلة **سويد** – **ونزمار بن عريف** – فجهز جيشاً أسند قيادته إلى وزيره **أبي بكر بن غازي بن الكاس**؛ وأمره بمطاردة **أبي حمو** ومن

[1] ((وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم إلى أبي حمو؛ فأجفل هو وجنوده وأشياعه من بني عامر)). العبر، مج: 7، ص ص: 682 - 683.

معــه، والقضـــاء عليهــم. فخــرج ذلــك الوزيــر خلفهــم؛ إلى أن وصــل **البطحــاء**؛ أيــن التحــق بــه **ونزمــار بــن عريــف** بجمــع كبيــر مــن **الأعــراب** انطلقــوا كلهــم وراء **أبي حمــو**؛ الــذي أبعــد السفــر، واستقــر في الضفــة الجنوبيــة **لــوادي جــدي** القريــب مــن **الدوســن**؛ في أرض **الــدواودة**. ولكنــه ابتــلي في تلــك البقعــة بنكســة شديــدة؛ جــراء اكتســاح **بــني مريــن** لمعسكــره ليــلاً؛ فانتهــب بكاملــه واستلحــم أتباعــه، وافتــرق جمعهــم، ونجــا **أبــو حمــو** بنفســه إلى **وادي مــزاب**؛ حيــث انتظــر بعــض الوقــت حــتى التحــق بــه الفــل مــن أهلــه وجيشــه. فانطلــق بهــم جنوبــاً نحــو **متليــلي**، ثــم غــرّب بهــم؛ متنقليــن مــن مــاء إلى مــاء، ومــن وادٍ إلى آخــر؛ حــتى اقتربــوا مــن قصــور **بــني عامــر**؛ جنــوب **تلمســان**؛ ثــم انحرفــوا نحــو الجنــوب. عندمــا تبيــن لهــم أن جَمْعــاً مــن **بــني مريــن** في تلــك القصــور.

ووقعــت **لأبي حمــو** ــ في تلــك النــواحي ــ حــوادث ووقائــع مؤلمــة؛ خانــه فيهــا الأتبــاع، وتخــلَى عنــه الحليــف والمجيــر، ونكبــه العــدو والصديــق؛ فصبــر خــلال ذلــك عــلى الشدائــد، وأغــضى الطــرف عــلى زلات أصحابــه، وكتــم غيضــه عــن خيانــة أتباعــه وحلفائــه.

فأفلت من فخاخ **الأعداء**، وخيانة الأصدقاء والأقارب.
ثم انتهى حاله بعد اشتباكه مع **بني مرين** وحليفه القديم؛ المنحاز إلى أعدائه؛ **خالد بن عامر** إلى الهزيمة، والتسلل في ظلمة الليل؛ نحو مضارب **عبد الله بن صغير بن عامر**؛ حيث وجد منهم ـ بعد الجفوة ـ كل تكريم وتبجيل: ((**فأرحبوا وأسهلوا وأجاروا وستروا**))[1]. وأخفوه عندهم يوماً وليلة؛ ثم جهّزوه بالظّهر المناسب، والزّاد الضروري، وكلفوا من يرافقه نحو الجنوب؛ فانطلق في رحلته من موضع إلى آخر؛ حتى وصل إلى **تيقورارين بتوات**؛ في نواحي **أدرار** الحالية؛ أين وجد من سكانها كل إكرام وتعظيم؛ فأسكنوه في قصر تابع **لأولاد آدم**؛ الرابض في الشط الشمالي من السبخة الممتدة بينهم.

ولما استقر في مقامه الجديد؛ فاضت قريحته بقصيدة معبرة؛ ضمنها معاناته، وأحزانه، وآلامه، واستياءه من غدر أتباعه وخيانة خدّامه؛ ثم أشبعها بالآمال والتفاؤل بالمستقبل، وشحنها بالإيمان بالله وبقدره، وحمّلها بمعاني الإيمان والرجاء في النصر والعون من الله سبحانه. نظم **أبو حمو** هذه

---

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 469.**

القصيدة في البحر الكامل. ولم ترد إلاّ في بغية الرواد؛[1] ومطلعها:

قفْ بالمنازل وفقة المتردّدِ
ما بين نؤي بالطّلول وموقدِ
وإذا مررت على الّربوع مسلماً
فاسئلْ عَنِ القلب الغريب المفردِ

لقد تخلَّى عنه الحليف والقريب والصديق في أحلك الأيام؛ وانساقوا وراء المنافع والوعود المغرية؛ كما اختار آخرون السلامة من كل شرّ محتمل. فوجد **أبو حمو** نفسه ــ في الأخير ــ وحيداً، شريداً؛ لا حليف ولا صديق. ولكنه لم يستسلم لليأس والانكسار؛ فبَعْدَ أن بقي ــ بعض الوقت ــ في نواحي **مزاب**؛ ترقباً لمن سيلحق به من فلول قومه، وأخلص الناس إليه من **بني عامر** وغيرهم. ولمّا التأم جمعهم، وانضمت إليه النخبة من أنصاره؛ انطلق بهم في رحلة عجيبة؛ جاب خلالها **الصحراء** والسهوب الجنوبية، وتنقل من ماء إلى آخر؛ إلى أن حلّ بالتخوم الجنوبية **لتلمسان**؛ فشن حرب استنزاف

[1] **ستأتي هذه القصيدة كاملة في الأجزاء الخاصة بالشعراء.**

ضـد **المرينيين** وحلفائهم من **أعراب زغبة والمعقل**؛ ومن التحق بهم من **بني عامر**؛ الخارجين عنه. وبعد تيقنه من استحالة مواصلة المقاومة في تلك الظروف؛ عمل بنصيحة جماعة **عبد الله بن شيقر ابن عامر**؛ فرحل نحو الجنوب؛ إلى حيث هو في ملجئه في **بتيقورارين**.

لقد بقي **أبو حمو** – في وضع الانتظار – إلى منتصف عام 774هـ/1372م؛ حيث تكرَّر ما حصل **لبني مرين** من قبل؛ إذ تخلَّوا فجأة، – وفي حالة ارتباك عن **تلمسان**؛ بعد موت أبي فارس عبد العزيز – وتسابقوا إلى عرش **فاس**؛ فلم يجد وزير السلطان المريني الهالك – **أبو بكر بن غازي بن الكاس** – بداً من التخلي عن **تلمسان**، وتعيين **إبراهيم بن أبي تاشفين** – الذي كان محجوزاً لديهم في **فاس** – والياً عليها؛ ثم انطلق مرفوقاً بولد السلطان الميت – وكان صبياً في سن الخامسة من عمره – سارع به لحاضرة الدولة؛ كي يُنَصِّبه على سدَّة الحكم خلفاً لأبيه. ولكن القائد **عطية بن موسى** – وهو أحد موالي **أبي حمو** – أفشل خططهم؛ وبادر بامتلاك **تلمسان**، ورفع الدعوة على

المنابر لأبي حمو: ((**وفي سادس جمادى الأولى؛ ورد على الخليفة ـ نصره الله ـ بالقصر المسمى بقصر أولاد** آدم؛ **رسل عبد الله بن شيقر (صغير) بالبشارة**))[1]. عندها؛ بعث **أبو حمو** ـ فوراً ـ ولده **أبا تاشفين** أمامه؛ ثم لتحق به؛ ودخل إلى حاضرة ملكه في الرابع والعشرين من جمادى الأولى من عام 774هـ/1372م؛ فاقتعد السرير، وباشر الحكم والتسيير. وقد عبر عن ذلك كله عبد الرحمن بن خلدون بقوله: ((**وكانت إحدى الغرائب. وتقبض ساعتئذ على وزرائه، واتهمهم بمداخلة خالد بن عامر فيما نقض من عهده، وظاهر عليه عدوّه؛ فأودعهم السجن، وذبحهم ليومهم حنقاً عليهم**))[2].

لقد سلط سيف القصاص على من خانه من الوزراء، ومن تآمر عليه. حيث أمر بقتل: **محمد ابن عمر البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد بن تصاليت.** كما أمر بنفي **الحاج موسى بن علي بن برغوث** إلى **الأندلس**[3]. ثم انثنى لاستعادة أملاك الدولة الشرقية؛ فجهّز وزيره الوفي **عطيّة بن**

---

[1] بغية الرواد، ج: 2، ص: 486.
[2] العبر، مج: 7، ص: 281.
[3] بغية الرواد، ج: 2، ص: 491.

موسى بجيش وافر العدة والعدد، وبعثه إلى الجهات الشرقية لإخضاع القبائل الخارجة عن طاعة الدولة، وتمهيد البلاد المغتصبة من قبل **بني مرين**؛ فخرج في آخر جمادى الأولى؛ إذ بدأ **بمغراوة** فاستلحم أبطالهم، وشرد رجالهم، ودمّر ديارهم؛ ثم ربض في مركز دائرتهم المعروف بـ **تيمزوغت**؛ بعد أن افتك منهم ــ قهراً ــ البيعة **لأبي حمو**.

وللعبرة؛ هذه هي حال **بني مرين** في كل مساعيهم التوسعية؛ إذ عجزوا عن الاحتفاظ بما استولوا عليه غصباً في **تلمسان**، وما يتبعها شرقاً؛ منذ قيام دولتهم وإلى نهايتها. كما أن المشهد نفسه يتكرر في كل مرة؛ حين تسارع حاشية الدولة المرينية؛ إلى التخلي عن **تلمسان**، والركض نحو **فاس؛** خوفاً على عرش الدولة من سطوة الطامعين. وقد تكرر ذلك مراراً؛ كالتالي:

ــ لقد حدث هذا إثر موت **أبي يعقوب يوسف** في معسكره المحاصر **لتلمسان**؛ عندما عقد حفيده الأمير **أبو ثابت** مع **بني زيان** صلحاً؛ وسارع لاقتناص عرش **فاس**.

ـ وحدث ذلك أيضاً خلال غزوة قام بها **أبو سعيد عثمان بن يعقوب المريني لتلمسان** أيام **أبي حمو الأول**؛ فخدعه السلطان الزياني، وأوهمه أنه متفق مع بعض حاشيته على التآمر عليه؛ وبعث إليه الرسائل المتبادلة بينه وبينهم؛ فخاف على عرشه، وانثنى عائداً إلى **فاس**.

ـ كما أن ورود أخبار هزيمة **أبي الحسن** في **القيروان**؛ أجبر ولده **أبو عنان** على إيداع **تلمسان**، بين يدي **عثمان بن جرار**؛ الذي انقض عليه، واستبد بالمدينة دونه، ودعا لنفسه.

ـ ووقع شبه ذلك أيضاً بعد وفاة **أبي عنان**؛ فانشغل المتنافسون على العرش، وأسلموا الحامية المتواجة داخل مدينة **تلمسان** لمصيرها المحتوم؛ فسقطت بيد **أبي حمو الثاني**.

ـ وما حدث ـ كذلك **لأبي سالم** ـ يدخل في هذا الاعتبار؛ إذ أجبر على ترك **تلمسان** ـ بعد خمسة أيام من الإقامة بها ـ ووضعها في يد **أبي زيان القبي**، ثم سارع لنجدة مدن مملكته التي اكتسحها عدوه **أبو حمو**.

ـ وبعد موت **أبي سالم**؛ نشبت خلافات داخل الأسرة الحاكمة والحاشية ـ على من يتولى الحكم ـ فاضطر المتنافسون إلى تسليم **تلمسان** إلى **أبي حمو** بواسطة عقد صلح، ثم انطلقوا نحو **فاس**.
ـ وها هو يتكرر المشهد ذاته ـ الآن ـ إثر موت **أبي فارس عبد العزيز**؛ حيث بادر الوزير **أبو بكر ابن غازي بن الكاس** إلى إخلاء **تلمسان**، والركض نحو **فاس**؛ ليتسنى له الاستبداد، ووضع أحد أبناء سيده ذي الخمس سنين على العرش.

المهم؛ أن هذه الشواهد كلها؛ تثبت محدودية الدولة المرينية، وعدم قدرتها على التوسع أكثر مما تمتلكه. ومع هذا لم يستوعب المرينيون الدرس؛ واستمروا في غيِّهم إلى أن ما لا نهاية.

وجملة القول؛ فإن المصادر التاريخية مليئة بما جرى للسلطان **أبي حمو** من معاناة، وأضرار؛ نتيجة للعوامل المذكورة. ومع ذلك، فقد استطاع التغلب والصمود أمام الصعوبات كلها؛ ففرض على أعدائه خططه وأهدافه، وأجبرهم على تكرار مهادنته كلما وضعهم أمام الأمر الواقع. وعلى الرغم من السعي الحثيث والإصرار المرير **لبني مرين** على ضم **تلمسان** إلى ممتلكاتهم؛ إلاّ أنهم أجبروا في كل مرة

على التسليم بوجود دولة **بني زيان** في حاضرتها **تلمسان**. وقد تكررت غزوات **المرينيين** الخائبة لهذه المدينة مرات عديدة، ربما فاقت؛ العشرين غزوة؛ انتهت كلها بالفشل؛ وبالمقابل؛ بقيت **تلمسان** حاضرة للدولة **الزيانية** إلى سنة 962 هـ/1554م؛ حيث سقطت في عهد **العثمانيين** بيد **صالح ريس**. في وقت؛ كانت الدولة المرينية قد زالت واندثرت منذ زمن.

ولفهم ما جرى **لأبي حمو**، وأسباب هزيمته أمام **المرينيين**؛ يستحسن النظر للموضوع من جوانب عدة، وعوامل شتَّى؛ كانت قد أصابت نظام الدولة الزيانية في عهد هذا السلطان في مقتل. فبالعودة بالذاكرة إلى سياق الحديث؛ بخصوص خروج **أبي حمو** عن **تلمسان**، وتَحَيُّزه إلى قبيلة **بني عامر**؛ وانطلاقهم جميعاً نحو ديار **الدواودة** من **رياح**. وبالمقابل؛ قيام السلطان **عبد العزيز** بإرسال جيش كبير؛ كلفه بمطاردة السلطان **الزياني** ومن معه؛ والقضاء عليهم.

ففي أثناء ذلك كله؛ حدثت بعض المواقف التي تستحق الإعلان عنها، والتذكير بها، والتأمل فيها:

ـ أولها: تحول أعرب **المعقل**، وفئة من أعراب **بني عامر** ـ أتباع الشيخ **عبد الله بن شيقر (صغير)**[1] ـ وانقلابهم فجأة، وخذلانهم لحاميهم وحليفهم **أبي حمو**؛ الذي أَبَى إخفار ذمته بخصوص عشائر **المعقل**؛ فرفض طلب السلطان المريني؛ القاضي بطردهم من حِمَى الدولة **الزيانية**. وكان هؤلاء الأعراب من **المعقل** ـ في سابق عهدهم ـ ينتجعون في رحاب الدولة المرينية؛ ولما التحق **عبد الله بن مسلم الزردالي** ـ والي **درعة** ـ **بأبي حمو** رافقوه إلى حمى الدولة الزيانية؛ فأقطعهم **أبو حمو** الأراضي، ونظمهم ضمن حلفائه، وضمّهم إلى دولته؛ عاملاً على الاستعانة بهم؛ ضد قبائل **زغبة**؛ وخاصة **سويد**؛ حلفاء **المرينيين**. وقد حرص السلطان المريني **أبو سالم** على استعادتهم؛ ولكن ضغوطه على **أبي حمو** فشلت. ولمّا انتصب السلطان **أبو فارس عبد العزيز** على عرش **فاس**؛ أرسل إلى **أبي حمو** يكرِّر طلب **أبي سالم**؛ في إخراجهم من أراضي الدولة الزيانية؛ غير أن هذا الأخير رفض ـ أيضاً ـ

---

[1] **قال يحيى بن خلدون: ((ميز [أبو حمو] به بني عامر، وأعطى مراتبهم المعتادة؛ سِوَى عبد الله بن شيقر [ربما صغير] ابن عامر؛ في أخلاط منهم؛ شايعوا ملك المغرب)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 449.**

التخلي عنهم. فوجد **أبو فارس عبد العزيز** في رفضه ذريعة لغزو **تلمسان**. غير أن أولئك **الأعراب**؛ لم يردّوا التحية بأحسن منها؛ بل خذلوا **أبا حمو** في محنته، وتخلوا عنه عندما احتاج إليهم؛ فتكاسلوا عن نصرته. والأدهى والأمر؛ أنهم انضموا إلى صفوف عدوِّه السلطان المريني؛ فازداد قوة وعنفواناً بهم:[1] ((**وانتبذ قبيل عبيد الله كافة إليه** [أي إلى السلطان المريني]؛ **خديعة، ولؤماً، وكفراً للإنعام**))[2].

ـ وثانيها: تحول **عبد الرحمن بن خلدون** عن **أبي حمو**، وقبوله القيام بدور المحرِّض ضدّه. مع أنه لَقِيَ كل حظوة وحُسنَى في البلاط الزياني؛ حيث كان أخوه **يحيى** كاتباً للسِّرِّ لدى السلطان **أبي حمو**؛ كما وجد عبد الرحمن من هذا الأخير كل تعظيم وإكبار. ولكنه ـ مع ذلك ـ رضي بالتآمر عليه، والقبول بتقمص دور الدّاعية للسلطان **المريني**. وفي

---

[1] **((وتحيز من كان معه من عرب المعقل الأحلاف وعبيد الله إلى السلطان عبد العزيز؛ بمداخلة وليهم ونزمار؛ واجتمعوا إليه، وسرح معهم صنائعه؛ فارتحلوا بين يديه، وسلكوا طريق الصحراء. وبلغ خبر تحيزهم وإقبالهم [إلى ملك المغرب] إلى أبي حمو؛ فأجفل هو وجنوده، وأشياعه من بني عامر، وسلكوا إلى البطحاء. ثم ارتحلوا عنها، وعاجوا على منداس، وخرجوا إلى بلاد الديالم؛ ثم لحقوا بوطن رياح؛ ونزلوا على أولاد سباع بن علي بن يحيى)). العبر، مج: 7، ص: 683.**

[2] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 444.**

هذا؛ يعترف **ابن خلدون** بنفسه؛ أنه توجه إلى **رياح والدواودة**؛ حاثاً إياهم على نبذ عهد السلطان الزياني؛ واتباع السلطان المريني **عبد العزيز**.[1]

والعجيب في الأمر؛ أن **المرينيين** ضبطوه في **هنين**؛ قادماً من **تلمسان**؛ أين كان في ضيافة السلطان **أبي حمو**؛ الذي حمله رسالة إلى **ابن الأحمر** سلطان **غرناطة بالأندلس**[2]. فقبض عليه؛ واستعمل في مهمة دعائية لصالح **المرينيين**، وضد مضيفه السلطان المذكور.

---

[1] **يقول عبد الرحمن بن خلدون في هذا السياق معترفاً: ((وسرحني إليهم [أي الدواودة] يومئذ السلطان عبد العزيز؛ يحملهم على الطاعة، والعدول بهم عن صحابة بني عامر وسلطانهم؛ وسرح فرج بن عيسى بن عريف إلى حصين؛ لاقتضاء طاعتهم، واستدعاء أبي زيان إلى حضرته أو نبذهم عهده. وانتهينا جميعاً إلى أبي زيان؛ ففارقه أولياؤه، ولحق بأولاد يحيى ابن علي بن سباع من الدواودة. وانتهيت أنا إليهم؛ فحفظت عليهم الشأن في جواره؛ كما كانت مرضاة السلطان؛ وحذرتهم شأن أبي حمو وبني عامر؛ وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي؛ فدلوهما على طريقه؛ وأغذوا السير وبَيَّتوهُم بمنزلهم على الدوسن؛ آخر عمل الزاب)). العبر، مج: 7، ص ص: 276 - 277. 684. 936 - 940. أنظر أيضاً تفاصيل هذا؛ في كتاب التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، ص ص: 135 - 139.**

[2] **وأشار عبد الرحمن بن خلدون إلى هذا بقوله: ((وقضى عيد الأضحى؛ وطلبت منه [أي من أبي حمو] الإذن في الانصراف إلى الأندلس؛ لتعذر الوجهة إلى بلاد رياح؛ وقد أظْلَمَ الجَوُّ بالفتنة، وانقطعت السبل؛ فأذن لي، وحَمَّلني رسالة فيما بينه وبين السلطان ابن الأحمر؛ وانصرفت إلى المرسى بهنين)). التعريف بابن خلدون، ورحلته غرباً وشرقاً، ص ص: 133 - 134.**

ـ وثالثها: مفارقة **بني توجين** و**بني راشد** صفوف **أبي حمو** ـ في جهات **منداس** ـ وتخليهم عنه في أحلك الأيام: ((**سِوَى رجال صبر منهم**))[1].

ـ ورابعها: تحول **يحيى بن خلدون**؛ الأخ الأصغر **لعبد الرحمن**. عن الاستمرار في خدمة **أبي حمو**؛ الذي يعتبر صاحب سرّه وكاتب إنشائه المقرب لديه. لقد تخلى عن سيِّده عندما ضاقت به الحال. ويقول هو بنفسه: ((**ومن هنا** [أي من سبخة زاغر بنواحي الجلفة حالياً] **فارقته ـ أيده الله ـ لخيلات سوداوية اعتورتني، ونزعات شيطانية تجاذبتني، وسُوء بخت تقاعس عن إدراك الفخر برحلي، وشقاء مكتوب أهوى إلى درك الخسارة بي. ولا حول وقوة إلاّ بالله.**

ولولا أن أفضح مستوراً، وأخلد في بطن الأوراق وصماً مشروحاً؛ لأبنت ما جرى، وقلت كيف كان؛ ولكن فضله [يقصد أبا حمو] **ومجده محا السيئات، وجلا بمنصه العفو المحاسن. والاعتراف إنصاف، والندم توبة؛ ولا ذنب ـ كما ورد ـ مع إقرار**))[2].

---

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 445.**
[2] **نفسه، ص: 445.**

وربما قصد **يحيى بن خلدون** ــ بما ذكره في الفقرة الأخيرة ــ أنه تعرض لضغوط أو إغراءات أو مؤثرات من جهات معينة؛ تجنب فضحها. وقد يكون المعني بالأمر هو **عبد الرحمن بن خلدون**؛ الذي كان له تأثير عليه؛ إذ اصطحبه معه إلى **المغرب الأقصى** ثم إلى **بجاية**؛ كما كان هو صاحب الفضل عليه في تعيينه في منصبه ككاتب سرّ لدى **أبي حمو**. وقد يكون طلب منه مفارقة **أبي حمو**؛ عندما اتضح له استحالة تغلبه على الجيش **المريني**. وربما حاول **يحيى بن خلدون** إخفاء سرّ أخيه؛ مع أن أخاه اعترف بنفسه أنه قام بدور المحرّض ضد السلطان الزياني؛ ولم يجد حرجاً في ذلك.

ــ وخامسها: تحول **الدواودة**، ونكثهم **لأبي حمو**؛ مع أنهم حلفاؤه وحلفاء أجداده؛ منذ **يغمراسن بن زيان**. ووصل بهم الحال إلى إفشائهم **للمرينيين** بموضع معسكر **أبي حمو**؛ ودلوهم على المكان المتواجد به في جهات **الدوسن**[1]؛ وبالتحديد؛ في الضفة الجنوبية من

[1] يقول عبد الرحمن بن خلدون: ((وأوفدت مشيختهم على ونزمار والوزير أبي بكر بن غازي؛ فدلوهما على طريقه [أي طريق أبي حمو]؛ وأغذوا السير، وبيَّتوهم بمنزلهم على الدوسن؛ آخر عمل الزاب؛ من جانب المغرب؛ ففضوا جموعهم، وانتهبوا جميع معسكر السلطان أبي

وادي جـدي (وادي شـدي؛ كمـا يسـمى أيضـاً): **((وخيـم سائرهـم بـوادي شـدي؛ عـلى قيـد رحلتيـن منـه قبلـة))**[1].

ـ وسادسهـا: تحـول **خالـد بـن عامـر** وأتباعـه مـن بـني عامـر، وانحيازهـم لبـني مريـن أعـداء **أبي حمـو**[2]. وكـان بنـو عامـر هـؤلاء أتباعـاً وحلفـاء للدولـة الزيانيـة منـذ **يغمراسـن بـن زيـان**؛ الـذي جلبهـم مـن مواطنهـم الأولى المتاخمـة **للـزاب ومـزاب**؛ وأسكنهـم جنـوب **تلمسـان** ضمـن السهـوب المُمرعـة. ولمـا قـرّر **أبـو حمـو** استعـادة ملـك أجـداده؛ وجدهـم في نـواحي **الـزاب**؛ أيـن نزحـوا جـراء طردهـم مـن ديارهـم مـن قبـل **بـني مريـن** وحلفائهـم **بـني سويـد**. فوجدوهـا ـ بدورهـم ـ فرصـة للعـودة إلى أوطانهـم الغربيـة؛ فانضمـوا إلى **أبي حمـو**، وشاركـوه في مهمتـه القاضيـة بإخـراج **بـني مريـن**

حمو بأموالـه وأمتعتـه وظهره؛ ولحق فلهم بمصاب)). العبر، مج: 7، ص: 277. ويضيف في موضع آخر: ((فكانـوا أدلاءهـم في النهـوض إليـه؛ ووافـوه بمكانـه من الدوسن؛ في معسكره؛ من زناتـة، وحلـل بـني عامـر؛ والوزيـر في التعبئـة وأمـم زناتـة والعرب من المعقل وزغبـة وريـاح محدقـة بـه؛ فأجهضوه عن مالـه، ومعسكره،؛ فانتهب بأسره، واكتسحت أموال العرب الذين معه، ونجا بدمه إلى مصاب؛ وتلاحق بـه ولـده وقومـه متفرقين على كل مفـازة)). العبر، مج: 7، ص: 684.

[1] بغيـة الـرواد، ج: 2، ص: 446.

[2] ((ومنـه غَرَّبَ عنـه خالـد بن عامر؛ مكراً وخيانـة، وركونـاً إلى ملـك المغرب)) بغيـة الـرواد، ج: 2، ص: 461.

وحلفائهم **سويد** من **تلمسان** وضواحيها. وتحققت أهدافهم كلها؛ وعادوا إلى ديارهم، وانتظموا في سلك الدولة؛ إذ أضحوا في مقدمة أنصار الدولة وحماتها الأوفياء. ولكن جرت بعض الأحداث المؤلمة؛ فأفسدت النّوايا، وقلبت الأوضاع. من ذلك؛ ما كان يجري في النفوس المريضة بالهلع والغيرة والحسد. إذ قال يحيى بن خلدون أن **صغير بن عامر** شيخ القبيلة المذكورة؛ كان قد تآمر مع سلطان **بني مرين أبي سالم** سنة 761هـ ضدَّ **أبي حمو**؛ إلاّ أن مقتله بيد رجل من **بني عامر** أفشل المسعى[1]. وبموت **صغير بن عامر** انتقلت رئاسة القبيل المذكور – بتزكية من أبي حمو – إلى **شعيب بن إبراهيم بن عامر**؛ الأمر الذي شطر القبيلة إلى شقين: الأول مع **شعيب** المذكور، والشطر الثاني سار خلف أخيه المنافس له **خالد بن إبراهيم بن عامر**.[2] وقد أثّر كل هذا طبعاً؛ على القدرة الدفاعية للدولة الزيانية؛ لأن تنافس وتشاحن طرفي

---

[1] **((فبإزاء وطاط؛ اشتجر بنو عامر في قسم الغنائم؛ وحجزهم شيقر [صغير] شيخهم؛ فبقر جوفه سنان رجل منهم خطأ؛ فمات؛ وذلك من سعادة الخليفة؛ أعلى الله مقامه؛ فقد كان شايع سراً ملك المغرب)). بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 179 - 180.**

[2] **نفسه، ص: 243.**

القبيلة المذكورة؛ زاد في طمعهما وجشعهما؛ بل وصل بهما الحال إلى البحث عمن يدفع أكثر من غيره؛ حتى وإن اقتضى الحال مدّ اليد إلى **بني مرين**. وهذا ما حدث في الأخير **لأبي حمو**؛ حيث تخلى عنه الطرفان ـ بالتوالي والتناوب ـ فمرة أتباع شيخهم الجديد **عبد الله بن شيقر** أو **(صغير)**؛ ومرة أتباع **خالد بن عامر**. ووصل بهم الحال إلى محاربته ضمن صفوف **بني مرين**؛ بل ومطاردته عبر الصحراء والفيافي الجنوبية.[1] ومع ذلك؛ فقد انحاز إليه ـ في الأخير ـ جماعة **عبد الله بن شيقر بن عامر**؛ حينما تحول **خالد بن عامر** وأتباعه إلى **بني مرين**؛ وشاركوهم في محاربة **أبي حمو** ومطاردته في الصحراء[2]. إذ تحركت في صدورهم نار الغيرة والحميَّة؛ فأخفوه، أوصلوه إلى **تيقورارين** في نواحي أدرار الحالية.

---

[1] ((ثم رحل أمير المسلمين أيده الله بقومه وعربه إلى أوماكرا؛ من تل بني راشد؛ ثم إلى تاسالة؛ فمنها انخزل عنه خالد بن عامر بطائفة من ـ أهل الضلال ـ قومه؛ أشراً وكفراً للأنعام، وإظهاراً لما أبطنه من النّفاق؛ وانحاز إلى ملك المغرب؛ بإغراء محمد البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد ابن تصاليت المذكورين)). بغية الرواد، ج: 2، ص: **464**.

[2] ((وأدركه الخبر بنهضة بني مرين وخالد بن عامر في أثره...)). نفسه، ص: **465**.

ـ وسابعها: خيانة بعض الوزراء وكبار رجال الدولة الزيانية **لأبي حمو**: ((**وقد خامر قلوب كثير من أوليائه** [أي أولياء أبي حمو] **الزيغ، وران عليهم الهوى؛ كـ: محمد بن عمر البريطل، ووادفل بن عبو، وسعيد بن تصاليت، وخالد بن عامر**)).[1]
فبالنسبة إلى **محمد بن عمر البريطل**؛ يكون قد تولى الوزارة؛ وبدت عليه علامات الظهور والشهرة بعد موت **عبد الله بن مسلم الزردالي**؛ ولكنه يفتقر إلى مزايا ومواهب سلفه. وقد كلفه **أبو حمو** بمهام عسكرية لم يبدع فيها؛ كما أسند إليه مهمة السفارة إلى السلطان **المريني عبد العزيز**[2]. ولكنه لم

---

[1] بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 447 - 448. وقد وصفهم يحيى بن خلدون ـ في موضع آخر ـ بقوله: ((فلقد كان كفار النعم وخونة الله ورسوله؛ رهط الضلال، وحزب الشيطان، ومغلبوا الهوى: محمد بن عمر البريطل، ووادفل بن عبو بن حمدان، وسعيد بن تصاليت. تكالبوا في الفساد عليه، وإعمال الحيل في ضرره؛ فتسري نزغاتهم إلى قلوب أنصاره سماً ناقعاً، وتخرق نمائمهم أسماعها سهاماً مصمية، وتنساب مختلقات زورهم بين الأحياء أراقم ناهشة. والله لا يهدي كيد الخائنين. وربما فاجئوه ـ نصره الله ـ بهجر القول، وأفرغوا له الغش في قالب النصيحة، وأحالوا بين يديه الكريمتين قداح الصداقة المنطوية على البغضاء؛ فيصارفهم بحسن القول، ويجازي بميدان المصانعة أهواءهم، ويغض البصر فيهم على قذاه، ويوطئ قدمه منهم شوك السعدان؛ خلقاً عظيماً، وسياسة فضلى. وقد علمت ـ أرشدك الله ـ أن مصارعة العدو الظاهر أهون من مصارعة العدو الباطن؛ وأن الحذار من الصديق الخائن أوجب من حذار العدو المجاهر. ولا حول ولا قوة إلاّ بالله)). نفسه، ص ص: 454 - 455.

[2] بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 422. 440.

ينجح في سفارته؛ بل حامت حوله الشكوك، وارتاب بعضهم فيه؛ وقد لمح إلى ذلك يحيى بن خلدون؛ حين قال في تلك السفارة: ((**وفي أول هذه السنة** [سنة 772هـ]؛ **كان ابتداء التمحيص الأكبر، والابتلاء الأشهر... والسبب هو ما خامر رسالة محمد بن عمر البريطل إلى المغرب؛ من الغش والخديعة**)).[1] ويبدو أن مرافقته **لأبي حمو**؛ لم تكن بنية حسنة؛ وربما تقمص ــ هو وأصحابه الذين أشار إليهم **يحيى بن خلدون** ــ دور الطابور الخامس؛ وهذا ما صرح به ــ مرات عديدة ــ صاحب **بغية الرواد**[2].

هذه هي بعض العوامل المؤثرة؛ التي رجحت كفة السلطان **المريني عبد العزيز**، وكللته بالنصر ضد عدوه **أبي حمو**. وبالمقابل؛ أفشلت خطط السلطان الزياني في دفاعه عن حاضرة ملكه، والصمود في حربه أمام عبد العزيز المريني. ومع ذلك؛ لم يهنأ **أبو حمو** بالسلم؛ بعد انسحاب بني مرين من **تلمسان**؛ إذ اشتعلت فتنة أخرى في شرق

---

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 443.**

[2] **((إلاّ أن محمد بن عمر البريطل؛ كافر النعم، والخائن لله ولرسوله، ثم لمولانا الخليفة أيده الله؛ قد أولع بتنفير الرجال، وإعرابه بالنفاق؛ مستعيناً على ذلك بما يخلفه من الإفك، ويزوره من الأباطيل؛ مواصلاً بذلك ليله ونهاره)). بغية الرواد، ج: 2، ص: 379.**

البلاد؛ أشعلها ابن عمه الأمير **أبو زيان**؛ الذي قدم من منفاه في **ورجلاء** (وَرْقْلاَ)؛ فساندته ــ كالعادة ــ بعض القبائل الهلالية **كحصين والثعالبة**. ولكن **أبا حمو** بادرهم بحزم وشدة؛ كما أطلق يده بالأموال لكسب القبائل. فانحازوا إليه أخيراً، وتخلوا عن ابن عمه الذي التجأ إلى منازل **الدَّواودة**. ثم نفطة، فتوزر، وأخيراً **تونس**؛[1] بحثاً عن مساندة السلطان الحفصي؛ دون جدوى.

ويبدو أن **أبا حمو** تعود على الاضطرابات والفتن. فها هو يتحرش **بالمرينيين** ــ بعد أن أحسّ بانفراده في الساحة ــ حينما رحل ابن عمه (أبو زيان) إلى تونس، وخمود جذوة الأعراب في بلاده ــ ولأول مرة يكون هو الذي استفزّ المرينيين **بفاس**؛ حينما انساق خلف بعض حلفائه من أعراب **المعقل**؛ ووقوفه معهم ضد السلطان المريني **أبي العباس أحمد ابن أبي سالم**؛ بل قيامه بغزو دياره، وتخريب بلاده وإفساد عمرانه؛ الأمر الذي أغضب هذا الأخير؛ فصمم على غزو **تلمسان**. إذ جهز نفسه وزحف بجيوشه الجرّارة نحوها في سنة

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 290.**

785هـ/1383م. ومن غرائب الأحداث ومفارقات الأيام؛ أن أعراب المعقل الذين ساندهم **أبو حمو** ضد السلطان المريني؛ وكانوا هم السبب في فساد الحال بينه وبين سلطان **بني مرين**؛ لم يرتدعوا في الانضمام إلى هذا الأخير ومشاركته في غزو **تلمسان**..!![1] ولما شعر **أبو حمو** بتفوق السلطان المريني من حيث العدة والعدد؛ خرج من المدينة ـ كما جرت العادة ـ وقصد **حصن تاجحمومت** في نواحي **البطحاء**؛ وتحصن به؛ انتظاراً للمعركة الحاسمة.

أما السلطان المريني فقد وجد **تلمسان** شاغرة؛ فدخلها؛ أين قام بتخريب قصور المدينة ذات الشهرة الواسعة، ونسف بساتينها الرائعة؛ حدث ذلك بتحريض **ونزمار** شيخ **سويد**: ((**ونزل** [أبو العباس ابن أبي سالم المريني] **على مرحلة من تلمسان؛ بعد أن أغراه ونزمار بن عريف ـ أمير سويد ـ بتخريب قصور الملك بتلمسان؛ وكانت لا يعبر عن حسنها؛ اختطها السلطان أبو حمو الأول وابنه أبو تاشفين؛ واستدعى لها الصناع والفعلة من الأندلس؛**

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 294 - 295.**

لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان. فبعث إليهما السلطان أبو الوليد ـ صاحب الأندلس ـ بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالأندلس؛ فاستجادوا لهم القصور والمنازل والبساتين؛ بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله))[1].

ولم يطل مقام السلطان المريني **بتلمسان**؛ فكعادة **بني مرين** في كرهم وفرهم؛ فقد سارع سلطانهم **أبو العباس** إلى ترك **تلمسان**، والعودة إلى **فاس**؛ عندما علم أن أحد منافسيه على الحكم **(موسى بن أبي عنان)** تغلب على **فاس**، واحتل عرش بني مرين. **وموسى** هذا بعثه سلطان بني الأحمر المتعاطف مع **أبي حمو** ـ وكان قد ألح على السلطان المريني **أبي العباس** بضبط النفس، وعدم غزو **تلمسان**. ولما علم بمخالفته لطلبه؛ جهز الأمير **موسى بن أبي عنان** ـ الذي كان لاجئاً في بلاطه ـ وساعده على العبور للضفة المغربية، ودخول **فاس**. فانتهز **أبو حمو** هذه الفرصة الذهبية؛ فسارع مع أتباعه إلى العودة، ودخول

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 297.**

تلمسان؛ والجلوس على عرشه. ولكنه فُجع بما حصل لقصوره ومنتزهاته من دمار.

والظاهر أن المصائب لم تتخل عن **أبي حمو**؛ إذ تواصلت الأحداث المؤلمة في طريقه. فبعد انقباض **المرينيين**، وانشغالهم بمشاكلهم الداخلية، وبعد تغلبه على ابن عمه **أبي زيان**، وبعد كسره لشوكة **خالد ابن عامر** ومن معه من أعراب بني عامر وغيرهم؛ انفجر الوضع ـ هذه المرة ـ داخل الأسرة المالكة. إذ دبَّت في وسطهم عاهات الغيرة والتحاسد والتنافس الأسود. لقد كان للسلطان أبي حمو عدد كبير من الأولاد. أكبرهم **أبو تاشفين عبد الرحمن**. وقد أحصى **يحيى بن خلدون** عددهم؛ حين قال: **((وجملتهم الآن بين ذكر وأنثى، وحي وميت ثمانون))**[1]. وأهمهم؛ كما ذكر عبد الرحمن بن خلدون: **((كان لهذا السلطان أبي حمو جماعة من الولد: كبيرهم أبو تاشفين عبد الرحمن؛ ثم بعده أربعة لأم واحدة؛ كان تزوجها بميلة من أعمال قسنطينة ـ أيام جولته في بلاد الموحدين ـ وكبيرهم المنتصر، ثم أبو زيان محمد، ثم عمر؛ ويلقب:**

[1] **بغية الرواد، ج: 2، ص: 491.**

عُمَيْـر. ثـم بعدهـم أولاد كثيـرون؛ أبنـا عـلات))[1]. لمـا كَبـر الأولاد؛ تطلَّعـوا إلى مناصـب الدولـة؛ فاستجـاب لهـم أبوهـم. ولكـن **أبـا تاشفيـن** ــ الـذي أسنـدت إليـه ولايـة العهـد؛ وكـان رديفـاً للسلطـان ــ انزعـج مـن حُنُـوٍّ أبيـه علـى إخوتـه؛ وتقديمهـم في الولايـات. خاصَّـة؛ عندمـا وزَّعهـم علـى ولايـات الدولـة؛ **كالمنتصـر**؛ الـذي ولاّه علـى **مليانـة** وأعمالهـا، **وأبي زيـان محمـد**؛ الـذي عينـة علـى رأس **لمديـة** ومـا يتبعهـا مـن بـلاد حصيـن، **ويوسـف بـن الزّابيـة**؛ الـذي خصَّـه **بتدلـس** وأعمالهـا. كـلّ هـذا أغـاظ **أبـا تاشفيـن**؛ ولكـن مـا أغضبـه أكثـر؛ هـو نقـل أخيـه **أبي زيـان** مـن **لمديـة**، وتكليفـه بولايـة **وهـران**. وهنـا؛ أبـدى **أبـو تاشفيـن** تذمـره، اعتراضـه بكـل شـدة؛ وطلـب ولايـة **وهـران** لنفسـه. ونتيجـة لهـذا الصـراع الداخـلي في الأسـرة المالكـة؛ ذهـب **يحـيى بـن خلـدون** ضحيـة سهلـة؛ إذ اغتيـل بتحريـض مـن صاحـب الشرطـة **مـوسى بـن يخلـف**[2]، وبأمـر **أبي تاشفيـن** في رمضـان مـن سنـة 780هـ/1278م.[3] وتبعـاً لإصـرار

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 291.

[2] أورد عبد الرحمن بن خلدون قصة مقتل أخيه يحيى؛ بوشاية مغرضة من طرف صاحب الشرطة موسى بن يخلف. أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 292 - 293.

[3] نفسه، ص: 292.

هـذا الأخيـر اضطـر **أبـو حمـو** إلى تلبيـة طلبـه؛ فأعـاد ولـده **أبـا زيـان** إلى **لمديـة**؛ وأقطـع ولايـة **وهـران** إلى **أبي تاشفيـن**. ولكـنَّ هـذا لـم يقنعـه؛ إذ طلـب ضـمَّ **الجزائـر** أيضـاً إليـه؛ فوافقـه أبـوه، وأقطعـه إيَّاهـا؛ فأنـزل **أبـو تاشفيـن** بهـا أخـوه **يوسـف بـن الزابيـة**؛ الـذي كـان مـن شيعتـه.

وجملـة القـول؛ أن **أبـا حمـو** بـدأ يضيـق بمطالـب ابنـه **أبي تاشفيـن**؛ كمـا انتابتـه شكـوك في أهدافـه؛ نحـوه ونحـو إخوتـه. فتظاهـر بالحركـة لإصـلاح حـال **الأعـراب** في الجهـات الشرقيـة. وكانـت نيتـه الحقيقيـة مـن ذلـك؛ هي الاتصـال بابنـه **المنتصـر** في **مليانـة**؛ كي يمهّـد لـه الطريـق للإستقـرار في مدينـة **الجزائـر**، بغـرض اتخاذهـا عاصمـة للدولـة الزيانيـة؛ عـلى أن يتـرك ولـده **أبـا تاشفيـن** في **تلمسـان** لحمايـة الجهـة الغربيـة. ولكـن **مـوسى بـن يخلـف** صاحـب الشرطـة ـ وعيـن أبي **تاشفيـن** عـلى والـده ـ اكتشـف ذلـك؛ وأخبـره بنيـة والـده؛ فركـب مـن يومـه، ولحـق بـه قبـل أن يصـل إلى **المنتصـر بمليانـة**؛ فاضطـر **أبـو حمـو** عندئـذ إلى العـودة مـن حيـث أتي. وهنـا؛ تلاشـت الثقـة بيـن الوالـد السلطـان، والإبـن ولي العهـد؛ الـذي شـدّد العيـون عـلى

أبيــه. وكــان هــذا الأخيــر يشعــر باستبــداد ولــده عليــه؛ فــأراد التخلــص مــن الطــوق الــذي فرضــه عليــه بالانتقــال إلى **الجزائــر**، والاستقــرار بهــا، واتخاذهــا عاصمـــة للدولـــة.

وواضــح؛ أن **أبــا حمــو** لــم يتخــل عــن خطتــه؛ وإنمــا أجَّــل تنفيذهــا إلى وقــت آخــر. وعليــه؛ فقــد جهــز بعــض الأحمــال مــن المــال؛ وكلَّــف أحــد ثقاتــه؛ يســمى **يعــلى بــن عبــد الرحمــن** بإيصلهــا إلى **المنتصــر**؛ وأعطــاه كتابــاً ولاه فيــه عــلى **الجزائــر**؛ فانطلــق إلى وجهتــه. ولكــن صاحــب الشرطــة **مــوسى بــن يخلــف**؛ كشــف ذلــك، وأخبــر **أبــا تاشفيــن** بالأمــر؛ فبــادر بإرســال مــن يتعقــب القافلــة، ويعيدهــا؛ فلحقــوا بهــا، أعادوهــا؛ بعــد أن اغتالــوا **يعــلى بــن عبــد الرحمــن**. وكانــت هــذه الحادثــة هي الــتي فجَّــرَت المكتــوم، وكشفــت مــا خــفي مــن خلافــات وشنــآن بيــن الوالــد وولــده: ((**فاستشــاط** [أبــو تاشفيــن] **وجاهــر أبــاه، وغــدا عليــه بالقصــر؛ فوقفــه عــن الكتــاب، وبالــغ في عذلــه. وتحيــز مــوسى بــن يخلــف إلى أبي تاشفيــن؛ وهجــر بــاب السلطــان، وأغــرى بــه ابنــه؛ فغــدا عــلى أبيــه بالقصــر بعــد أيــام وخلعــه، وأسكنــه بعــض حجــر القصــر، ووكــل بــه، واستخلــص**

ما كان معه من الأموال والذخيرة؛ ثم بعث به إلى قصبة وهران؛ فاعتقله بها؛ واعتقل من حضر بتلمسان من اخوته. وذلك آخر ثمان وثمانين [وسبعمائة]...))[1].

ولم يقف الحال عندها هذا؛ بل تمادى **أبو تاشفين** في إبداء سخطه، والانتقام من أبيه وإخوته؛ بتحريض الشلة المحيطة به؛ وعلى رأسهم صاحب الشرطة. فهز جيشاً من **الأعراب** وزحف بهم نحو أخويه: المنتصر بمليانة، **وأبي زيان بلمدية**. وكانا قد سمعا بما فعله أخوهم **أبو تاشفين** بأبيهم؛ فالتحقوا بقبائل **حصين**؛ فأجاروهما، وحموهما في شواهق جبال تيطري. فدخل **أبو تاشفين** بجيشه **مليانة ولمدية**؛ ثم نزل على سفوح **تيطري**؛ محاصراً لأخوية. ومع طول الحصار في **تيطري**؛ وسوست له شلته؛ بالتخلص من أبيه وإخوته في **وهران**؛ وأوهموه باحتمال خلاصهم من أسرهم؛ فاقتنع بذلك، وأرسل ولده **أبو زيان** مع ابن الوزير **عمران بن موسى، وعبد الله بن الخراساني**؛ مرفقين ببعض الفرسان؛ وأمرهم بقتل والده وإخوته في سجنهم **بوهران**. ولما

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 299.**

سمع **أبو حمو** بقدومهم أوجس خيفة منهم؛ وصعد إلى أسوار القصبة؛ ينادي الناس، ويستنجد بأهل البلد؛ فلحقت به أفواجهم؛ فتدلى إليهم من أعالى الجدران بواسطة حبل أوصله بعمامته؛ فساعده الناس المجتمعون على الهبوط إليهم؛ وتجمَّعوا حوله. فلمّا سمع **أبو زيان بن أبي تاشفين**، ومن معه الهيعة، وأدركوا التفاف أهل البلد **حول أبي حموا** لحمايته؛ خافوا العاقبة، وفرّوا من المدينة: ((**واجتمع على السلطان أهل البلد؛ وتولى كبر ذلك خطيبهم؛ وجدّدوا له البيعة؛ وارتحل – من حينه – إلى تلمسان؛ فدخلها في أوائل سنة تسع وثمانين** [وسبعمائة]...))[1].

وكانت **تلمسان** في تلك الأثناء مخربة؛ بسبب ما لحقها من دمار وفساد؛ أحدثه **بنو مرين**. فلم تكن بها أسوار تقيها، ولا جند تحميها. فبعث إلى من بقي من **بني عامر**؛ فوفدوا عليه؛ وكانوا قلة؛ لأن معظمهم كان مع ابنه **أبي تاشفين**. ولما سمع **أبو تاشفين** بما حدث في **تلمسان**؛ فكّ الحصار عن أخويه **بجبل تيطري**، وعاد أدراجه بجيشه وأعرابه

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 300 - 301.**

إلى **تلمسان**. ونظراً لعدم التكافؤ في العدة والعدد بين الإبن وأبيه، وتبعاً لتعذر محاربة **بني عامر** لبعضهم بعضاً؛ وجد **أبو حمو** نفسه مضطراً للالتجاء إلى صومعة المسجد الجامع. فصعد إليه **أبو تاشفين** بنفسه، وأنزله من المئذنة؛ ثم اعتقله ببعض الغرف. ولكن **أبا حمو** رغب من ولده أن يسمح له بالرحلة إلى الحج؛ لقضاء فرضه؛ فوافقه وطلب من بعض تجار **قطلونة**؛ أن يوصله بحراً إلى **الإسكندرية**. فأركبه السفين بأهله من ميناء **وهران**؛ ثم عاد ــ بعد إبحار السفينة ــ إلى **تلمسان**؛ لمتابعة شئون دولته. غير أن **أبا حمو**؛ راود قبطان السفينة وألح عليه في إنزاله **ببجاية**؛ فأسعفه، ورسى بميناء **بجاية**؛ فنزل **أبو حمو** من السفينة بأهله، وبالموكلين بحراسته. ثم بعث من يخبر **محمد بن أبي مهدي** صاحب أسطول **بجاية**؛ الذي كان مستبداً على أمير البلد. فرحب به، واحتفى بمقدمه، وأنزله في **بجاية** ببستان الملك المعروف باسم "**الرفيع**" وذلك في عام 789هـ/1387م. ثم بعث بالخبر إلى السلطان الحفصي بتونس؛ فشكره على موقفه تجاه **أبي حمو**، وطلب منه: ((**الاستبلاغ في تكرمته، وأن يخرج عساكر بجاية**

في خدمة أبي حمو إلى حدود عمله؛ متى احتاج إليها))[1].

وكان هذا متنفساً، وفرصة ذهبية سقطت على **أبي حمو**؛ الذي خرج من **بجاية** في أبهة ووجاهة؛ حتى وصل إلى **متيجة**؛ أين استنفر قبائل الأعراب من متيجة، ونواحي أخرى؛ فلبوا نداءه، واجتمعوا حوله. وبعد استكمال التجمع؛ انطلق نحو **تلمسان**؛ حتى وصل **شلف**. أين تبين له أن **بني عبد الواد** انحازوا لولده **أبي تاشفين**؛ بما وزع عليهم من أموال، وما أغراهم به من خير عند الانتصار.

عندئذ؛ ترك **أبو حمو** ولده **أبو زيان محمد** في **شلف**؛ بما جمعه من أنصار؛ وانتقل إلى الصحراء؛ لتعبئة ما أمكن من قبائل **المعقل**. وكان **أبو تاشفين**؛ لما علم بوجود أخيه **أبي زيان** في **شلف**؛ جهَّز له جيشاً بقيادة ولده **أبي زيان بن أبي تاشفين** وبمعونة **محمد بن عبد الله بن مسلم**. فالتقاهم **أبو زيان بن أبي حمو**؛ فانقشع غبار المعركة عن هزيمة شنعاء لجيش **أبي تاشفين**؛ إذ قتل في المعركة ولده **أبو زيان**، ووزيره **محمد بن عبد**

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 302.

الله بن مسلم، وجمع من بني عبد الواد. وكان **أبو تاشفين** قد انتقل بجيشه نحو الجنوب؛ حيث يتواجد والده **أبو حمو**. ولمَّا وصله خبر مهلك ولده ووزيره، وانكسار جيشه المتجه إلى **شلف**؛ خاف العاقبة، وعاد أدراجه إلى **تلمسان**. وبعودته؛ انفض عنه **بنو عبد الواد**، ومن معه من **الأعراب**؛ فلم يجد مفراً من الهروب إلى أحياء **سويد**؛ الذين أوصلوه إلى البلاط **المريني**؛ حيث استنجد **ببني مرين**. وبالمقابل؛ دخل **أبو حمو تلمسان** في رجب من عام 790هـ/1388م؛ أين التحق به بقية أبنائه؛ وانهمك في حل المعضلات التي تسببت فيها تلك الأحداث المؤلمة.

ولم ينته الصراع عند هذا الحد؛ بل ازداد اشتعالاً؛ بذهاب **أبي تاشفين** إلى **فاس**؛ إذ حرك المياه الراكدة؛ وحفز السلطان **أبي العباس المريني** إلى فتح أبواب الحنين إلى آمال الماضي، وبعث في نفسه الرغبة الجامحة للتوسع شرقاً وامتلاك **تلمسان**. فلم يتردد في قبول مساعدة **أبي تاشفين**. وبعد مدة؛ جهَّز له جيشاً بقيادة ابنه **أبي فارس**؛ وبعثه معه إلى **تلمسان**؛ فالتقوا بجيش **أبي حمو** في المكان المسمى

بالغيـــران؛ أيـــن اشتبـــك الجيشـــان؛ فكبـــا **بـــأبي حمـــو** فرســـه؛ فقتـــل قصعـــاً بالرمـــاح. وذلـــك في آخـــر سنـــة 791هــ/1388م؛ حيـــث دخـــل **أبـــو تاشفيـــن تلمســـان**؛ واقتعـــد كـــرسي الحكـــم؛ داعيـــاً عـــلى منابـــره لسلطـــان **المغـــرب أبي العبـــاس**.

مـــات السلطـــان **أبـــو حمـــو**، وبقيـــت أسطورتـــه ماثلـــة بيـــن النـــاس. لقـــد كـــان هـــذا السلطـــان أعجوبـــة بحـــق؛ إذ تفـــوق عـــلى معاصريـــه مـــن ملـــوك المغـــرب كلهـــم، بامتلاكـــه لناصيـــة الأدب، والشعـــر، وسعـــة الأفـــق، والقـــدرة عـــلى استيعـــاب مختلـــف العلـــوم. كمـــا كـــان فارســـاً مغـــواراً، وسياسيـــاً محنكـــاً. لقـــد حكـــم زهـــاء الثلاثيـــن سنـــة؛ عـــرف خلالهـــا أصنافـــاً متنوعـــة مـــن الشدائـــد والمحـــن؛ فلـــم ييـــأس، ولـــم ينكـــص، ولـــم تخنـــه شجاعتـــه في أحلـــك الأيـــام وأمرِّهـــا. كـــان يستعيـــد مكانتـــه في كـــل مناسبـــة يصـــاب فيهـــا بنكبـــة أو مصيبـــة. فلـــم تخنـــه عزيمتـــه ولا مـــرة. ولـــه شبـــه كبيـــر ــ في قـــوة الإرادة، والحـــزم ــ بجـــدِّه مؤســـس الدولـــة الزيانيـــة **يغمراســـن بـــن زيـــان**؛ وإن فاتـــه بالعلـــم وسعـــة المعرفـــة في الآداب. ومـــع هـــذا؛ فهـــو المؤســـس الثـــاني للدولـــة الزيانيـــة؛ بعـــد اندثارهـــا، وزوال أثرهـــا. وقـــد بقيـــت دولتـــه قائمـــة في ظـــل أبنائـــه وأحفـــاده؛ إلى أن قـــدر لهـــا اللـــه بالـــزوال؛

حينما ظهر **الأتراك** ببلاد المغرب الأوسط وإفريقية؛ حيث وسقطت بيد **صالح ريس** في عام سنة962هـ/1554م.

***

ـ العمـران والثقافـة:

لـم تعـرف دولـة بـني زيـان؛ منـذ قيامهـا عهـداً شبيهـاً بعهـد **أبي حمـو مـوسى الثـاني**؛ في نشـر العلـوم الدينيـة، والاعتنـاء بالأدب، والتبـاهي بالعمـران. لقـد تفـوق **أبـو حمـو الثـاني** عـن أسلافـه وأخلافـه معـاً في هـذا الميـدان. كمـا عـرف في عهـده علمـاء فطاحـل، وأدبـاء كبـار. وفي هـذا المجـال؛ سيُكْتَـفَى بعلمـاء الديـن وبعـض المتصوفـة؛ بينمـا يـأتي الحديـث عـن الأدبـاء والشعـراء في الأجـزاء الأخـرى.

1 ـ الحـاج أبـو عبـد الله محمـد المصمـودي، مـن أوليـاء اللـه والصالحيـن العلمـاء؛ رحـل إلى الحـج فمـات بصحـراء خليـص بيـن مكـة والمدينـة سنـة 724هـ/1323م.

2 ـ الفقيـه القـاضي المبـارك أبـو عبـد الله محمـد بـن أحمـد بـن عـلي بـن أبي عمـرو التميـمي. وهـو مـن قضـاة العـدل، وعـرف بالـورع، ينتـمي إلى بيـت علـم ورئاسـة. إذ كـان جـدّه أبـو الحسـن بتونـس، في أيـام المستنصـر، قـاضي الجماعـة وصاحـب العلامـة وكاتـب الإنشـاء، وهـو مـن بيوتـات إفريقيـة المشهوريـن. درس في بلـده عـن الإمـام أبي الطاهـر بـن سـرور، وآخريـن.

وكان قد نزل تلمسان بعد رفع الحصار الأول عنها؛ فولي قضاء وجدة، ثم قضاء تلمسان. فكان عادلاً وفاضلاً. ومن تآليفه: ترتيب كتاب اللخمى على المدونة. وتوفي بتلمسان في حدود 745هـ/1344م.

3 ـ الشريف الرحالة أبو علي حسن بن أبي يعقوب يوسف بن يحيى الحسني السبتي. وهو من أهل الحديث. أخذ عن الأستاذ ابن عبيدة، وابن الشاط؛ ثم رحل إلى المشرق؛ فالتقى علماء كثيرين، وأخذ عنهم؛ منهم: ابن دقيق العيد. ثم عاد إلى تلمسان. ولي القضاء بإفريقية ثم بسواحل تلمسان. وقال عنه يحيى بن خلدون: **((واشتهر فضله، وعلم قدره، فنقل إلى تلمسان، ورأس بها الناس، وولي قضاءها، فعدل ولم تأخذه في الله لومة لائم، ثم جالس السلاطين في أعلى طبقات الحظوة. وكان حافظاً للعلم محققاً للتاريخ))**. وكانت وفاته بتلمسان في سنة 753 أو 754هـ/1353م.

4 ـ الفقيه الرئيس الوزير الحاجب أبو عبد الله محمد التميمي؛ وهو أخو صاحب الترجمة السابقة. يتحلى بهمة وسمو ورئاسة عليا. تولى خطة الحجابة في بلاط السلطان أبي عنان. قال فيه يحيى

ابـن خلـدون: ((**وحـاز ببابـه الرياستيـن، بمـا لـم يعـرف لمثلـه في زمانـه، فسلـك سنـن الفضـلاء الأمجـاد**))[1]. أسنـدت إليـه إمـارة بجايـة؛ فمـات فيهـا سنـة 756هـ/1355م؛ فنقـل جثمانـه إلى تلمسـان؛ حيـث دفـن بزاويتـه القريبـة مـن العبـاد.

5 ـ الإمـام الفقيـه الشريـف أبـو عبـد الله محمـد بـن أحمـد بـن علـي بـن يحـيى الحسيـني العلـوي. وهـو أحـد العلمـاء الكبـار في وقتـه؛ يتصـف بالكمـال والجـلال؛ ويفيـظ علمـاً وديـنـاً؛ استوعـب العلـوم العقليـة والنقليـة. أخـذ بتلمسـان عـن ابـني الإمـام؛ الشيخيـن: أبي زيـد، وأبي مـوسى، وعـن الشيـخ الفـذ أبي عبـد الله الآبـلي وعـن آخريـن، فبلـغ بعلمـه ورجاحـة عقلـه؛ أقـصى حـداً في سلامـة الإدراك، والتوسـع في محصـول العلـم، وامتـلاك الفصاحـة وطلاقـة اللسـان. شيـد لـه أبـو حمـو مـوسى الثـاني مدرسـة بتلمسـان؛ كانـت معلمـاً جليـلا لنشـر العلـم. تـوفي في ذي الحجـة في آخـر سنـة 771هـ/1369م. حيـث أمـر السلطـان أبـو حمـو الثـاني بدفنـه بجـوار قبـر والـده أبي يعقـوب يوسـف؛ تبركـاً بـه.

---

[1] **بغيـة الـرواد، ج: 1، ص: 132.**

6 ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن يحيى الكومي الندرومي. وهو أحد علماء المذهب المالكي. له ثبت تناول فيه شيوخه؛ وما أجازوه له. توفي في حدود سنة 775هـ/1373م.

7 ـ الفقيه أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد القيسي. عرف باسم المشوش. قال عنه يحيى بن خلدون: ((**من أهل العلم والعمل. ومن بيت نباهة وشرف، معروف الدين والصلاح**))[1]. لم يذكر تاريخ وفاته؛ ويبدو أنه كان معاصراً له.

8 ـ الفقيه القاضي الأعرف أبو العباس أحمد بن أحمد القيسي بن المشوش. وهو ابن أحمد بن علي السابق الذكر. يعتبر من كبار الفقهاء، وقضاة العدل؛ هو صاحب يحيى بن خلدون؛ الذي قال عنه: ((**صاحبنا رحمه الله**))[2]. إذن فقد عاصره.

9 ـ الفقيه أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد ابن المشوش. وهو حفيد أحمد بن علي المذكور أولاً. وكان من الفقهاء الكبار ذوي الصيت الرفيع، ومن المتمسكين بالدين والمتصفين بالورع. قال يحيى ابن خلدون: ((**اختاره مولانا أمير المسلمين** [أبو

---

[1] **بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.**
[2] **نفسه؛ ص: 123.**

حمو الثاني]، أيده الله، لكتب العلامة والإمامة به، ثم للشهادة على صندوق المال، توسماً فيه للثقة والدين، بارك الله فيه))[1].

10 – القاضي الإمام أبو اسحاق ابراهيم بن علي ابن اللجام. تولى خطة القضاء؛ فاتصف بالعدل والصرامة في تحقيق الحق. يتميز بخط رائع. وكان مدرساً عالي الهمة. قال يحيى بن خلدون: **((ذكر أن رجلاً من خدام المملكة استنقصه بنسبته إلى لجام؛ فقال: اللهم أره عزة الشرع؛ فبعد ثلاث جيء به سكران إليه؛ فأقام عليه الحدّ؛ فكانت هذه من كراماته رحمه الله))**[2]. لا يعرف تاريخ وفاته؛ ولكن يبدو أنه عاصر يحيى بن خلدون.

11 – والفقيه أبو زكريا يحيى بن عبد الله بن عبد العزيز بن رحمون. وصفه يحيى بن خلدون بـ: **((الأستاذ الأعرف الصالح))**؛ وقال أنه: **((من قضاة العدل والدين والفضل))**[3]. يبدو أنه معاصر له.

12 – الفقيه أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد الله بن عبد العزيز بن رحمون. وهو ابن أبي

---

[1] بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.
[2] نفسه، ص: 118.
[3] نفسه، ص: 122.

زكريــاء المذكــور سابقــاً. تــولى القضــاء؛ عــرف بالحــزم والصرامــة؛ والتمســك بالديــن.

13 ـ الفقيــه أبــو المهــدي عيــسى بــن عبــد العزيــز بــن رحمــون. لا يعــرف عنــه أكثــر مــن هــذا.

14 ـ الفقيــه أبــو زيــد عبــد الرحمــن بــن إبراهيــم بــن عبــد الله بــن محمــد بــن عبــد العزيــز رحمــون.

وقــد أجمــل يحــيى بــن خلــدون القــول بخصــوص أســرة **رحمــون** العلميــة؛ فقــال: ((**وكــل أهــل هــذا البيــت حتى الآن أهــل علــم ووجاهــة وعدالــة وفضــل، ومنهــم من كتــب ببــاب أميــر المسلميــن مولانــا أبي حمــو أيده الله**))[1].

15 ـ الفقيــه العــدل أبــو يوســف يعقــوب بــن عبــد الرحمــن بــن أبي زيــد عبــد الرحمــن الصنهــاجي. مــن أهــل الفضــل، والمعرفــة.

16 ـ محمــد بــن عبــد الرحمــن بــن أبي زيــد عبــد الرحمــن الصنهــاجي. مــن الفضــلاء، وأهــل الديــن.

17 ـ الفقيــه القــاضي أبــو العبــاس أحمــد. تــولى القضــاء؛ فاتصــف بالحــزم والصرامــة والديــن.

18 ـ الفقيــه القــاضي أبــو الحســن عــلي المَقَّــرِي. يتصــف بالعلــم والديــن. وهــو قــاضي حضــرة تلمســان في

---

[1] **بغية الرواد؛ ج: 1، ص: 123.**

زمن يحيى بن خلدون؛ قال عنه أنه: ((**خيِّر فاضل، على هدي السلف الصالح، متحرٍّ الصواب في أحكامه، بارك الله فيه**))[1].

19 ـ الفقيه أبو العباس أحمد بن محمد التميمي. وهو ولد أبي عبد الله المذكور أعلاه. وكان من العدول الأخيار في تلمسان وفاس. لا يعرف تاريخ وفاته.

***

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 121.**

الدور الرابع

وهو دور الضعف والانحدار. ودام 171 سنة (أي من عام 791هـ/1389م إلى سنة 962هـ/1554م)؛ سنة انهيار الدولة الزيانية وزوالها نهائياً، على يد القائد **التركي باي لارباي صالح ريس.**

ومن خلال النصوص التاريخية المتوفرة؛ يتبين مدى ضعف هذا الدور، واضطراب أحواله. إذ لم يفده امتداده عبر فترة زمنية طويلة – بدأت بمقتل السلطان **أبي حمو الثاني**، وانتصاب ولده **أبي تاشفين** على سدة الحكم في **تلمسان**؛ تحت الوصاية **المرينية** – حيث غدت سيادة الدولة **الزيانية** في معظم الأوقات – خلال هذا الدور – ناقصة وتابعة للدولة **المرينية** حيناً، والدولة **الحفصية** حيناً آخر؛ إلى أن سقطت فريسة للولاة **الأتراك** بصورة نهائية.

ومع ذلك؛ فقد تخللت هذا الدور فترات قصيرة؛ حظيت فيها الدولة بالاستقلال المطلق؛ بل استطاعت الدولة في عهد السلطان **أبي مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني** – الذي اعتلى سرير

الحكم في **تلمسان** سنة814هـ/1411م ــ من انتزاع المناطق الشرقية **للجزائر** من يد **الحفصيين**، وتمكن كذلك من احتلال **فاس** (عاصمة **المرينيين**)؛ أين نصب من قبله حاكماً خاضع لدولة **بني زيان**.

كما بذل بعض حكام في هذا الدور (**كأبي مالك وابن الحَمْرة، والعاقل**) جهوداً جليلة في سبيل اكتساب عوامل القوة لدولتهم؛ فاجتهدوا ــ بذلك ــ في الذود عن استقلالها وسيادتها؛ غير أن الانشقاقات والأطماع العائلية؛ أعاقت جهودهم، ونصرت الأعداء عليهم. ونتيجة لهذه الانشقاقات أضحى السلطان؛ لا يدوم في حكمه أكثر من بضعة أيام؛ ثم يسقط ويتولى الأمر غيره.

وعلى هذا؛ يتبين أن السلطان **أبا زيان الثالث** بقي في الحكم عدة أسابيع ثم سقط. أما **أبو ثابت ابن أبي تاشفين الثاني**؛ فيبدو أنه ظل على العرش مدة أربعين يوماً. بينما استطاع **عبد الرحمن بن أبي محمد** المعروف **بابن خولة** البقاء في الحكم مدة شهرين، أما **السعيد بن أبي حمو الثاني**؛ فقد كان محظوظاً؛ إذ تولى الحكم لمدة خمسة أشهر..إلخ.

ملوك الدور الرابع

وملوك هذا الدور من **بني زيان** هم:

ـ **أبو تاشفين عبد الرحمن الثاني ابن أبي حمو الثاني** (من 791هـ/1389م إلى 795هـ/1393م). ثار على أبيه، ومدّ يده إلى أعدائه **بني مرين**؛ عاقداً معهم حلفاً؛ أدّى إلى قتل **أبي حمو الثاني**، وانتصاب **أبي تاشفين** ملكاً على **تلمسان**؛ تحت ظلّ **بني مرين** وحمايتهم[1].

ـ **أبو ثابت بن أبي تاشفين الثاني** (حكم 40 يوماً في سنة 795هـ/1393م). ولكنه قتل ـ مع وزيره وكافله **أحمد بن العز** ـ بيد عمّه **يوسف بن الزابية**.[2]

ـ **أبو الحجاج يوسف بن أبي حمو الثاني المعروف بابن الزابية** (حكم من سنة 795هـ/1393م إلى

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 303 - 305.**

[2] **ثمة اضطراب في خبر هذا السلطان. فبينما يتجاهل ابن خلدون ذكر اسمه؛ ويصفه بـ((صبياً من أبناء السلطان المتوفي))، ثم يسمي كافله؛ فيقول: ((وكان القائم بدولته أحمد بن العز من صنائعهم؛ وكان يمتّ إليه بخؤولة؛ فولى بعده ـ مكانه ـ صبياً من أبنائه، وقام بكفالته)). العبر، مج: 7، ص: 307. أما التنسي فيسميه، ويقول فيه: ((ثم بويع بعده ولده المولى أبو ثابت؛ جدّ مولانا المتوكل)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 206.**

796هـ/1394م؛ فبقي في الحكم 10 أشهر). وكان ــ في البداية ــ والياً على **الجزائر**. ولمّا سمع بموت أخيه السلطان **أبي تاشفين**، ومحاولة وزيره وضع صبيٍّ صغير من أبناء هذا السلطان؛ والقيام عليه كوصيٍّ؛ نهض إليه من **الجزائر**؛ فدخل **تلمسان**؛ أين قتل الوزير والصبي ابن أخيه. ولكنه لم ينعم في مسعاه طويلاً؛ إذ دخل عليه ــ بعد فترة وفي سنة 796هـ ــ الأمير **أبو فارس** ابن السلطان المريني **أبو العباس**؛ فاحتل **تلمسان**، وألحقها بمملكة أبيه؛ فهرب **ابن الزابية** إلى **حصن تاجحمومت**؛ حيث بقي يترصد الفرص للعودة إلى ملك أجداده[1]. ولكنه قتل من قبل أنصار أخيه **أبي زيان محمد**.

ــ **أبو زيان محمد الثاني ابن أبي حمو الثاني** (من 796هـ/1394م إلى 801هـ/1399م). وصل إلى سدّة الحكم في **تلمسان**؛ بعد محاولات فاشلة؛ ضد أخيه **أبي تاشفين**؛ منع فيها من قبل **بني مرين**. ولم يتمكن من تحقيق هدفه إلاّ بعد هلاك السلطان **أبي العباس المريني** سنة 796هـ؛ حيث أطلق سراحه **أبو فارس المريني**، وسمح له بالعودة إلى **تلمسان**؛

---

[1] العبر، مج: 7، ص : 307.

والتربع على عرشها في ظل **بني مرين**. ويتميز السلطان **أبو زيان الثاني** بسعة العلم[1]، والتفوق في فنون الأدب، وحسن ركوب صهوة الشعر؛ وقد أوردت المصادر قصيدة طويلة غراء بعثها مع هدايا للسلطان **برقوق بمصر**؛ مطلعها:

لِمَنِ الرَّكَائِبُ سَيْرهُنَّ ذَميلُ والصَّبْرُ ــ إلاَّ بَعْدَهُنَّ ــ جَميلُ
يَا أَيُّهَا الحَادِي رُوَيْدَكَ إنَّها ظُعُنٌ يَمِيلُ القَلْبُ حَيْثُ تَمِيلُ
رِفْقاً بِمَنْ حَمَلَتْهُ فَوْقَ ظُهُورِهَا فَالْحُسْنُ فَوْقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

ــ **أبو محمد عبد الله الأول ابن أبي حمو الثاني** (من 801هـ/1398م إلى 804هـ/1401م). حكم في ظل **بني مرين**؛ ولما شعروا بخطره على نفوذهم؛ أحضروا أخاه **أبا عبد الله محمد**؛ واصطحبوه معهم إلى **تلمسان**؛ أين أزاحوا **أبا محمد** ووضعوا مكانه

[1] قال فيه التنسي: ((نسخ ـ رضي الله عنه ـ بيده الكريمة نسخاً من "القرآن" وحبسها، ونسخة من "صحيح البخاري"، ونسخاً من "الشفاء" لأبي الفضل عياض؛ حبسها كلها بخزانته التي بمقدم الجامع الأعظم من تلمسان المحروسة؛ التي هي من مآثره الشريفة المخلدة من ذكره الجميل؛ ما سرت به الركبان؛ لما أوقف عليها من الأوقاف الموجبة للوصف بجميل الأوصاف. وصنف كتاباً؛ نحا فيه منحى التصوف؛ سماه "كتاب الإشارة في حكم العقل بين النفس المطمئنة والنفس الأمارة")). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 211.

أخاه **أبا عبد الله**[1]. ثم عادوا إلى **فاس** بالسلطان المخلوع أسيراً.

ـ **أبو عبد الله محمد الثالث ابن أبي حمو الثاني الملقب بالواثق، والمعروف بابن خولة** (من 804هـ/1401م إلى يوم وفاته في 813هـ/1411م). مرت أيامه في سكينة وسلام إلى يوم مماته. فخلفه ولده **عبد الرحمن**.

ـ **عبد الرحمن الثالث ابن محمد الثالث** المعروف **بابن خولة** (حكم مدة شهرين تقريباً؛ من 813هـ/1411م إلى 814هـ/1411م). نشبت ـ بعد توليه الحكم ـ فتنة هوجاء؛ جراء دسائس المتنافسين، وتآمر **المرينيين**؛ وختمت بوثوب عمه **السعيد بن أبي حمو الثاني** على سدة الحكم؛ فخلعه، واحتل مكانه.

ـ **السعيد بن أبي حمو الثاني** (حكم 5 أشهر في سنة 814هـ/1411م). لم يستطع التوفيق بين مداخيل الدولة ومصاريفها؛ الأمر الذي أفقد الخزينة توازنها، وفرغ مخزونها؛ فأراد معالجة ذلك الخلل بفرض الضرائب الجديدة وتحميل الرعية ثقل الطلب. الأمر الذي أشعل جذوة سخطهم؛ فانتهز **المرينيون**

[1] تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 229.

الفرصة؛ فبعثوا إليه ـ كعادتهم ـ الأمير **أبا مالك عبد الواحد** للإطاحة بأخيه. فهرب **السعيد** إلى ملجأه؛ الذي توفي به في سنته.

ـ **أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني** (حكم فترتين؛ الأولى من 814هـ/1411م إلى 827هـ/1424م، وفي الثانية من 831هـ/1428م إلى 833هـ/1430م). أحيا السلطان **أبو مالك عبد الواحد**؛ سنن أسلافه من عظماء ملوك **بني زيان**[1]؛ إذ تمكن من فرض استقلال ملكه عن **المرينيين**؛ بل تغلب عليهم، واحتل عاصمتهم **فاس**؛ ونصب من بين أفراد الأسرة المالكة هناك ملكاً عليهم؛ يأتمر بأمره. كما استرجع ممتلكات أجداده في الجهات الشرقية من **تلمسان**[2]. وقال فيه **التنسي**: ((**وازداد في رفعة ونما؛**

---

[1] يقول التنسي: ((وكان يقيم ليلة مولد المصطفى، ويحتفي به غاية الاحتفاء؛ ويقيم فيها المنقانة؛ على الوجه المتقدم في رسم والده؛ ويقتفي أثره في المستحسن من عوائده. ونفق - في أيامه - سوق الأدب، وجاء بنوه إلى بابه ينسلون من كل حدب؛ فينقلبون بجرّ الحقائب؛ ظافرين بجزيل الرغائب)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 236. أما المنقانة المذكورة هنا؛ فهي آلة لقياس الوقت؛ كانت في بلاط أبي حمو الثاني؛ ووصفها يحيى بن خلدون؛ بل نظم مقطوعات شعرية عديدة تنوه بحلول كل ساعة بها.

[2] أورد التنسي (ص ص: 236 - 240) قصيدة لشاعر سماه أبا الحسن علي العشاب الفاسي؛ هنأ بها السلطان عبد الواحد على فتح مدينة الجزائر؛ وهي طويلة؛ جاء فيها:

شرف الفتى السمر الطوال الميد   وصواهل ترد الوغى ومهند

حتى صار فيه نسيج وحده؛ لتناهي حزمه وجده. أخذ لأهل بيته من الغرب بثأرهم، وغزا ملوكهم في عقر دارهم، ووجه إليها جيوشاً جاسوا خلالها، وتفيأوا ظلالها؛ فاشتدت بذلك صولته، وامتدت له دولته))[1].

ولما استفحل أمر **عبد الواحد**، وهدّد المناطق الشرقية **لتلمسان** ـ وكانت تابعة **لبني أبي حفص** ـ نهض **أبو فارس عزوز الحفصي** بجيش ملأ الآفاق؛ وصل تعداده 50 ألفا مقاتل؛ وسحب معه أعراب **إفريقية** في جموعهم الغفيرة. تمكن السلطان **الحفصي** ـ بعد وقائع وملاحم ـ من فتح **تلمسان**، وإخراج السلطان **عبد الواحد** منها؛ فاتجه نحو **المغرب** لاجئاً؛ ونصب **أبو فارس** عوضه ابن أخيه **محمد بن أبي تاشفين (ابن الحمرة)** على عرش **بني زيان**؛ على أن يلتزم بالدعاء **للحفصيين**.

وحاول **أبو مالك** ـ أثناء وجوده **بالمغرب الأقصى** ـ إيجاد مخرج لاستعادة ملكه؛ ولكنه فشل.

وكتائب معقودة بكتائب والسمر تنظم والسيوف تبدد
ويد القسي تبث من أوتارها رسل المنايا والقضاء يسدد
إلى أن يقول:
هنأته فتحاً يروقك حسنه ذلت لعزته العدى والحسد

[1] تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 236.

عندها؛ أرسل أحد أبنائه إلى السلطان **أبي فارس الحفصي**؛ عارضاً عليه إعادة المياه إلى مجاريها؛ فقبل السلطان **الحفصي** مساعدته؛ نكاية في **ابن الحمرة**؛ الذي تراجع عما اتفق عليه مع **أبي فارس**؛ وفضل الاستقلال بدولته.

وبالفعل؛ فقد جهّز السلطان **الحفصي** جيشاً بقيادة العلج **جاء الخير**؛ وأمره بمرافقة **أبي مالك عبد الواحد** – الذي وصل من **المغرب الأقصى** – ومساعدته على استعادة ملكه في **تلمسان**. فتقدم الجيش **الحفصي** نحو عاصمة **الزيانيين**؛ ولما وصل إلى مشارف المدينة؛ اشتبكوا مع جيش **محمد بن الحمرة**؛ وانتهت المعركة بانهزام **الحفصيين**؛ فعادوا من حيث أتوا. ومع هذا؛ فقد عاود **أبو فارس** الزحف إلى **تلمسان** هذه المرة بنفسه؛ مصطحباً معه السلطان **أبا مالك عبد الواحد**. فحاصر حاضرة الدولة حصاراً شديداً؛ انتهى بفتح المدينة سنة831هـ/1428م، وهروب **ابن الحمرة** إلى الجبال المجاورة؛ باحثاً عن أنصار ومرتزقة؛ فكان له ما أراد؛ إذ استطاع تجنيد بعض **الأعراب** والأحياء **الأمازيغية** المجاورة؛ فزحف بهم إلى **تلمسان**؛ أين

دخلها، وقتل عمه **أبا مالك عبد الواحد** سنة 833هـ/1430م.

ـ **أبو عبد الله محمد الرابع ابن أبي تاشفين الثاني المعروف بابن الحمرة** (حكم فترتين الأولى من 827هـ/1424م إلى 831هـ/1428م والثانية حكم فيها 48 يوماً من سنة 833هـ/1430م). تمت الإشارة إلى الفترة الأولى من حكمه في الفقرة السابقة؛ المخصصة للسلطان **أبي مالك عبد الواحد**. أما الفترة الثانية؛ فانطلقت بدخولة **تلمسان** سنة833هـ؛ وقتله لعمه **أبي مالك** واحتلال عرش **بني زيان** عنوة. ولكن السلطان **الحفصي** لم يتركه ينعم بغنيمته أكثر من 48 يوماً؛ إذ وصل إليه بجيش مهول سنة 833هـ؛ فدخل **تلمسان** وأسر **محمد بن الحمرة**؛ ونصب في مكانه **أبا العباس أحمد (العاقل).**

ـ **أبو العباس أحمد المعتصم بالله بن أبي حمو الثاني المعروف بالعاقل** (من 834هـ/1431م إلى 866هـ/1461م). مرّت الأعوام الأولى من حكمه في استقرار وهدوء؛ ثم اشتعل ـ فجأة ـ فتيل الثورات الداخلية؛ ولكنه تغلب على بعضها، وكبح بعضها الآخر. هذا؛ وتميز السلطان **أبو العباس أحمد** بالسيرة الحسنة، وبثّ العدل في دولته وتمكين الرعية

منه، ونشر العلم، وخدمة العلماء والصالحين. وقد أضفى على دولته مسحة من الهيبة والاحترام. وامتدّ حكمه ــ في **تلمسان** ــ إلى اثنين وثلاثين سنة. أحيا خلالها ما اندثر من الأوقاف، وأضاف إليها أوقافاً أخرى. وبنى مدرسة جديدة في زاوية **أبي علي الحسن بن مخلوف**؛ وأوقف عليها أوقافاً قيمة. ويبدو أنه سلك مسلك أسلافه من ملوك **بني زيان** الرافضين للتبعية، والمتطلعين للاستقلال عن النفوذ الخارجي؛ وبذلك استنفر ضدّه **أبو فارس الحفصي**[1]؛ الذي شدّ رحاله ــ سنة 837هـ/1433م ــ بجيش سدّ الآفاق؛ قاصداً فتح **تلمسان**، وإسقاط **أبي العباس المعتصم** عن عرشه. ولكن شاءت الأقدار غير ذلك؛ حيث هلك في **وانشريس**؛ قبل وصوله إلى هدفه؛ فعاد أتباعه من حيث أتوا. وقال التنسي في المعتصم: ((**وبانت منه في ابتداء أمره شهامة ونجدة؛ توقف لها ــ رهبة ــ كل ذي صولة؛ وعرف مقداره، ولم يتجاوز حدّه. ثم عجز بعد ذلك عن النهوض وكَلّ؛ وتلاشى ما كان له من الهيبة في**

---

[1] قال الزركشي: ((وسار متوجهاً إلى تلمسان؛ لما بلغه عن صاحبها الأمير أحمد ابن السلطان أبي حمو موسى بن يوسف الزناتي؛ من التحدّث في الاستقلال؛ كعادة أسلافه)). تاريخ الدولتين، ص: 131.

النفوس واضمحل؛ واستولى المتغلبون على الأوطان، وكثر الثوّار من الزناتية والعربان))[1]. خرج عليه – في سنة 838هـ/1434م – أخوه **أبو يحيى بن أبي حمو الثاني**؛ وتبعه في ثورته بعض **الأعراب**؛ ولكنه فشل في تحقيق غرضه؛ فانثنى إلى **وهران**؛ التي استولى عليها سنة 840هـ/1437م. وحاول السلطان **المعتصم** استعادتها مراراً؛ وتم له ذلك في سنة 852هـ/1448م؛ فانهزم **أبو يحيى** عن طريق البحر إلى **بجاية**؛ ثم انتقل إلى **تونس**؛ موضع وفاته سنة 855هـ/1451م. وفي سنة 841هـ/1437م خرج من **تونس** الأمير **أبو زيان محمد المستعين بن محمد أبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني**؛ متوجهاً غرباً؛ قاصداً مملكة أجداده؛ فبدأ – سنة 842هـ/1438م – باحتلال كل ما مرّ به من أوطان؛ فاستولى على: **الجزائر، ومتيجة، ومليانة، ولمدية، وتنس**[2]. وبذلك؛ اشتدّ الأمر على السلطان **المعتصم (العاقل)**؛ إذ غدت

---

[1] **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 247 - 248.**

[2] **قال التنسي: ((فلما وصل وطا حمزة [البويرة حالياً]؛ بايعه أولاد بليل [من بني يزيد من زغبة]، ثم بايعته مليكش [من صنهاجة]، ثم بنو عمر بن موسى؛ أهل إيسلي، ثم جمهور الثعالبة، وبعض حصين. وتوجه إلى الجزائر؛ فحاصرها مدة طويلة؛ حتى ضاق الأمر بمن فيها؛ ففر مقاتلوها، وأذعن من بقي فيها، وأسلموا البلد)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص ص: 250 - 251.**

المصيبة مصيبتان؛ فبعد تمرد أخيه **أبي يحيى** في **وهران**؛ ظهر في **الجزائر** ومحيطها خطر جديد؛ يتمثل في **محمد المستعين**[1]. ويبدو أن أهل **الجزائر**؛ اشتد ضيقهم من أحكام **المستعين**؛ فتآمروا عليه وقتلوه سنة 843هـ/1439م[2]. ومن بين الثورات التي أزعجت ـ أيضاً ـ السلطان **أبا العباس أحمد المعتصم**؛ ثورة ابن أخيه **أحمد بن الناصر بن أبي حمو الثاني** ـ سنة 850هـ/1446م ـ ذلك الأمير الذي جمع حوله فئة من الساخطين المتمردين؛ فنادوا باسمه ملكاً على **تلمسان**؛ ولكن ثورتهم أجهضت في مهدها؛ وقتل الأمير **أحمد بن الناصر.** وإذا كان خطر **محمد المستعين**؛ قد زال بهلاكه في **الجزائر**؛ فإن خطر ولده **أبي ثابت المتوكل** بقي ماثلاً وقائماً؛ بل قادماً بتأنٍ وثبات؛ لأن هذا الأخير؛ واصل تحقيق أهداف أبيه؛ حتى احتل **تلمسان** في سنة 866هـ/1461م. وخلع عمّ أبيه **أحمد المعتصم**؛ الذي لجأ ـ بعد خلعه ـ إلى مقام **أبي**

[1] ((وعظم سلطانه، وارتفع شأنه؛ وفرّ إليه كثير من بني عبد الواد؛ أهل تلمسان؛ وعظم أمره على صاحب تلمسان؛ حتى أنساه ذلك همّ وهران)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 251.

[2] ذكر عبد الرحمن الجيلالي أن محرك الثورة ضده؛ هو أبو يحيى بن أبي حمو صاحب وهران. أنظر تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص: 197.

مدين شعيب؛ في قرية **العباد**. ولكنه لم يُتْرَك في ملجئه؛ حيث نُفِيَ – إثر ذلك – إلى **الأندلس**. فسعى منها إلى تشكيل قوة؛ انطلق بها من مدينة **الجزائر**؛ بغرض استعادة عرشه في **تلمسان**؛ ولكنه فشل في تحقيق هدفه؛ بعد حصار دام 14 يوماً؛ وانتهى عمره طبيعياً، وختم مسعاه في سنة867هـ/1463م؛ حيث دفن في **العباد**.

– **أبو ثابت أبو عبد الله محمد الخامس المتوكل على الله بن أبي زيان محمد المستعين بالله بن محمد أبي ثابت بن أبي تاشفين الثاني بن أبي حمو الثاني** (من 866هـ/1462م إلى 890هـ/1485م)[1]. كان في **تنس** عندما قتل والده **المستعين** في **الجزائر**؛ فأخطأته سهام الأعداء؛ حيث واصل مسعى والده؛ فاحتل **تنس، ومستغانم، وتمزغران، ووهران**؛ ثم قفز إلى **تلمسان**؛ التي فتحها سنة 866هـ، وخلع **أحمد المعتصم**؛ كما سبق ذكره. وواجهته منذ البداية فتن أشعلها أفراد من الأسرة المالكة. وأولى الفتن هي

---

[1] ثمة غموض في تاريخ وفاة أبو ثابن محمد الخامس؛ بسبب شح المصادر. ومع هذا فبارجيس يقول أنه بقي في الحكم مدة 21 سنة غير شهرين. واستند في قوله على مخطوط قديم لديه؛ ولكنه لم يسمه. وأشار أيضا محمود بوعياد في تعليق له على كتاب نظم الدر؛ أن هذا القول ورد كذلك في ملحق البغية.

فتنة السلطان المخلوع **أحمد المعتصم**؛ الذي عاد من منفاه **بالأندلس**؛ ونزل **بالجزائر**؛ أين اجتمعت إليه بعض الأحياء من **الأعراب، والأمازيغ**؛ زحف بهم نحو **تلمسان**؛ فحاصرها – كما ذُكِر – 14 يوماً؛ ولكنه توفي أثناء ذلك؛ حيث دفن في **العباد**. وجاء في ركاب **المعتصم** جماعة من الأسرة المالكة؛ منهم: الأمير **محمد بن عبد الرحمن بن أبي عنان ابن أبي تاشفين الثاني.** واصل حصار **تلمسان** هو ومن معه؛ ولكنهم صُدّوا عنها؛ فانسحب مع أتباعه. وقال **التنسي** في أمرهم: ((**فارتحلوا، وتفرقت جموعهم. فمنهم من راجع خدمة أمير المسلمين، ومنهم من تمادى في غيِّه**))[1]. غير أن **التنسي**؛ يشير – فيما بعد – إلى ثائر آخر سماه "**الأمير محمد بن غالية**". واصل تمرده ضد الدولة؛ إلى عام 868هـ/1463م؛ الذي قتل فيه. ولم يذكر **التنسي** من نسبه سوى هذا. ولكن يفهم من بعض عباراته احتمال أن يكون هو **محمد بن عبد الرحمن ابن أبي عنان بن أبي تاشفين الثاني**[2] نفسه. من

---

[1] **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 257.**

[2] **يكون قد عرف بابن غالية؛ مثلما عرف آخرون باسم الأم؛ كابن الزابية، وابن الحمرة.. إلخ.**

ذلك قوله مواصلاً حديثه السابق: ((**وصدر الأمير محمد بن غالية إلى وجدة**)). إذن؛ فقد يكون من بين الجيش المحاصر **لتلمسان**؛ ثم صدر – بعد الفشل – إلى **وجدة**. ويواصل **التنسي** قوله؛ بعد مقتله: ((**ثم جيء من الغد بجسده؛ فدفن مع صاحبه بالعباد**))[1]. وصاحبه طبعاً هو **أحمد المعتصم**.

في عهد السلطان **أبي ثابت محمد الخامس (المتوكل)**؛ زحف الجيش **الحفصي** نحو **تلمسان**. جاء – على رأسه – السلطان **الحفصي أبو عمرو عثمان**؛ يقال أن خروجهم من **تونس** وقع في سنة 866هـ/1462م؛ أي السنة التي انتصب فيها السلطان **المتوكل** على عرش **تلمسان**. ولما وصل وطن **بني راشد**؛ قابلته أحياء من **أعراب سويد، وبني يعقوب، وبني عامر، والدواودة**؛ بالإضافة إلى بعض أعيان **بني عبد الواد**؛ أبدوا حميعهم سخطهم على السلطان **الزياني**، وبالمقابل أعربوا عن ولائهم التام **للحفصيين**. ومن جهة أخرى وصل من **تلمسان** وفد؛ أرسله السلطان **المتوكل** إلى **أبي عمرو الحفصي**. ضمّ الوفد نخبة من علماء **تلمسان** وأعيانها

---

[1] **الاقتباس الأول والثاني في ص: 258.**

الأجلاء؛ وهم: الشيخ **أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبي القاسم العقباني، والشيخ أحمد بن الحسن**؛ وخال السلطان **أبو الحسن علي بن حمو ابن أبي تاشفين.** قدم له هذا الوفد بيعة السلطان **الزياني**، وعرض عليه الصلح. فقبل **أبو عمرو** عرضهم؛ وعاد إلى حاضرة ملكه. غير أن **أبا ثابت المتوكل**؛ تراجع عن موقفه بعد عامين؛ حيث أعلن سنة 868هـ/1463م عن إسقاط الدعوة **الحفصية**؛ وطرد عمالها من مملكته. ثم تراجع عن موقفه؛ وعاد عنها ساعياً للإستقلال. وفي هذا الوقت بالذات؛ شنّ **أعراب بني عامر وسويد** حملة تحريض ضدّه؛ لدى السلطان **الحفصي أبي عمرو**؛ فما كان منه سوى تجهيز جيش، والتحرك نحو **تلمسان** في أواخر سنة 870هـ/1465م. حيث استقر في **المنصورة** سنة 871هـ/1466م؛ جاعلاً منها منطلقاً لقتال **تلمسان** ومحاصرتها. وبعد جولات عديدة؛ انصبّ المطر غزيراً عليهم؛ فأثقل حركتهم؛ وفي تلك الأثناء خرج قاضي **تلمسان** – مع أعيان البلد – إلى السلطان **الحفصي** عارضين عليه الصلح، والسلام. وقدموا له كتاب البيعة؛ حرّره السلطان **محمد المتوكل** بيده؛

جاء فيه: ((**شهد على نفسه؛ عبد الله المتوكل عليه؛ محمد لطف الله به؛ ولا حول ولا قوة إلاّ بالله؛ وأعطى ابنته بكراً؛ للمولى أبي زكرياء يحيى ابن المسعود**[1]**؛ دون خطبة**))[2]. وكانت هذه الحملة؛ آخر حملات التدخل **الحفصي** في شئون **تلمسان**. أما **أبو ثابت المتوكل** فقد ظل متربعاً على عرشه إلى يوم وفاته **بتلمسان** في سنة 890هـ/1485م؛ حيث خلفه ابنه **تاشفين**.

ـ تاشفين بن أبي ثابت محمد المتوكل بن أبي زيان محمد المستعين بالله (حكم 4 أشهر في سنة 890هـ/1485م). لم يكد يجلس على العرش؛ حتى وافته المنية فجأة؛ بعد أشهر أربعة. فتولى بعده أخوه **محمد السادس ابن أبي ثابت المتوكل**.

ـ أبو عبد الله أبو ثابت الثاني محمد السادس ابن أبي ثابت المتوكل (من 890هـ/1485م إلى 902هـ/1496م). شُغِل ـ منذ توليه ـ بالفتن المشتعلة، وبُؤر الفوضى المتناوية في دولته؛ فكان ضعيف الإرادة، عليل النفس؛ فبقي هكذا إلى أن توفي سنة

[1] هو حفيد أبي عمرو وولي عهده؛ وسلطان بني أبي حفص بعده. تولى الحكم في تونس بعد وفاة جدّه سنة 893هـ/1488م؛ وتوفي بالطاعون في سنة 899هـ/1493م.

[2] تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، ص: 158.

902هـ/1496م؛ دون أثـر ينـوّه بـه، أو عمـل يمجـد أسمـه. وبموتـه؛ خلفـه **محمـد الثابـتي**.

ـ أبـو عبـد اللـه محمـد السابـع بـن أبي ثابـت الثـاني المعـروف بالثابـتي[1] (مـن 902هـ/1496م إلى 909هـ/1503م). اشتهـر هـذا السلطـان بالنباهـة وحسـن التدبيـر؛ ولكنـه عـاش في فتـرة زمنيـة رديئـة؛ انحطـت فيهـا المجتمعـات المغربيـة إلى أبعـد الحـدود؛ وفسـدت أحوالهـا: الاجتماعيـة والسياسيـة والثقافيـة، وتراجعـت قيمهـا الخلقـة، وانهـارت نظمهـا الاقتصاديـة، وانكمشـت حياتهـا المعيشيـة، وتفككـت الجيـوش التابعـة لـدول المنطقـة كلهـا. وفي هـذا الزمـن بالـذات؛ وفي سنـة 895هـ/1490م بالتحديـد؛ سقـط صـرح الإسـلام في **الأندلـس**، ودُكَّـت أسـوار **غرناطـة**، إذ اجتاحتهـا الجيـوش **النصرانيـة**؛ ودخلتهـا ملوحـة بألويـة النصـر؛ الـتي أذرفـت دمـوع آخـر ملـوك الإسـلام ـ مـن **بـني الأحمـر** ـ في تلـك الديـار. فخـرج مـن قصـره طريـداً شريـداً نحـو **وهـران**؛ ثـم انتقـل بعدهـا إلى حاضـرة الدولـة **الزيانيـة تلمسـان**؛ فاستقبـل مـن قبـل السلطـان **محمـد ابـن أبي ثابـت** بحفـاوة وإكبـار. غيـر أن وجـود السلطـان

---

[1] سماه أحمد توفيق المدني "أبو زيان الثالث الملقب بالمسعود". أنظر كتاب حرب الثلاثمائـة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 108.

أبي عبد الله محمد الزغل بن سعد في تلمسان؛ أغضب الملك **الإسباني فردينادو الخامس**[1]؛ خوفاً من تعاظم شأنه، ووقوف القبائل **المغربية** خلفه؛ من أجل نصرته، والعودة به إلى **الأندلس**. ولكن السلطان **الزياني** طمأنه، وسكّن من روعه، وأزال غضبه؛ حين سافر إليه في **إسبانيا**؛ مصحوباً بهدايا رفيعة القيمة؛ شملت بعض الخيول الأصيلة، والجواهر الكريمة، التحف الثمينة؛ يقال أنها عبارة عن لؤلؤة ملكية التصنيف، فخمة المظهر، نادرة الوجود. ثم مجموعة من الطيور الذهبية المعدن، الخالصة التكوين، الرفيعة العيار؛ من بينها دجاجة من الذهب الخالص؛ يحيط بها ستة وثلاثون نقفاً. وهذا يعطي صورة صادقة؛ لما وصل إليه البلاط **الزياني** من البذخ الصارخ، والتبذير الراسخ. كما

---

[1] ترجم أحمد توفيق المدني نصاً؛ نقله من المجلة الإفريقية جاء فيه: ((وبعد انهيار مملكة غرناطة؛ طلب الملك أبو عبد الله أن يتسحب مع ذويه إلى بلاد المغرب؛ فتحرج فردينادوا وإيزابيلا من ذلك حرجاً كبيراً؛ خشية أن يطلب ... الملك مدداً من الشمال الإفريقي يأتي به لنجدة المسلمين. إنما تمكن الراهب خمنيس بعد من إقناعهما؛ بأن لا خطر البتة من وراء هذا الانسحاب إلى المغرب؛ لأن حالة الخلاف والشقاق المستحكمة الحلقات بالبلاد الإفريقية الشمالية؛ لن تسمح لأهلها البتة بالإقدام على مثل هذا العمل)). كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 68.

يلاحظ هنا؛ أن السلطان **محمد الثابتي** بذهابة إلى بلاط ـ **فرديناادو الخامس** ـ قام بخطوة غير موفقة؛ سَنَّ بها عادة رديئة؛ قلّده فيها غيره ممن جاء بعده؛ كما أوحى لكثير من رعيته أن الاتصال بالعدو أمر لا ضرر منه. وعلى هذا؛ فقد كثرت اتصالات الملوك والأعيان ـ فيما بعد ـ بالبلاط **الإسباني**، والقادة **الإسبان**؛ المحتلين لديار الإسلام. المهم؛ أن السلطان **محمد بن أبي ثابت**؛ واجه بعد فترة قصيرة؛ اضطرابات؛ أفقدته عرشه؛ إذ وثب عليه عمه **أبو حمو الثالث**؛ فأطاح به، واستولى على ملك **الزيانيين بتلمسان.** وزجّ بالسلطان **محمد** ابن أخيه في السجن. وتعتبر الفترة القادمة أسوأ الفترات التي مرت بالدولة **الزيانية**؛ حيث تردّت الأوضاع السياسية، وتفككت الروابط الاجتماعية، وانهارت القيم الأخلاقية تماماً؛ حتى أضحى التحالف مع الأعداء **الإسبانيين** من الأمور العادية المألوفة؛ بحيث كان سلاطين **بني زيان** يتداولون الأدوار؛ في استراضاء الغزاة **الإسبانيين**، والوقوف معهم صفاً واحداً ضد الإخوة والأبناء.

ـ **أبـــو حمـــو الثالـــث المعـــروف بابـــن قلمـــون بـــن محمـــد الخامـــس** (حكـــم في فترتيـــن: الأولى مـــن 909هـــ/1503م إلى 923هـــ/1517م، والثانيـــة في 924هـــ/1518م سنـــة وفاتـــه). وصـــل إلى الحكـــم بانقـــلاب ضـــد ابـــن أخيـــه **محمـــد بـــن أبي ثابـــت** في سنـــة 909هـــ. افتتحـــت الفتـــرة الأولى مـــن حكـــم هـــذا السلطـــان؛ بظهـــور أخطـــار خارجيـــة مدمّـــرة؛ بـــرزت بوادرهـــا ـ فيمـــا سبـــق ـ بالمؤامـــرة الخطيـــرة الـــتي حبكهـــا **بابـــا الكاتوليـــك**؛ في مؤتمـــر " **طـــور ديـــزلاس" TORDESILLAS**؛ في سنـــة 899هـــ/1494م؛ عندمـــا حـــثّ أتباعـــه عـــلى إزالـــت الممالـــك الإسلاميـــة في **الشمـــال الإفريـــقي**. فوُزِّعـــت ـ عندئـــذ ـ الأدوار؛ بيـــن **الإسبانييـــن والبرتغالييـــن**؛ بحيـــث يتـــولى الأولـــون شـــواطئ **الجزائـــر**؛ بينمـــا تتـــرك شـــواطئ **المغـــرب الأقـــصى للبرتغالييـــن**. وتـــم التطبيـــق الفعـــلي لخطتهـــم ـ بعـــد حمـــلات استطلاعيـــة وعمليـــات تجَسُّسِيَّـــة[1] ـ حيـــث تمكـــن جيـــش الأسطـــول البحـــري **الإسبـــاني** سنـــة 911هـــ/1505م ـ وفي عهـــد **أبي**

---

[1] ترجم أحمد توفيق المدني نصاً للمـؤرخ **" ف. أبروديل"؛ قال فيه: ((أن جاسوساً من الجواسيس الذين أرسل بهم فردينانـدو إلى بلاد المغرب العربي؛ قد أرسل إلى ملكه تقريراً مفصلاً؛ جاء فيه: "أن كامل بلاد شمال إفريقيا يجتاز فترة انهيار نفسي؛ يظهر معها؛ أن الله قد أراد أن يجعل هذه البلاد ملكاً لصاحبي الجلالة المسيحية..")). حرب** الثلاثمائـة **سنة بين الجزائر وإسبانية، ص: 68.**

حمو الثالث بالذات ـ من احتلال **المرسى الكبير** المجاور **لوهران**. غير أنهم كُبِحوا وهُزِموا شرّ هزيمة في قرية **مسرغين**؛ حينما حاولوا التوغل داخل المنطقة. ومع هذا؛ لم تُفحم هذا الهزيمة **الإسبانيين**؛ إذ عاودوا الكرّة؛ بتحريض وتمويل **الكاردينال كسيمنس**. تمّ ذلك بانطلاق الأسطول **الإسباني** من **قرطاجنة** سنة 915هـ/1509م؛ فحلّ **بالمرسى الكبير**؛ وبعدها انتقل إلى **وهران**؛ فلم يثبت أمامهم جيش **بني زيان** في تلك الجهة؛ كما أن أولئك الغزاة؛ وجدوا عوناً ودعماً من قبل **أعراب بني عامر**[1]**، وبني شافع، وحميان**.. وغيرهم. فاستولوا على **وهران**؛ بعد أن فتح أبوابها قائدان أؤتمنا على المدينه؛ فخانا الأمانة[2]. وأدت هذه

---

[1] كتب الشيخ أبو العباس أحمد بن القاضي عبد الله بن أبي محلي السجلماسي قصيد في هذا الغرض؛ جاء فيها:

فمن مبلغ عني قبائل عامر ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد بتيجانهم مع رأسها عبد قادر

إلى أن يقول:

أناشدكم بالله ما عذر جمعكم لدى الله في وهران أمر الخنازر

[2] حديث شريف عن أبي هريرة رضي الله عنه: ((آيَةُ المُنَافِقِ ثَلاثٌ: إذَا حَدّثَ كَذَبَ، وَإذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإذَا اؤْتُمِنَ خَانَ)). رواه البخاري ومسلم. وسجل أحمد توفيق المدني خبر هذه الخيانة بقوله: ((كان [قائد الإسبان في المرسى الكبير] قد اشترى بذهب وفير، وبوعود جمّة؛ لا حدّ لها؛ ذمة اليهودي اشطورا ـ من مهاجري الأندلس؛ من الذين انقذتهم نفس مدينة وهران من المحارق الإسبانية ـ وقد كان اشطورا هذا؛ قابض

الهزيمة؛ إلى خضوع واستكانة؛ أبداهما السلطان **أبو حمو الثالث**؛ الذي مال إلى استرضاء **الإسبانيين**، وتلبية مطالبهم؛ في مقابل بقائه في الحكم. ومنذئذ؛ اعتلَّت النفوس، وانقسمت الجهود، وعميت القلوب؛ بحيث أضحت هذه البؤرة الجهنمية في **وهران**؛ بمثابة الطاعون الذي يتسرب إلى الناس؛ فيقتل هذا، ويصيب هذا؛ وينتقل من محفل إلى آخر، فينشر العدوى، ويبثّ الفساد في الأعضاء السليمة؛ فتصاب بالمرض الخبيث.

ولم يقف **الإسبانيون** عند **وهران**؛ بل واصلوا تنفيذ مخططهم فاحتلوا مدناً شاطئية عديدة؛ **كعنابة** في سنة 914هـ/1510م، **وبجاية** سنة 915هـ/1511م، **وجيجل** سنة 920هـ/1514م؛ ثم **دلس**، **وشرشال**، **وهنين** في سنة 938هـ/1531م. وبالمقابل واجه ملوك

المكوس العام لمدينة وهران؛ واشترى هو - بنفس الوسيلة وبنفس الطريقة - ذمة اثنين من قابضي المكوس؛ الذين يعملون تحت إدارته؛ وهما القائد الخائن عيسى العريبي، والقائد الخائن ابن قانص. فبينما المسلمون على الأسوار، ووراء الأبواب؛ يستعدون للحملة الكبرى؛ تجمعت الجموع الإسبانية حول باب من أبواب المدينة؛ وقع الاتفاق من قبل عليه. وفي الساعة المعينة؛ فتح اشطورا والخونة الذين معه الباب؛ فتدفق الإسبان إلى داخل المدينة؛ كأنهم السيل الجارف...)). كتاب حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص ص: 109 - 111.

المغرب كله؛ العدوان الخارجي بالجبن والخذلان واللامبالاة؛ إذ تخلوا عن مهمتهم الأساسية في الذّود عن أراضيهم، وحماية رعاياهم؛ وعجزوا عن التصدي للعدوان الخارجي؛ واكتفوا بالانكماش داخل قصورهم المرفهة، والانغماس في البذخ والنعيم الفائض، والسقوط في الملذات المعيبة؛ والحرص كل الحرص على استخلاص الضرائب ونهب قوت الرعية، وتكديس الثروة في مخازنهم. ومن بين هؤلاء الملوك ــ طبعاً ــ السلطان **الزياني أبو حمو الثالث**. هذ السلطان الذي أحجم عن إنقاذ مدينة **وهران**؛ الواقعة تحت سلطانه. إذ صمت على عدوان صريح ومكشوف. فانجر عن انخذاله، وتقوقعه على نفسه في قصره **بتلمسان**؛ أنه شجع بعض الطامعين من الأسرة **الزيانية** المالكة؛ على العصيان والتمرد.

وهذا الطموح الطامع؛ هو الأمير **يحيى بن الثابتي**؛ وهو أخو السلطان السابق المخلوع **محمد ابن أبي ثابت**. ثار ضد عمّه **أبي حمو الثالث**؛ ولم يجد وسيلة أمامه؛ كي يحقق أطماعه؛ سوى الاستعانة **بالإسبانيين** المتواجدين **بوهران**؛ فدعموه في حربه؛ التي خسر بعضها وكسب أخرى؛ وانتهى به الأمر بامتلاك **تنس** سنة 912هـ/1506م، واقتطاعها من

جسم الدولة **الزيانية**. وبذلك يكون هذا الأمير قد فتح باباً آخر من أبواب جهنم؛ لم يتسنى – بعد ذلك – له ولا لغيره أن يقفله أبداً؛ إذ غدا هذا التصرف الشاذ وهذا السلوك الغريب؛ عادة جارية ((موضة))؛ اتبعها السلاطين فيما بعد؛ ومنهم طبعاً؛ **أبو حمو الثالث** بالذات؛ الذي أحرز قصب السبق في هذا النهج السقيم.. كل هذا أدى إلى تفكك الشعب، وانشغال الناس بقضاياهم وهمومهم الخاصة؛ وأهملوا ما تمليه المصلحة العامة؛ حيث عملوا بمقتضى الحديث الشريف ((**عليك بخاصة نفسك**)).. عند فساد الناس؛ حدث كل ذلك؛ بعدما سئم **الشعب الجزائري** من ملوكه وأمرائه؛ وانقطع حبل الصلة والوصاية بين الطرفين؛ نتيجة لتخاذل أولئك السلاطين وقعودهم عن حماية شعبهم. عندئذ قامت فئة مستنيرة من العلماء والأعيان؛ بالدّور المنوط بأولئك الملوك؛ فنظموا أنفسهم ضمن مجموعة متماسكة؛ تكفلت بمفاوضة أهم القوى الخارجية المتواجدة في الساحة آنئذ كـ (**الإسبانيين والأتراك والجنويين والبندقيين... إلخ**). ومع هذا؛ لم تُجْد مساعي أعيان **الجزائر** الحميدة؛ لأن **للإسبانيين** أهدافاً محددة؛ كانوا يحققونها خطوة بعد خطوة. بذلك غدت معظم مدن الشاطئ

الجزائـــري تحــت أيديهــم؛ بمـــا في ذلــك مدينـــة **الجزائـــر** نفسهـــا. عندهـــا تـــمّ الاتصــــال بالإخـــوة: **عـــروج وخيـــر الديـــن**؛ إذ طُلِـــب منهـــم تـــرأس البـــلاد؛ مقابـــل حمايـــة العبـــاد، ورفـــع لـــواء الجهـــاد؛ في سبيـــل الإســـلام؛ ديـــن الحـــق والرشـــاد.

وعليـــه؛ فبعـــد اتصـــال أولئـــك الأعيـــان **بالإسبانييـــن**[1]؛ تبينـــت لهـــم أطماعهـــم التوسعيـــة وأهدافهـــم الصليبيـــة؛ لـــذا فقـــد تحولـــوا نحـــو الأخويـــن "**باربـــاروس**" : **أُرُوج (عُـــروج) وخيـــر الديـــن**[2]؛ **ابـــني يعقـــوب بـــن يوســـف المـــدلي التـــركي.** بعـــد أن ذاع صيتهمـــا، وتناقـــل النـــاس أخبارهمـــا الجهاديّـــة ضـــد **الصليبييـــن**. إذ كـــان هـــذان البحّـــاران **التركيّـــان** يجـــولان بعمارتهمـــا البحريـــة[3] في عـــرض **البحـــر الأبيـــض المتوســـط**؛ أيـــن قامـــا بإنقـــاذ عـــدد كبيـــر مـــن

---

[1] تشكل وفدٌ من أعيان الجزائر برئاسة الشيخ سالم التومي الثعالبي؛ لمفاوضة القائد الإسباني في بجاية "بيدرو نفاري"؛ فقابلوه في شوال من سنة 916هـ/1510م. أين وقعوا على معاهدة مجحفة بشروطه التعجيزية. ولما انتقلوا إلى إسبانيا لمقابلة ملكها "فرديناند الخامس" اشترط عليهم التنازل عن إحدى الصخرات البحرية؛ من بين الصخرات الأربع؛ المقابلة لمدينة الجزائر؛ فتم له ذلك؛ وشرع الإسبان في بناء حصن بها " البنيون" سنة 915هـ/1509م.

[2] اسمه ـ في الأصل ـ خرسوف؛ فنصح بتغييره إلى خير الدين؛ ففعل.

[3] العمارة تتشكل من عدة مراكب بحرية. وقد انطلقا ـ في البداية ـ بثلاثة مراكب؛ مجهزة بأسلحة ضاربة. ثم تضاعفت مع مرور الوقت.

الموركسيين[1] الفارّين من جحيم **الصليبين** في **الأندلس**؛ فكان **عروج** وأخوه ينتشلانهم من هول الأمواج التي تلطم مراكبهم الصغيرة، وينقذانهم من مطاردة **الصليبيين** المميتة، ويحميانهم من مهالك الأمواج ومصائب الأيام؛ حيث ترسو عمارتهم بهم على شواطئ **الجزائر وتونس**. أين يجدون المأوى الأمين، والعيش الكريم. فكانت ثمار الاستنجاد بهما؛ أنهما توصلا إلى تطهير أرض الإسلام من دنس الاحتلال الصليبي؛ حينما طردا **الإسبانيين والجنويين** من **جيجل والجزائر وشرشال**[2]؛ الأمر الذي حفّز **أحمد ابن القاضي**؛ أمير **كوكو بزواوة**؛ على الاستنجاد **بعروج**؛ إذ وجه له رسالة؛ جاء فيها: ((**إن بلادنا بقيت لك ولأخيك، أو للذئب**))[3]. كل هذه الأحداث الصاخبة كانت تجري؛ وملوك **بلاد المغرب** كافة في سبات عميق، ومنشغلين باللهو الصفيق. من بينهم السلطان **أبي حمو الثالث**.

وبعد استقرار **عروج وخير الدين** في **الجزائر** فترة قصيرة؛ بغرض تنظيم الصفوف، وترتيب شئون

---

[1] **اسم أطلقه نصارى إسبانيا على مسلمي الأندلس؛ بعد سقوط غرناطة.**
[2] **تم فتح جيجل سنة 920هـ/1514م. والجزائر والشرشال في سنة 922هـ/1516م**
[3] **تاريخ الجزائر العام، ج: 3، ص: 15.**

الحكم؛ بادرا فوراً إلى الزّحف سنة 923هـ/1517م نحو **تنس**؛ لتأديب الأمير **يحيى بن محمد بن أبي ثابت**؛ الذي ارتمى في أحضان **الإسبانيين**؛ طمعاً في عونهم على استعادة ملك أبيه في **تلمسان**. واقتضت خطة الاستيلاء على **تنس**؛ أن يهاجمها **خير الدين** عن طريق البحر؛ بينما ينقض عليها **عروج** من البر. وبالفعل نجحت خطتهما في فتح المدينة، وقتل أميرها **يحيى بن الثابتي**.

وباحتلالهما لمدينة **تنس**؛ قدم إلى **عروج** وفدٌ من أعيان **تلمسان**؛ فاشتكوا من الحالة المتردية في عاصمة **الزيانيين**، وعرّفوه بما يجري بين أفراد الأسرة المالكة من صراعات، ومنافسات مريبة؛ وما يحدث من اتصالات ومؤامرات بينهم وبين **الإسبانيين**؛ بما فيهم السلطان **أبو حمو الثالث** نفسه[1]؛ الذي يستمد نفوذه وقوته من **الإسبانيين** في **وهران**. ثم عرضوا عليه القدوم إلى حاضرة الدولة؛ ودخول المدينة؛ فاتحاً، ومحرراً. استجاب **عروج** بدون تردد؛ لأنه كان يعلم حجم الفساد المتفشي في عاصمة **المغرب الأوسط**. وعليه؛ فقد تقدم ثابت

---

[1] **تحول أبو حمو الثالث إلى مجرد تابع للملك الإسباني؛ بعد الاجتماع به في مدينة برغوس BURGOS؛**

الخطى نحو **تلمسان**؛ فدخلها سنة 923هـ/1517م؛ وأجلس على عرش الدولة السلطان **أبو زيان أحمد ابن أبي ثابت**[1]؛ وهو الذي وثب عليه **أبو حمو الثالث** ـ من قبل، وسجنه ـ بينما لجأ **أبو حمو** إلى مدينة **وهران**؛ مستنجداً **بالإسبانيين** فيها.

ـ أبو زيان أحمد الثاني ابن عبد الله الثاني (حكم وتوفي في سنة 923هـ/1517م). لم تطل مدة حكم هذا السلطان؛ لأنه أبى الخضوع للنفوذ **التركي**؛ فعمل على إخراجهم من **تلمسان**[2]، وحارب **عروج**

---

[1] تضاربت الأقوال في التعريف بهذا السلطان. إذ اكتفى أحمد توفيق المدني بتسميته بـ "أبي زيان الثالث المدعو المسعود" بينما سمّاه عبد الرحمن الجيلالي "أبا زيان أحمد الثاني ابن عبد الله الثاني".

[2] يبدو أن هذا التوجه؛ تبناه أهل تلمسان أنفسهم؛ وفي ذلك يقول أحمد توفيق المدني: ((أن أهل تلمسان الذين استنجدوا بعروج، وفتحوا له أبواب المدينة، وتلقوه على الرّحب والسّعة؛ لكي ينقذهم من الملك أبي حمو صنيعة الإسبان، ولكي يجلسوا على العرش أبا زيان؛ لم يكونوا في أغلبيتهم يريدون أن يتعدى الأمر ذلك؛ لم يكونوا يريدون أن يخسروا استقلالهم، وأن يفقدوا ملكهم؛ الذي تركه لهم جدّهم يغمراسن العظيم. فما كادت تنتهي فورة الجدل الأولى؛ ولم يكادوا يعلمون أن عروج يريد أن تصبح تلمسان ومملكتها جزءاً من دولة ضخمة هي الدولة الجزائرية؛ حتى تخلوا عنه؛ بل ناصبه أكثرهم العداء)). حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 193. ويبدو أن السبب غير هذا في نظري؛ لأن الدولة الجزائرية لا يمكن أن تُرْفض من قبل سكان تلمسان؛ خاصة وأن الجزائر كانت تابعة ـ يوما ما ـ للدولة الجزائرية الأم؛ وعاصمتها تلمسان. وإنما حقيقة رفضهم؛ تكمن في مسعى الأخوين عروج وخير الدين؛ لضمّ تلمسان والجزائر إلى الباب العالي في اسطمبول. وقد أشار إلى هذا ابن الضياف في كتابه إتحاف أهل الزمان؛ حينما تكلم عن ذهاب خير الدين

وأتباعه؛ ولكنه قتل أثناء المعركة الدائرة بينه وبين جيش **عروج**[1]. وانتهز **أبو حمو الثالث** فرصة نشوب الحرب بين ابن أخيه **وعروج**؛ فطلب عون **الإسبانيين،** وزحف معهم نحو **تلمسان** سنة 924هـ/1518م؛ فتقدموا إليها من محورين: الأول سار فيه **أبو حمو** مع فئة من أتباعه، وقوة من **الإسبانيين**؛ فتوجهوا في البداية إلى قلعة **بني راشد (هوارة)**؛ أين يتواجد **إسحاق بن يعقوب** شقيق **عروج**؛ ففتحوها؛ ثم قتلوا **إسحاق** بعد خروجه منها. وبعدها انطلقوا نحو **تلمسان**.

للسلطان التركي سليم؛ حاملا معه السكة المضروبة باسمه، ومبشراً إياه برفع الدعاء باسمه على منابر الجزائر. وذكر ابن الضياف أيضاً؛ أن السلطان الحفصي محمد بن الحسن اشتد حذره من خير الدين بعد هذا؛ كما بعث للسلطان الزياني في تلمسان يحذره منه، أنظر إتحاف أهل الزمان، ج: 2، ص: 11.

[1] **هذه رواية من الروايات. أما الرواية الأخرى؛ فأشار إليها أحمد توفيق المدني؛ حيث قال: ((فلم يستقر الوضع بتلمسان إلاّ قليلاً؛ حتى عادت الفتن والدسائس سيرتها الأولى؛ يغذّيها الإسبان من جهة، ويغذيها صاحب العرش والطامعون في العرش من جهة أخرى. وهكذا؛ نشبت فتنة في تلمسان - والإسبان يتربصون بها الدوائر - وتولى كبر الفتنة نفس السلطان (أبو زيان)؛ وأشياع عمه أبي حمو معاً؛ فخرج عروج من تلمسان حيناً؛ ثم عاد إليها، وقتل أبا زيان، وجماعة من قرابته وأنصاره، مع رؤوس الفتنة، ورجال المشاغبة)). حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا، ص: 189.**

أمـــا المحـــور الثــــاني؛ فيبـــدأ بساحـــل **أرشقـــون**؛ حيـــث انطلـــق منـــه الجيـــش **الإسبـــاني** نحـــو **تلمســـان**؛ والتـــقى الجمعـــان أمـــام المدينـــة **الزيانيـــة**؛ فشـــدّدوا عليهـــا الحصـــار مـــدّة ستـــة أشهـــر؛ اضطـــر بعدهـــا **عـــروج** إلى تركهـــا، والخـــروج منهـــا؛ بعـــد أن يئـــس مـــن وصـــول المـــدد إليـــه[1]. فخـــرج مـــع رفقائـــه يترصـــد المـــدد؛ ولكنـــه اصطـــدم بجيـــش **الإسبـــان**؛ فالتحـــم معهـــم في معركـــة غيـــر متكافئـــة؛ ختمـــت باستشهـــاده في سنـــة 924هـــ/1518م.

وخلاصـــة القـــول؛ أن عـــرش **تلمســـان**؛ عـــاد إلى **أبي حمـــو مـــوسى الثالـــث** لفتـــرة قصيـــرة؛ حيـــث شـــاءت الأقـــدار أن يمـــوت **هـــذا السلطـــان** التعيـــس في السنـــة الـــتي دخـــل فيهـــا إلى **تلمســـان**، وفي السنـــة الـــتي استشهـــد فيهـــا **عـــروج** أيضـــاً. فانتقـــل الحكـــم إلى **أبي محمـــد عبـــد اللـــه الثـــاني ابـــن أبي ثابـــت**؛ وهـــو الـــذي عـــرف بلقـــب **المتوكـــل عـــلى اللـــه**.

---

[1] اختلفت الروايات حول خبر هزيمة عروج من تلمسان؛ كما اختلفت في موضع استشهاده؛ حيث يرى بعضهم أنه توفي سنة 924هـ/1518م في زاوية سيدي موسى بجبل بني يزناسن. أما الرواية الأخرى فيرى أصحابها أنه استشهد في واد المالح؛ الواقع بين تلمسان ووهران. وقد أورد عبد الرحمن الجيلالي خبراً أجمع عليه مصدران: الأول ما ذكره أبو راس؛ إذ جاء فيه أن المعركة بين عروج والإسبان؛ وقعت في جبل بني موسى (جبل بني يزناسن) يوم عيد الفطر من سنة 935هـ/1529م. والخبر الثاني؛ ما ورد في المجلة الإفريقية؛ بتحقيق المؤرخ الفرنسي بريقجير. وجاء فيه نفس ما ذكره أبو راس.

ـ **أبو محمد عبد الله الثاني ابن أبي ثابت الثاني المعروف بمحمد المتوكل على الله** (حكم في فترتين الأولى من 924هـ/1518م إلى 925هـ/1519م وعاد في السنة نفسها إلى سنة وفاته في 930هـ/1524م). حاول هذا السلطان مسك العصا من وسطها؛ ولكنه لم يوفق؛ لأن وضع **الأتراك** وأنصارهم من **الجزائريين** لا يمكن تسويتهم بميزان واحد، أو تثمينهم بمعيار واحد مع **الإسبانيين**؛ لذا؛ كان فشل هذا السلطان حتمياً. لأن موقفه يتناقض مع رغبة سكان **تلمسان**؛ الذين يفرقون ـ إلى حدٍ ما ـ بين **الإسبانيين الصليبين، والأتراك المسلمين**. ويبدو أن بيت الداء هنا؛ هو جدّ السلطان **عبد الله** لأمّه؛ وهو شيخ أحد أحياء **بني عامر**؛ المدعو **عبد الرحمن بن رضوان**. فقد أظهر هذا الشيخ جهلاً كبيراً، وأبدا عقوقاً فاضحاً؛ أودى به وبحفيده إلى مهاوي الهلاك، وساقه في طريق جهنم. وقد استغلّ هذا الانحراف، وهذا التناقض أخو السلطان **عبد الله**؛ الذي كان منفياً في **المغرب الأقصى**؛ **والمدعو أبا سرحان المسعود**؛ فعاد طالباً الملك؛ ولكنه صُدّ ومُنع؛ عند ذلك لجأ إلى **خير**

الديــن في **الجزائــر**؛ الــذي ساعــده عــلى الدخــول إلى **تلمســان**؛ والتربــع عــلى عــرش أجــداده.

– **أبــو سرحــان المسعــود بــن أبي ثابــت الثــاني** (ثــار وسقــط في سنــة 925هـ/1519م). لمــا تعــذرت عليــه العــودة مــن منفــاه – **بالمغــرب الأقــصى** – إلى **تلمســان**؛ توجــه إلى **خيــر الديــن**؛ طالبــاً مساعدتــه؛ فواقــق هــذا الأخيــر؛ ولكــن بشــروط حُــدّدت في معاهــدة اعتُمِــدت مــن قبلهمــا: وتشتمــل المعاهــدة المذكــورة عــلى عــدة بنــود؛ أهمهــا: التــزام السلطــان **الزيــاني** بالانضــواء ضمــن الدولــة **العثمانيــة**، ثــم الأمــر برفــع الدعــوة للسلطــان **التــركي سليــم** عــلى منابــر **تلمســان**؛ ثــم التعهــد بدفــع ضريبــة سنويــة لخزينــة الدولــة. وبعدهــا؛ جهــزه **خيــر الديــن**، وأعانــه بقــوة أدخلتــه **تلمســان** سنــة 925هـ/1519م. أيــن أخــرج أخــاه **أبــا محمــد** مــن المدينــة. وبــقي – في بدايــة ملكــه – عــلى عهــده المبــرم مــع **خيــر الديــن**؛ غيــر أنــه تراجــع عنــه بعــد فتــرة؛ ونقــض تلــك المعاهــدة؛ حيــث أعلــن استقــلال دولتــه عــن أي نفــوذ أجنــبي. فانهــارت بذلــك المعاهــدة المعقــودة بينــه وبيــن **الأتــراك**؛ الذيــن تهيــأوا لــردّ الصفعــة بأشــدّ منهــا. وسرعــان مــا جــاءت الفرصــة المواتيــة؛ حينمــا ظهــر

أبــو محمــد عبــد اللـــه الثـــاني مــن جديــد في ســنة 930هــ/1524م؛ حينمــا اتصــل **بخيــر الديــن**؛ فاستقبلــه هــذا الأخيــر بحفــاوة وترحــاب. والتــزم باحتــرام المعاهــدة المعقــودة مــع سابقــه. ولكنــه حــاول ــ بعــد وصولــه إلى سـدة الملــك ــ نكـث عهـده مـع **خيــر الديــن**؛ ولكــن **الأتــراك** كشفــوا لــه أنيــاب سخطهــم؛ فتراجــع عــن نواياه فــوراً؛ ولــم يـدم عهـده؛ إذ تــوفي في السنــة الــتي انتصــب فيهــا؛ وهي 930هــ/1524م. فخلفــه ولــده **محمــد السابــع**.

ــ **أبــو عبــد اللــه محمــد السابــع ابــن أبي محمــد عبــد اللـــه الثـــاني ابــن أبي ثابــت الثـــاني** (حكــم في فترتيــن: الأولى مــن 930هــ/1524م إلى 949هــ/1542م، الثانيــة في سنــة 950هــ/1544م). صحيفــة هــذا السلطــان ســوداء؛ في حــق أمتــه ووطنــه. افتتــح عهــده؛ بالانضــواء تحــت مظلــة **الإسبانييــن**؛ إذ لجــأ إليهــم طالبــاً حمايتهــم، وجهــر بعدائــه **للأتــراك**. وقــد أوردت المصــادر التاريخيــة رسالــة بعــث بهــا هــذا السلطــان إلى إمبراطــورة **إسبانيــا "دونيــا إيزابيــلا"**؛ جــاء فيهــا: ((**... بــل في صحيــح علمكــم؛ مــا هــو حالنــا عليــه؛ مــن نكايــة صاحــب الجزائــر، ومــا هــو يرومــه مــن تشغيبنــا في الباطــن والظاهــر؛ فعلنــا**

ذلك طمعاً منا في مهادنته، وحيلة لجلب محاسنته. لما أعيانا أمره، واشتد تنكيره وضرّه. أظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته، وقابلناه بما يليق بفساد بيته، وخبث سريرته. وقد توفر الآن عزمنا في إعمال الحركة عليه، والتوجه بكل وجه يمكن إليه؛ فجميع العرب، والقبائل على حربه متفقون، وإلى تضييق حصاره شارعون. وغرضنا منكم؛ أن تبادروا بتوجيه العمارة في الحين والوقت، بالجدّ والعزم؛ وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد، والأخذ بالحزم؛ وتكونوا عليه براً وبحراً يداً واحدة، وفئة مساعدة...))[1]. ولم يتردّد السلطان **محمد السابع** لحظة، ولم يشك في وقوف **الإسبان** معه ضدّ **الأتراك**. لذا فقد جهّز جيشه، وزحف نحو **الجزائر**؛ أين التقى بجيش **خير الدين**؛ الذي هزمه، وكسر شوكته؛ دون أن تأتيه نجدة **الإسبانيين**. فانهزم عائداً إلى **تلمسان**؛ حيث طلب الهدنة، والصفح؛ فمكّنه **خير الدين** من ذلك، وعفا عنه. وهكذا.. لم تغنه

---

[1] تاريخ هذه الوثيقة يعود إلى سنة 15 جانفي 1533م الموافق لعام 940هـ. أي خلال الفترة الأولى من حكم هذا السلطان التعيس. أنظر الرسالة كاملة في كتاب تاريخ الجزائر العام، ج: 2، ص ص: 225 - 226. وأصلها موجود في دار المحفوظات بقلعة سيمنقا؛ القريبة من بلد الوليد في إسبانيا، وهي ضمن مجموعة الوثائق السياسية الديبلوماسية

مراسلاته **للإسبانيين**، ولم يفده التملق والتودّد إليهم؛ إذ هاجموه مع حلفائهم **بني راشد**؛ فاحتلوا **تلمسان**؛ أين عاثوا في الأرض فساداً؛ ونكلوا بالعباد، ونجّسوا المساجد والأضرحة، وعبثوا بكتب العلم والتراث الديني. الأمر الذي أدّى إلى انقلاب حلفائهم عليهم؛ فتحول نصرهم إلى هزيمة، وانكسرت شوكتهم، وانطفأت جذوتهم؛ وقتل مقاتلوهم، وأسر من بقي منهم؛ وأولهم قائدهم "**مارطان دي آكيلو**". عندها؛ جنحوا للسلم؛ فعقد السلطان معهم معاهدة؛ أشعلت نار الفتنة في **تلمسان**. الأمر الذي حفز الأمير **أبو زيان أحمد** على خلع أخيه والقيام بشئون الملك دونه؛ وذلك في سنة 949هـ.

ـ **أبو زيان أحمد الثالث بن أبي محمد عبد الله الثاني** (حكم في فترتين: الأولى في سنة 949هـ/1542م والثانية في سنة 950هـ/1544م). نهض ـ كما سبق ذكره ـ ضد أخيه؛ فعزله، وتولى الحكم مكانه؛ بعد الاضطرابات التي اجتاحت **تلمسان**؛ جراء انضواء أخيه تحت نفوذ **الإسبانيين**. ولم يجد السلطان المعزول منفذاً؛ سوى اللجوء إلى **الإسبانيين** في **وهران**؛ محرضاً إياهم على أخيه، وعلى من ناصره من **التلمسانيين**. ولم يكتف السلطان **أبو**

زيان أحمد بالجلوس على عرش **تلمسان**؛ بل مدّ يده إلى **الأتراك**؛ ثم هاجم في شهر ربيع الثاني من سنة 949هـ **الإسبان** في **وهران والمرسى الكبير.** ولكنه لم يوفق بسبب الخيانة المتفشية آنئذ بين المسلمين. ولما عاد إلى مركز ملكه؛ حثّ **أبو عبد الله محمد** الملك **شارلكان** على غزو **تلمسان**؛ فجهز هذا الأخير جيشاً تعداده عشرة آلاف من المقاتلين؛ فاقتحم **تلمسان** عنوة سنة 950هـ/1544م؛ حيث استبيحت، وتركت لعيث وفساد جنود **إسبانيا**؛ كما انهزم السلطان **أبو زيان أحمد**؛ وتمكن من الخروج من المدينة؛ حيث بقي يتربص بأعدائه الدوائر. إلى أن ثار سكان **تلمسان** ضدّ **أبي عبد الله محمد**؛ بسبب جلبه **للنصارى** إلى ديار الإسلام، والسماح لهم بالعيث والإفساد في حاضرة الدولة. فانهزم خوفاً منهم، وترك المدينة؛ باحثاً عن مكان آمن؛ ولكنه قتل أثناء فراره في ضاحية **أنكاد** بالقرب من **وجدة**.

وما أن عاد **أبو زيان أحمد** إلى **تلمسان**، واستعاد عرشه؛ حتى هجم عليه سلطان **المغرب محمد المهدي السعدي**؛ فدخل **تلمسان** سنة

957هـ/1550م بدون عناء؛ إذ لم يعترض عليه أحد؛ خاصة وأنه أشاع بأنه في طرقه إلى **الجزائر**؛ كي يطرد **الأتراك** منها. وبالفعل تقدم بجيشه لتحقيق هدفه المعلن؛ حيث التقى بجيش **الأتراك** عند **الوادي المالح**؛ القريب من **مستغانم**؛ فكانت الهزيمة **للسعديين**؛ الذين انسحبوا إلى **المغرب الأقصى**. فكانت حملة **السعديين** هذه؛ هي آخر محاولة لملوك **المغرب** للتوغل في أرض **الجزائر** أو الاقتراب من **تلمسان**. وبعد كسر جيش **السعديين**؛ توجه الجيش **التركي** بقيادة **حسن باشا** إلى **تلمسان**؛ فدخلها بسلاسة في السنة المذكورة؛ فعزل السلطان **أبا زيان**، وأقام بدلاً منه **مولاي الحسن**.

ـ مولاي الحسن بن عبد الله الثاني؛ آخر ملوك بني زيان (حكم من 957هـ/1550م إلى سنة 962هـ/1554م). لم يحظ بالملك المطلق المستقل؛ إذ وُلِيَ **تلمسان** من قبل **حسن باشا**؛ فغدا بمثابة الوالي التابع **للجزائر**. وتصفه المصادر التاريخية بالعجز في التدبير، والسوء في التسيير، والعسف في التقرير، والظلم المرير. ويقال أنه مال **للإسبانيين** في بعض مواقفه؛ لذا فقد سخط عليه الشعب، وأجمع علماء

تلمسان على عدم كفايته، وسوء رعايته، ووجوب عزله، وإنهاء ولايته. عندها؛ بادر **بايلارباي الجزائر صالح ريس** إلى عزله في سنة962هـ/1554م؛ فذهب إلى **وهران** حيث توفي بها سنة 1555/963م. وبذلك انطوت صفحات الدولة **الزيانية بتلمسان**؛ تلك الصفحات الذهبية التي لطخت بأيدي أبنائها في آخر عهدهم. وهكذا سقطت دولة بني زيان نهائياً على يد الأتراك؛ وسقط – مع بني زيان – الدور الريادي لتلمسان؛ كعاصمة للمغرب الأوسط؛ حيث همش الأتراك دور هذه المنارة المشعة بأنوار العلم على البلاد المغربية كلها؛ وبلْ.. وعلى المشرق أيضاً. وفي هذا العهد الجديد أضحت الجزائر هي محط الاهتمام كعاصمة للمغرب الأوسط؛ وحتى عندما تطلب تخصيص مدينة تسود الجهة الغربية؛ فقد فضل الأتراك **وهران** على **تلمسان**.

***

ـ العمـران والثقافـة:

لـم يتسـن للأصحـاب هـذا الـدور بـذل مجهـود عظيـم في ميـدان العمـران والثقافـة. فقـد انشغلـوا بالحـروب والفتـن القبليـة. كمـا أن مواردهـم الماديـة كانـت محـدودة؛ بالإضافـة إلى الجبايـات الـتي تفـرض عليهـم مـن الجـوار. كـل هـذا أفقدهـم روح المبـادرة في ميادين الفـن والأدب والعلـوم المختلفـة. وإذا مـا استثـني بعـض العلمـاء الأفـذاذ الذيـن ظهـروا بمجهودهـم الفـردي؛ فـإن مـا يؤثـر في هـذا البـاب ليـس كثيـراً. كمـا أن ظاهـرة التصـوف والدروشـة ازدادت استفحـالاً في تلـك الأيـام المتصفـة بالإنحـدار والتخلـف. وهـذه مجـرد عينـات عمـا أمكـن تقديمـه مـن العلمـاء والمتصوفـة في الـدور الرابـع هـذا. وقـد تـرك أمـر الشعـراء والأدبـاء لبقيـة أجـزاء الكتـاب.

1 ـ أبـو إسحـاق إبراهيـم بـن محمـد المصمـودي التلمسـاني. عالـم جليـل، وولي صالـح؛ وهـو أحـد شيـوخ ابـن مـرزوق الحفيـد. ودرس في المدرسـة التاشفينيـة بتلمسـان عـن سعيـد العقبـاني. تـوفي بتلمسـان إمـا في 804هـ أو في 805هـ/1402م. ودفـن في روضـة ملـوك بـني زيـان بتلمسـان.

2 ـ الفقيه القاضي أبو عثمان سعيد بن محمد العقباني. ولد بتلمسان في سنة 720هـ/1320م.؛ أخذ العلم عن ولدي الإمام بمدرسة تلمسان. كما درس الأصول عن أبي عبد الله الآبلي، ودرس الفرائض عن الحافظ السطي. ويعتبر سعيد بن محمد العقباني أحد النجباء الأفذاذ؛ وأول من تفوق من أسرته. تولى تدريس العلوم في المدرسة التاشفينية بتلمسان. وولي أيضاً قضاء الجماعة طوال أربعين سنة تقريباً؛ في كل من: تلمسان، وبجاية ووهران، وهنين ومراكش، وسلا. وقال فيه يحيى بن خلدون: **((فحمدت في جميعها سيره عدلاً وجزالة وهو الآن خطيب الجامع الأعظم بتلمسان))**[1]. لقب برئيس العلماء والعقلاء. ومن مؤلفاته: "تفسير سورة الفاتحة"، وتفسير سورتي: الأنعام والفتح"، و"شرح الجمل للخونجي" في المنطق، و"شرح كتاب ابن الحاجب" في الأصول، و"شرح التخليص لابن البناء"، و"شرح قصيدة بن الياسمين" في علم الجبر والمقابلة، و"شرح العقيدة البرهانية" في أصول الدين، و"شرح البردة"، و"شرح الحوفي" في الفرائض. أما تلاميذه

---

[1] **بغية الرواد، ج: 1، ص: 123.**

فمنهم ولده العلامة القاضي أبو الفضل قاسم بن سعيد، وأبو الفضل بن إبراهيم المصمودي، وأبو يحيى الشريف، وأبو العباس بن زاغو، وغيرهم. توفي أبو عثمان العقباني في سنة 811هـ/1408م.

3 ـ أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني. توفي في حياة والده سنة 840هـ/1337م.

4 ـ أحمد بن عبد الرحمن المغراوي التلمساني؛ الشهير بابن زاغو. ولد في حدود سنة 782هـ/1380م. وهو من المتصوفة الصالحين، ومن المصنفين المحققين. أخذ عن أبي عثمان سعيد العقباني، وعن الشيخ المفسر أبي يحيى الشريف، وآخرين. من مؤلفاته: تفسير الفاتحة، وشرح التلمسانية في الفرائض؛ كما اشتمل كتابا: المعيار المغرب ونوازل المازوني على كثير من فتاويه. توفي بتلمسان في سنة 845هـ/1441م؛ بفعل الوباء.

5 ـ أبو الفضل قاسم بن سعيد العقباني. ولد بتلمسان، وخلف أباه في مرتبة قاضي الجماعة. توفي في سنة 854هـ/1450م. وهو من العلماء الأجلاء بتلمسان.

6 ـ أبو علي الحسن بن مخلوف بن مسعود بن سعد المزيلي الراشدي المعروف بأبركان. ولي صالح ويلقب بالقطب والغوث. أخذ عن الإماميين: إبراهيم المصمودي، وابن مرزوق الحفيد. كما أخذ عنه الحافظ التنسي، وعلي التالوتي، وأخوه من جهة الأم الشيخ السنوسي؛ الذي كان يقول فيه: ((**فما رأيت مثل سيدي الحسن أبركان؛ كان لا يخاف في الله لومة لائم، ولا يضحك إلاّ تبسماً، وكان رحيماً بالمؤمنين، شفيقاً عليهم، يفرح لفرحهم، ويتأسف على ما يسوءهم؛ له سبحة لا تفارقه غالباً؛ لأنه كان لا يفتر عن ذكر الله تعالى طرفة عين. وكان له قبول عظيم من العامة والخاصة؛ مثابراً على رسالة أبي زيد**))[1]. وقد تناقل الناس عنه كثير من الحكايات المثيرة. توفي في سنة 857هـ/1453م.

7 ـ الإمام العلامة داوود بن سليمان بن حسن البنبي. من أهل العلم والصلاح؛ له دراية بعلمي الحساب والفرائض؛ نقل صاحب البستان ما قاله السخاوي عنه: ((**ولد سنة اثنتين وعشرين وثمانمائة بتلمسان؛ ونشأ بها؛ فحفظ القرآن، والعمدة،**

---

[1] **البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 74.**

والرسالة، والمختصر الفرعي، وألفية ابن مالك وغيرها. ومن شيوخه قاسم العقباني، والجمال الأقفهسي، والبساطي، والزين عبادة. وبرع في الفرائض، وشارك في العربية وغيرها. ونصدى للتدريس والافتاء؛ فانتفع به الطلبة؛ خصوصاً في الفرائض؛ بحيث أخذ عنه جماعة من الأكابر؛ وأملى على مجموع الكلاعي شرحاً مطولاً؛ فيه فوائد، وكتب على الرسالة شرحاً فيما أخبرني به جماعة. ودرس بالمنكوتمرية، والبدرية، والبرقوقية للمالكية وغيرها))[1]. توفي بالقاهرة في سنة 863هـ/1458م.

8 ـ محمد بن أحمد بن أبي يحيى الحباك، (أبو عبد الله). فقيه وفرضي من أهل **تلمسان**؛ ولد بها وعاش فيها. وهو من علماء الفلك المشهورين. له إلمام بالحساب والهندسة؛ ويعتبر شيخ الحسابيين والفلكيين. له أعمال عن آلة الإسطرلاب. ومن مؤلفاته أرجوزة: "بغية الطلاب في علم الإسطرلاب"؛ ثم "نيل المطلوب في العمل بربع المجيب". وهو كتاب في الأشكال الهندسية. وقام أيضاً بشرح

---

[1] البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان، ص: 101..

تلخيص ابن البنا؛ وله شرح آخر للتلمسانية في الفرائض. توفي في سنة 867هـ/1462م.

9 ــ محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني. سار على نهج أسلافه، في الانشغال بالعلم والتدريس وتولي القضاء. توفي في سنة 871هـ/1466م.

10 ــ الشيخ أحمد بن الحسن الغماري. وهو من الأولياء والزهاد المنقطعين للعبادة وعمل الخير. تنقل بين تلمسان والحناية وندرومة وهنين. توفي بتلمسان سنة 874هـ/1469م.

11 ــ أبو سالم إبراهيم بن قاسم. توفي في سنة 880هـ/1475م.

12 ــ الفقيه العلامة ابو زكرياء يحيى بن أبي عمران موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني. تلقى العلم عن والده، وعن ابن مرزوق الحفيد، وقاسم العقباني، وابن زاغو، وآخرين. ولي قضاء مزونة. ومن مؤلفاته: الدرر المكنونة في نوازل مازونة. وتوفي بتلمسان في سنة 883هـ/1487م.

13 ـ الإمام السنوسي محمد بن يوسف بن عمر ابن شعيب، (أبو عبد الله السنوسي الحسني). أحد كبار الأئمة الذين جادت بهم **تلمسان**. ولد في سنة 832هـ/1428م، وتوفي سنة 895هـ/1489م بتلمسان.

14 ـ أحمد بن أبي يحيى بن محمد الشريف التلمساني. علامة ومفسر ومحقق؛ أخذ عن ابن مرزوق الحفيد؛ ولكنهما اختلفا في بعض القضايا الفقهية. نقل الونشريسي تلك القضايا في معياره. توفي أحمد بن أبي يحيى في سنة 895هـ/1489م.

15 ـ عبد الواحد بن أحمد بن قاسم. توفي في سنة 896هـ/1491م.

16 ـ أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد الغماري الكومي. ولد بعد عام 940هـ/1533م؛ فقيه، وتولى الخطابة بمكناسة؛ وإلى جانب الفقه فهو نحوي، ويستظهر مختصر خليل؛ وله أيضاً مشاركة في علمي: الحساب، والفرائض؛ إذ كان أستاذاً فيهما. لا يعرف تاريخ وفاته.

17 ـ أحمد بن محمد بن زكري؛ من كبار فقهاء المالكية، ولد بتلمسان وعاش بها حيث تولى القضاء والإفتاء واشتغل بالعلم والتدريس، توفي عام 899هـ/1493م

18 ـ الفقيه أحمد بن يحيى بن محمد بن عبد الواحد بن علي الونشريسي. ولد في جبال ونشريس الجزائرية سنة 834هـ/1430م؛ ونشأ وتعلم في تلمسان. وأخذ العلم عن المفسر النحوي أبي عبد الله محمد ابن العباس، وعن قاسم بن سعيد العقباني، وولده قاضي الجماعة أبي سالم إبراهيم العقباني، وحفيده القاضي محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني؛ ثم أخذ أيضاً عن أحمد بن عيسى بن الجلاب، ومحمد بن مرزوق الكفيف؛ وأخذ أيضاً بفاس عن محمد بن محمد بن عبد الله اليفرني. تعرض في تلمسان ـ خلال كهولته ـ إلى سخط سلطانها أبي ثابت الزياني؛ الذي أمر بنهب داره؛ ففرّ إلى فاس؛ أين استقبله فقهاؤها بحفاوة وإكبار. وفي تلك الديار تولى تدريس المدونة ومختصر بن الحاجب. وللونشريسي عدد كبير من المؤلفات جلها في الفقه المالكي؛ وأهمها: كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقية والأندلس والمغرب. توفي أحمد الونشريسي في عام 914هـ/1508م.

19 ـ الفقيــه والــولي الصالــح بلقاســم بــن محمــد الــزواوي. يعــد مــن أكابــر المقربيــن مــن الإمــام السنــوسي. وممــن أخــذ عنــه: محمــد بــن عمــر المــلالي. تــوفي سنــة 922هــ/1516م.

20 ـ الشريــف الإدريــسي أحمــد بــن مــوسى. وهــو مــن الأوليــاء الصالحيــن؛ وتلميــذ أحمــد بــن الحــاج الورنيــدي. تــول تدريــس القــرآن الكريــم، والرسالــة، والعقائــد، وابــن الحاجــب الفــرعي. تــوفي بعــد سنــة 950هــ/1543م.

***

الحفصيون وتلمسان

دخول **الحفصيين** الأول **لتلمسان**؛ حدث في عهد السلطان **أبي زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص**. تم ذلك؛ عندما راودته نفسه في التوسع نحو الغرب، وامتلاك عرش **الموحدين بمراكش**[1]. إذ كان كغيره من سلاطين: **بني عبد الواد، وبني مرين** في ذلك الوقت؛ يتطلع للإستحواذ على تراث **الموحدين**، ووراثة تركتهم. وقد عزز تطلع السلطان **الحفصي** إلى هذا الأمر؛ أنه يدرك الكيفية التي نشأت بها دولته من رحم الدولة **الموحدية**؛ وكيف استمدت شرعيتها منها. لذا فقد سعى لهدفه المذكور؛ انطلاقاً من ولاية شرعية أسندت إلى الشيخ **أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص**؛ بعقد أصدره الخليفة **الموحدي الناصر**[2] سنة 603هـ/1206م[3]. وعليه؛ فقد بادر **أبو**

---

[1] ((كان الأمير أبو زكرياء ـ منذ استقل بأمر إفريقية واقتطعها عن بني عبد المؤمن كما ذكرناه ـ متطاولاً إلى ملك الحضرة بمراكش، والاستيلاء على كرسي الدعوة)). العبر، مج: 6، ص: 607.

[2] هو أبو عبد الله محمد بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علي. حكم من سنة 595هـ/1198م إلى سنة 610هـ/1213م. وهو الذي شهد موقعة العقاب بالأندلس سنة 609هـ/1212م.

[3] أنظر تاريخ الدولتين، ص ص: 18 - 26. والعبر، مج: 6، ص ص: 582 - 583. 591 - 593.

زكرياء يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص – عندما تولى أمر **إفريقية** – إلى الاستبداد؛ وإسقاط دعوة الخليفة **الموحدي المأمون** سنة 626هـ/1228م[1]. ومن هنا؛ شرع في التطلع إلى الخلافة؛ والتربع على عرش **الموحدين**، والاستحواذ على إرثهم؛ عوضاً عن **بني عبد المؤمن**. وقد دعم موقفه؛ كونه سليل الشيخ **أبي حفص عمر الهنتاتي**؛ صاحب **المهدي بن تومرت**، وأحد الأصحاب العشرة السباقين إلى مبايعته تحت شجرة الخرنوب؛ في سنة 515هـ/1121م. وعلى هذا؛ فقد حزّ في نفسه ما كان يجري من وفاق وتناغم بين **يغمراسن بن زيان** والخليفة **الموحدي المأمون**؛ ثم **الرشيد** من بعده[2]. وبعد التفكير، والتدبير؛ وجد أن طريقه إلى

---

[1] تاريخ الدولتين، ص ص: 23 - 24. والعبر، مج: 6، ص: 594.

[2] ((فاستكبر السلطان أبو زكرياء اتصال الرشيد هذا بيغمراسن وآله؛ وهم جواره بالمحل القريب)). العبر، مج: 6، ص ص: 607 - 608. أنظر أيضاً بغية الرواد، ج: 1، ص: 205. وقد انفرد التنسي برواية لم يذكرها غيره؛ جاء فيها: ((ثم اتفق أن بعث الأمير أبو زكرياء بن عبد الواحد ابن أبي حفص الهنتاتي هدية إلى السعيد؛ حين ظن أنه استوسق له ملك المغرب؛ فتعرض لها يغمراسن وأخذها؛ فانتظر الأمير أبو زكرياء انتصار السعيد لنفسه في ذلك؛ فلم يكن منه إلى ذلك نهوض؛ فخلع لذلك طاعته، واستقل بنفسه)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 116. غير أن هذه الرواية لا تنسجم مع حقيقة الأحداث؛ لأن أبا زكرياء استبد بالحكم في سنة 625هـ؛ كما أسقط الدعوة الموحدية نهائياً من منابره في سنة 627هـ؛ ونقلها إلى العباسيين في بغداد.

مراكش؛ لا بد أن تمرّ بمملكة **بني عبد الواد** في **تلمسان**؛ وبذلك؛ شعر بحتمية إخضاع عاصمة هذه الدولة؛ قبل الوصول إلى مبتغاه في **مراكش**. فسعى – في بداية الأمر – إلى كسب ولاء **يغمراسن**[1]؛ ولكن هذا الأخير رفض التنكر للعهد المعقود بينه وبين الخليفة **الرشيد**؛ ذلك الخليفة الذي: ((**ضاعف له البرّ والخلوص، وخطب منه مزيد الولاية والمصافاة، وعاوده بالإتحاف بأنواع الألطاف والهدايا**))[2]. وعليه؛ قرّر **أبو زكرياء** غزو **تلمسان** وفرض مبتغاه بقوة السلاح. فنهض إلى تلك النواحي في سنة 632هـ/1234م[3]. حيث استفتح حملته بفتح **بجاية والجزائر**، ثم أخضع بلاد **مغراوة** بسهولة؛ ومع أنه وجد مقاومة كبيرة من قبل **بني توجين**؛ إلاّ أنه تمكن من التغلب عليهم؛ إذ أسَرَ شيخهم **عبد القوي ابن العباس**؛ ونقله معه إلى **تونس**؛ أين أطلق سراحه، بمعاهدة سُنَّت بينهما.

---

[1] ((وكان يرى أن بمظاهرة زناتة له على شأنه يتم له ما يسمو إليه من ذلك؛ فكان يداخل أمراء زناتة فيه، ويرغبهم، ويراسلهم بذلك)). العبر، مج: 6، ص: 607.

[2] نفسه، ص: 607. أنظر أيضاً بغية الرواد، ج: 1، ص: 205.

[3] نفسه، ص: 597. وفي كتاب تاريخ الدولتين: سنة: 636هـ.

وهنا؛ حقق **أبو زكرياء** أول أهدافه؛ بتمهيد الجهات الغربية العازلة بين **إفريقية** و**تلمسان**؛ عندها؛ لم يبق أمامه من خصم سوى **بني عبد الواد**. فاتخذ الإجراءات اللازمة؛ في تحقيق تعبئة مهولة، لكي يتمكن من الوصول إلى هدفه التالي؛ وهو احتلال **تلمسان**، وضمها لممتلكاته؛ وبذلك يجعل منها رأس جسر؛ في سبيل تحقيق هدف أسمى؛ وهو غزو **مراكش** حاضرة **الخلافة الموحدية**. وبعد فترة؛ أنجز التعبئة، وأكمل العدة؛ وكان شيوخ **توجين، ومغراوة ومليكش**؛ قد وفدوا إليه؛ مستنجدين به، ومحرضين على حرب **يغمراسن بن زيان**، وامتلاك **تلمسان**[1]. فوجدها **أبو زكرياء** فرصة طالما انتظرها في سبيل تحقيق حلمه؛ وعلى هذا؛ نهض فوراً إلى **تلمسان** سنة 639هـ/1241م[2]؛ محاطاً بجيش عظيم؛ جلّه من **أعراب بني هلال وسليم**، ثم قبيلة **هوارة الأمازيغية**، بالإضافة إلى قبائل **زناتة** حلفاء دولة

---

[1] العبر، مج: 6، ص: 658.

[2] هكذا ورد في كتاب تاريخ الدولتين للزركشي، ص: 29، وكتاب العبر لعبد الرحمن بن خلدون. أما صاحب الذخيرة السنية، ويحيى بن خلدون فقالا أن دخول الجيش الحفص إلى تلمسان حدث في سنة 640هـ، الذخيرة، ص: 64، وبغية الرواد؛ ج: 1، ص: 205. بينما خالف التنسي جميع الأقوال؛ حيث قال أن هذه الغزوة تمت في سنة 645هـ.

الحفصيين[1]. ولما وصل **أبو زكرياء** بجيشه إلى أطراف **تلمسان**؛ تصدَّى لهم **بنو عبد الواد** خارج البلدة؛ فبادرهم **الحفصيون** برمي النبال جماعياً ودفعة واحدة، فانصبت على **بني عبد الواد** بكثافة كبيرة[2]؛ فتراجعوا خلف أسوار المدينة. ولكن الجيش **الحفصي** ــ بكثرة عدده ــ تمكن من الصعود إلى الأسوار

---

[1] ((فاستنفر لذلك سائر البدو من الأعراب الذين في طاعته من بني سليم ورياح بظعنهم... ونهض سنة تسع وثلاثين [وستمائة] في عساكر ضخمة، وجيوش وافرة، وسرح أمام حركته عبد القوي بن العباس، وأولاد منديل ابن محمد [الصحيح عبد الرحمن] لحشد من بأوطانهم من أحياء زناتة وذؤبان قبائلهم وأحياء زغبة أحلافهم من العرب؛ وضرب معهم موعداً لموافاتهم في تخوم بلادهم)). (العبر، مج: 7، ص: 165). وأحصاهم صاحب الذخيرة السنية: بأربعة وعشرين ألف رام. (ص: 64). بينما عدهم الزركشي بأربعة وستين ألف فارس)). (تاريخ الدولتين: ص: 29). أما يحيى بن خلدون فقال أن الجيش الحفصي آنذاك كان به ((اثنا عشر ألف رام مترجلة سوى الركبان)). (بغية الرواد، ج: 1، ص: 205). وأشار التنسي لهذه الغزوة فقال: ((فنزلها [أي تلمسان] سنة خمس وأربعين بجيوش يضيق عنها الفضا؛ فيها ثلاثون ألف رام)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان) ص: 117.،

[2] ((وأمر [أبو زكرياء] رماته بالرمي دفعة واحدة. فكان الهر ـ على صغر جرمه ـ تجيء فيه العشرون سهماً وأزيد؛ فهال ذلك أهل البلد من الجند وغيرهم)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر والعقيان)، ص: 117.

واقتحام البلد[1]؛ ((**وعاشوا فيه؛ بقتل النساء والصبيان، واكتساح الأموال**))[2].

ولما أيقَّنَ **يغمراسن** من استحالة المقاومة، وتأكد من عجزه – في تلك الظروف – أمام **الحفصيين**؛ قرّر الخروج من **تلمسان**، والفرار بأهله وحماته خارجها؛ فاقتحم **باب العقبة**[3]؛ أين جندل بعض أبطال **الموحدين**، واخترق جموعهم، ونجا بأهله إلى **الصحراء**[4] حسبما قاله **الزركشي**، **وعبد الرحمن بن خلدون**؛ وإلى **جبل وبني رنيد** أو **تيرني** كما ذكر **يحيى بن خلدون**، **والتنسي**[5]. بينما خالفهم – جميعاً – صاحب **الذخيرة السنية**؛ الذي زعم أن **يغمراسن** لجأ إلى **لمدية**[6]. ويبدو أن هذا القول غير معقول. لبعد **لمدية** عن **تلمسان**؛ خاصة وأن

---

[1] ذكر الزركشي في كتابه تاريخ الدولتين أن الحفصيين اقتحموا تلمسان من باب كشوط؛ (أنظر ص: 29). بينما قال صاحب الذخيرة السنية أنهم دخلوا المدينة من باب إيلان، (ص: 64).

[2] العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166. أنظر أيضاً كتاب الذخيرة السنية، ص: 64.

[3] هكذا في العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، 166. وبغية الرواد، ص: 205. بينما قال التنسي: أنه خرج من باب علي. أنظر تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 117.

[4] العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166. وتاريخ الدولتين، ص: 29.

[5] بغية الواد، ج: 1، ص: 205. ونظم الدر، ص: 117

[6] ((وفرّ يغمراسن ومن كان معه من قومه إلى لمدية)). ص: 65.

مفاوضات حدثت ـ بعد ذلك ـ بين **يغمراسن وأبي زكرياء**؛ اقتضت تواجده في مكان قريب. كما أن المصادر كلها أجمعت على شنّ **يغمراسن** حملات استنزافية، وانتقامية ضد **الحفصيين**، واختطافه لبعض مقاتليهم[1]؛ الأمر الذي أجبر **أبا زكرياء** على مصالحته، وتسليم **تلمسان** له من جديد.

المهم؛ أن السلطان **الحفصي** وجد نفسه مضطراً لعقد صلح بينه وبين **يغمراسن**؛ بعد أن تمكن من الإفلات، واستعادة عاملي: المبادرة والمفاجأة، ضد **الحفصيين**؛ حيث شنَّ عليهم حرب عصابات أنهكتهم، وبثت في نفوسهم اليأس من ضمان الاستقرار **بتلمسان**. ومع هذا؛ فقد حاول **أبو زكرياء** إيجاد بديل **ليغمراسن**؛ يستطيع مواجهته والتصدي لحملاته المفاجئة، وغاراته المتتابعة؛ ولكنه فشل في ذلك؛ بعد أن رفض شيوخ **الموحدين** ورؤساء **زناتة** القيام بهذا الدور الخطير[2]. عندها قال لهم السلطان **الحفصي:**

---

[1] **((وسرح يغمراسن الغارات في نواحي المعسكر؛ فاختطف الناس من حوله؛ واطلعوا من المراقب عليه)). العبر، مج: 6، ص: 609. مج: 7، ص: 166.**

[2] **((ولما تجلى غشي تلك الهيعة، وحسر تيار الصدمة، وخمدت نار الحرب؛ راجع الموحدون** بصائرهم، **وأنعم الأمير أبو زكرياء نظره فيمن يقلده أمر تلمسان والمغرب الأوسط، وينزله بثغرها؛ لإقامة دعوته** الدائلة **من دعوة بني عبد** المؤمن **والمدافعة عنها. واستكبر ذلك أشرافهم،**

((**إنما امتنعتم من ولايتها خوفاً من شيطانها؛ وليس لها غيره**))[1]. فبادر من فوره إلى الاتصال **بيغمراسن**؛ عارضاً عليه ولاية **تلمسان والمغرب الأوسط**؛ مقابل الدعوة له، وترك الولاء **لبني عبد المؤمن**؛ فرضي **سلطان بني زيان** بذلك؛ وبعث أمه **سوط النساء** لعرض الشروط، وعقد الصلح مع **أبي زكرياء**: ((**فأكرم موصلها، وأسنى جائزتها، وأحسن وفادتها ومنقلبها؛ وسوّغ ليغمراسن ــ في شروطه ــ بعض الأعمال بإفريقية، وأطلق أيدي عماله على جبايتها**))[2]. ثم رحل **أبو زكرياء** عائداً بجيشه إلى **إفريقية**.

ولما علم الخليفة **الموحدي السعيد** بما تم بين **يغمراسن وأبي زكرياء**؛ من نقل الولاء **للحفصيين**، ونبذ ما كان **لبني عبد المؤمن**؛ قرّر الزّحف إلى **تلمسان**، وإخضاع أصحابها. فحشد أمة عظيمة؛ وخرج بهم من **مراكش** سنة 645هـ/1247م؛ بغرض تمهيد البلاد، والقضاء على التمرد والعصيان أينما

وتدافعوه، وتبرأ أمراء زناتة؛ ضعفاً عن مقاومة يغمراسن؛ علماً بأنه الفحل الذي لا يقرع أنفه، ولا يطرق غيله، ولا يصد عن فريسته)). العبر، مج: 6، ص: 609.

[1] **الذخيرة السنية، ص: 65.**

[2] **العبر، مج: 6، ص: 610. مج: 7، ص ص: 166 - 167.**

كـان. فبـدأ **بالمغـرب الأقـصى**؛ أيـن يتواجـد الخطـر الأكبـر؛ المتمثـل في **بـني مريـن**؛ غيـر أنهـم سارعـوا إلى تقديـم الـولاء والطاعـة **للسعيـد**[1]. بـل عرضـوا عليـه خدماتهـم؛ والتكفـل نيابـة عنـه بكسـر شوكـة **بـني زيـان**؛ ولكنـه اكتـفى منهـم بالمشاركـة وتقديـم حصـة مـن الفرسـان **المرينييـن** قدرهـم بخمسمائـة فـارس[2]. وبعـد تمهيـد **المغـرب الأقـصى**، وإخضـاع أحـوازه؛ سـار بجيشـه العظيـم نحـو **تلمسـان**؛ لتأديـب أهلهـا، وكسـر شوكـة **يَغْمْرَاسَـنْ**. غيـر أن هـذا الأخيـر؛ بـادر بالخـروج مـن المدينـة، واللجـوء بأهلـه وحاميتـه؛ إلى **(قلعـة تامززدكـت)**.[3] القريبـة مـن **وجـدة**. حيـث تحصـن بهـا؛ وتأهـب لمواجهـة جيـش **الموحديـن**. فلـم يجـد ــ عندئـذ ــ **السعيـد** بـداً مـن محاصـرة **يَغْمْرَاسَـنْ** في تلـك القلعـة المنيعـة.

---

[1] فخرج [أي السعيد] من حضرة مراكش في جيوش لا تحصى من الموحدين والعرب والروم؛ فسار حتى وصل وادي بهت؛ عرف به أمير المؤمنيـن أبو يحيى بن عبد الحق؛ فخرج له عن مكناسة، وأسلمها له، وسار إلى قلعة تازا... وارتحل [السعيد] إلى مدينة فاس... فأقام هناك حتى وصلته بيعة الأمير أبي يحيى بن عبد الحق؛ فسُرَّ بها (الأنيس المطرب، ص ص: 171 - 172).

[2] (الأنيس المطرب، ص: 195).

[3] اختلف المؤرخون في رسم هذه الكلمة؛ إذ كتبت في الأنيس المطرب: ((تامرجديبة))، وفي الذخيرة السنية ((ثامزجدرت)).

وتقول بعض الروايات: أن **السعيد**؛ خرج مع وزيره ومرافقيه؛ في اليوم الرابع – أي في صفر من سنة 646هـ/1248م – يستطلع الأرض، ويتعرف على مواطن الضعف في القلعة المذكورة؛ فسلك بعض الشّعاب؛ المؤدية إليها؛ فرآه أحد حراس **بني عبد الواد**؛ فأعلم **يَغُمْرَاسَنْ** بمكانه؛ فهجموا عليه، فقتلوه مع وزيره ومرافقيه[1]. وأحدث خبر مقتل الخليفة **السعيد** في معسكره فوضى وهلعاً عظيمين؛ فاضطربت أحوال من فيه؛ وتسابقوا للهروب والنجاة بأرواحهم؛ حيث تحولت هزيمتهم إلى كارثة شنعاء؛ قضت على هيبة الدولة بكاملها، وأخمدت سطوتها نهائياً؛ ولم تقم للدولة **الموحدية** بعدها قائمة؛ إلى أن سقطت بصفة نهائية.

---

[1] ((ويقال: إنما كان يوم عبأ العساكر، وصعد الجبل للقتال؛ وتقدم أمام الناس؛ فاقتطعته بعض الشعاب المتوعرة في طريقه؛ فتوثب به هؤلاء الفرسان... ووقعت النفرة في العساكر لطائر الخبر؛ فأجفلوا؛ وبادر يغمراسن إلى السعيد ـ وهو صريع في الأرض ـ فنزل إليه وحيّاه وفداه، وأقسم له على البراءة من هلكته؛ والخليفة واجم بمصرعه يجود بنفسه إلى أن فاض. وانتهب المعسكر بمحلته؛ وأخذ بنو عبد الواد ما كان به من الأخبية والفازات؛ واختص يغمراسن بفسطاط السلطان؛ فكان له خاصة دون قومه. واستولى على الذخيرة التي كانت فيه؛ منها مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه)). العبر، مج: 7، ص ص: 169 - 170.

أمـــا **يغمراســـن**؛ فقـــد انتظـــر إلى أن هـــدأت الأحـــوال؛ عندئـــذ؛ قـــام بتجهيـــز الخليفـــة **السعيـــد**؛ فغُسِّـــل، وكُفِّـــن؛ ثـــم رُفِـــع عـــلى الأعـــواد، ودُفِـــن **بالعبـــاد** في جـــوار ولي اللـــه **أبي مديـــن**. ((**ثـــم نظـــر في شـــأن حرمـــه وأختـــه تاعزونـــت الشهيـــرة الذكـــر ــ بعـــد أن جاءهـــا واعتـــذر إليهـــا ممـــا وقـــع؛ وأصطحبهـــنَّ جملـــة مـــن مشيخـــة بـــني عبـــد الـــواد إلى مأمنهـــنّ؛ ألحقوهـــن بدرعـــة؛ عنـــد تخـــوم طاعتهـــم. فكـــان لـــه بذلـــك حديـــث جميـــل في الإبقـــاء عـــلى الحـــرم، ورعي مراتـــب الملـــك**))[1]. ومـــع هـــذا؛ فقـــد أبـــقى **يغمراســـن** بعضـــاً مـــن أشكـــال الـــولاء المعنـــوي، والاحتـــرام المتـــوارث للخليفـــة في **مراكـــش**، تسليمـــاً لـــه بإرثـــه التاريـــخي وانتسابـــه الأســـري لبيـــت الخلافـــة **الموحديـــة**. وبالمقابـــل؛ حافـــظ **يغمراســـن** أيضـــاً عـــلى الصـــلات الحسنـــة مـــع **الحفصييـــن**؛ والتـــزم بالحفـــاظ عـــلى روابـــط الـــودّ والاحتـــرام؛ الواصلـــة بينـــه وبيـــن السلطـــان **الحفـــصي**. ولـــم يقطـــع الدعـــاء لـــه طـــوال حياتـــه. بـــل ســـعى ــ بعـــد هـــلاك **أبي زكريـــاء** ــ إلى التـــودّد لابنـــه **أبي إسحـــاق إبراهيـــم**[2]؛ الـــذي خـــرج عـــن أخيـــه الخليفـــة **أبـــي**

---

[1] العبر، مج: 7، ص ص: 169 - 171.

[2] تولى حكم الحفصيين من سنة 678هـ/1279م إلى سنة 692هـ/1283م.

عبد الله محمد المستنصر[1]. لذا؛ فقد استقبله بحفاوة عند قدومه إلى **تلمسان**؛ في طريقه إلى **الأندلس**. كما استظافه؛ عند عودته؛ بعد وفاة أخيه **المستنصر**؛ واستقبله بحفاوة سنة 677هـ/1278م؛ ووعده بالوقوف إلى جانبه لكي يستعيد ميراثه في ملك أبيه؛ بخلع ابن أخيه **الواثق**[2] **ابن المستنصر**: **((وأصهر إليه يغمراسن في إحدى بناته المقصورات في خيام الخلافة بابنه عثمان ولي عهده؛ فأسعفه، وأجمل في ذلك وعده))**[3].

وبعد ان تحقق **لأبي إسحاق** هدفه، واستعاد عرش أبيه **بتونس**؛ أرسل **يغمراسن** ولده **أبا عامر برهوم** لإحضار عروس أخيه **عثمان** من **تونس**، بل تنقل بنفسه سنة 681هـ/1282م لاستقبالها في أطراف **مليانة**؛ خوفاً عليها من غدر خصومه من **بني توجين ومغراوة**. وفي حركته هذه؛ اشتدّ به المرض؛ ثم أدركه الأجل في **وادي رهيو**؛ فكتم ولده **أبو عامر** خبر وفاته؛ زاعماً أنه مريض؛ حتى

---

[1] حكم من سنة 647هـ/1249م إلى سنة 675هـ/1276م.

[2] هو الواثق يحيى المعروف بالمخلوع. حكم من سنة 675هـ/1276م إلى سنة 678هـ/1279م.

[3] العبر، مج: 7، ص: 186. أنظر هذا الخبر أيضاً في العبر، مج: 6، ص ص: 631 - 633. 678 - 679.

لقي ولي العهد **عثمان** بيسر المتاخم **لتلمسان**. حينها أُعلن عن وفاة السلطان **الزياني**، فبايع الناس لخليفته **عثمان بن يغمراسن**[1] في السنة المذكورة أعلاه. ومنذ هذه الأحداث؛ لم يعد **للحفصيين** أي تأثير يذكر على **تلمسان**؛ بل أضحوا هدفاً لضغوط **بني زيان**، الذين هدّدوا ديار **الحفصيين** مراراً عديدة.

وبقي الحال هكذا؛ إلى أن حلّت سنة 827هـ/1423م؛ خلال الدور الرابع (دور الضعف والتهالك) في حياة دولة **بني زيان**. وبالمقابل؛ ازدهرت أحوال الدولة **الحفصية**؛ بتولي السلطان **أبي فارس عبد العزيز الحفصي**[2] شئونها. حيث قام هذا الأخير سنة 827هـ بفتح **تلمسان** عنوة؛[3]؛ وانتزعها

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 189. وبغية الرواد، ج: 1، ص: 207. تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، ص ص: 128 - 129.

[2] هو أبو فارس عبد العزيز بن أبي العباس أحمد بن أبي عبد الله محمد ابن أبي يحيى أبي بكر بن أبي يحيى زكرياء بن أبي إسحاق إبراهيم بن أبي زكرياء بن أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص. تولى أبو فارس هذا الحكم في سنة 796هـ/1393م إلى سنة 837هـ/1433م؛ سنة وفاته.

[3] قال الزركشي: ((افتتح المولى السلطان [أبو فارس] مدينة تلمسان في المرة الأولى، وملكها من يد صاحبها السلطان أبي حمو [؟؟] [ثمة تحريف هنا؛ أو حذف؛ لأن المقصود هو أبو مالك عبد الواحد بن أبي حمو الثاني] الزناتي؛ لما سمع عنه؛ أن سيرته غير محمودة [؟؟]؛ وبعث إليه ونهاه؛ فلم ينته. فلما وصلها السلطان أبو فارس، وانكسر ولد السلطان عبد الواحد، وفرّ هارباً لأبيه؛ علم أبوه أن لا طاقة له على

من يد السلطان **الزياني أبي مالك عبد الواحد**[1]؛ ثم أسند حكم المدينة وأعمالها إلى **محمد الرابع ابن أبي تاشفين الثاني**؛ (المعروف بابن **الحمرة**). وبعدها؛ واصل **أبو فارس** زحفه نحو **فاس**؛ التي استسلم صاحبها قبل وصول السلطان **الحفصي** إليها. وبذلك؛ تمكن هذا السلطان من توحيد بلدان **المغرب الإسلامي** من شرقها إلى غربها. غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلاً؛ إذ سرعان ما انفصمت بعد أن أعلن **ابن الحمرة** استقلال دولته وانفصالها عن سلطة

المقابلة؛ فخرج من تلمسان فاراً بنفسه إلى الجبال. ودخل السلطان أبو فارس تلمسان، واستقرّ في قصبتها، واستولى على جميع ما فيها. وذلك في ثالث عشر جمادى الأخرى من عام سبعة وعشرين [وثمانمائة] **المذكور؛ فبقي بها مدة مقيماً؛ ثم نظر من يقلده أمرها؛ فاختار لها الأمير محمد ابن السلطان أبي تاشفين ابن السلطان أبي حمو الزناتي؛ فعقد له عليها؛ ثم ارتحل إلى مدينة فاس)). تاريخ الدولتين (الموحدية والحفصية)، ص ص: 125 - 126. وكما هو واضح؛ لم يوضح الزركشي السبب في غزو تلمسان؛ بينما الحقيقة تتمثل في خوفه من نمو قوة بني زيان؛ خاصة وأن السلطان أبا مالك عبد الواحد كان يتمتع بمزيا حميدة؛ فسعى إلى النهوض بدولته، وإصلاح أحوال رعيته؛ كما استرجع من الحفصيين ما استولوا عليه من بلدان في الناحية الشرقية لمملكة تلمسان؛ بالإضافة إلى أنه تمكن من التوسع غربا على حساب الدولة المرينية؛ بل كبح جماح بني مرين واستولى على عاصمتهم فاس؛ ووضع عليها حاكما من قبله. كل هذا؛ أخاف أبا فارس؛ فبادر بغزو تلمسان قبل أن تشتد قوتها، ويعظم أمرها.**

[1] تولى الحكم - في المرة الأولى - من سنة 814هـ/1411م إلى سنة 827هـ/1423م؛ وفي المرة الثانية: من سنة 831هـ/1427م إلى 833هـ/1429م؛ سنة مقتله.

الحفصيين؛ ثم أسقط الدعاء **لأبي فارس** من منابر **تلمسان**. ولهذا؛ فقد انبرى إليه ــ **أبو فارس** سنة 832هـ/1428م؛ وبعث لإسقاطه جيشاً بإمرة **جاء الخير**؛ قائد **قسنطينة**؛ وبعث معهم سلطان **تلمسان** السابق **أبا مالك عبد الواحد**؛ ولكنهم هزموا أمام **ابن الحمرة**؛ وتفرق جمعهم. فاضطر **أبو مالك** عندئذ إلى الفرار نحو الجبال المجاورة؛ أين عبأ نفسه من جديد؛ بانضمام من فيها من الأعراب إليه؛ ثم عاود الكرة؛ وهجم على **تلمسان**؛ حيث حالفه الحظ هذه المرة؛ وتمكن من احتلال المدينة، وإجبار **ابن الحمرة** على الفرار كذلك إلى جبال المنطقة المجاورة. ولكن هذا الأخير؛ استمر في إلحاحه على سدّة الملك؛ ولم يستسلم لليأس؛ حيث تمكن هو الآخر من جمع عدد لا بأس به من الأنصار؛ وهجم بهم على **تلمسان**؛ التي دخلها عنوة وقتل عَمِّه السلطان **أبا ملك عبد الواحد**؛ وذلك في سنة 833هـ/1429م. وفي السنة المذكورة أعلاه؛ وبعد مقتل **أبي مالك** بأقل من شهر؛ دخل **أبو فارس الحفصي تلمسان** عنوة؛ للمرة الثانية سنة 833هـ/1429م؛ إثر محاصرتها؛ وفرار سلطانها

ابـن الحمـرة؛ ولكـن **أبـا فـارس** تمكـن مـن مطاردتـه وأسـره. ثـم نصـب عليهـا سنـة 834هـ **أبـا العبـاس أحمـد بـن أبي حمـو الثـاني** المعـروف **بالعاقـل**. وفي سنـة 837هـ/1433م؛ حـاول السلطـان **أبـو فـارس** العـودة إلى **تلمسـان**؛ عندمـا علـم بانفصـال **تلمسـان** عـن دولتـه؛ وقطـع **أبي العبـاس أحمـد** الدعـوة للسلطـان **الحفـصي** عـلى منابرهـا. ولكنـه مـات في طريقـة؛ قبـل الوصـول؛ فعـادت جيوشـه مـن حيـث أتـت. ولـم تنتـه تدخـلات **الحفصييـن** في **تلمسـان** عنـد هـذا الحـد؛ بـل واصـل السلطـان **الحفـصي أبـو عمـرو عثمـان** سياسـة جـدّه **أبي فـارس**؛ فبـادر إلى غـزو **تلمسـان** سنـة 867هـ/1462م؛ ولكنـه عـاد أدراجـه؛ بعـد أن سـعى إليـه وفـد مـن علمـاء وأعيـان **تلمسـان**؛ عارضيـن عليـه طاعـة سلطانهـا **محمـد بـن محمـد بـن ثابـت**؛ فعقـدوا معـه عقـداً بالطاعـة؛ ثـم عـاد إلى **تونـس**؛ قبـل وصولـه إلى **تلمسـان**. غيـر أنـه عـاود الكـرة سنـة 870هـ/1465م؛ حيـن اشتـكى إليـه **أعـراب بـني عامـر، وسويـد**؛ تعسـف السلطـان **الزيـاني**، ونكثـه بيعـة **الحفصييـن**: ((**فاستخـار** [أبـو عمـرو] **اللـه عـز وجـل، ونصـب لهـم سلطانـاً**؛

الأمير أبا جميل زيان[1] **ابن السلطان عبد الواحد ابن أبي حمو [الثاني] الزناتي؛ وكتب له بذلك في أوائل شوال من العام المذكور، وأعطاه ما يحتاج إليه من الآلة والأخبية والجيش والأموال))**[2]. ثم بعث معه قائداً من الجيش **الحفصي** يدعى "**محمد ابن فرح الجبائي**" وفوض عليهم بالرأي والتدبير أحد الشيوخ؛ وهو الفقيه **أحمد البنزرتي**. كما أمر ولده **عبد العزيز** والي **بجاية**؛ بأن يرافقهم بمعسكره إلى **تلمسان**؛ ريثما يلحق بهم بنفسه[3].

وهكذا كان؛ إذ لحق بهم – بعد فترة – فنزل بجيشه في **المنصورة** المحاذية **لتلمسان**. أين حصلت مناوشات واشتباكات ساخنة؛ فخرج إثرها إليه أعيان المدينة وقاضيها؛ طالبين الصلح، وعارضين على **أبي عمرو** مصاهرة السلطان **الزياني – عبد الله المتوكل** – بابنته للأمير **أبي زكرياء بن المسعود**؛ حفيد

---

[1] كُتب في المصدر ذاته: مرة "زيان" ومرة أخرى "أبو زيان". أنظر تاريخ الدولتين: ص: 157.

[2] تاريخ الدولتين (الموحدية والحفصية)، ص: 157.

[3] هذا هو كل ما ورد في المصادر عن هذا الجيش المرافق للأمير أبي جميل بن عبد الواحد. ولم تأت - بعدها - أي إشارة إلى مصير الجيش المرافق لأبي جميل أو إليه شخصياً. وكل ما في الأمر أن ثمة رواية شفوية يرددها بنو زيان بمدينة طولقة (ولاية بسكرة)؛ مفادها: أنهم ينتسبون إلى أبي جميل هذا.

السلطـــان **الحفـــصي**. فعـــاد **أبـــو عمـــرو** مـــن حيـــث أتى؛ وانتـــهى ـ بعـــد هـــذه الحملـــة ـ أي تأثيـــر **للحفصييـــن** عـــلى **تلمســـان**، وانتـــهى تحرشهـــم بهـــا نهائيـــاً.

***

بنو مرين وتلمسان

ينتمي **بنو مرين** إلى جدٍّ مشترك؛ يجمعهم **ببني عبد الواد**؛ وهو **زحيك بن واسين بن يصليتن**. لأن أبناء **زحيك** تفرعوا – في بداية أمرهم – إلى فرعين رئيسين: **بادين، وورتاجن**؛ فمن **بادين**؛ **بنو عبد الواد**، ومن **ورتاجن**؛ **بنو مرين**. وكان فرع **بني بادين** – في البداية – أقوى وأشد من **بني ورتاجن**؛ لاشتماله علي أربعة بطون؛ هم: **بنو عبد الواد، وبنو توجين، وبنو زردال، وبنو مصاب**؛ أضف إليهم إخوتهم من **بني راشد**؛ لأن **راشد** أخو **بادين**[1]. غير أن الحال تغير؛ مع مرور الزمن، وتضارب المصالح القبلية. خاصة؛ حين وصل **بنو عبد الواد** إلى مرتبة الملك، وانفردوا بعزّه وشرفه؛ دون الأحياء الأخرى من **بادين**؛ فنشبت – عندئذ – الخلافات بينهم؛ من أجل المصالح الخاصة بكل حي منهم؛ فلجأوا إلى سبل التنكر والعصيان؛ المؤديان إلى التفكك والانفراط. وبالمقابل؛ ظلت اللحمة بين قبائل **ورتاجن**

---

[1] **العبر، مج: 7، 148. 343.**

متينة، وعصبيتهم أشدّ قوة والتحاماً؛ فلم يطرأ عليهم ما جرى **لبني بادين**. لذا فقد حافظت دولة **بني مرين** – فيما بعد – على تماسك عشائرها؛ بفضل الأوضاع الاقتصادية المزدهرة في محيطها القبلي؛ بحيث أمكن إرضاء الأطراف كلها[1]. وواضح – من خلال ما ورد في المصادر – أن صلات القربى بين قبيلتي: **بني عبد الواد، وبني مرين**؛ لم تنقطع إلاّ في زمن متأخر[2]. وبانقطاعها؛ برزت إلى السطح علاقات أخرى بين القبيلتين.. علاقات تشوبها المنافسة الحادة، والعداوة الدائمة. وبدأت هذه الظاهرة إثر حصول **بني عبد الواد** على **تلول المغرب الأوسط**؛ واستحواذهم على تلك الأراضي الخصبة كامتياز وإقطاع من قبل الدولة **الموحدية**. ثم ازدادت

---

[1] ((كان أول شيء فعله [الأمير أبو يحيى بن عبد الحق]؛ أنه جمع أشياخ بني مرين، ورؤساء قبائلها؛ وقسم عليهم بلاد المغرب؛ فأنزل كل قبيلة في ناحية منه، وجعل لها ما نزلت فيه من الأرض، وغلبت عليه من البلاد؛ طعمة لا يشاركهم فيها غيرهم...)). (الذخيرة السنية في الدولة المرينية، ص: 68). وذكر هذا أيضاً ابن خلدون في العبر؛ إذ أضاف: ((فاستركبوا الرجل أتباعهم، واستلحقوا من غاشيتهم، وتوفرت عساكرهم)). وقد ذكر هذا أيضاً ابن أبي زرع؛ وقد يكون ابن خلدون نقل عنه هذه العبارة. العبر، مج: 7، ص: 352. والأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 194.

[2] ذكر صاحب الذخيرة السّنية أن المرينيين انفصلوا عن بني عبد الواد وبني واسين في سنة 601هـ/1204م؛ بعد أن وقعت بينهم فتنة بسبب امرأة ص: 24.

حـدّة الشنـآن والمنافسـة بينهمـا إلى مستويـات عليـا؛ نتيجـة لوصـول **العبـد الواديـين** إلى مرتبـة الملـك في **تلمسـان**. كمـا تضاعفـت الأحقـاد، واشتـدت العـداوة بينهمـا أكثـر فأكثـر؛ جـراء منافستهمـا المحمومـة مـن أجـل امتـلاك سـدة الحكـم في **مراكـش**. وانتهـت هـذه المنافسـة الداميـة بدخـول **بـني مريـن** مدينـة **مراكـش** وسيطرتهـم عـلى عـرش **الموحديـن** فيهـا. وكسبـوا ــ بذلـك ــ قصـب السبـق، فاستحـوذوا عـلى مقـدرات الدولـة الموحديـة؛ مـن: إمكانـات بشريـة، وثـروات ماديـة، وقيـم معنويـة. فمكنـت هـذه العوامـل جميعهـا المرينييـن مـن الهيمنـة والاستفحـال في المغـرب الإسـلامي كلـه. ومـن هنـا؛ يمكـن القـول: أن **دولـة بـني زيـان (بـني عبـد الـواد)** ــ حـتى وإن سبقـت الدولـة **المرينيـة** في التأسيـس والظهـور[1] ــ إلاّ أنهـا كانـت أضعـف منهـا عسكريـاً واقتصاديـاً؛ وذلـك بسبـب امتـلاك الدولـة الأخيـرة لأسبـاب القـوة؛ وسيطرتهـا عـلى عاصمـة الخلافـة **الموحديـة بمراكـش**؛ فاكتسبـت ــ مـن جـراء ذلـك ــ القـوة الماديـة، والقـوة الروحيـة.

---

[1] تأسست دولة بني زيان سنة 633هـ/1235م. بينما قامت دولة بني مرين شكلياً؛ بعد هلاك الخليفة الموحدي السعيد سنة 646هـ/1258م؛ وترسمت شرعياً في سنة 657هـ/1258م؛ سنة استيلائهم على مراكش.

ولمّا تأكد **المرينيون** من هيمنة بني عبد الواد على ضواحي **المغرب الأقصى** – بخيراتها الوافرة؛ اعتباراً من سنة 610هـ/1213م – واكتشفوا سعة الفرق، وتباين مستوى القوة بينهم وبين **بني عبد الواد**؛ تحركت أطماعهم، وحثتهم روح العصبية على التقدم خطوة فخطوة نحو تحقيق الملك. ذلك الهدف الذي سعوا إليه منذ الشروع في خطوتهم الأولى؛ عندما قرروا الاستقرار في ديار **المغرب الأقصى**، واستدعاء أحيائهم المتبقية في **الصحراء**[1]. ومنذئذ؛ أحس **بنو مرين** بأنهم متساوون مع **بني عبد الواد** في الثروة والمكانة والأنصار.. ولكنهم ازدادوا قوة – مع مرور الوقت – حتى فاقت قوتهم قوة الدولة **العبد الوادية**؛ بل تفوقوا على **دولة الموحدين** نفسها؛ حيث تمكنوا من اسقاطها وامتلاك حاضرتها، والاستحواذ على تراثها وثروتها في سنة 668هـ/1269م.[2]. وقد زاد في عنفوان **بني مرين** واستفحالهم؛ مسعاهم الجديد؛ في التطلع إلى امتلاك الأندلس؛ والاستيلاء على ما كان يمتلكه الموحدون في تلك الديار. فرفعوا شعار الجهاد لتحقيق غرضهم

[1] الأنيس المطرب، ص: 187. وقد ورد هذا أيضاً في الذخيرة السنية، ص: 24.
[2] الذخيرة السنية، ص ص: 133 - 134. أنظر أيضاً الأنيس المطرب، ص: 205.

الأسمى؛ الأمر الذي حرّك العواطف الدينية لدى عامة الناس، وخاصتهم. وقد ظهر هذا جلياً من خلال عبور السلطان **المريني يعقوب بن عبد الحق** مرات عديدة إلى العُدوة الشمالية؛ بحجة الجهاد. غير أن سلطان **غرناطة** تصدّى له، وكبحه.

المهم؛ أن النزعة التوسعية لم تفارق ملوك **بني مرين** أبداً؛ منذ قيام دولتها إلى يوم سقوطها. وتبعاً لهذا؛ فقد زحفوا بجيوشهم مرات عديدة؛ بغرض احتلال **تلمسان**؛ ففشلوا في بعضها ونجحوا في أخرى.

وكان **يَغُمْراسَنْ** قد حاول جسّ نبض **المرينيين**، واختبار قوتهم؛ فاشتبك معهم مرات عديدة؛ ولكن الحظ لم يحالفه أبداً؛ إذ خسر معاركه معهم كلها؛ الأمر الذي جعله يغير هدفه الاستراتيجي نهائياً؛ ويتجه نحو التوسع شرقاً؛ لابتلاع ما أمكنه من تلك الربوع. ومع ذلك لم يقفل باب التصدي للمرينيين؛ إذ تلاحقت الوقائع بينه وبينهم؛ إلى أن قرّر ملكهم **يعقوب بن عبد الحق**؛ غزو **يَغُمْراسَنْ** في عقر داره **تلمسان**. سنة 670هـ/1271م[1]. وكانت هذه الواقعة؛ أول المحاولات **المرينية** لفتح هذه المدينة

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 177. ورد هذا الخبر أيضاً في الأنيس المطرب، ص: 207.**

الحصينة؛ ولكن السلطان **المريني** فشل في تحقيق هدفه وعاد من حيث أتى[1]. ويقول صاحب **الذخيرة السنية**؛ أن السلطان المريني حشد قوة عظيمة من **بني مرين، والروم، والأغزاز**، وقبائل **الأعراب والمصامدة، وصنهاجة، وبني ورا، وغمارة**، وغيرهم من قبائل **المغرب**؛ حيث زحف بهم إلى **تلمسان**[2]. وعاود **يعقوب بن عبد الحق** ــ أيضاً ــ محاصرة **تلمسان** في سنة 680هـ/1281م؛ ولكنه فشل كذلك في الدخول إليها؛ نظراً لحصانتها ومنعة أسوارها[3].

ولما توفي؛ خلفه ولده **أبو يعقوب يوسف**؛ الذي واجه ــ منذ اليوم الأول لولايته ــ اعتراضات، وحركات عصيان عديدة؛ مصدرها ــ في الغالب ــ بعض الخارجين عليه؛ من الأسرة المالكة، وفئات أخرى؛ ولكنه تغلب عليهم. غير أنه اصطدم ــ بعد ذلك ــ بعقوق وعصيان ابنه **أبي عامر**؛ الذي خرج عليه في سنة 687هـ/1288م؛ بمساندة عامله على **مراكش محمد بن عطو البربري الجناتي**[4]. فتغلب

---

[1] **((وحاصروا تلمسان أياماً؛ فامتنعت عليهم؛ وأفرجوا عنها؛ وولى كل إلى عمله، ومكان ملكه)). العبر، مج: 7، ص ص: 177 - 178.**

[2] **أنظر الذخيرة السنية: ص ص: 146 - 150.**

[3] **الأنيس المطرب، ص: 228.**

[4] **نفسه، ص ص: 360 - 361.**

يوسف عليهما، واستعاد **مراكش**؛ فهربا إلى **تلمسان** سنة 688هـ/1289م؛ محتمين بسلطانها. ولكن الأمير **أبا عامر** ندم، وطلب الصفح؛ فعفا عنه والده، ورجع إليه. أما **ابن عطو** فبقي في **تلمسان**؛ مستجيراً بالسلطان **عثمان**. غير أن **يوسف بن يعقوب** صمَّمَ على جلبه ومعاقبته؛ فطلب بإصرار من السلطان **الزياني** تسليم **ابن عطو** إليه؛ فأبى **عثمان** إخفار ذمته[1]. ويقول **عبد الرحمن بن خلدون**؛ أن رسول السلطان المريني أغلظ في القول إلى السلطان **عثمان**: ((**فسطا به، واعتقله؛ فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة، وتحركت الإحن القديمة والتوترات المتواترة؛ واعتزم على غزو تلمسان**))[2]. وهذه الحادثة تثير الذاكرة، وتنقلها إلى زمن مستقبلي؛ يتجلى في قصة المروحة بين داي **الجزائر** والقنصل **الفرنسي**؛ حيث يتأكد أن من أراد الحرب، ونوى الغزو؛ لن يعدم حيلة أو مسوغ يعلن به عن قراره.

---

[1] وقال: ((والله؛ لا أسلمه أبداً، ولا أبيع حرمتي، وأترك من استجارني حتى أموت؛ فليصنع ما بدا له)). الأنيس المطرب بروض القرطاس، ص: 393.
[2] العبر، مج: 7، ص: 442.

وكانت هذه الأسباب المختلقة؛ بمثابة الشرارة التي أشعلت فتيل الحرب من جديد بين الدولتين: **المرينية والزيانية**. ويبدو أن **يوسف بن يعقوب** كان ينتظر الفرصة المواتية لإعادة الكرة مع **بني عبد الواد**؛ لذا فقد التقط هذه المناسبة الذهبية. ولو لم تتوفر؛ لحاول إيجاد مسوغ آخر لتحقيق أهدافه؛ لأن نزعة التوسع شرقاً مسيطرة على السلاطين المرينيين؛ بل تتحكم في نواياهم وأهدافهم؛ فهي استراتيجيتهم التي يتطلع إلى تحقيقها سلاطينهم كافة؛ صغيرهم وكبيرهم. ولما كان **يوسف بن يعقوب المريني** يتطلع دوماً إلى الاستيلاء على **تلمسان**؛ فقد كرّر غزواته ضدها؛ إذ قام بخمس حملات متتالية؛ فشلت بكاملها؛ الأولى سنة: 689هـ/1290م، والثانية سنة 695هـ/1295م، والثالثة سنة 696هـ/1296م، والرابعة سنة 697هـ/1297م، والخامسة سنة 698هـ/1298م. ولم يتمكن هذا السلطان المريني ــ بهذه الحملات كلها ــ تحقيق هدفه؛ المتمثل في اختراق جدران تلك المدينة الحصينة. ومع هذا فقد ألحق **ببني عبد الواد** ضرراً كبيراً؛ خاصة في الحصار الأخير؛ الذي لا شبيه له أبداً؛ حيث دام ثماني سنوات وثلاثة أشهر؛ فانفرد بطول أمده

وضراوتــه، واشتهــر بشــدة صبــر **العبــد الواديـيــن**، وصرامتهــم، وإبائهــم، وصــدق مقاومتهــم، وتفانيهــم في صــدّ عدوهــم. فضربــوا بذلــك رقمــاً قياسيــاً في شــدة الاحتمــال، وصــدق النضــال[1]. لقــد قــام السلطــال المريــني بتطويــق مدينــة **تلمســان** مــن جميــع جهاتهــا؛ ثــم شــرع في بنــاء مدينــة محاذيــة لهــا سماهــا **المنصــورة**[2]؛ جعلهــا مستقــراً لــه ولجيشــه؛ بغــرض مطاولــة الحصــار، وخنــق **تلمســان**؛ حــتى تستسلــم مــع مــرور الزمــن. وخــلال إنجــاز المدينــة المذكــورة؛ عمــل عــلى تمهيــد الجهــات الشرقيــة، وإخضــاع أتبــاع **بــني عبــد الــواد** في تلــك

---

[1] ويقول ابن خلدون في هذا الأمر: ((واستمر حصاره [أي يوسف بن يعقوب المريني] إياهم إلى تمام ثماني سنين وثلاثة أشهر من يوم نزله. نالهم فيها من الجهد والجوع ما لم ينل أمة من الأمم)). العبر، مج: 7، ص: 197.

[2] وصفها ابن خلدون بقوله: ((واختط بمكان فساطيط المعسكر قصراً لسكناه، واتخذ فيه مسجداً لمصلاّه؛ وأدار عليها السّور، وأمر الناس بالبناء؛ فابتنوا الدور الواسعة، والمنازل الرحيبة، والقصور الأنيقة؛ واتخذوا البساتين، وأجروا المياه. ثم أمر بإدارة السور سياجاً على ذلك سنة اثنتين وسبعمائة؛ وصيّرها مصراً. فكانت من أعظم الأمصار والمدن، وأحفلها اتساع خطة، وكثرة عمران، ونفاق أسواق، واحتفال بناء، وتشييد منعة. وأمر باتخاذ الحمامات والخانات والمارستان، وابتنى بها مسجداً جامعاً، وشيد له مئذنة رفيعة؛ فكان من أحفل مساجد الأمصار وأعظمها. وسماها المنصورة؛ واستبحرت عمارتها، وهالت أسواقها؛ ورحل إليها التجار بالبضائع من الآفاق؛ فكانت أحد مدائن المغرب. وخربها آل يغمراسن؛ عند مهلكه، وارتحال كتائبه عنها)). العبر، مج: 7، ص ص: 458 - 459.

الديار؛ فلم يترك مدينة إلا واستسلمت له، وبلغ في زحفه إلى مشارف **بجاية**؛ حيث ضمن طاعة **بني توجين** كافة، **ومغراوة** كلها. وبذلك توسع حصار مدينة **تلمسان**؛ فتحول إلى احتلال مدن عديدة كـ: **ندرومة، وتامززدكت، وهنين، ووهران، والقصبات، ومزغران، ومستغانم، ومازونة، وتنس، وبرشك، وشرشال، والبطحاء، ووانشريس، ومليانة، ولمدية، والجزائر، وتافركنيت**[1].

وعلى الرغم من الجهود العظيمة التي بذلها **يوسف بن يعقوب**؛ فقد حرمه الله من تحقيق حلمه بدخول **تلمسان**؛ إذ هلك سنة 706هـ/1306م[2]. أثناء الحصار؛ اغتاله عبد من عبيده؛ بطعنة خنجر؛ وهو في مخدعه. ومن غريب الصدف؛ أن السلطان الزياني **عثمان بن يغمراسن** مات أيضاً أثناء الحصار وفي سنة 703هـ/1303م. وبموت السلطان المريني؛ تفرق جمعه؛ وانفض الحصار؛ وعادت جموع الناس إلى **المغرب الأقصى**؛ إذ سارع المتنافسون

---

[1] الأنيس المطرب، ص: 367.

[2] الأنيس المطرب، ص: 368. العبر، مج: 7، ص ص: 484 - 485. الحلل الموشية، ص: 229 .

على العرش **المريني** للالتحاق **بفاس**؛ قصد ترتيب شئون الحكم[1].

فتنفس **بنو عبد الواد** الصعداء، وانشغلوا بإصلاح ما فسد في **تلمسان**، وترميم ما هدّم من أسوارها وقصورها، وإحياء ما أهمل من بساتينها وجناتها، وتعمير مخازنها وأهراء قصورها. ثم خرجوا لتأديب المتآمرين عليهم؛ من القبائل والإمارات المتواجدة في نطاق الدولة وحماها؛ فبادروا بتخريب مدينة **المنصورة**[2]؛ وبعدها اتجهوا شرقاً؛ لتمهيد البلاد التي اغتصبها **المرينيون**.

ويقول **التنسي** أن **أبا حمو موسى الأول** هو الذي هدم **المنصورة**؛ المدينة التي شيّدها **يوسف بن يعقوب** غرب **تلمسان** وبمحاذاتها. أما **ابن خلدون** فذكر أنها خُرِّبت؛ دون ذكر اسم السلطان الزياني الذي فعل ذلك.[3] بينما يخالفهما صاحب **الأنيس**

---

[1] العبر، مج: 7، ص ص: 485 - 489.

[2] ((فلما انصرف [أبو ثابت؛ حفيد يوسف بن عبد الحق]؛ كان أول ما بدأ الملك أبو حمو؛ هدم مدينة يوسف بن يعقوب، وإصلاح ما تثلم من تلمسان، وبنى الأسوار والستائر، وحفر الخنادق؛ وخزن فيها الطعام، والأدام والملح والفحم والحطب؛ ما لا حد له ولا حصر)). تاريخ دولة بني زيان (نظم الدر)، ص ص: 135 - 136.

[3] ((وخربها آل يغمراسن؛ عند مهلكه، وارتحال كتائبه عنها)). العبر، مج: 7، ص: 459.

المطــرب؛ فيقــول أن **أبــا ثابــت**؛ المتــولي عــلى **بــني مريــن** ــ بعــد جــدّه **يوســف بــن يعقــوب** ــ اشتــرط عــلى **بــني زيــان** ــ في مفاوضــات فــكّ الحصــار ــ أن يبقــوا **المنصــورة** عــلى حالهــا، وألاّ يدخلوهــا، وأن يتعاهــدوا مساجدهــا وقصورهــا بالإصــلاح[1].

وكعــادة **المرينييــن**؛ لــم يطــل بهــم الحــال؛ حــتى تحركــت داخالهــم نزعــة التوســع؛ فتعللــوا ــ هــذه المــرة أيضــاً ــ بلجــوء أفــراد مــن العائلــة المالكــة إلى **تلمســان**؛ نتيجــة لخلافهــم مــع السلطــان المريــني. فطلــب هــذا الأخيــر مــن السلطــان الزيــاني تسليمهــم إليــه؛ ولكــن **أبــا حمــو الأول** رفــض الطلــب؛ متبعــاً نهــج أسلافــه في هــذا الأمــر؛ بحجــة أنــه لــن يكســر جــواره أو يخفــر ذمتــه. وكسابــق العهــد؛ أدى موقفــه هــذا إلى غضــب السلطــان **المريــني أبي سعيــد عثمــان بــن يعقــوب**[2]؛ الــذي ســارع في سنــة سنــة 714هــ/1314م إلى غــزو **تلمســان**، أيــن حاصرهــا؛ ولكنــه فشــل في مسعــاه؛ بعــد أن ســرّب **أبــو حمــو الأول** الأمــوال إلى وزرائــه؛ وتبــادل معهــم الخطابــات؛ ثــم أعلــم السلطــان **المريــني** بمؤمراتهــم

---

[1] **أنظر هذا في ص: 369.**

[2] **هو أبو سعيد عثمان بن أبي يعقوب. حكم من سنة 710هـ/1310م إلى سنة 731هـ/1330م.**

معه. فخاف **أبو سعيد** العاقبة؛ وانسحب عائداً إلى **المغرب الأقصى**.

خفتت بعدها ضغوط **المرينيين** على **تلمسان**؛ بسبب الأوضاع الداخلية في دولتهم. ولكنهم؛ لم يتخلوا عمّا تراودهم به نفوسهم؛ إلى أن حلّ عهد السلطان **أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب**[1]؛ هذا السلطان الذي اكتسب قوة لم يصل إليها أسلافه؛ إذ استفاد من تجاربهم؛ كما ازداد فائدة بعد احتكاكه بمجريات الأحداث في **الأندلس**؛ حيث التحق بالدولة **المرينية** بعض الخبراء في اقتحام الحصون المنيعة؛ كما كان يمتلك أيضاً أسلحة فعالة مدمر؛ قاذفة للبارود.[2] ولما قرّر **أبو الحسن** مهاجمة

---

[1] **حكم من سنة 731هـ/1330م إلى سنة 749هـ/1348م.**

[2] **حصل على بعضها جدّه أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق واستعملها في حصار سجلماسة سنة 672هـ/1273م؛ وفي ذلك يقول ابن خلدون متعجباً: ((ونصب عليها [أي سجلماسة] آلات الحصار؛ من: المجانيق، والعرّادات، وهندام النفط القاذف بحصى الحديد،؛ ينبعث من خزانه أمام النار الموقدة في البارود؛ بطبيعة غريبة؛ تردّ الأفعال إلى قدرة باريها)). العبر، مج: 7، ص: 388. وقد أشار ابن الخطيب في الإحاطة إلى أحد المخترعين لهذه الأسلحة التدميرية؛ اسمه علي بن عبد الله بن محمد بن الحاج؛ من مدجني إشبيلية. التحق بيعقوب بن عبد الحق المريني؛ حيث بنى له دار الصنعة بسلا، وصنع له آلة الدولاب؛ ثم قال عنه: ((من العارفين بالحيل الهندسية؛ بصيراً باتخاذ الآلات الحربية الجافية، والعمل بها؛ انتقل إلى مدينة فاس على عهد أبي يوسف المنصور بن عبد الحق، واتخذ له الدولاب المنفسح القطر، البعيد المدى، ولين المركز والمحيط، المتعدد الأكواب، الخفي الحركة؛ حسبما هو اليوم ماثل بالبلد الجديد ـ دار الملك**

تلمسان؛ لم يفتقر إلى ذريعة؛ تعطيه الحق في إعلان الحرب على **بني زيان**؛ إذ بحث عن مسوغات العمل؛ فوجد بين يديه؛ الشكوى التي تقدم بها صهره **يحيى أبو بكر الحفصي**[1] ضد السلطان **الزياني أبي تاشفين عبد الرحمن الأول.** فبادر من فوره بمراسلة هذا الأخير؛ مستفزاً إياه بطلب التخلي عن مدينة **دلس للحفصيين**؛ ورفع حصار الجيش **الزياني** عن **بجاية**[2]؛ غير أنه استقبل جواباً قاسياً من **أبي تاشفين الأول**. وهذا ما كان يأمله **أبو الحسن**، وينتظره بفارغ الصبّر. لأن هذه الحركة تأخرت منذ فترة من زمن؛ إذ كانت خطتها مُعَدَّة مسبقاً؛ في عهد والده **أبي سعيد**؛ وأجِّلَت بعد موته سنة 731هـ/1330م. ثم أجلت مرة أخرى ـ خلال زحفه نحو **تلمسان** سنة 732هـ/1331م؛ جراء تآمر أخيه ومنافسه **أبي علي** أمير **سجلماسة** مع **أبي تاشفين** ضدّه؛ فانثنى نحو أخيه؛ حيث تغلب عليه وأسره ثم قتله. ويبدو أن **أبا الحسن** أجّل موضوع

بمدينة فاس ـ أحد الآثار التي تحدو إلى مشاهدتها الرّكاب. وبناء دار الصنعة بسلا)). الإحاطة في أخبار غرناطة، مج: 2، ص: 429.

[1] **حكم الدولة الحفصية ـ من تونس وقسنطينة ـ من سنة 718هـ/1318م إلى سنة 746هـ/1345م.**

[2] **العبر، مج: 7، ص: 226.**

تلمسـان لبعـض الوقـت؛ واتجـه بكـل قوتـه نحـو **عـدوة الأندلـس**؛ أيـن اهتـم باستعـادة **جبـل الفتـح (جبـل طـارق)**، وانتزاعـه مـن قبضـة **النصـارى**؛ فتحالـف مـع السلطـان **ابـن الأحمـر** في ذلـك؛ وبالفعـل تـم لـه تحقيـق ذلـك الفتـح سنـة 733هـ/1332م. وبعملـه هـذا؛ ظهـر لـه أنـه أضـحى في مقـام رفيـع لا تطالـه ملـوك **المغـرب والأندلـس** كافـة.. حينهـا؛ عاودتـه الرغبـة في امتـلاك **تلمسـان**. فبعـث ــ مـن جديـد ــ للسلطـان **الزيـاني أبي تاشفيـن**؛ مكـرراً الشـروط التعجيزيـة نفسهـا؛ وهي التخـلي عـن مدينـة **تدلـس (دلـس) للحفصييـن**، والانسحـاب إلى المنطلـق الأول؛ الـذي كانـت عليـه حـدود دولـة **بـني زيـان**. وعـلى هـذا؛ اتبـع **أبـو الحسـن** نهـج أسلافـه في وضـع شـروط تعجيزيـة؛ بحيـث لـن يجـد ــ معهـا ــ السلطـان **الزيـاني** بـداً مـن رفضهـا؛ بـل تُستَثـار حفيظتـه بأسلـوب مستفـز عنـد عـرض الشـروط؛ الأمـر الـذي تنجـرُّ عنـه ردود فعـل بألفـاظ قاسيـة؛ تفتـح ــ حتمـاً ــ بـاب الحـرب. وهكـذا؛ زحـف **أبـو الحسـن** إلى **تلمسـان** سنـة 735هـ/1334م ــ أي بعـد سنـوات ثـلاث مـن محاولتـه الأولى ــ فوصلهـا يـوم 11 مـن شـوال سنـة 735هـ/1334م. حيـث شـرع ــ كسلفـه ــ في بنـاء

ميدنـــة؛ سمّاهـــا باســـم المدينـــة الـــتي أقامهـــا جـــدّه **أبـــو يعقـــوب** مـــن قبـــل؛ وخربهـــا **بنـــو زيـــان**؛ وهـي ((**المنصـــورة**))[1]. ولكنـــه خالـــف جـــدّه؛ عندمـــا تبـــنى خطـــة فعالـــة في حصـــار **تلمســـان**، والتضييـــق عليهـــا؛ سلـــك في البدايـــة مسلـــك سلفـــه **يوســـف بـــن يعقـــوب بـــن عبـــد الحـــق**؛ ولكنـــه أضـــاف إليهـــا تحسينـــات ناجعـــة. وقـــد اتبـــع في خطتـــه تكتيكـــاً محكمـــاً؛ حقـــق بـــه هدفـــه. مـــن ذلـــك:

ـ أنـــه بـــادر ـ كمـــا سبـــق ذكـــره، مثـــل سلفـــه ـ إلى بنـــاء مدينـــة سمّاهـــا **المنصـــورة** (البلـــد الجديـــد)؛ الواقعـــة في الجهـــة الغربيـــة مـــن **تلمســـان**؛ وهي الـــتي اتخذهـــا مستقـــراً لـــه ولجيشـــه؛ أثنـــاء الحصـــار؛ إذا مـــا طـــال أمـــده.

ـ أقـــام حـــول المدينـــة المذكـــورة أســـواراً تحميهـــا؛ ثـــم نصـــب المجانيـــق، والآلات الحربيـــة، بجـــوار الخنـــدق الـــذي حفـــر أمـــام الأســـوار.

---

[1] قال فيها عبد الرحمن بن خلدون: ((واختط السلطان بقرب تلمسان البلد الجديد لسكناه؛ ونزل عساكره؛ وسماه المنصورة؛ وأدار على البلد المخروب سياجاً من سور، ونطاقاً من الخندق...)). العبر، مج: 7، ص: 534. وقال أخوه يحيى: ((ثم ابتنى غربيّها مدينة لسكناه؛ نسبها إلى النصر)). بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 1، ص: 219. أما التنسي فكتب: ((وبنى عليها مدينته التي هي الآن محرثاً)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 146. ويعتقد محمد بوعياد أن الآثار الموجودة حالياً لمدينة المنصور هي لمدينة أبي الحسن. أنظر تعليقه في الصفحة نفسها.

ـ وبعدهــا أخــذ يشيّــد أمــام كــل بــرج مــن الأبــراج المقامــة عــلى ســور **تلمســان**؛ برجــاً يقابلــه، وأحاطــه بخنــدق لحمايتــه. ووضــع بــه رمــاة كلفهــم بمدامــة رشــق بــرج الأعــداء المقابــل بالنبــل؛ بهــدف إشغالهــم بأنفسهــم؛ ريثمــا يشيــد برجــاً آخــر؛ أكثــر قربــاً مــن أســوار **تلمســان**. وهكــذا تــدرج في الاقتــراب مــن ســور المدينــة المحاصــرة؛ ببنــاء بــرج وراء بــرج؛ حــتى لاصــق خنــدق أعدائــه المحفــور بجــوار أســوار البلــد[1].

ـ وأثنــاء ذلــك انشغــل في تطويــق المدينــة بجيشــه، وبأنصــاره مــن جميــع جهاتهــا. كمــا تــولى ـ في الوقــت نفســه ـ تمهيــد البــلاد الشرقيــة التابعــة **لتلمســان**:[2]. حيــث اعتمــد خطــة أسلافــه في عــزل **تلمســان** عــن ممتلكــات الدولــة الشرقيــة؛ إذ استــولى؛ خــلال سنــة 736هـــ/1335م عــلى عمالاتهــا كلهــا؛ كـــ: **وجــدة، وندرومــة، وهنيــن، ووهــران، بــلاد مغــراوة، وتوجيــن، وشلــف، وتنــس،**

---

[1] ((ولم يزل يتقرب بوضع الأبراج من حدّ إلى ما بعده؛ حتى اختطها من قرب على ساقة خندقهم. وتماصع المقاتلة بالسيوف من أعاليها؛ وقربت المجانيق إلى رجمها ودكها؛ فنالت من ذلك فوق الغاية؛ واشتدت الحرب، وضاق نطاق الحصار)). العبر، مج: 7، ص: 535.

[2] ((وأحاطت بها عساكره، وضرب عليها سياج الأسوار، وسرادقات الحفائر أطبقت عليهم؛ حتى لا يكاد الطيف يخلص منهم ولا إليهم. وسرح كتائبــه في القاصية من كل جهة؛ فتغلب على الضواحي، وافتتح الأمصار جميعاً)). العبر، مج: 7، ص ص: 227 - 228.

ومليانة والجزائر، ولمدية. وبذلك قطع كل مدد محتمل لحاضرة الدولة المحاصرة. وتمكن **أبو الحسن** ـ بعد عامين من بدء حصاره؛ أي في يوم الأربعاء 18 من رمضان[1] سنة 737هـ/1336م ـ تمكن من اقتحام **تلمسان**. فحقق ما عجز عنه أسلافه من قبل. حيث قتل السلطان **أبا تاشفين** مع ولديه: **عثمان ومسعود**؛ ثم ألحق بهم الوزير **موسى بن علي الكردي**. وبذلك تم القضاء على الدولة **الزيانية**[2]. وأضحت **تلمسان** ضمن ممتلكات **المرينيين** لبعض الوقت.

وبعد فتح **تلمسان** وعمالاتها؛ أظهر **أبو الحسن** ما خفي في صدره؛ من طموح ورغبة في التوسع شرقاً. فاتخذ **تلمسان** منطلقاً جديداً لاحتلال **إفريقية**، وتحقيق حلم أجداده؛ في توحيد **بلاد المغرب** كلها تحت سيادة **المرينيين**؛ خلفاء **الموحدين**[3]. وعليه؛ فقد

---

[1] اقتحام المدينة حدث ـ حسب رأي عبد الرحمن بن خلدون ـ في 17 رمضان سنة 737هـ، العبر، مج: 7، ص: 536.

[2] ((ولم يزل السلطان أبو تاشفين يقاتل هو وأولاده ووزيره بباب القصر إلى أن استشهدوا جميعاً؛ رحمة الله عليهم. وذلك يوم الأربعاء الثامن والعشرون من رمضان سنة سبع وثلاثين وسبعمائة)). تاريخ بني زيان ملوك تلمسان (نظم الدر). ص: 146.

[3] ((كان أبو الحسن قد امتدت عينه إلى ملك إفريقية؛ لولا مكان مولانا السلطان أبي يحيى من ولاية صهره. وأقام يتحين لها الوفاة... فلما هلك

كـــان ينتظـــر الفرصـــة المواتيـــة للإنقضـــاض عـــلى مملكـــة **الحفصييـــن**. وبعـــد أن انـــزاح المانـــع المعنـــوي المتمثـــل في الصّهـــر الواصـــل بيـــن السلطـــان **الحفـــصي أبي يحـــيى وأبي الحســـن** زوج ابنتـــه. بوفـــاة تلـــك الزوجـــة والتحـــاق والدهـــا بالملكـــوت الأعـــلى سنـــة 747هــ/1346م. لـــم يجـــد أمامـــه مـــا يمنـــع توسعـــه عـــلى حســـاب **الحفصييـــن**. وكـــان عليـــه إيجـــاد ذريعـــة تخـــول لـــه غـــزو تلـــك الديـــار؛ الـــتي يعتبـــر أصحابهـــا ـ في حقيقـــة الأمـــر ـ مـــن حلفائـــه، وأقربائـــه بالصهـــر[1]. ولـــم يطـــل بـــه الحـــال؛ حـــتى وصلـــه خبـــر قَتْـــلِ الأميـــرُ **عُمَـــرُ** لأخيـــه **أحْمَـــدَ** ولي العهـــد الشـــرعي. واغتصابـــه ســـدة الحكـــم في **تونـــس**. عندهـــا قـــرّر **أبـــو الحســـن** تنفيـــذ خطتـــه المختمـــرة؛ فأظهـــر الامتعـــاض لقتـــل الأميـــر **أحمـــد**؛ السلطـــان الشـــرعي

السلطـان أبـو يحيى في رجب مـن سنـة سبـع وأربعيـن [وسبعمائـــة]**؛ وكـان مـن قيـام ابنـه عمر بالأمر؛ ونـزوع الحاجب أبي محمد بـن تافراكيـن منهـا في رمضـان؛ ما ذكرنـاه. تحركت عزائمـه لذلـك؛ ورغَّبَـه ابـن تافراكيـن في ملـك الموحديـن؛ فرغـب. وجاء علـى إثره الخبـر بمـا كـان مـن قتـل عمـر لأخيـه أحمـد ولي العهـد؛ وكـان يستظهـر علـى عهـده بكتـاب أبيـه... فامتعض السلطـان لمـا أضـاع عمـر مـن عهـد أبيـه، وهـدر مـن دم أخيـه... فأجمـع الحركـة إلى إفريقيـة)). العبـر، مج: 7، ص ص: 557 - 558.**

[1] **بعد هـلاك زوجتـه ـ ابنـة أبي يحـيى الحفصي في موقعـة طريـف بالأندلـس ـ خطـب إحدى أخواتهـا؛ فأعطيت لـه. وتـوفي والدهـا أبـو يحـيى أثنـاء رحلتهـا؛ وقبـل أن تصل إلى عريسهـا. أنظر العبـر، مج: 7، ص ص: 555 - 557.**

للدولـــة؛ بحكـــم كتـــاب العهـــد؛ المحـــرر مـــن قبـــل أبيهمـــا **أبي يحـــيى**.

وهكـــذا؛ فقـــد انطلـــق **أبـــو الحســـن** ســـنة 747هـــ/1346م بجيـــش عظيـــم؛ شمـــل قبائـــل **المغـــرب** كافـــة؛ وضـــمّ إليهـــم قبيـــل **بـــني عبـــد الـــواد**؛ إذ جمـــع قبائـــل **زناتـــة** كلهـــا تحـــت لـــواء واحـــد؛ متوهمـــاً أنـــه أضـــحى زعيمهـــا الأكبـــر وحامـــل لوائهـــا الأوحـــد.. ولكـــن الواقـــع يقـــول غيـــر ذلـــك. وقبـــل أن ينطلـــق في حملتـــه؛ أسنـــد لولـــده **أبي عنـــان فـــارس** ولايـــة **المغـــرب الأوســـط**: **((وعهـــد إليـــه بالنظـــر في أمـــوره كافـــة؛ وجعـــل إليـــه جبايتـــه؛ وارتحـــل يريـــد إفريقيـــة))**[1]. تقـــدم **أبـــو الحســـن** زاحفـــاً بجيشـــه الجـــرار نحـــو **تونـــس**؛ ساحبـــاً خلفـــه معظـــم قبائـــل **المغـــرب**، وحامـــلاً في ركابـــه مجموعـــة كبيـــرة مـــن علمـــاء **المغـــرب**؛ قصـــد التبـــاهي بهـــم والتعاظـــم، وراغبـــاً في إضفـــاء مسحـــة مـــن الشرعيـــة عـــلى غزوتـــه؛ الـــتي ستمنحـــه مرتبـــة خلافـــة المسلميـــن؛ بفضـــل وجودهـــم في ركابـــه ومباركتهـــم لمسعـــاه. ولكـــن الأقـــدار شـــاءت غيـــر ذلـــك؛ حيـــث كـــان مصيرهـــم المـــوت[2]: إمَّـــا

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 558.

[2] ((وكـان في جملـة السلطـان أبي الحسن جماعـة كبيـرة مـن فضـلاء المغرب وأعيانـه؛ هلـك كثير منهم في الطاعون الجـارف بتونـس، وغـرق جماعـة

بعلة الطاعون الجارف، أو بالغرق في البحر أثناء جلاء **أبي الحسن**؛ منهزماً من **تونس**. وقد أحصى **المقري** عددهم بأربعمائة عالم[1]. سارت حملة السلطان **المريني** – في بدايتها – على أحسن ما يرام. حيث توافدت إليه وفود **أعراب إفريقية**، وعمال الدولة **الحفصية** القائمين على المدن المختلفة[2]. فدخل إلى: **بجاية وقسنطينة وبونة وباجة** بسلاسة وسلام؛ وختم نجاحه بالدخول إلى عاصمة الدولة **تونس**؛ التي فتحت أبوابها دون مقاومة تذكر؛ وذلك في يوم الأربعاء 18 جمادى الآخرة من عام 748هـ/1347م. حدث ذلك؛ إثر إحضار رأس السلطان الحفصي **عمر بن أبي يحيى**؛ المذبوح في نواحي **قابس**، ووضعه بين يديه. ((**وقد كمل الفتح، وعظمت – في الاستيلاء على الممالك والدول –**

منهم في اسطوله لما غرق؛ وتخطت النكبة منهم آخرين إلى أن استوفوا من قدَرٍ من آجالهم)). التعريف بابن خلدون. ص ص: 44 - 45.

[1] **((ثم حصلت له الهزيمة الشنعاء قرب القيروان؛ حين قاتل أعراب إفريقية؛ فغدره بنو عبد الواد - الذين أخذ من يدهم ملك تلمسان - وانتهزوا الفرصة فيه، وهربوا إلى الأعراب عند المصاقة؛ فاختلّ مصافه؛ وهُزم أقبح هزيمة؛ ورجع إلى تونس مغلوباً، وركب البحر في أساطيله - وكانت نحو** الستمائة **من السفن - فقضى الله تعالى أن غرقت جميعاً؛ ونجا على لوح؛ وهلك من كان معه من أعلام المغرب؛ وهم نحو** أربعمائة **عالم)). نفح الطيب، ج: 6، ص ص: 214 - 215.**

[2] **العبر، مج: 7، ص ص: 558 - 561.**

المنَّـــة. واتسعـــت ممالكـــه مـــا بيـــن مسراتـــة والســـوس الأقـــصى مـــن هـــذه العـــدوة، وإلى رنـــدة مـــن عـــدوة الأندلـــس))[1]. ومـــن غرائـــب الأحـــداث، وعجائـــب الدّهـــر وتصاريفـــه؛ أن هـــذا الصّـــرح العظيـــم الـــذي شيّـــده **أبـــو الحســـن** انْهَـــوَى واندثـــر فجـــأة، وفي لحظـــة قصيـــرة. فتحـــول مصيـــر هـــذا الملـــك القـــوي المتغلـــب إلى منهـــزم وشريـــد عبـــر البحـــار والآفـــاق؛ باحثـــاً عـــن ملجـــإ ومـــأوى آمـــن يسكـــن إليـــه. فتنقـــل ــ في خبـــر طويـــل ــ[2] بيـــن **الجزائـــر، ووانشريـــس، وجبـــل بـــني راشـــد، وسجلماســـة، ومراكـــش، وجبـــل هنتاتـــة**؛ أيـــن تـــوفي بتلـــك الناحيـــة؛ بعـــد مـــرض؛ في 23 ربيـــع الثـــاني مـــن سنـــة 750هــ/1349م.

وجملـــة القـــول؛ فقـــد ارتكـــب **أبـــو الحســـن** أربعـــة أخطـــاء قاتلـــة؛ في تقديـــره للموقـــف؛ قبـــل زحفـــه نحـــو **تونـــس**، وعنـــد حلولـــه بهـــا:

ــ أولاهمـــا؛ أنـــه اطمـــأن **لبـــني عبـــد الـــواد**؛ واعتقـــد أنهـــم أضحـــوا في خدمتـــه؛ وهـــذا تقديـــر غيـــر سليـــم؛ لأن حقيقتهـــم؛ كمـــا وصفهـــم **يحـــيى بـــن خلـــدون**: **((استخـــدم قبيـــل بـــني عبـــد الـــواد؛ فلـــم شعثهـــم، وحفـــظ عليهـــم**

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 563.

[2] أنظر العبر، مج: 7، ص ص: 567 - 597.

رتبتهم، وأبقى لشعوبهم وقبائلهم المراسم التي ألفوها بأيامهم،؛ تفاخراً بملك القبيلتين، وتشرفاً بإمرة زناتة أجمعين... فمضت الأيام وهُمْ بين بني مرين لهب مكفور، وصارم مغمود، والأكباد تتفطر غِيرَة، والقلوب تحتدم حنقاً، فالعيون شازرة، والألسن هامسة؛ إلاّ أن الصبر مستشعر، والخضوع والتسليم مستظهران))[1]. وعليه؛ فإنهم انتهزوا فرصة خروج أعراب سليم وهلال عن صف أبي الحسن؛ في القيروان؛ فبادروا بعقد صفقة معهم ضد السلطان المريني[2]؛ شاركهم فيها أحياء من مغراوة وبني توجين؛ فأثمرت صفقتهم عن هزيمة نكراء لأبي الحسن؛ أُسْدِل بعدها السِّتارُ عن دولته؛ وانتقل الحكم في الدولة المرينية لابنه أبي عنان فارس.

---

[1] بغية الرواد، ج: 1، ص: 234.

[2] فتدامروا، واتفقوا على الاستماتة؛ ودس إليهم من عسكر السلطان بنو عبد الواد ومغراوة وبنو توجين؛ فغلبوا بني مرين، وعدوهم بالمناجزة صبيحة يومهم؛ ليتحيزوا إليهم براياتهم؛ فصبحوا معسكر السلطان. وركب إليهم في الآلة والتعبئة، واحتل المصاف؛ وتحيز إليهم الكثر. ونجا السلطان إلى القيروان؛ فدخلها في الفل من عساكره... وتدافعت ساقات العرب في أثره؛ وتسابقوا إلى المعسكر؛ فانتهبوه، ودخلوا فسطاط السلطان؛ فاستولوا على ذخيرته والكثير من حرمه؛ وأحاطوا بالقيروان، وأحدقت حللهم بها سياجاً، وتعاوت ذئابهم بأطراف البقاع، وأجلب ناعق الفتنة من كل مكان)). العبر، مج: 7، ص: 573.

ـ أما الثاني من أخطائه؛ فيتمثل في تقديره السيء لقوة وولاء **أعراب بني هلال وسليم** في **إفريقية**[1]. إذ قاسهم بمقياس **المغرب الأقصى**؛ في التعامل مع **الأعراب** هناك؛ تلك الفئة التي تكيّفت مع أحكام الدولة هناك، وقبلت بسلطانها في بعض الحدود. وعلى هذا سرعان ما أبدى **أعراب إفريقية** سخطهم على **أبي الحسن**؛ بسبب تقليصه لحجم إقطاعاتهم، وإسقاط ما فرضوه من ضرائب على المارة؛ كضريبة الخفارة. وبذلك؛ أجمعوا على التمرُّد وإشعال الفتن. فاتّصلوا ببعضهم، وأصفقوا على الخلاف والثورة. وهنا؛ تقاطعت مصلحتهم مع

---

[1] ((كان هؤلاء الكعوب من بني سليم رؤساء البدو بإفريقية؛ وكان لهم اعتزاز على الدولة؛ لا يعرفون غيره منذ أولها؛ بل وما قبله... ولما تغلب السلطان [أبو الحسن] على الوطن؛ وكان حاله في الاعتزاز على من في طاعته غير حال الموحدين [الحفصيين]، وملكته للبدو غير ملكتهم. وحين رأى اعتزازهم على الدولة، وكثرة ما أقطعتهم من الضواحي، ثم من الأمصار؛ نكره؛ وأدالهم من الأمصار التي أقطعهم الموحدون بأعطيات فرضها لهم في الديوان. واستكثر جبايتهم؛ فنقصهم الكثير منها. وشكى إليه الرعية من البدو؛ ما ينالونهم به من الظلامات والجور؛ بفرض الإتاوة التي يسمونها الخفارة. فقبض أيديهم عنها، وأوعز إلى الرّعايا بمنعهم منها. فارتابوا لذلك؛ وفسدت نياتهم، وثقلت وطأة الدولة عليهم؛ فترصدوا لها. وتسامع ذؤبانهم وبواديهم بذلك؛ فأغاروا على قياطين بني مرين، ومسالحهم بثغور إفريقية وفروجها، واستاقوا أموالهم، وكثر شكاتهم، وأظلم الجو بينهم وبين الدولة...)). العبر، مج: 7، ص ص: 567 - 570.

مصلحة **بني عبد الواد**؛ فاتفقوا جميعاً على كسر شوكة **أبي الحسن** وتقليم أظافره. وبالفعل؛ تم لهم ما سعوا إليه؛ في موقعة **القيروان**؛ حيث انسحب – في آخر لحظة – **بنو عبد الواد** من صفوف **المرينيين**، وانضموا لأعدائه؛ فحدثت الهزيمة الشنيعة في صفوف جيش **أبي الحسن**؛ الذي لم تقم له قائمة بعدها؛ حيث انتهى الأمر بهذا السلطان؛ إلى الانسحاب من **تونس** نفسها؛ هارباً عبر البحر[1]؛ أين وقعت به الكارثة العظمى؛ التي توفي فيها معظم أتباعه؛ بفعل تقلبات الأمواج؛ فنجا بنفسه؛ وحيداً طريداً إلى دياره؛ وهناك؛ وجد مفاجأة أخرى تمثلت في وثوب ولده **أبي عنان** على سدة الحكم؛ فلجأ **أبو الحسن** إلى جنوب **المغرب**؛ هرباً من شر أعدائه، ومن غدر ولده.

– وخطأه الثالث؛ يتمثل في منح ابنه **أبي عنان فارس** صلاحيات واسعة، وتمكينة من مقدرات

---

[1] اضطر أبو الحسن لركوب البحر؛ بعد علمه بخروج العمالات الغربية؛ عليه. ويشرح ابن خلدون هذا الأمر بقوله: ((وكان أهل قسنطينة وبجاية قد برموا من الدولة، واستثقلوا وطأة الإيالة؛ **لما اعتادوا من الملكة الرقيقة؛** فاشرأبّوا **إلى الثورة عندما بلغهم خبر النكبة... فلما وصل خبر النكبة [إلى قسنطينة]؛** اشرأبّ **الغوغاء - من أهل البلد - إلى الثورة، وتحلّبت شفاههم**

المغـرب الأوسـط الاقتصادية؛ وتنصيبه والياً مفوضاً في **تلمسـان**. الأمر الذي منحه ثروة مادية فاعلة، وقوة بشرية ضاربة؛ فشجعه ذلك على الاستبداد، واغتصاب السلطة؛ بل مطاردة أبيه السلطان من مكان إلى آخر، وقطع السبل عليه منعاً لعودته إلى عرشه[1].

ـ أما الخطأ الرابع؛ فيتمثل في التوسع بشكل مبالغ فيه؛ بحيث مدّ **أبـو الحسـن** حدود مملكته إلى الحدّ الذي أفقده التحكم والسيطرة عليها بكاملها[2]. ولما كانت قوة دولة **بـني مريـن** العددية والاقتصادية؛ تكفي لحماية ثغورها المعروفة؛ منذ نشأتها؛ فإنها بالمقابل عاجزة عن السيطرة على مجالات أوسع

---

[1] ((لما اتصل خبر النكبة على القيروان بالأمير أبي عنان ابن السلطان ـ وكان صاحب تلمسان والمغرب الأوسط ـ وتساقط إليه الفل من عسكر أبيه عراة زرافات ووحدانا؛ وأرجف الناس بمهلك السلطان بالقيروان؛ فتطاول الأمير أبو عنان للاستئثار بملك أبيه دون الأبناء)).

[2] خصص ابن خلدون فصلين في مقدمته الأول بعنوان: "فصل في أن كل دولة لها حصة من الممالك والأوطان لا تزيد عليها" والثاني: "فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة القائمين بها في القلة والكثرة"؛ شرح ضمنهما حجم الخلل الذي يطرأ على الدولة؛ حينما تتباعد ثغورها عن مركزها؛ عندئذ تأخذ قوتها في التلاشي؛ شيئاً فشيئاً، وبالتدريج؛ كلما ابتعدت عن حاضرة الدولة (مركزها)؛ ثم يقول: ((شأن الأشعة والأنوار؛ إذا انبعثت من المراكز. والدوائر المنفسحة على سطح الماء من النقر عليه)). المقدمة، ج: 2، ص: 643.

مـن ذلـك. وقـد علـل **ابـن خلـدون** هـذا بقولـه: **((والسبب في ذلـك؛ أن الملـك إنمـا يكـون بالعصبيـة؛ وأهـل العصبيـة هـم الحاميـة الذيـن ينزلـون بممالـك الدولـة وأقطارهـا؛ وينقسمـون عليهـا؛ فمـا كـان مـن الدولـة العامـة ــ قبيلُهـا وأهـلُ عصابتهـا ــ أكثـر؛ كانـت أقـوى، وأكثـر ممالـك وأوطانـاً؛ وكـان ملكهـا أوسـع لذلـك))**[1].

ولمـا وصلـت أخبـار نكبـة **أبي الحسـن** في **القيـروان** إلى **فـاس** ــ حيـث يتواجـد حفيـده **منصـور بـن أبي مالـك**؛ المكلـف بعمـل **فـاس والمغـرب الأقـصى** ــ تجهـز للأمـر؛ واستعـد للوثـوب عـلى العـرش. ومـن جهـة أخـرى؛ حضَّـر ولـده **أبـو عنـان** ــ الموجـود **بتلمسـان** ــ نفسـه للإنقضـاض عـلى **فـاس**، وإزاحـة أي منافـس يظهـر؛ بمـا فيهـم **منصـور بـن أبي مالـك**. وعليـه؛ فقـد

[1] ويضيف قائـلاً؛ **بعد أن يستشهد بما جرى لدول سبقت؛ كـ: الفاطميين وصنهاجة، والموحدين: ((ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة؛ لما كان عددهم أقل من المصامدة؛ قصر ملكهم عن ملك الموحدين؛ لقصور عددهم عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم. ثم اعتبر ـ بعد ذلك ـ حال الدولتين لهذا العهد لزناتة: بني مرين، وبني عبد الواد؛ لما كان عدد بني مرين ـ لأول ملكهم ـ أكثر من بني عبد الواد؛ كانت دولتهم أقوى منها، وأوسع نطاقاً؛ وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى. يقال إن عدد بني مرين ـ لأول ملكهم ـ كان ثلاثة آلاف؛ وإن بني عبد الواد كانوا ألفاً؛ إلاّ أن الدولة وكثرة التابع كثرت من أعدادهم)). المقدمة، ج: 2، ص: 645.**

فكر **أبو عنان** في الأمر ملياً؛ فأدرك استحالة السيطرة على عرش الدولة؛ دون الالتحاق **بفاس**؛ مركز الدولة وقلبها النابض. لذا قرّر العودة إليها؛ ليسبق غيره من الإخوة والأحفاد، وقطع الطريق أمام عودة أبيه. وقبل أن يخطو خطوته الأول؛ تأمل جيداً في من سيخلفه **بتلمسان**؛ فلم يجد أفضل من صنيعتهم وتابعهم القديم **عثمان بن يحيى بن جرار ابن يعلى بن تيدكسن بن طاعة الله**[1]؛ وهو من **بني عبد الواد**. لأنه محل ثقة من جهة، ومن جهة أخرى ينتمي **لبني عبد الواد**؛ فيسهل ــ بذلك ــ عليه القيام بأمر الولاية دون حرج أو بلبلة.

---

[1] لم يحظ بنو جرار ـ في أول الأمر ـ بالاحترام المطلوب؛ من قبل إخوانهم من بني زيان بن محمد بن زكدان. وظلوا على حالهم بعد قيام الدولة العبد الوادية. إذ كانوا يشعرون بالتهميش. وفي عهد أبي تاشفين الأول؛ اتهم شيخهم عثمان بن جرار هذا؛ لدى السلطان؛ بأنه يتطلع للرئاسة، ويتطاول في طموحه؛ فاعتقله أبو تاشفين؛ ولكنه فرّ من سجنه؛ والتحق ببني مرين؛ أيام السلطان أبي سعيد عثمان والد أبي الحسن. فألحقه بخدام دولته، وكلفه بقيادة ركب الحج. وعندما نهض أبو الحسن لفتح إفريقية؛ رافقه في حملته. ولكنه طلب من السلطان العودة؛ حينما كان بالقيروان؛ فأذن له؛ فعاد إلى تلمسان؛ حيث اتصل بأبي عنان؛ فأوهمه بقدراته التنجيمية، وعِلْمِه بالحدثان. كما أخبره بنكبة أبيه قبل أن يسمع بها. وهو الذي حثه على الوثوب على العرش قبل أن يسبقه غيره من الأسرة المالكة؛ كما هون عليه شأن أبيه؛ وأوهمه بنهايته، بل بموته. لهذا؛ فقد استراح له أبو عنان؛ وأودعه ثقته؛ ونصبه والياً على تلمسان من قبله. غير أنه استبد بالأمر بمجرد وصول أبي عنان إلى فاس. فنهض بالدولة العبد الوادية من جديد؛ من خلال فرع آخر؛ غير فرع بني زيان.

وبوصوله إلى القرار هذا؛ بادر إلى تنصيب **ابن جرار** والياً — من قبله — على **تلمسان**؛ ثم أسكنه في القصر الملكي القديم؛ ونهض بعدها إلى **فاس**؛ حاضرة **بني مرين**، ومقرّ ملكهم. فتوهم — بهذا التصرف — أنه سيرضي **بني عبد الواد** من جهة، ومن جهة أخرى يضمن بقاء **تلمسان والمغرب الأوسط** ضمن أملاك **بني مرين**. والأهم من كل ذلك؛ هو اعتقاده بأنه سيقطع طريق العودة على أبيه **أبي الحسن** بواسطته. لأنه علم بنجاته من نكبته، وثبت له حرصه على العودة إلى مقر عرشه. ولكن **عثمان بن جرار** خيب ظنّ **أبي عنان**؛ إذ نقض اتفاقه معه بمجرد خروج هذا الأخير من **تلمسان** في سنة 749هـ/1348م. تم ذلك؛ حين استبد بالحكم، وجاهر بالدعوة لنفسه؛ وأعاد **لبني عبد الواد** دولتهم؛ ولكن في فرع أخر غير **بني زيان**[1]؛ إلاّ أنه لم ينعم طويلاً بذلك؛ إذ انقض عليه صقور **بني زيان**؛ بعد أشهر قلائل؛ قادمين

---

[1] قال ابن خلدون في هذا: ((ولما فصل [أبو عنان]؛ دعا عثمان لنفسه، وانتزى على كرسيّه، واتخذ الآلة، وأعاد من ملك بني عبد الواد رسما لم يكن لآل جرار؛ واستبد أشهراً قلائل؛ إلى أن خلص إليه من آل زيان؛ من ولد عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن؛ من طمس معالمه، وخسف به وبداره، وأعاد أمر بني عبد الواد إلى نصابه)). العبر، مج: 7، ص: 238.

من **إفريقية** مع أنصارهم وحلفائهم؛ بعد مشاركتهم في نكبة **أبي الحسن** وهزيمته.

حدث ذلك؛ بعدما هُزِم السلطان **المريني أبي الحسن** في **القيروان**؛ جراء تحالف **بني زيان** مع **أعراب إفريقية** ضدّه، وشاركوهم في كسر شوكته. عندها؛ ــ وبعد هزيمة السلطان المذكور ــ اتجهوا إلى **تونس**؛ حيث التأم جمع **بني عبد الواد**، ثم انضم إليهم من ناصرهم من **الأعراب**، وخرجوا إلى الضاحية؛ أين اتفقوا على تقديم الأمير **عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن**، ومبايعته ملكاً على **بني عبد الواد.**[1] وإثر عقد البيعة؛ انطلقوا نحو **تلمسان**؛ لاستعادة حاضرة ملكهم. ولما سمع سكان المدينة بتقدم **بني زيان** وأنصارهم نحوهم؛ ثاروا **بعثمان بن جرار**؛ الذي استأمن السلطان **الزياني عثمان بن عبد الرحمن**. فقبل توبته عن

---

[1] ((وخلص الملأ منهم نجياً في شأن أمرهم؛ ومن يقدمون عليهم؛ فأصفقوا ـ بعد الشورى ـ على عثمان بن عبد الرحمن، واجتمعوا عليه؛ لعهده بهم يومئذ؛ وقد خرجوا به إلى الصحراء، وأجلسوه ـ بباب مصلى العيد من تونس ـ على درقة. ثم ازدحموا عليه ـ بحيث توارى شخصه عن الناس ـ يسلمون عليه بالإمارة، ويعطونه الصفقة على الطاعة والبيعة؛ حتى استكملوا جميعاً؛ ثم انطلقوا به إلى رجالهم)). العبر، مج: 7، ص ص: 239 ـ 240.

مضــض؛ ثــم اعتقلـــه عنـــد دخولـــه **تلمســـان**، والجلـــوس علـــى عـــرش أجـــداده في آخـــر جمـــادى الآخـــرة مـــن سنـــة 749هـــ/1348م. وزج **بعثمـــان بـــن جـــرار** في المطبـــق إلى أن مـــات في شهـــر رمضـــان مـــن السنـــة نفسهـــا.

بـــادر السلطـــان **أبـــو سعيـــد عثمـــان** ــ مـــن فـــوره ــ بتنظيـــم شئـــون الدولـــة؛: ((**فاقتعـــد الكـــرسي، وأصـــدر أوامـــره، واستـــوزر واستكتـــب، وعقـــد لأخيـــه أبي ثابـــت الزعيـــم علـــى مـــا وراء بابـــه؛ مـــن شئـــون ملكهمـــا، وعلـــى القبيـــل والحـــروب، واقتصـــر هـــو علـــى ألقـــاب الملـــك وأسمائـــه؛ ولـــزم الدعـــة**))[1]. وواضـــح هنـــا؛ أن **أبـــا عنـــان** غـــضّ الطَّـــرف عـــن كـــل مـــا جَـــرَى في **تلمســـان**؛ لأنـــه انشغـــل بمـــا هـــو أهـــم؛ مـــن ذلـــك؛ مثـــل:

ــ مغالبـــة المنافسيـــن مـــن الأبنـــاء والأحفـــاد علـــى عـــرش **بـــني مريـــن**.

ــ المحافظـــة علـــى بقـــاء الدولـــة **المرينيـــة** وحمايتهـــا مـــن الأخطـــار الـــتي تترصدهـــا.

ــ الســـعي لمنـــع والـــده **أبـــا الحســـن** مـــن العـــودة إلى ســـدّة الحكـــم بـــأي ثمـــن كـــان.

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 243 ـ244.**

وعليه؛ فقد اضطر **أبو عنان** لعقد اتفاق مع السلطان **الزياني عثمان بن عبد الرحمن**؛ بغرض منع والده **أبي الحسن** من العودة إلى **فاس**. وبالفعل؛ فقد بعث إليه مدداً من **فاس**؛ لمواجهة أبيه ومن معه. فوُضِعوا تحت قيادة **أبي ثابت الزعيم**؛ صاحب الجيش والحرب بدولة **بني زيان** المنبعثة من جديد. فاشتبك هذا الجيش مع جيش **أبي الحسن**؛ الذي ضمّ بعض أحياء من: **الثعالبة، ومليكش، وسويد،** وفئة من **توجين**؛ بالإضافة إلى **الناصر بن أبي الحسن** الذي التحق بأبيه مع جَمْعٍ من أحياء **زناتة والأعراب.** وانتهت المعركة بهزيمة **أبي الحسن** ومن معه، وقتل **ابنه الناصر** إثر جراح ألمت به. وقبض على بناته؛ حيث أرسلهن **أبو ثابت الزعيم** إلى **فاس**. أما السلطان **أبو الحسن**؛ فقد هرب به **ونزمار** شيخ **سويد** إلى **سجلماسة**؛ أين استؤنفت مآسيه، وفراره من مكان إلى آخر حتى استقر به الحال عند شيخ **هنتاتة عبد العزيز بن محمد بن علي**؛ حيث بقي في ذلك الجبل إلى أن حلّ أجله بعد مرض عضال.

وبموت السلطان **أبي الحسن**؛ فرغت الساحة من جميع المنافسين **أمام أبي عنان**. ولم يعد عرضة للأخطار وتقلبات الأيام، وأحس برسوخ قدميه على الأرض التي يقف عليها، وشعر بقوة فاعلة تحمى ظهره، وأعجب بحجم الجيوش التي تشد أزره. حينئذ؛ أدرك أنه لم يعد في حاجة إلى **بني زيان** في **تلمسان**، ولا لغيرهم ممن وقفوا حاجزاً لمنع والده من العودة إلى **فاس**. عندئذ شمّر على ساعديه، وهيأ نفسه للانقضاض عليهم في عقر دارهم[1]. **((وعادت حليمة إلى عادتها القديمة))**. إذ لم تُثْنِ الأحداثُ التي جرت **لأبي الحسن** ـ كانهيار سلطانة، وتلاشي أحلامه ـ ولده **أبا عنان**؛ بل تحركت في داخله الجرثومة المتوارثة في أسرته؛ والتي تدفعهم دوماً للمزيد من التوسع على حساب جيرانهم. وعلى هذا؛ فبمجرد وصول الخبر بوفاة والده؛ والاطمئنان بدفنه بنفسه؛ بادر إلى الزّحف شرقاً؛ نحو **تلمسان أولاً**؛ ثم الانطلاق في اتجاه **إفريقية**.

---

[1] ((وأجمع أمره على غزو بني عبد الواد، لارتجاع ما بأيديهم من الملك الذي سموا لاستخلاصه. ولما كان فاتح سنة ثلاث وخمسين [وسبعمائة]**؛ نادى بالعطاء، وأزاح العلل، وعسكر بساحة البلد الجديد، واعترض العسكر، وارتحل يريد تلمسان)). العبر، مج: 7، ص: 598.**

لم يجد صعوبة كبيرة؛ في إسقاط دولة **بني زيان**، وقتل ملكها **أبي سعيد**، وأخيه **أبي ثابت**، ثم تشريد **بني عبد الواد** غرباً وشرقاً سنة 753هـ/1352م. ثم انتقل ـ بعدها ـ إلى **بجاية** التي فتحها صلحاً في السنة المذكورة أيضاً: **((وفرغ السلطان من شأن المغرب الأوسط؛ وبث العمال في نواحيه، وثقف أطرافه، وسما إلى ملك إفريقية))**[1]. وهكذا؛ فقد استمر في تقدمه شرقاً؛ فدخل بجاية ثم قسنطينة، ودخلت جيوشه بسكرة وطولقة. واستطاع جيشه من الدخول إلى تونس سنة 758هـ/1356م. وابتهج بفتوحاته. ولكن حدث له ما وقع لأبيه أبي الحسن؛ إذ عجز عن المحافظة على مكتسباته؛ وانتهت حملته بخسارة تشبه خسارة والده ـ من قبل ـ فتبخرت إنجازاته كلها في لحظة واحدة؛ ولم يبق بين يديه سوى دولته الأصلية بحدودها المعروفة. حدث ذلك؛ حينما تعرض لمصالح أعراب رياح: **((وقبض أيدي العرب من رياح عن الإتاوة التي يسمونها الخفارة؛ فارتابوا؛ فطالبهم بالرهن؛ فأجمعوا على الخلاف))**[2].

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 601.**
[2] **العبر، مج: 7، ص: 618.**

ثم أن الجيش **المريني**؛ ثقلت عليه المهمة، وتململ أفراده؛ وكرهوا مواصلة الزّحف والقتال في مناطق بعيدة عن ديارهم **بالمغرب الأقصى**؛ واعترضوا على نيّة السلطان **أبي عنان** التوجه إلى **تونس**. بل تآمروا بينهم على قتله. ثم وضعوه أمام الأمر الواقع؛ إذ شرعوا في الانسحاب فئة بعد أخرى؛ تاركين الساحة، وعائدين إلى **المغرب**؛ دون إذن السلطان؛ إذ اكتفوا بموافقة الوزير **فارس بن ميمون** وبعض مشائخهم[1]. وبذلك؛ وضعوا **أبا عنان** في موقف حرج؛ حين وجد ممن كان حوله يتناقصون شيئاً فشيئاً؛ فاضطر ــ عندئذ ــ للعودة من حيث أتى؛ إذ دخل **فاس** خائباً متحسراً سنة 758هـ؛ حيث انتقم من المتآمرين شرّ انتقام.[2]

---

[1] ((وضاق ذرع العساكر، بشأن النفقات والإبعاد في المذاهب، وارتكاب الخطر في دخول إفريقية؛ فتمشت رجالاتهم في الانفضاض عن السلطان؛ وداخلوا الوزير فارس بن ميمون؛ فوافقهم عليه؛ وأذن المشيخة والنقباء لمن تحت أيديهم من القبائل باللحاق بالمغرب؛ حتى تفردوا؛ ونمي إلى السلطان؛ أنهم تؤامروا في قتله)). العبر، مج: 7، ص: 619.

[2] لم يغفر أبو عنان ـ عند عودته ـ للذين أجهضوا خطته، وبددوا حلمه؛ من خاصته وأتباعه؛ إذ قبض على المتآمرين ـ وعلى رأسهم وزيره فارس بن ميمون ـ الذي قتله قصعاً بالرماح؛ ثم تحول إلى مشائخ القبائل المتورطين؛ فقتل بعضهم، وسجن بعضهم الآخر. أنظر خبرهم في العبر، مج: 7، ص: 619.

والظاهـر أنـه لـم يرتـدع؛ بمـا جـرى لـه ولأبيـه، ولـم يتراجـع عـن نزعتـه التوسعيـة[1]؛ حيـث أسنـد ــ هـذه المـرة ــ مهمـة فتـح **إفريقيـة** إلى وزيـره **سليمـان ابـن داود**؛ فخـرج إليهـا مـن **فـاس** بجيـش عرمـرم سنـة 759هــ/1357م؛ فمـرّ **بتلمسـان**؛ أيـن ضبـط أمـوره، ثـم انطلـق إلى **قسنطينـة**؛ أيـن أعـاد تمهيـد ضواحيهـا، واطمـأن عـلى ولاء **يوسـف بـن مـزني** أميـر **بسكـرة والـزاب**. ثـم استخلـص مـا أمكنـه مـن جبايـة ومغـارم؛ وعـاد أدراجـه إلى **تلمسـان**؛ الـتي التـقى بهـا السلطـان **أبي عنـان.**

ولـم تنتـه معانـاة السلطـان المريـني عنـد هـذا الحـد؛ بـل جـرى لدولتـه ــ في **تونـس** ــ المشهـد نفسـه الـذي وقـع بعـد هزيمـة **أبي الحسـن** في **القيـروان**. حيـث وقفـت قبيلـة **بـني عامـر**، وبعـض الأحيـاء مـن **الـدواودة** خلـف **أبي حمـو مـوسى بـن يوسـف بـن عبـد الرحمـن ابـن يحـيى بـن يغمراسـن**؛ وطلبـوا مـن السلطـان **الحفـصي** مساعدتـه لاسترجـاع ملـك أجـداده؛ فلـبى السلطـان طلبهـم؛ وجهّـزه بمـا أمكـن؛ مـن آلـة وفسطـاط، وعتـاد، ومركـوب؛ ثـم انطلقـوا نحـو **تلمسـان**؛

---

[1] ((ولما رجع السلطان [أبو عنان] من إفريقية؛ ولم يستتم فتحها؛ بقي في نفسه منها شيء)). العبر، مج: 7، ص: 620.

في رحلة شاقة؛ عبر المسلك الجنوبي؛ فاصطدموا بحيٍّ من **سويد بن زغبة** ـ أولياء **المرينيين** ـ جنوب **تلمسان**؛ فاشتبكوا معهم؛ وهزموهم، وقتلوا **عثمان** ابن شيخهم **ونزمار**. وفي هذه الأثناء وصلهم خبر وفاة **أبي عنان**.

والغريب هنا؛ أن **أبا عنان**؛ سقط في معظم أخطاء والده **أبي الحسن**؛ من: اطمئنان **لأعراب إفريقية** واستصغار ردود أفعالهم، وسوء تقديره لمحدودية دولته في التوسع بعيداً، والاستهانة بفاعلية **ببني عبد الواد** وشدة عنادهم. لهذا؛ فقد زجّت به أوهامه في أتون الحرب؛ التي جرّت عليه ـ في الأخير ـ هزائم وانكسارات؛ خسر فيها كل ما كسبه؛ ومات بكمده في سنة 760هـ/1358م. السنة التي عاد فيها **بنو زيان** إلى **تلمسان**؛ حاضرتهم ومستقر ملكهم.

ولما سمع **أبو حمو** ومن معه من **بني عامر** بوفاة **أبي عنان**؛ هزّهم الفرح، وازداد تصميمهم على مواصلة زحفهم، وتضاعف أملهم في الدخول إلى **تلمسان** فاتحين منتصرين. وعليه فقد واصلوا تقدمهم نحو المدينة المذكورة؛ بحيث تمكنوا من الهيمنة

على الضاحية المحيطة **بتلمسان**. عندها؛ سارع الوزير **المريني الحسن بن عمر** بإرسال مفرزة من الجيش لحماية **تلمسان**؛ أسند قيادتها إلى **سعيد بن موسى العجيسي**؛ الذي دخل المدينة؛ أين يتواجد **محمد المهدي** ابن السلطان **أبي عنان** الهالك في تلك السنة. ولم يستطع **المرينيون** مقاومة **أبي حمو** ومن معه؛ إذ اقتحموا عليهم **تلمسان** لثمان خلون من ربيع الثاني من سنة 760هـ/1358م؛ فلجأ القائد **المريني سعيد بن موسى العجيسي** – مع الأمير **محمد المهدي بن أبي عنان** – إلى مضارب شيخ **بني عامر صغير بن عامر**؛ فأجارهما؛ وأرسل من يؤمنهما في طريق عودتهما إلى **المغرب**. وهنا؛ عادت – من جديد – دولة **بني عبد الود** في ثوب قشيب؛ خلال دورها الثالث؛ بإمرة السلطان **أبي حمو الثاني موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن**.

ولكن الوزير الوصي **الحسن بن عمر**؛ لم يهضم هزيمة **المرينيين**، وإجلائهم من **تلمسان**؛ لذا فقد أمر بتجهيز جيش لاستعادة المدينة؛ أسند قيادته إلى الوزير **المريني مسعود رحو بن ماساي**؛ الذي

استطاع الدخول إلى المدينة بسهولة؛ نظراً لخروج **أبي حمو** ـ مع أنصاره ـ منها؛ إذ اعتمد خطة؛ ناور أعداءه بها؛ بغرض إلحاق الضّرر بهم. وبالفعل؛ نجح في ذلك؛ حين ركز هجماته ـ بعد انساحابه من **تلمسان** ـ على تخوم **المغرب**؛ وتمركز مع أنصاره من زغبة والمعقل. فانجذب إليه **المرينيون**؛ طلباً لكسر شوكته، والقضاء على أتباعه من الأعراب. والتقى الجمعان بالقرب من وجدة؛ فانقشع غبار المعركة عن هزيمة **المرينيين**؛ فاستبيح معسكرهم واستلحم مقاتلوهم: ((**واستلبت مشيختهم، وأرجلوا عن خيلهم؛ ودخلوا إلى وجدة عراة**))[1]. ولما وصل خبر هذه الموقعة الخاسرة إلى **بني مرين بتلمسان**؛ قرَّروا الخروج منها، والعودة إلى فاس. عندها؛ رجع **أبو حمو** إلى حاضرة ملكه؛ أين وفد إليه **عبد الله بن مسلم الزردالي**؛ من بني عبد الواد. ترك خدمة المرينيين في عمل درعة، وانضم إلى ابن عمه **أبي حمو**.

---

[1] **العبر، مج: 7، ص ص: 629 - 630.**

يبدو أن انضمان **عبد الله بن مسلم الزردالي**[1] إلى **أبي حمو**؛ آخذاً معه أموال الجباية التي استخلصها لحساب الدولة **المرينية**؛ اتخذه السلطان **المريني أبو سالم** ذريعة جاهزة لغزو **تلمسان**[2]. كما أشار يحيى بن خلدون وصاحب زهر البستان إلى قضية ثانية؛ جعلها **أبو سالم** ذريعة أخرى لغزو **تلمسان**؛ وهي قضية الأسرى **المرينيين** لدى الدولة **الزيانية**؛ إذ طلب من **أبي حمو** تسريحهم؛ فاشترط هذا الأخير إطلاق سراح **بني عبد الواد**

---

[1] يعتبر عبد الله بن مسلم الزردالي؛ من مشاهير أبطال بني عبد الواد. كان في خدمة السلطان أبي تاشفين قبل سقوط دولته وهلاكه. ونظراً لكفاءته وذيوع ذكره؛ استخدمه أبو الحسن؛ فسدّ به باباً أمنياً بجهات درعة؛ ثم ولاه أبو عنان عمالة درعة؛ فأخلص لهذا الأخير، وكبح منافسيه؛ من الأسرة المالكة؛ من بينهم أخوه أبو الفضل؛ الذي قبض عليه وسلمه إلى أخيه أبي عنان؛ فقتله. ولما عادت الدولة العبد الوادية في تلمسان، وتولى أبو سالم ـ منافس أبي عنان ورفيق أبي الفضل في المنفى ـ عرش بني مرين؛ قرّر عبد الله بن مسلم الالتحاق بأبي حمو موسى؛ بعداً عن شرّ أبي سالم من جهة، وعودة إلى أصله وبني عمّه من جهة أخرى: ((وداخل أولاد حسين ـ أمراء المعقل ـ في النجاة به إلى تلمسان؛ فأجابوه. ولحق بالسلطان أبي حمو في ثروة من المال، وعصبة من العشير، وأولياء العرب؛ فسرّ بمقدمه، وقلده ـ لحينه ـ وزارته، وشدّ به أواخي سلطانه، وفوض إليه تدبير ملكه؛ فاستقام أمره، وجمع القلوب على طاعته؛ وجأجأ بالمعقل من مواطنهم الغربية؛ فأقبلوا إليه، وعكفوا على خدمته. وأقطعهم بمواطن تلمسان، وآخى بينهم وبين زغبة؛ فعلا كعبه، واستفحل أمره، واستقامت رياسته)). العبر، مج: 7، ص ص: 259 - 260.

[2] العبر، مج: 7، ص ص: 260 - 645 - 646.

بفاس؛ مقابل ما لديه من أسرى **بني مرين**[1]. فلم يقبل بشرطه؛ وجهز جيشه لغزو **تلمسان**؛ بغرض استعادتها لمملكته. وعلى هذا؛ بادر من فوره سنة 761هـ/1359م إلى التقدم نحوها يجرّ خلفه قبائل **المغرب الأقصى**.

ولما سمع **أبو حمو** بخروجه قاصداً حربه؛ وأدرك أن قوته لا تعادل قوة **المرينيين**؛ قرّر اختيار الطريقة المثلى لمحاربته، واختيار الميدان الذي يحاربه فيه. لذا فقد بادر إلى الخروج من **تلمسان** مسطحباً معه كل قواته؛ من: قبيله، ومن أنصاره أعراب **المعقل وزغبة**؛ ثم اتجه نحو الصحراء؛ ولكنه تحول ــ بمناورة ــ نحو تخوم **المغرب** ــ بعد دخول **أبي سالم** إلى **تلمسان** ــ فاكتسح البلاد، واستلحم العباد، ونهب من المال كل طارف وتلاد، وانتسف الزرع والحصاد[2]. فلمّا وصل خبر المفسدة **لأبي سالم**، خاف عاقبة الأمر؛ فقرّر العودة لبلاده؛ فخرج من تلمسان بعد البقاء بها خمسة أيام لا غير؛ ولكنه أحدث أمراً ــ نكاية في **أبي حمو** ــ

---

[1] أنظر بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 147.

[2] ((ولما دخل السلطان أبو سالم تلمسان؛ خلفوهم إلى المغرب؛ فنازلوا وطاط، وبلاد ملوية، وكرسيف؛ وحطموا زروعها، وانتسفوا أقواتها، وخربوا عمرانها)). العبر، مج: 7، ص ص: 260 - 261.

وذلك؛ أنه استثمر وجود الأمير **أبي زيان محمد بن عثمان ابن السلطان الزياني أبي تاشفين** المدعو **بالقبي** في ركابه؛ فنصّبه من قبله على **تلمسان**؛ وخرج عائداً إلى **المغرب**؛ غير أن هذا الأمير **الزياني**؛ هرب من المدينة؛ عند سماعه بتقدم **أبي حمو** إليها؛ فلجأ إلى أحياء **توجين**، ومن وُجد من **بني مرين** شرق **تلمسان**؛ ثم انتهى أمره بالعودة إلى **فاس**. وهكذا؛ عاد **أبو حمو الثاني** إلى حاضرة ملكه ـ بعد أربعين يوماً من خروجه منها[1] ـ محفوفاً بهالة من البهجة بالانتصار؛ فاستثمرها في شحذ العزائم، وحفز الهمم لمواصلة قطف ثمار النّصر؛ فخرج نحو الشرق؛ يلاحق الأمير **أبا زيان القبي** أينما حلّ؛ فنازل **أبو حمو** أولاً **جبل وانشريس** معقل **بني توجين**؛ أين يتواجد ذلك الأمير. ولمّا هرب هذا الأخير إلى **المغرب الأقصى**؛ واصل **أبو حمو** تمهيد الجهات الشرقية؛ حيث استعاد: **مليانة، والبطحاء، ولمدية، والجزائر.**

وعندما تأكد **أبو سالم** من عدم جدوى حركة الأمير **الزياني محمد القبي**؛ وتيقن من تغلب **أبي**

---

[1] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 181.

حمو على الأعمال الشرقية، ونجاحه في طرد **المرينيين** من معظم أعمالها؛ أمر بتثقيف **أبي زيان القبي** في **تاوريرت**؛ وأوعز إلى **ونزمار** شيخ **سويد**؛ بأن يتوسط في الصلح بينه وبين **أبي حمو**. وتم هذا في سنة 762هـ/1360م؛ حين ترأس وفد المصالحة الأمير أبو تشفين بن أبي حمو؛ فعقد مع أبي سالم صلحاً؛ هدّأ من أوار الخصومة بين الطرفين؛ ووضعت أوزار الحرب؛ لبعض الوقت[1]. وفي هذه السنة بالذات؛ هلك السلطان **المريني** مقتولاً؛ جراء انتفاضة أحدثها وزيره **عمر بن عبد الله**؛ الذي استبد بالدولة، ونصب أحد أبناء **أبي الحسن** المدعو **تاشفين**؛ ثم تلاه بآخرين. ويبدو أن **المرينيين**؛ لم يستوعبوا ما جرى لهم في **تلمسان**؛ ولم يثنهم فشل **أبي زيان القبي** في الحفاظ على المدينة، والتصدي **لأبي حمو**؛ لذا؛ فقد استجابوا لنصيحة شيخ **سويد**؛ **ونزمار بن عريف**؛ بخصوص تسريح ذلك الأمير مرة ثانية وتمكينه من استعادة ملكه في **تلمسان**. خاصة وأن مستجدات ظهرت في الساحة؛ إذ نشب خلاف بين السلطان **أبي حمو**، وحليفه **أحمد بن**

---

[1] بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، ج: 2، ص: 196. العبر، مج: 7، ص: 264.

رحّو؛ شيخ **أولاد حسين (من المعقل)**. فكانت فرصة اغتنمها الوزير **المريني عمر بن عبد الله**؛ فعمل بنصيحة شيخ **سويد**؛ وأرسل من جديد ـ سنة 765هـ/1363م ـ الأمير **أبا زيان محمد القبي** حفيد **أبي تاشفين.** فالتحق ببعض أحياء **المعقل** في نواحي **ملوية**؛ فناصروه، وشدّوا أزره؛ ربما بإيعاز من **المرينيين**. كما حامت الشكوك حول شيخ **بني عامر**؛ **خالد بن عامر**؛ في تورطه بمداخلتهم؛ فتنبه لذلك **أبو حمو**؛ فقبض عليه، وأودعه المطبق. ثم بعث مفرزة من المقاتلين؛ بقيادة وزيره **عبد الله ابن مسلم** إلى الجهة التي يجتمع فيها أعداؤه؛ فلحق بهم واستلحم رجالهم، وشتت شملهم قبل أن يصلوا إلى **تلمسان**. بل طاردهم عند انساحبهم، ومسح الأرض خلفهم في فرارهم؛ حتى أوصلهم إلى **المسيلة** شرقاً. ولم يثن الوزير **عبد الله بن مسلم** عن مطارتهم سوى مرضه وإصابته بوباء الطاعون؛ الذي عاود فظهر في هذه السنة (765هـ)؛ فتولى عندئذ ولده بإعادته إلى تلمسان؛ ولكنه توفي أثناء الطريق؛ فواصلوا سيرهم إلى تلمسان؛ أين دفنوه بحضور السلطان **أبي حمو**.

وكان حجم خسارة **أبي حمو** مهولاً جراء مهلك **عبد الله بن مسلم**؛ الذي تكفل بمهمة الحرب؛ فأراحه، وعزّز أمن الدولة. وقد تجلت الحاجة إليه بعد موته مباشرة؛ حيث مُنِيَ **أبو حمو** بهزائم عديدة[1]؛ لم يشهدها في وجود وزيره المرحوم. كان **أبو سالم** ـ قبل وفاته، وإثر فشل **أبي زيان القبي** في التّصدي **لأبي حمو** ـ كان قد استعان أيضاً بأمير آخر من **بني زيان**؛ ذلك الأمير الآخر؛ هو **أبو زيان محمد ابن السلطان أبي سعيد عثمان** (عمّ **أبي حمو**) **ابن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن.** جهزه **أبو سالم** بالآلة، وما يلزمه لانتزاع الملك من ابن عمه؛ فخرج نحو **تلمسان**؛ ولكنه توقف في

[1] من بينها الهزيمة التي لحقت به بعد دفن عبد الله بن مسلم: ((وخرج السلطان أبو حمو لمدافعة عدوه ـ وفتّ مهلك عبد الله في عضده ـ ولما نتهى إلى البطحاء، وعسكر بها؛ ناجزته جموع السلطان أبي زيان [القبي] الحرب، وأطلت راياته على المعسكر؛ فداخلهم العرب؛ وانفضوا، وأعجلهم الأمر عن أفنيتهم، وأزودتهم؛ فتركوها وانفضوا؛ وتسلل أبو حمو يبغي النجاة إلى تلمسان... وارتحل أبو زيان والعرب في اتباعه؛ إلى أن نازلوا بتلمسان أياماً. وحدثت المنافسة بين المعقل وزغبة؛ وأسف زغبة استبداد المعقل عليهم، وانفراد أولاد حسين برأي السلطان دونهم؛ فاغتنمها أبو حمو؛ وأطلق أميرهم خالد بن عامر من محبسه؛ وأخذ عليه المواثق من الله؛ ليخذلن الناس عنه ما استطاع، وليرجعن بقومه عن طاعة أبي زيان [القبي]، وليفرقن جموعه. فوفى له بذلك، ونفس المنخنق. وتفرقت أحزابهم، ورجع أبو زيان إلى مكانه من إيالة بني مرين)). العبر، مج: 7، ص ص: 265 - 266.

تـــازي؛ حينمـــا أدركـــه الخبـــر بمهلـــك السلطـــان **أبي سالـــم**. وبـــقي **أبـــو زيـــان** عـــلى حالـــه؛ في خضـــم الفتنـــة الـــتي اشتعلـــت في **فـــاس** بيـــن المتحكميـــن في البـــلاط، والطامعيـــن في الاستبـــداد والانفـــراد بالدولـــة. وبالمقابـــل؛ اتضـــح أن **أبـــا حمـــو** حـــرّض ــ هـــو الآخـــر ــ أحـــد الأمـــراء المرينييـــن؛ المنافسيـــن لأبي سالـــم؛ اســـم ذلـــك الأميـــر هـــو **عبـــد الحليـــم بـــن أبي عـــلي بـــن أبي الحســـن**. جهـــزه **أبـــو حمـــو**، ومهّـــد لـــه سبـــل الزّحـــف نحـــو **فـــاس** لامتلاكهـــا. وبالمقابـــل؛ طلـــب منـــه كبـــح ابـــن عمـــه **أبي زيـــان**. فقبـــض عليـــه عندمـــا دخـــل **تـــازي** وألزمـــه الاعتقـــال؛ ثـــم نقلـــه معـــه إلى **سجلماســـة**. ولكنـــه استغـــل اعتـــراض **بـــني حسيـــن المعقلييـــن لعبـــد الحليـــم**؛ فاهتبـــل انشغـــال حراســـه بالموقعـــة؛ فامتـــطى حصانـــاً، حملـــه راكضـــاً إلى حلـــل **بـــني حسيـــن**؛ الذيـــن أجـــاروه؛ إلى أن اتصـــل **بخالـــد بـــن عامـــر** ــ شيـــخ بـــني عامـــر ــ الـــذي ســـاءت علاقتـــه بالسلطـــان **أبي حمـــو**. فوافـــق عـــلى نصرتـــه، والوقـــوف معـــه ضـــد السلطـــان. غيـــر أنهـــم فوجئـــوا بمفـــرزة جرَّدهـــا **أبـــو حمـــو** لصدهـــم؛ فهزموهـــم، وشتتـــوا شملهـــم بعيـــداً عـــن **تلمســـان**. وبـــادر هـــذا السلطـــان إلى بـــذل بعـــض المـــال **لخالـــد بـــن عامـــر**؛ مقابـــل إقصـــاء **أبي زيـــان محمـــد**

إلى موطن **رياح**؛ ففعل؛ وأوصله إلى بلاد **الدواودة**؛ أين أقام بينهم.

المهم؛ أن الصراع استمرّ ـ سنوات وسنوات ـ بين السلطان أبي حمو وابن عمه أبي زيان؛ ونظراً لكون هذا المجال لا يسمح بالتوسع أكثر مما ذكر؛ فإن الحديث سيقتصر على نشاط المرينيين، وغزوهم **لتلمسان**. لهذا وجبت العودة إلى موت **أبي سالم**؛ دون أن يحقق حلمه في الحفاظ على حاضرة المغرب الأوسط. فبعد موت هذا السلطان المريني؛ تفجرت الخصومات والمؤامرات في البلاط المريني؛ وفي عمالات الدولة؛ فانشغلوا جميعهم بما يحدث في ديار المغرب الأقصى، وتناسوا بعض الشيء **تلمسان** وسلطانها؛ الأمر الذي مكّن هذا الأخير من التوسع شرقاً، وتمهيد تلك الديار، وإخضاع قبائل: **توجين**، **ومغراوة ومليكش وأعراب حصين** وغيرهم. كما تفرغ لحرب ابن عمه **أبي زيان** في خبر طويل.

ولما استقرّت الأحوال بالمغرب الأقصى؛ واستعادت رتبة السلطان سطوتها ـ في عهد السلطان **أبي فارس عبد العزيز بن أبي الحسن** ـ بحث هذا الأخير عن ذريعة؛ يرفعها في وجه **أبي حمو**؛ فلم يجد سوى قضية أحياء **المعقل** الذين انضموا لبني

عبد الواد باختيارهم. فطلب السلطان المريني عبد العزيز من أبي حمو التخلي عن تلك الأحياء، وإجبارهم على العودة للدولة المرينية[1]. وبهذا؛ ينجلي السلوك شبه الغريزي لدي سلاطين **بني مرين**. فهم ـ بكاملهم ـ يستعملون الأسلوب نفسه في التحرش بدولة **بني عبد الواد**؛ لتحقيق حلمهم في التوسع شرقاً. ولم يقتصر هذه المرة على فرد أو عدد من الأفراد؛ المطلوب طردهم من **تلمسان**؛ إذ تطور المطلب إلى طرد قبائل بكاملها.. يضاف إلى ذلك؛ نزوح بعض الأحياء من **سويد**؛ فارين من **أبي حمو**؛ فأضحت كل هذه القضايا؛ ذرائع في يد السلطان المريني لَوَّحَ بها، وضرب طبول الحرب من أجلها حسب زعمهم. في سنة 771هـ/1369م؛ نهض السلطان **أبو فارس عبد العزيز** بجيش يغطي الفضاء قاصداً فتح **تلمسان**. ولما سمع **أبو حمو** بأمره، واستطلع شأنه؛ أدرك ألاّ قبل له بقوة هذا

[1] ((وترددت الرسل بين أبي حمو وبين السلطان عبد العزيز. كان فيما اشترط عليه؛ التجافي عن قبول المعقل؛ عرب وطنه؛ لما فيه من الاستكثار بهم عليه. وأبى عليهم أبو حمو؛ منها لاستظهاره بهم على زغبة؛ من أهل وطنه وغيرهم. وكثرت التلاحي في ذلك؛ وأحفظ السلطان [عبد العزيز]، وهمّ بالنهوض إليهم سنة سبعين [وسبعمائة]؛ وأقصر لما أخذ بحجرته من خلاف عامر [بن محمد الهنتاتي])). العبر، مج: 7، ص ص: 681 - 682. أنظر أيضاً بغية الرواد، ج: 2، ص ص: 440. 443.

الجيش العرمرم[1]. لذا؛ فقد اختار الخروج من المدينة؛ ومطاولة **المرينيين** ومناوشتهم ـ كعادته ـ غير أن مطاردة الجيش **المريني** له؛ أفسد خطته؛ إذ فرضوا عليه التنقل من مكان إلى آخر هروباً واتقاء. ولما يئس من صمود أتباعه وثباتهم، وعلم بتحول حلفائه من الأعراب إلى صف **بني مرين**[2]؛ قرّر الإصحار في أعماق الصحراء؛ حيث استقر لبعض الوقت في **تيڤورارين**؛ إحدى قصور **توات**. فاعتكف في دار خصصها له أهل تلك البلاد: **((وعرفوا لمنصبه الملوكي قدره؛ وبايعوا له من عند آخرهم بالخلافة؛ ثم تشاحوا في إنزاله، وخيروه؛ فارتضى قصر أولاد آدم؛ من الشط الشمالي؛ فأفرجوا له عنه، وأكرموا به مثواه))**[3].

وكعادة **الأعراب**؛ لقد استاءوا من استقواء السلطان **عبد العزيز** عليهم؛ بجيوشه الضاربة؛ حين

---

[1] وصفه يحيى بن خلدون بقوله: ((ونهض [أي عبد العزيز] ميمماً تلمسان بالجراد المنتشر، والبحر الطامي، أو السحاب المسخر بين السماء والأرض)). بغية الرواد،ج: 2، ص: 444.

[2] يقول عبد الرحمن بن خلدون؛ أن السلطان عبد العزيز كلفه بالاتصال بقبيلة رياح؛ لكي يحثهم على ترك مناصرة أبي حمو، والتحول إلى صف بني المرينيين، ومعاونتهم على مطاردة السلطان الزياني؛ فيقول: ((وجمعت رياحاً على طاعة السلطان، ونكّبت بهم عن صريخ أبي حمو؛ فنكّبو عنه)). العبر، مج: 7، ص: 684.

[3] بغية الرواد، ج: 2، ص: 472.

قرَّر سلبهم ما كان **أبو حمو** قد أقطعهم إياه من الأراضي. وها هو المشهد نفسه ــ الذي حدث لأبي الحسن وابنه أبي عنان ــ يتكرر. ولكنه وقع ــ هذه المرة ــ في ظروف مختلفة تماماً؛ لأن السلطان المريني لم يتوغل بعيداً؛ أكثر مما تتحمله دولته؛ إذ بقي محاطاً بحماته ورجاله الأوفياء.ومع ذلك؛ فقد تحرك بعض الأعراب، واتصلوا بأبي حمو في **تيڨورارين**[1]؛ الأمر الذي حفز السلطان المريني على متابعته في تلك الجهات النائية؛ فأخذ في تجهيز جيش من الأعراب الموالين له؛ للزحف نحو **تيڨورارين**؛ **إلاّ أن الموت** سبقه؛ وقضى على حلمه. وكان مهلك السلطان عبد العزيز المفاجئ ضربة قاصمة للمشروع التوسعي المريني؛ إذ سارع وزيره

---

[1] ((فسخطوا أحواله، ورجوا أن يكون لأبي حمو ظهور؛ ينالون به ما أملوه... وأزمع رحو بن منصور بن يعقوب ـ أمير الخراج من عبيد الله إحدى بطون المعقل ـ الخروج على السلطان. ولما خرج العرب إلى مشاتيهم؛ لحق بأبي حمو، وأحياء بني عامر، وكاثرهم، وقادهم إلى العيث في الأوطان؛ وأجلبوا على ممالك السلطان، ونازلوا وجدة في رجب من سنة اثنين وسبعين [وسبعمائة]. وصمد نحوهم العساكر من تلمسان؛ فأجفلوا، وعادوا إلى البطحاء واكتسحوا أوطانها. ونهض إليهم الوزير في العساكر؛ ففروا أمامه، وأتبع آثارهم إلى أن أصحروا... ولما كانت سنة ثلاث وسبعين [وسبعمائة]. واستمال السلطان رحو بن منصور عن أبي حمو؛ وبذل له مالاً، وأقطعه ما أحب من الضواحي؛ وفعل ذلك بسائرهم، وملأ صدورهم ترغيباً)). العبر، مج: 7، ص ص: 686 - 687.

أبو بكر بن غازي بن الكاس إلى حمل ولد السلطان ذي الخمس سنين؛ والدخول به إلى فاس؛ بغرض تفويت انتهاز الفرصة من قبل المتنافسين من أبناء الأسرة المالكة.

وانتهز أحد المقربين من السلطان **أبي حمو**؛ واسمة **عطية بن موسى** فرصة الارتباك الحاصل بين بني مرين؛ فوثب ثائراً على الوضع، واستولى على البلد، ورفع الدعاء لأبي حمو على المنابر. وبادرت جماعة من أولاد يغمور من المعقل، وأولاد شيقر بن عامر إلى الإسراع بالبشائر إلى أبي حمو. وكانت عودة السلطان الزياني ودخوله ــ من جديد ــ إلى حاضرته **تلمسان** في جمادى من سنة 774هـ/1372م. بينما انشغل المرينيون بقضاياهم الداخلية وصراعاتهم على سدة الحكم. ولما صعد إلى سدة الحكم في فاس أبو العباس أحمد بن أبي سالم؛ كانت له وقائع مع منافسيه في الأسرة المالكة، ومع بعض الأعراب من بني حسين من المعقل؛ فقام بتخريب ديارهم بسجلماسة؛ واقتحام مراكش على منافسيه. فاتحقوا بأبي حمو مستصرخين إياه؛ فلبى دعوتهم وبعث ابنه أبا تاشفين معهم، ولحق بهم فيما بعد. فشنوا حملات دمار وإفساد على بلاد

المغـــرب الأقـــصى؛ فوصلـــوا إلى نـــواحي مكناســـة؛ حيـــث عاشـــوا فيهـــا. ولمـــا علـــم أبـــو العبـــاس بذلـــك ـــ بينمـــا كـــان في مراكـــش ـــ قـــرّر الانتقـــام. وكانـــت هـــذه المـــرة الأولى الـــتي يحتـــل فيهـــا ملـــك مريـــني **تلمســـان**؛ بدافـــع مقنـــع، وحافـــز مشـــروع. لأن **أبـــا حمـــو** هنـــا؛ اعتـــدى عـــلى **بـــني مريـــن** بـــدون مســـوغ معقـــول؛ اللهـــم إلاّ مـــا قيـــل عـــن الحفـــاظ عـــلى عهـــوده مـــع أعـــراب **المعقـــل**. أولئـــك الأعـــراب الذيـــن سارعـــوا إلى الانضمـــام إلى حملـــة **أبي العبـــاس المريـــني** في زحفـــه عـــلى تلمســـان، وضـــد مـــن كـــان يعتقـــد أنـــه حليفهـــم.

المهـــم؛ أن السلطـــان المريـــني قـــد تمكـــن مـــن احتـــلال تلمســـان؛ بعـــد أن خـــرج منهـــا **أبـــو حمـــو** مـــع أنصـــاره؛ وذلـــك في سنـــة 786هـــ/1384م. ولكنـــه اضطـــر إلى الخـــروج منهـــا ـــ كعـــادة أسلافـــه؛ حينمـــا علـــم أن أحـــد منافسيـــه؛ بعثـــه ابـــن الأحمـــر ليستـــولي عـــلى عـــرش فـــاس. غيـــر أن السلطـــان المريـــني استجـــاب لتحريـــض شيـــخ بـــني سويـــد؛ الـــذي حثـــه عـــلى تدميـــر قصـــور تلمســـان الرائعـــة، نســـف بساتينهـــا اليانعـــة وأسوارهـــا الشاهقـــة؛ فتركهـــا قاعـــاً صفصفـــاً.[1] ولمـــا عـــاد **أبـــو حمـــو**

---

[1] **أنظر ذلك في الفصل المخصص لأبي حمو موسى الثاني.**

إلى تلمسان؛ فُجِعَ لما رآه من دمار وخراب. فانكبّ على إصلاح ما أمكن، وتقويم ما سقط وانهدم. وقد أحدث بوقوفه إلى جانب أولائك الأعراب شرخاً أفسد كل ما بني في السنين الطوال. ولم تنته حكاية المرينيين والزيانيين عند هذا الحدّ. وإنما خمدت جذوة خلافاتهما بسبب اشتعال نار الفتنة الأسرية في الجهتين: المرينية والزيانية. ويكمن الرجوع إلى ما جرى من أحداث في الأسرة الزيانية؛ ضمن الفصل المخصص **لأبي حمو موسى الثاني**.

أما الطرف المريني فقد تصارع الأبناء والأقارب؛ بتحريض من الوزارء المستبدين، وتشجيع سلطان **غرناطة ابن الأحمر**. ولم تتبعث القضية الزيانية في البلاط المريني من جديد؛ إلاّ بعد أن لجأ إليهم **أبو تاشفين بن أبي حمو**؛ جراء فشله في الاستيلاء على الحكم **بتلمسان**. وكان ـ آنئذ ـ على رأس الدولة المرينية؛ **أبو العباس أحمد**؛ الذي اضطر إلى ترك **تلمسان**؛ واللحاق **بفاس**؛ التي سقطت في يد ابن عمه **موسى بن أبي عنان**. فأضحى مصيره في معتقل ابن الأحمر بحمراء غرناطة. وتمخض الصراع الطويل في البلاط المريني عن عودة **أبي العباس** مرة أخرى إلى سدة الحكم بمساندة ابن

الأحمر أيضاً. وذلك في عام 789هـ/1387م. ولما لجأ إليه **أبو تاشفين** في عام 790هـ/1388م؛ تريث قليلاً ريثما يلهي **ابن الأحمر** الذي طلب إرسال الأمير الزياني إليه. وعندما تهيأ له ما يهدف إليه، وحينما هدأت مطالب سلطان غرناطة؛ بعثه لاسترداد تلمسان؛ وأرسل معه ابنه ووزيره في سنة 791هـ/1388م؛ في جيش مجهز أفضل تجهيز؛ فحالفهم الحظ؛ إذ كبا – في المعركة – **بأبي حمو** فرسه؛ فسقط؛ وكانت نهايته قصعاً بالرماح. ومنئذ أضحت تلمسان – أيام أبي تاشفين – مجرد ولاية تابعة للمرينيين؛ أقيم على رأسها هذا الأمير الذي أبى ولاية والده عليه؛ فسقط في ولاية أعداء أبيه: **((وخيم الوزير، وعساكر بني مرين بظاهر البلد؛ حتى دفع إليهم ما شارطهم عليه من المال. ثم قفلوا إلى المغرب. وأقام أبو تاشفين بتلمسان يقيم دعوة السلطان أبي العباس أحمد صاحب المغرب، ويخطب له على منابر تلمسان وأعمالها، ويبعث إليه بالضريبة كل سنة؛ كما اشترط على نفسه))**[1].

---

[1] **العبر، مج: 7، ص: 757.**

ومـــع هـــذا؛ لـــم يهنـــأ أبـــو تاشفيـــن طويـــلاً؛ بولايتـــه؛ إذ خـــرج عليـــه أخـــوه **أبـــو زيـــان محمـــد**؛ والي **الجزائـــر**؛ بعـــد أن وفـــدت عليـــه أعـــراب بـــني عامـــر سنـــة 792هـ/1389م؛ طالبيـــن منـــه الرحيـــل معهـــم لاستعـــادة ملـــك أبيـــه. والغريـــب في أمـــر أولئـــك الأعـــراب؛ أنهـــم بمجـــرد أن ســـرب إليهـــم أبـــو تاشفيـــن المـــال؛ انفضـــوا عـــن أبي زيـــان الـــذي جـــاء معهـــم وبدعـــوة منهـــم. ولمـــا فشـــل حصـــاره لتلمســـان لجـــأ أبـــو زيـــان إلى أحيـــاء المعقـــل؛ فوقفـــوا معـــه؛ وضربـــوا حصـــاراً عـــلى تلمســـان؛ فاستنجـــد أبـــو تاشفيـــن بسلطـــان المغـــرب؛ الـــذي أنجـــده بجيـــش؛ فـــك الحصـــار عنـــه. ولمـــا أدرك أبـــو زيـــان؛ استحالـــة التغلـــب عـــلى أخيـــه بواسطـــة الأعـــراب؛ اتجـــه إلى عـــدو أبيـــه، وحليـــف أخيـــه؛ أبي العبـــاس سلطـــان المرينييـــن: ((**فوفـــد عليـــه صريخـــاً؛ فتلقـــاه بالتكرمـــة وبـــر مقدمـــه، ووعـــده النصـــر عـــلى عـــدوِّه؛ وأقـــام عنـــده إلى حيـــن مهلـــك أبي تاشفيـــن**))[1]. هـــذه هي السياســـة المتبعـــة لـــدى معظـــم الحكومـــات في تلـــك المنطقـــة؛ الغـــرض منهـــا التضريـــب بيـــن أبنـــاء الأســـرة الحاكمـــة؛ إذ يحتفـــظ بأحدهـــم عـــلى سبيـــل الـــردع التهديـــد. وبالفعـــل؛ فقـــد جـــاءت

---

[1] العبر، مج: 7، ص: 757.

اللحظة التي غضب حينها أبو العباس على أبي تاشفين. فجهز جيشاً في سنة 795هـ/1392م وبعثه مع أبي زيان محمد للإطاحة بأبي تاشفين. غير أنهم عادوا من حيث أتوا؛ بعد أن وصلهم خبر وفاته بمرض مزمن. وكان وزير أبي تاشفين المدعو أحمد بن العز؛ قد نصب صبياً من أبناء أبي تاشفين؛ ينتمي إليه بخؤولة. نصبه ملكاً على تلمسان. ولما سمع بذلك يوسف بن الزابية؛ الذي كان واليا على الجزائر؛ انتفظ ساخطاً وجهز جيشاً؛ دخل به تلمسان وقتل الصبي ابن أخيه، وكافله الوزير أحمد بن العز. وكانت هذه الفعلة؛ مبعث خروج السلطان أبي العباس بنفسه لغزو تلمسان، والقضاء على يوسف بن الزابية. ولما وصل إلى تازي؛ حيث توقف الجيش المرافق لأبي زيان محمد. أمر بإرجاع هدا الأخير إلى فاس. ثم أمر ابنه أبو فارس بمواصلة تنفيذ مهمته، وامتلاك تلمسان. فتم له ذلك؛ إذ دخل أبو فارس إلى تلمسان؛ وأقام الدعوة لأبيه فيها. ثم بعث العساكر إلى مليانة والجزائر وتدلس إلى حدود بجاية فأمتكوها. وكعادة المرينيين؛ في سرعة عودتهم إلى فاس عندما تقع حادثة جليلة. ففي هذه المرة؛ وصل خبر وفاة أبي

العباس لابنه وهو في تلمسان؛ وذلك في سنة 796هـ/1393م؛ فبادر إلى العودة والالتحاق بفاس؛ لتولي السلطنة بدل أبيه. وبعد تربعه على العرش؛ أسند ولاية تلمسان إلى أبي زيان محمد المقيم عندهم؛ على أن يتكفل بالدعوة له. فرحل من فوره إليها؛ وتولى مهامه. غير أن أخاه يوسف بن الزابية؛ وقف له بالمرصاد؛ فعبأ بعض الأعراب وزحف بهم نحو تلمسان؛ ولكن أبا زيان سرب إليهم المال الوفير؛ فتخلوا عن أخيه؛ بل قبضوا عليه، وسلموه إلى أنصار أبي زيان؛ فقتلوه؛ بعد أن حاول بعض أنصاره انقاذه منهم.

ويبدو أن الخلاف دب بين الأمير أبي زيان محمد، والبلاط المريني؛ حيث جهز له سلطان فاس أبو سعيد جيشاً مرفوقاً بأخيه الأمير أبي محمد عبد الله بن أبي حمو؛ فاقتحموا عليه البلد وقتلوه؛ ثم نصبوا أخاه بدلاً منه. وذلك في سنة 801هـ/1398م. وبقي أخوه هذا في الحكم إلى سنة 804هـ/1401م؛ إلى أن سخطه سلطان فاس عثمان المريني؛ فبعث جيشاً بقيادة زيان بن عمر بن علي الوطاسي؛ فاعتقله، ووضع بدلاً منه أخوه أبو عبد الله محمد الشهير بابن خولة؛ فبقي إلى يوم وفاته سنة 813هـ/1411م.

وتولى الحكم بعده ابنه **عبد الرحمن بن محمد بن خولة.** ولكنه خلع بواسطة عمه السعيد بن أبي حمو؛ الذي أفلت من قبضة المرينيين، وعاد إلى تلمسان؛ أين قبض على عبد الرحمن وجلس على سرير الحكم في سنة 814هـ/1411م. ولكنه لم يهنأ بالحكم اكثر من خمسة أشهر؛ حيث زحف إليه من فاس أخوه أبو مالك عبد الواحد؛ فاحتل تلمسان؛ وتربع على عرشها.

وعلى يد أبي مالك هذا انتهى النفوذ المريني في المنطقة تماماً؛ فلم يتجرأ ملوك بني مرين بعدها على غزو تلمسان. بل أضحت فاس مهددة من قبل بني زيان وبني حفص: ((**حتى صار فيه نسيج وحده؛ لتناهي حزمه وجده. أخذ لأهل بيته من الغرب بثأرهم، وغزا ملوكهم في عقر دارهم، ووجه إليها جيوشاً جاسوا خلالها، وتفيأوا ظلالها؛ فاشتدت بذلك صولته، وامتدت له دولته**))[1].

***

[1] **تاريخ بن زيان ملوك تلمسان (نظم الدر)، ص: 236.**

الأشراف السعديون
في تلمسان

ولم تصدر بعد ذلك من مغرب الأقصى أي محاولة للزحف نحو **تلمسان**؛ إلاّ بعد 143 سنة؛ أي في سنة 957هـ/1550م؛ وفي عهد **الأشراف السعديين** بالضبط. وواضح أن جرثومة التوسع المرينية تحركت داخل السعديين. فقام سلطانهم **محمد المهدي السعدي** بغزو **تلمسان**؛ فدخلها في سنة 957هـ؛ بدون مقاومة تذكر. والسبب هو أنه جاهر بعدائه **للأتراك العثمانيين**؛ ثم أعلن عن نيته التوجه للجزائر؛ قصد احتلالها وطرد **الأتراك** منها. ولهذا؛ فقد قوبل بحفاوة وترحاب من قبل التلمسانيين. ولكنه لم ينجح في هدفه؛ إذ اصطدم بالجيش التركي بقيادة **حسن باشا**؛ بالقرب من **مستغانم**؛ وعلى ضفاف **وادي المالح** بالتحديد؛ فحلّت الهزيمة الشنعاء بالجيش المغربي؛ الذي تراجع مفلولاً؛ في انكسار شديد نحو حدود المغرب الأقصى. وبانهزام المغاربة؛ أكمل **حسن باشا** زحفه نحو **تلمسان**؛ أين دخلها بسلام

في السنة المذكورة؛ فقام بإزاحة السلطان **أبي زيان أحمد**، ثم نصب بدلاً منه مولاي **الحسن الزياني**.

ولم تكن هذه الخطوة من **السعديين**؛ آخر الخطوات ـ لملوك **المغرب الأقصى** ـ الهادفة لاحتلال **تلمسان**؛ بل جاءتهم فرصة أخرى؛ بعد احتلال **فرنسا** لمدينة **الجزائر**. حينها؛ استنجدت نخبة من علماء وأشراف المغرب الأوسط بسلطان المغرب الأقصى **مولاي عبد الرحمن بن هشام**؛ الذي بادر بإرسال ابن عمه المدعو **علي بن سليمان** بمفرزة من الجيش؛ استقر **بتلمسان**؛ ثم بعث جيشه شرقاً حتى وصل إلى **مليانة**. ولكن سفير **فرنسا بطنجة**؛ رفع سيف التهديد والوعيد على رأس ملك المغرب؛ وطلب منه سحب ابن عمه من المغرب الأوسط؛ وإلاّ فالحرب هي الفاصل والحكم. فخاف ملك المغرب العاقبة؛ وسحب جيشه وابن عمه؛ بعد أن أقام **بتلمسان** ستة أشهر تقريباً.

***

الأتـراك العثمانيـون

في تلمسـان:

أول اتصال للأتراك بتلمسان كان في سنة 923هـ/1517م؛ حينما وفد بعض التلمسانيين على **عروج**؛ مستصرخين إياه ضد الملك **أبي حمو الثالث**؛ الذي تحالف مع **الاسبانيين**، وخلع السلطان الشرعي **أبا زيان**. فدخل **عروج تلمسان** في السنة المذكورة؛ ونَصَّب **أبا زيان** بدلاً من **أبي حمو الثالث**؛ الذي فرّ إلى **وهران** في حماية **الإسبانيين**. ومن ثم؛ أضحت زيارات **الأتراك لتلمسان** تحدث تباعاً؛ كلما حدث خلاف بين السلاطين؛ أو بسبب اتصالاتهم **بالإسبانيين**. ويتم في كل مرة خلع سلطان، وتنصيب آخر؛ إلى أن قرر **صالح رايس** إزالة الدولة من **تلمسان** نهائياً؛ فقام بخلع آخر سلاطينها **مولاي الحسن** في سنة 962هـ/1554م.

وجملة القول؛ فقد همش **الأتراك تلمسان** نهائياً؛ وجعلوها في مرتبة أقل مما أنصفها به التاريخ. إذ أنهم اتخذوا من مدينة **الجزائر** عاصمة للمغرب

الأوسط. وحتى عندما اقتضى الحال إقامة عواصم جهوية؛ فقد تجنبوا **تلمسان** تماماً؛ إذ فضلوا عليها مدناً أخرى في الجهة الغربية.

***

الأمير عبد القادر
في تلمسان

دخلت **تلمسان** في طاعة الأمير عبد القادر طوعاً واختياراً؛ بعد انسحاب ابن عم ملك المغرب الأقصى[1]؛ خوفاً من فرنسا؛ وبعد أن أجمع أهل المغرب الأوسط على بيعة الأمير **عبد القادر**؛ الذي خلف والده **محيي الدين**. وعليه؛ فقد تولَّى قيادة حضرة **تلمسان** في وقته رجل يدعى **ابن نونة**؛ ولكنه تطاول بعد فترة إلى الاستبداد بالمدينة؛ فنقض العهد مع الأمير عبد القادر؛ الذي بعث إليه من يعظه ويثنيه عن غيِّه؛ ولكنه تمادى في عصيانه؛ بل خرج في قوة من وسط المدينة لمحاربة الأمير. وكان في مدينة **تلمسان** فئتان متخاصمتان؛ الأولى جماعة **ابن نونة** هذا؛ والثانية فئة من أنصاف **الأتراك** يسمون "**الكول أوغلي**" (الكراغلة)؛ يقودهم رجل يسمى **ابن عودة**. انتهز هذا الأخير؛ خروج

---

[1] **ملك المغرب الأقصى في هذه الفرة هو مولاي عبد الرحمن بن هشام؛ الذي حكم من 1238هـ/1822م إلى 1276هـ/1859م.**

خصمه **ابن نونة** من **تلمسان**؛ فأعلن تبعيته **للأمير عبد القادر**؛ وشنّها حرباً على أتباع **ابن نونة**؛ فاكتسح دور من كان يتبعه وأعلنها حربا عليهم؛ فنهبت أملاكهم، وشردت أهاليهم؛ ثم خرج إلى ابن نونه في ظاهر البلد؛ فألحق به وبأتباعه العصاة هزيمة منكرة؛ هرب إثرها **ابن نونة** إلى **العباد**؛ للإحتماء بضريح **أبي مدين شعيب**. ولما دخل **الأمير عبد القادر تلمسان**؛ توجه إلى **العباد**؛ فلقي **ابن نونة** متعلقاً بأستار ضريح أبي مدين؛ لائذاً به. وبما أن الأمير عبد القادر كان من الصوفية أتباع أبي مدين القادريين؛ فقد عفا عنه؛ بل أقره في قيادته؛ وأصلح بين الفئتين المتخاصمتين. ثم بقي في **تلمسان** فترة معتبرة؛ إلى أن أصلح أحوالها، ومهّد نواحيها. ثم قرَّر العودة إلى **معسكر**. وكان ذلك في ربيع الأول من سنة 1249هـ/1833م.[1]

ثم عاد **الأمير عبد القادر** إلى **تلمسان** بغرض تمهيد نواحيها؛ وإخضاع القبائل المتمردة في تلك الجهات. وذلك في ربيع الأول من سنة 1250هـ/1834م. وبقي في قلعة المشور مدة حتى

---

[1] أنظر هذه التفاصيل في كتاب تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص ص: 169 - 170.

استكمل ما جاء إليه من تقليم أظافر العصاة، وتأهيل من أطاع واستسلم، وتنظيم الإدارة المحلية في **تلمسان** وأحوازها: ((**وفي أثناء ذلك؛ ظهر قصورٌ من قائد طائفة "الكول أوغلان"؛ فعزله، وولى مصطفى باي بن الباي "المقلج"**))[1]. ولما انتهى الأمير من تمهيد النواحي الغربية؛ عاد من **تلمسان** إلى **معسكر**؛ بعد أن ولّى على مقاطعة الغرب "**محمد البوحميدي الولهاصي**". وبقيت **تلمسان** في طاعة الأمير؛ إلى أن تحول عنه المدعو **مصطفى بن إسماعيل**؛ و"الكول أوغلي"، ونقضوا عهدهم معه؛ وانضم إليهما **عرب أنكاد**؛ الذين وفدوا ونزلوا **بالمنصورة**. فناجزهم الأمير القتال؛ فانهزموا؛ ودخلوا **تلمسان**؛ متحصنين بقلعة **المشور**. فأقام الأمير **عبد القادر** عليها حصاراً شديداً. فما كان من **ابن إسماعيل** إلاّ الاستنجاد بابن أخيه المدعو **المازري** حليف **الفرنسيين بوهران**؛ طالباً عونهم. فقام بالدَّور أحسن قيام.

ولما علم الأمير **عبد القادر** بنيَّة **الماريشال كلوزال** غزو **تلمسان**؛ استعدّ للقاء، وحشد ما أمكن

---

[1] **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص: 216.**

مـن عـدة وعـدد. وكـان اللقـاء حامياً في شـوال مـن سنـة 1252هـ/1837م؛ ولـم يتخلـص **كلـوزال** مـن براثـن تلـك المعركـة في ظاهـر **تلمسـان** إلاّ بعـد أن خـرج منهـا المخالفـون أتبـاع **مصطـفى بـن إسماعيـل** و"**الكـول أوغـلي**"؛ فقاتلـوا الأميـر في صـف المريشـال الفرنـسي؛ وأدخلـوه المدينـة معهـم؛ فاحتلهـا بجيوشـه: ((**ولمـا تمكـن كلـوزال مـن زمـام البلـد؛ وضـع ضريبـة باهظـة عـلى أوليائـه؛ مثـل: الكـول أوغـلي، وابـن إسماعيـل، ومـن معـه مـن قومـه؛ ليسـد نفقـات تلـك الحملـة؛ الـتي ارتكبهـا مـن غيـر إذن دولتـه. فانتـدب لجمعهـا رئيـس الكـول أوغـلي "مصطـفى بـن المقلـش"؛ فألـح فيهـا عـلى قومـه؛ حـتى أن الرجـل يبيـع ملبوسـه وفراشـه، ويـؤدي مـا افتـرض عليـه؛ وأن المـرأة تبيـع مصاغهـا وثيابهـا، وتدفـع عـن نفسهـا مـا افترضـوه عليهـا. وشـاع خبـر هـذه الضريبـة في النـواحي؛ فنفـرت قلـوب النـاس مـن الفرنسيـس؛ لسـوء تصرفاتهـم**))[1].

وعـاد **المرشـال الفرنـسي** إلى **وهـران**؛ في رحلـة شاقـة، ومكلفـة. وكـان قـد تـرك في **تلمسـان** حاميـة بقيـادة ضابـط يسـمى "**كافنيـاك**". بينمـا ردد الأميـر عبـد

---

[1] **تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر، ج: 1، ص: 255.**

القــادر ــ الــذي استقــر **بندرومــة** ــ عمليــات الحصــار عــلى **تلمســان**؛ حــتى أنهــك العــدو، وضيَّــق عليــه سبــل الاتصــال والامــداد. وظــلَّ الحــال هكــذا؛ إلى أن عقــد صلحــاً مــع الجنــرال **بيجــو**؛ حيــث كــان خــروج **الفرنسييــن** مــن **تلمســان** أحــد بنــوده. وبالفعــل؛ أمــر الجنــرال **بيجــو** قائــد الحاميــة الفرنسيــة **كافنيــاك**؛ التخــلي عــن **تلمســان**، والخــروج منهــا. بعــد أن يسلمهــا إلى نائــب الأميــر عبــد القــادر. وبهــذا دخــل إلى المدينــة خليفــة الأميــر السيــد **محمــد البوحميــدي**؛ وذلــك في ربيــع الأول مــن عــام 1254هـ/1838م.

***

وبدخــول **الأميــر عبــد القــادر** إلى **تلمســان**؛ قــال هــذه القصيــدة تمجيــداً لهــذه المدينــة الأزليــة الرائعــة:

إلى الصَّــوْنِ مَدَّتْ تِلِمْســانُ يَدَهــا
ولَبَّــتْ فَهَذَا حُسْــنُ صَوْتِ نِدَاهَــا
وقَدْ رَفَعَــتْ عَنْها الإزارَ فَلُــجَّ بِــهِ
وبَــرِّدْ فُــؤاداً مِــنْ زُلاَلِ نَدَاهَــا

وذا رَوْضُ خَدَّيْهـــا تَفَتَّـــقَ نَـــوْرُهُ

فَلاَ تَرْضَ مِنْ زَاهي الرِّياضِ عَدَاهَا

ويَا طَالَمَـــا صَانَتْ نِقَـــابَ جَمَالِهـــا

عُـــدَاةً وَهُـــمْ بيـــن الأنـــامِ عِداهـــا

وكَمْ رَائمٍ رَامَ الجَمَـــالَ الذِي تَـــرَى

فَـــأَوْرَدَهُ مِنْهـــا لَحْظُهـــا ومُداهـــا

وَحَاولَ لَثْـــمَ الخَالِ مِنْ وَرْدِ خَدِّهـــا

فَضَنَّـــتْ بِمَا يَبْـــغِي وَشَـــطَّ مَدَاهـــا

وكَمْ خَاطِبٍ لَمْ يُدْعَ كُفْئـــاً لَها ولَـــمْ

يَسِمْ طَرَفـــاً مِنْ وَشْيِ ذَيْلِ رِداهـــا

وَآخَـــرَ لَمْ يَعْقِـــدْ عَلَيْهَـــا بعِصْمَـــةٍ

ومَا مَسَّهَـــا مَسّـــاً أبَـــانَ رِضَاهـــا

ولَمْ تَسْمَـــحِ العَـــذْرَا إلَيْـــهِ بِعَطْفَـــةٍ

ولَـــمْ يَتَمَكَّـــنْ مِـــنْ جَميـــلِ سَنَاهـــا

وَشَدَّتْ نِطَاقَ الصَّدِّ؛ صَوْناً لِحُسْنِهَـــا

فَلَـــمْ يَتَمَتَّـــعْ مِـــنْ لَذِيـــذِ لَمَاهـــا

وَأَبْدَتْ لَهُ مَكْـــراً وَصَـــدّاً وَجَفْـــوَةً

وَسَـــدَّتْ عَلَيْـــهِ مَا نَـــوَى بِنَوَاهـــا

وَخَابَتْ ظُنُـــونُ المُفْسِدِينَ بِسَعْيِهِـــم

ولَمْ تَنَـــلِ الأَعْـــدَاءُ هُنَـــاكَ مُنَاهَـــا

قَدِ انْفصَمَـــتْ مِنْ تِلِمْسَـــانَ حِبَالُهَـــا

وَبَانَـــتْ وَآلَـــتْ لاَ يَحُـــلَّ عُرَاهـــا

سِوَى صَاحِبِ الإِقْدَامِ في الرَّأْيِ وَالوَغَى

وَذِي الغَيرَةِ الحَامِي حُمَـــاةَ حِمَاهـــا

ولَمَّا عَلِمْـــتُ الصِّـــدْقَ مِنْهَا بِأَنَّهـــا

أَنَالَتْـــنِيَ الكُـــرْسِيَ وَحُزْتُ عُلاَهـــا

ولَمْ أَعْلَمَنْ في القُطْرِ غَيْرِيَ كَافِـــلاً

وَلاَ عَارِفـــاً في حَقِّهَـــا وَبَهَاهـــا

فَبَادَرْتُ حَزْماً وَانْتِصَـــاراً بِهِمَّـــتِي

وَأَمْهَرْتُهَـــا حُبّـــاً شِفَـــاءَ دَوَاهـــا

فَكُنْـــتُ لَهَا بَعْـــلاً وكَانَتْ حَلِيلَـــتِي

وَعِـــرْسِي وَمُلْكِي نَاشِـــراً لِلِوَاهَـــا

وَوَشَّحْتُهَا ثَوْبـــاً مِنَ العِـــزِّ رَافِـــلاً

فَقَامَـــتْ بِإِعْجَـــابٍ تَجُـــرُّ رِدَاهَـــا

وَنَادَتْ أَعَبْـــدَ القَـــادِرِ المُنْقِذِ الـــذِي

فَـــزِدْنِي أَيَا عِـــزَّ الجَزَائِـــرِ جَاهـــا

وَوَهْرَان وَالمَرْسَاةُ كُلاً بِمَنْ حَـــوَتْ

غَـــدَتْ حَائِزَاتٍ مِنْ حِمَـــاكَ مناَهَـــا

ظلت **تلمسان** في يد الأمير عبد القادر؛ إلى أن هاجمها الجنرال **بيجو**؛ إثر نكثه للمعاهدة التي كانت بينه وبين الأمير؛ وذلك في 15 ذي الحجة من سنة 1257هـ/1842م. لقد كان الجيش الفرنسي من القوة؛ بحيث تتعذر أي محاولة لمواجهته في تلك اللحظة؛ لذا؛ فقد أمر الأمير السكان بإخلاء المدينة. ثم رحل إلى نواحي **ندرومة**؛ يترصد فيها الفرصة المناسبة للإنقضاض على **الفرنسيين**. ولمَّا تعذر عليه ذلك؛ اتجه لجهات أخرى برسم الجهاد، والدفاع عن المغرب الأوسط؛ المهدد بكامله من قبل **الفرنسيين**. وبذلك بقيت **تلمسان** في يد **الفرنسيين** إلى يوم الإستقلال العظيم 1662م.

***

فهـرس الموضوعـات

(جزء 1)